خالد أخازي

عشق في زمن الغضب

رواية

أخازي، خالد

عشق في زمن الغضب / خالد أخازي

روافد للنشر والتوزيع. 2018 طبعة أولى، القاهرة

460 ص ؛ 22 سم

1–رواية 2–العنوان أ – المؤلف

رقم التصنيف: 813 .008

رقم الإيداع: **2017/ 29009**

الترقيم الدولي **I.S.B.N.: 978-977- 751 -377 -7**

جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع

تليفون +2 01222235071

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف:

"لا يمكن للقلم أن يكون أقوى من السيف إلا إذا كان العقل الذي وراءه يعرف جيدا كيف يستخدم كل كلمة بمهارة شديدة."

توني بوزان

"قد لا يكون الشر دائما بالعنف ، قد يكون الشر من خلال إعجابنا بذلك العنف"

جيم موريسون

1

يلف ضباب كثيف غارق في الالتباس والوحشة مدينة الدار البيضاء القلقة، المتشظية الهوية والأحلام، فيسكن أفق الرؤية ومد البصر، وحده الآن هذا الزائر الرطب الثقيل يتسيد ويسود مغريا الفضاءات الخاملة بامتلاء بارد أعمى، وصمت الرمق الأخير من الليل عباءته، ضباب مسافر من ملح البحر وزبد الموج، يرغم المدينة الشاحبة على الاغتسال من فيض الارتجال وعتمة المتاهات.. وحين يختفي لا تتبدد معه التعاسة التي زرعها في الصدور الحزينة أصلا ولا العتمة التي خلفها في القلوب، بل يفسح الطريق في غرور وغطرسة لسحابات شهر "إبريل الخجول" المتقطر في زخاته والشحيح في بلله العابر اللذين لا يكفيان كفاية المرتوي، لغسل الضغائن الدفينة الغائرة بين الضلوع والشقوق، التي خصبها وأينعها ضيق اليد وشظف الحياة، فنمت كلبلاب طفيلي متسلقة جدار وسقف الروح، فما أقسى قلوب الناس حين تخاصم السماء الأرض..! وما أتعس الوجوه العابسة التي تغدو متناغمة وجدب الأرض، متحدة وعطش التراب الجريح..!

من يدري؟ قد تمطر السماء اليوم فيصدق المنجمون الجدد وتزيد ثقتهم في أدواتهم قوة، ويحالفهم الحظ فتزكي التوقعات المحتشمة والتنبؤات الحذرة، وإن كان هذا السحاب العابر الطائش، في خرائط الانتظار القاتل المؤلم، عادة ما يئد بصيص ضوء التفاؤل في القلوب، ويحبط الحلم الكامن في الصدور، مكتفيا فقط بنفي الضياء بعيدا في إحدى قلاع النسيان، ولا يعيد للأرض بهجة التجدد الموسمي، ولا رعشة التلاقح الأبدي، لهذا صرت أرجو تبدده وعبوره السريع، لأنه

وهم محبط للآمال ومجرد ظلمة ماكرة تستعير بدهاء وجه الحياة، لتنشر السراب والأمل الكاذب ثم تخلف وراءها التعاسة والحسرة في الثرى والعيون.

وجه الأرض تشقق ظمأ وييسا واغبر جفافا وقيظا، يهفو في وجوم ورجاء وشوق وعزاء إلى الغيوم الممتلئة العطوف، غير أن هذه السحاب الخفيف عقيم، مسافر دوما في خفة وعجلة لا يخلف غي الخيبة والحسرة في صدر الطبيعة التي صارت كثديي مرضع نضب ماء الحياة فيهما قبل الفطام.

كثيرا ما استرعى انتباه أمي هذا التحول في أثداء السماء وهذا الاضطراب في الأنباء، فيهيمن على روعها عجب الحائر المتحير من ريح عهدتها بشارة خالدة لنهاية زمن الجفاء وهل المطر باشتداد انصبابه وهطله، فصارت نعيا للحياة والآمال، ويعصف بذهنها استغراب المتحسر من هبوب تبدل ولم يعد يسحب في رفق غيم الحياة بل يأتي بلا لقاح ولا وصال، عاصفا في غضب بالشجر والعمران، فقول في حسرة وقلق وقد شغلها لحد الهوس خصي فحولة الطبيعة "يا حسرتاه.. على الزمن الماضي..! يا ولدي..! ربيع زمانكم صار صيفا..وشتاؤكم صار خريفا.. صيفكم صار هجينا.. أو جحيما.. كيف يحرث الناس ويبذرون ثم يحصدون وقد اختل الميزان..؟ لم نعد ندري أوان القربان.. لسادتنا الأولياء الصالحين.. ربما أنتم الذين تغيرتم.. فضللتم طرق الله"

أمي نخلة رحلها ترحيل المستبد القدر قسرا وقهرا في نفي نازف يقتلع الكائن من الجذور والعروق التي تسقي وجوده المتفرد، من واحة الحلم بالجنوب الساحر للبلد إلى مدينة الغسق بالغرب الساحلي العابث

والقدر "الدار البيضاء". كثيرا ما تملكني فضول الطفل في صغري، فأسأل عن الأصول والفروع، فتكتفي والدمع ساخن رقراق بالقول الساحر في حرقة وألم "كنت وحيدة والدين أنجبا على كبر، لا أرض لهما ولا شجر، لا حجر لهما ولا بذر، وكانت حرفة جدك لقاح النخيل.. تلك كانت مهنته إلى أن هوى من عل فمات ميتة الغريب واختفى.. جدتك ترملت فافتقرت وغدت تعجن خبز الغير، وتكنس حظائرهم، وتغسل ماعونهم إلى أن تسلل إلى صدرها غادرا سرطان الثدي، فاقتات شرها من اللحم والعظم ثم أخذ ما تبقى من الجسد الشبح إلى ظلمة القبر.. فتكفلت أسرة مشفقة من ريف الرحامنة بتربيتي وعمري آنذاك سبع سنين.. ودام الحال على سكته حينا.. فدوام الحال من المحال.. إلى أن التقيت أباك فكان ذاك وجه آخر للقدر.. أنت مثلي بلا خؤولة ولا عمومة.. "مقطوع من شجر".. وحدك.. حقق ذاتك وصر كشجرة صنوبر.." وحين أسأل عن الأب في شوق الصبا المبكر.. ذاك الأب الذي لم تر قط عيناي له وجها ولا ظلا في صورة تذكر.. تقول وحزنها نار وانهيار "أبوك.. يا حسرتاه! ضاع مني في جلبة الحياة.. خرج ذات فجر ولم يعد.. كنت ما زلت لحما طريا في خرق.. لو سألتني لماذا..؟ أقول لك.. رحل ومعه الجواب والأسباب وما ترك غير حيرة وعوز"

لذت بالصمت الأبدي عن مثل هذه الأسئلة التي تحرجها وتشعل في صدرها نارا ملتهبة.. تفاديت منذ زمن بعيد أن يكون فضولي أصابع طائشة تقلب في الماضي فتفجر الحزن والخيبة.

هكذا هي أمي في فيضها الفطري حكمة لم يصقلها غير كتاب في قرية نائية، عواطفها نقية لكن جامحة والعبارات.. عباراتها فائرة قوية والعبرات.. حكمة تمتحها في بضع كلمات كسجع متدفق.. سلس من صدر عراف في لأمي الحكمة العميقة الفطرة الصافية المنبع والمصب، القاهرة لليأس والضجر، بقناعة المكتفي ورجاء المرتجي، حكمة لا يعكرها سوى ألم عميق وغريب يسكن عينيها كلما حدقت في وجهي طويلا، لست أدري ما الذي يؤلمها لحد حاجتها إلى مزيد من الهواء شهيقا وزفيرا، عبثا أحاول أن أثنيها عن أساطيرها التي صارت لديها حقائق لا تحتاج إلى برهان، كنت أقول لها دائما في أدب لا يصل درجة التجريح "يا أمي..! الذبح لله وحده فقط.. وهذا شرك" وكانت العزيزة تضحك حتى تبدو نواجذها وتربت على كتفي وتقول في رحمة وشفقة "يا ولدي..! علمكم لم ينفعكم.. الذبيحة للولي الصالح المقرب من العلي العالي.. المقرب عند الرحمان الرحيم.. ليرحم الله عباده و"بهيمته" بالتوسل به" كانت تفحمني بأساطيرها الجميلة التي قد تبدو هرطقة ولكنها في العمق مظهر من ملة صافية، موحدة في العمق.. وبهذا الرد المختصر لمؤمنة بسيطة بلا زخرف كلام ولا حشو بيان، كانت تربك الحجة وتؤسس لليقين لديها بلا أدنى ريبة.

والحقيقة تعلمها أمي، وإن كانت تعوزها ملكة فرز التفاصيل المهمة من زخم الأفكار، فهي تقول كل شيء من أجل معنى دقيق علي فرزه من زحمة العبارات المتدفقة، معا نتفق أن المواسم والفصول تغيرت فضلت المواسم عن مواعدها المعتادة، وجاءت مبكرة أو متأخرة، تربك حياة البوادي والقرى، وتنشر اليأس في المدن والحواضر.

تكشف أمي حين تحن إلى فيض الحياة عما تكابده وأفهم من ثنايا قولها أن الحياة اختلت فتقاربت المواسم ثم تشابكت حتى تغذت على زمن بعضها البعض، واختلطت على الناس المواقيت والمواعيد، فخاب انتظار الفلاحين في أن يستوي ميزان الطبيعة يوما ما، وتداوي نفسها بنفسها كما عهدوا فيها، وأن تصحح الخلل بأدواتها كما خبروا..لكن الخلل تفاقم والطبيعة عاجزة عن علاج سقمها، وترميم شروخها وتصدعاتها، ففقدوا بوصلة أبراجهم و"منازل" الغيث والرياح، فضعفت عندهم ملكة التنبؤ، فضلوا عن عاداتهم وشعائر مواسمهم، وتاهت هي عنهم حتى كادوا ينسونها فتصير حكايات وأساطير من زمن مضى..

أمي وأنا ندرك معا أنه منذ زمن سحيق..عقد الناس اتفاقا مع الطبيعة.. اتفاقا.. اختلطت فيه روح وثنية قديمة تقدس وتوقر الطبيعة وبقايا عبادات بائدة، تشهد عليها أشكال الطقوس الموسمية الصامدة كالخروج للاستسقاء وطلب المطر حين يتأخر الهطول، واليأس يعصر القلوب، فتجوب حشود القرويين بنسائهم وأطفالهم الأزقة والدروب وعروس "تاغوزنجا" دمية عملاقة مزينة بباقات النعناع والحبق والزعتر منتصبة على قصبة تتأرجح بين الأيادي في ثوبها الأخضر ووشاحها الأحمر عاليا، والحناجر تصدح عاليا ""تاغونجا"..."تاغونجا"..يا ربي تعطينا الشتا".. لم أعرف أبدا معنى "تاغونجا" هذه في بلدي والتي كانوا يجسدونها دمية عملاقة لامرأة بوشاح ومنديل وقفطان، لكني أرجح أنها آلهة وثنية قديمة للمطر.. كانوا يعرفون الطبيعة في توجعها ومخاضها..في غضبها وانشراحها.. كان بينهما.. البشر والطبيعة.. اتفاقا مقدسا.. وكانت تنبؤاتهم تأتي واضحة كالفلق، ليس من وحي يوحى ولا من

شطحات منجم ولا سجع كاهن.. ولا علم عالم مفوه.. بل من خبرة خبروها تراكما وتواترا، في تناغم مع الكون.. لم يخرقوا هذا التناغم..حتى وقع ما وقع.. فاختل الميزان..

حكمة أمي الفطرية المنبع والمصب تكشف كشف المتصوف العاشق في لحظات الفيض الأمومي الغامر أن الناس كانوا يقيمون لكل ميقات نشاطا وعرفا، وأنهم ما زالوا على عهدهم مع الطبيعة والسماء، لكنهم لم يفطنوا بعد إلى هذا التحول الطارئ في مواعيدها المألوفة، ولم ينتبهوا إلى تبدل مواسم هبوب الرياح، واضطراب الفصول، حتى اختلطت عليهم الأمور، ولم يعرفوا بعد كيف يجعلون لأنشطتهم الفلاحية ولأعرافهم ومراسيمهم مواقيت مناسبة لهذا التحول..تقول أمي عبارتها الحكيمة "يا ولدي! الناس تخاف من التغيير، فإن لمسوه جحدوه أو أنكروه.. وإن داهمهم عاتيا، تلهو عنه بالماضي" أي عقل هذا في بساطة الإنسانية غير المعقدة يختزل فلسفة كونية في بضع جمل!؟ ذاك عقل أمي حين يعلمني الحياة بالحياة.

لأمي حكمة البدايات ونعمة النهايات، لأمي خشوع المؤمنات ووصبر المجاهدات وبين هذا وذاك تشيخ هي ولا يشيخ عندها اليقين ولا ينضب نبع حكمتها، تشيخ ولا يشيخ ذاك الحزن الذي يسكن نظراتها.. حزن لا أعرف سببه ولا مصدره كلما حدقت في وجهي طويلا، أحيانا كأنها تعيد رسم ملامحي في عقلها من جديد، حزن جارف.. غريب.. مفاجئ.. تضيق له الأنفاس في صدرها.. وطالما تساءلت في صمت المتحير ترى ما الذي يحزن هذه القديسة في مدنها الداخلية؟

ويعلن الفجر في كبرياء زمن رحلة الشمس اليومية من مشرق في مخاض إلى مغرب في احتضار على مدينة الدار البيضاء المثقلة بقيء الليل الثمل، وشغب العتمة الغارقة في يم الخطيئة، وشهر إبريل خجول لكنه غادر.. متقلب المزاج، لا يستقر على حال ولا يسمح بتوقع المآل، يغريك ببهلوانيات طيور السنونو ثم يفجع القلوب بريح حارة شرقية مباغتة.. خانقة للبهجة.. في خرق محبط للانتظارات، ريح تربك الحركة فتضيق لها الصدور حد الاختناق .

شمس هذا الشهر الهجين، كصبي يحبو يسكنه الرجاء الجميل في خطوته الأولى نحو وجه أمه، بإصرار تشق طريقا بين السحب من أجل أن تجد لأصابعها الدافئة معبرا نحو الأرض، يسمح بمداعبة الكائنات والأشياء.. ولاسيما أجساد المتشردين والتائهين في أزقة وشوارع المدينة القاسية والتي لا ترحم من لا مأوى له يستر ضعفه وألمه.

على الأرصفة، وبين الدروب الغارقة في التيه والتناقضات المعمارية والاجتماعية، تمر نساء وفتيات.. تنوء أكتفاهن بوزر غير محدد وغير مرئي لا تلمحه العيون وإنما تستجليه في العيون والخطوات والملامح وتعابير الوجوه الحزينة.. مرهقات.. متعبات.. مطرقات الجباه، ليس من حياء ولا خجل، بل خافضات الرؤوس من قلق يتملكهن وتعاسة تهيمن على أيامهن، تكاد تظنهن عجائز من الكمد وبعضهن في أوج العنفوان.. يملأن الطرقات زرافات وفرادى.. ينتشرن في مواكب أقرب إلى الجنازات، يقصدن المصانع ومعامل النسيج وورشات الخياطة.. يمتهن مهنا بسيطة في ظروف قاسية، وقلة من الرجال بينهن.. لا يقلون عنهن تعاسة، تعكسها ملامح حزينة، وخطى متثاقلة واهنة..

ألمح مجموعات من النساء يتوافدن نحو محطات النقل، كأنهن في مأتم رهيب مثقل بالأحزان، كسحابات سوداء يمرقن في الأزقة والدروب، أكثرهن قلما يعتنين بزينتهن وأناقتهن.. تهندمن بأزياء بسيطة، لا تغري العيون.. بجلابيب باهتة تحبط الفضول، وفساتين وعباءات فضفاضة تبدد شبح الغواية، غطت أكثرهن الرؤوس بالمناديل، فلا وقت لهن للعناية بالشعر.. ولا وقت لهن ولا مزاج للاعتناء بالهندام..

تصلني من حين لآخر أحاديث خافتة حد الهمهمة لهذه الكائنات المنهكة، ويعزز كآبة المشهد فجأة ظلام خفيف زحف يغطى الأجواء.. أتفقد الشمس.. ألمحها بصعوبة، قد توارت وراء أشلاء الغيم..فيسري فتور جامح في عروقي، ثم يحلق عقلي نحو منطقة زمنية معزولة.. رمادية.. طالما تشعرني بالكآبة... كآبة تغذيها تعاسة الوجوه العابرة، وكسل الأجساد الواهنة، وأفعال الناس وحركاتهم الكسولة التي تصير متباطئة، تعوزها الحماسة والحرارة.. فأكثر العابرين والعابرات أخرجوا قهرا من أسرتهم هذه الساعة، فلا عملهم يغريهم ويمتعهم، ولا الأجور الهزيلة تحفزهم وتكفيهم، بل هم هنا يوميا مجبرون على تكرار الوضع المعذب نفسه يوميا.. مشهد يومي يئد المتعة في نفسي ويحفر للرتابة شقوق الأسى على جدار مناعتي النفسية.

نوارس في أسراب متفرقة تحلق في السماء، تزيد من غربة ووحشة هذا الصباح فتصدر أصواتا حادة قوية كأنها تخبر الغريب عن وجود مرسى قريبة.. هنا على بعد بضعة كيلومترات، بمراكبها وبواخرها، وصياديها وبحارتها وملاحيها ودلاليها وزبائنها ومتشرديها.. أجمع من

ذاكرتي البعيدة شتات فضاءاتها وأركب تفاصيلها جزءا جزءا، فتحضرني غامرة، مشاهد مفعمة بالحياة والحبور من طفولتي البعيدة.

حقا.. لا شيء يندثر.. وما يلتهب في ذاكرتي الآن قويا ومنتعشا بدفء الحاضر، يرشح بعبق الذكريات العميقة، دليل على أن ما نظنه يمضي ويتبدد.. يختفي فقط.. متربصا.. متحينا الفرصة، منتظرا دوره في مسار حياتنا، ليعود في نسخة معدلة حلما أو صورا متفرقة يقظة، فقط يحتاج إلى حافز أو يد القدر الماكرة لتمسح عنه غبار النسيان، وتمده بتأشيرة العبور إلى الوجود من جديد في صخب الأيام.. لا شيء مصيره العدم.. أشياء كثيرة تعود إلى الوجود في أشكال مغايرة، كأن ذكرياتنا تتقن وظيفة التلاؤم الماكر أو الاختفاء الغريب وراء أشكال جديدة، حتى لا تصدمنا فتعود في عباءة المرحلة، إلا الخوف فهو غريزي.. وحشي.. يلبس لبوس الأساطير ويعلن عن نفسه بدائيا.. أسطوريا..

رائحة المرسى كانت كافية، لتقليب طبقات طفولتي قلبا مغريا يعبث أشد العبث بالترسبات، مضى زمن طويل لم أطأ فيه رصيفها الصيدي، الذي خلفت فيه جزءا من طفولتي وشغبي ووهجي.. كم كان حينذاك العالم بسيطا غير مزيف ولا مكلفا! نلبس ما نجد، أكثر أيامنا ننتعل الصندل البلاستيكي، لا تغرينا العلامات التجارية ولا تهمنا الأسماء والصيحات، نأكل حين نجوع ما توفر، ونشرب حتى نرتوي أغلب أيامنا من ماء ساقية عمومية قرب جامع الحمراء بالمدينة القديمة، ألعابنا كحياتنا غير مكلفة ولا معقدة.. كأحلامنا.. يشارك فيها الكل بلا ميز ولا فرز اجتماعي.. الموهوب والعادي والمعاق والسوي.. القوي

والضعيف.. الغني والفقير، الكل يحتكم إلى قانون اللعبة، الكل منضبط، وحين تخرق القوانين، لا يهم من أنت.. ولا من أبوك .. قد تندلع الشجارات، ولا صف غير صف الحق..ولا حكم إلا قانون اللعبة.. الذي يحسم الخلافات ويعيد ترتيب الأمور وتذويب الأناوات.. ألعاب بسيطة لكنها مرتبة زمنيا بشكل عجيب ومنتظمة حسب المواسم، كل موسم له لعبته وألعابه، أما المرسى فقد كانت أمنا الطيبة الكريمة حيث كنا قادرين على العيش معا دون خلافات كبرى.. جزء زمننا الطري تختزنه أرصفتها ومخازنها ومراكبها المتهالكة.. لقربها من أحيائنا ولعطائها الوفير، صارت هي الحياة.. مبخسة في أعيننا بعطائها وجودها وحنوها كل الفضاءات الباقية مهما اشتد إغراؤها لنا باللهو واللعب..

تمتد مرسى الدار البيضاء على الخط الساحلي للمدينة، بأرصفة تجارية وأخرى للصيد البحري، موزعة على عدة أبواب مرقمة حسب النشاط، تبدو من أعلى الأسوار المشيدة منذ حقب سحيقة من الطين المضغوط في كتل كبيرة قرنفلية.. بهية.. مغرية.. طيبة كمرضع للجميع، بأبوابها السحرية حسب جهة الوافدين، كباب مراكش.

تنهض القلعة القديمة "الصقالة" العالية بأبراج مراقبة مطلة على الساحل، متحدية الزمن وعبث الدهر تراقب البحر كإلاه يوناني خرج توا من أسطورة غابرة، ومازالت مدافعها الثقيلة الصلبة، الحديدية بفوهاتها المشرئبة الأعناق نحو الأفق شاهدة على أن الخطر المحدق كان دوما يأتي من البحر في شكل حملات موسمية لغزاة يظهرون فجأة دون سابق إنذار قادمين من شبه الجزيرة الأيبيرية عبر أساطيل تجوب وتمخر

عباب البحر كصقور مشرعة أجنحتها في السماء..كاسرة.. ضارية متربصة بأراضي تغدو طريدتها المفضلة.

كانت بيوتنا موزعة بين العتيقة المتهالكة، والحديثة التي خلفها الاحتلال الفرنسي وأخرى بعمارة وهندسة تليدة، شاهدة على قرون بعيدة، فيها لمسة أندلسية.. برتغالية وإسبانية.. كانت دورنا منتصبة ملتصقة متجاورة مشتركة الجدران الفاصلة على جنبات الأزقة المتشابكة، حيث تنتشر روائح جميلة، يختلط فيها شذى العطارة من توابل وورود مجففة، وماء زهر، وأبخرة طيبة ورائحة السمك المقلي والمشوي التي تحفز الشهية، في أسواق المطاعم الشعبية، حيث تتجاور تجارة التحف والزرابي واللوحات الفنية إلى جانب المطاعم والمقاهي دون نشاز ولا نفور.

كم كان المرفأ قادرا على احتوائنا جميعا.. إطعامنا بلا طابور ولا حساب.. بلا نقمة ولا حسدها! أنا ذا! كالمسحور مأخوذ بخدر وفتنة الطفولة المشاغبة.. كنا صغارا نحطب من متلاشيات المراكب المتهالكة، خشبا ومشبعا بالملوحة وزيوت المحركات، فنجمع ألواحا نهشمها قطعا صغيرة، لنوقد نارا لإنضاج السمك شيا.. ثم نتحلق حولها ونحكي الحكايات ومغامراتنا.. صدى الضحكات البريئة مازال طريا في عقلي، كم أنا مشتاق إلى تلك الضحكات البريئة! لا أذكر متى براءتي تلطخت بحمأة الدنيا، وصفائي بهوس الحياة.

لم نكن أبدا وحدنا أطفال المدينة القديمة، بل كان بيننا المتسولون والمتشردون يرتعون في نعيم بقايا وعطايا مراكب الصيد، ويتخذون المتهالكة منها مسكنا، ولم نكن نحتاج إلى التفكير في طريقة عبقرية

لاقتسام ما نضج.. كنا نأكل جميعا.. بلا تدافع ولا ضجيج.. كيف كنا نفعل ذلك؟ لا أدري.. ربما لأننا كنا عفويين.. روضت أنانيتنا وفرة الطعام.. بلا ترتيب مسبق.. كنا نأكل لحد التخمة.. ونعود لنتفرق في أرجاء وفضاءات المرسى، منا من يساعد البحارة في غسل الصناديق والعنابر، ومنا من يتحول إلى حمال، يمد يد العون لشيوخ البحر، ومنا من ينظف أحشاء السمك للزبائن، ومنا من يكتفي بالعوم إن كان الجو مصيفا..

لا زالت روائح البحر وزيوت المحركات عالقة بذاكرة الروائح الساحرة، ومازال سجال البحارة وصياح الدلالين يخترقان ذاكرتي، محفزين الطفولة البعيدة على استحضار كل المشاهد الغابرة بدءا من أول مهنة احترفتها، كمنظف لأحشاء الأسماك وغسل عنابر مراكب الصيد مقابل نصف حصة من حصص البحارة من صيدهم اليومي.. آه..! لولا رائحة الأدخنة السوداء السامة الخانقة التي غطت على كل الروائح الجميلة لانتعشت الأجساد والأفئدة كأيام زمان، وأنعشنا البحر كأيام طفولتي بروائحه المغرية، المعقبة بالملح و"اليود" ومتلاشيات المراكب المتهالكة.. كل شيء تغير.. لكن.. نحو المزيد من الغربة والقسوة والجشع.. فانفرط عقد الجوار والإخاء.. في أحيائنا الجديدة التي غدت بلا نكهة ولا متعة.

أكاد أجزم وسط هذا الفيض الطفولي، والارتياح الغريب، بين أنقاض زمن مضى، أن الشمس ستخرج منتصرة وتفرض يومها قوية مبددة عتمة السحاب العقيم.. تناوب الضوء والعتمة، يوحي بأن الشمس هذا اليوم ستعلن فصلها وزمنها الربيعيين المؤجلين، رغم أنني لم

أعد قادرا على تمييز الفصول وترتيب ملابسي حسب المواسم.. غرني هذا الصباح انجلاء السحب فجأة، بتدهور كتلتها وتبددها أشلاء وخرقا في تضاريس السماء..

صفاء أزرق على غرة، طرد تلك الرقع التي اصطبغت بألوان متتابعة رويدا رويدا.. من الرمادي إلى الأزرق الداكن ثم غدت بيضاء كالعهن.. فاندثرت.. دفء أشعة الشمس لامس بحنو القلوب كأصابع أم على جبهة رضيع، فأنعش روحي حين سرى سريانا في جسدي كخيط ماء، يغمرني في كرم انتعاشة دافئة، فتتبدد ترسبات الثمالة والخمول في عقلي..

انتفض جسدي.. يقاوم تثاؤبا ملحا..فطالما عدت إلى فراشي بعد رغبة جامحة في النوم، عقب كسل مسيطر على إرادتي، لكن هذا اليوم حتما لن يكون ممطرا..على أن أصدق الشمس وأكذب المنجمين الجدد، علي أن أحترم إلحاحها.. صمودها.. أن أغامر.. أن أثق في حدسي ولو في أبسط الأمور، رأسمالي فقط أمل خارج التوقعات الجوية المعلنة بفرح، خارج كل القراءات المحتملة، أليس بالخروج عن المألوف والمتفق عليه نغير مسار التاريخ ونتقدم!؟ أليس أحيانا ضروري السير ضد المنهج السائد لاكتشاف الجديد.. وربما وهم القديم!؟ فلأخرج عن المألوف علني أجد متعة في درب مغاير وكون مواز..

أنعش جسدي بنسائم معتدلة تهب من جهة الساحل، مشرعا صدري لكل الهبات العابرة، أستنشقها بنهم وشراهة.. ألتقط منظر السطوح الصامتة الهادئة، والغسيل المنشور ياهتز ويتأرجح على الحبال فيبدو كأشباح مخيفة تنشر ظلالها التي تتشابك في غرابة.. وتتراقص

أفرشة الأسرة البيضاء، فتفزع لها أسراب الحمام، ويتفرق في السماء، مكسرا الصمت بخفيف الأجنحة.. أكنس الأفق بنظراتي، وأخلط المدى بسحابات سجائري الشرهة.. باحثا عن يقين ساذج يومي كالعادة.. ماذا أرتدي؟ وكيف؟ لم أقرر بعد كالعادة..فأنا لا أثق في انجلاء السحب هذا، فهل أثق في شمس اليوم وأحذو حذوها في الصراع من أجل الوجود؟.. هل علي أن أختار صفها..؟ ألا أكون محايدا.. كعادتي.. فالحياد أرخص موقف.. بل هو موقف جبان.. موقف المنتظر نهاية أزمة، ليعلن انتماءه للصف المنتصر.. لست جبانا.. من يدري؟ ربما أنا جبان.. والحقيقة أني كائن متوجس لحد المرض، فهل التوجس وجه من وجوه الجبن؟ فكل توجساتي غير مبررة ولا عقلانية ولكنها قوية ومسيطرة.. فهل سأختار كعادتي الرخيصة أن ألبس ملابس تليق بالحالتين..؟

سأغامر.. بل سأختار.. وماذا لو في هذه المغالبة، انتصر السحاب العقيم على عزم الشمس، فبلل الأجساد والدور؟ لا يهم.. سأحول اختياري في هذه الحالة إلى انتصار، سأفرح بالبلل.. سأرقص تحت المطر، سأنتظر يوما مشرقا آخر..

عادت أشعة دافئة لتؤازر قراري وتدعمه، مقتحمة الشرفة، المطلة على زقاق ضيق.. مضى زمن طويل تخليت فيه عن اتخاذ قرار دون التفكير في الخيبات والانكسارات، دون الدخول في خانات الافتراضات، ما كسر إدارتي وضيق طموحي، إلا افتراض ما قد يقع، واستباق محموم مهلوس للعواقب المحتلمة.. والهروب دوما من التغيير، والتردد أمام خوض تجارب جديدة، لكني هكذا أنا.. صرت مترددا، بل

أحيانا مهووسا، لا أخطو خطوة حتى أؤمن الأولى.. لكن هذا اليوم خلافا لكل التوقعات.. لن أفكر في الخطوة الثانية.. سأخطو خارج شقتي، بأمل ربيعي.. لن تمطر.. لن أطيل الانتظار أمام دولاب الملابس، لن أسمح بالتردد والريبة أن يحكما قراري هذا الصباح، لن أتردد أمام الألوان، أعياني الشك والخوف.. لحد المرض.. طالما نظرت إلى المرآة، متسائلا وصورتي فيها، كيف صرت ما أنا عليه؟ أتحسس الأصوات، وأرى الشر في عيون العابرين وحركاتهم وسكناتهم، وكل سؤال أحذره، أتوجس منه.. أظنه مكيدة.. مصيدة.. حتى كاد الوضع أن يشل حياتي المهنية، وأنا الذي ليس لي إلا اللغة.. والكلام.. والخطابة لكسب عيشي في دهاليز المحاكم.. ذكريات طفولتي هذا الصباح، غيرت شيئا في.. ومنحتني عبر روائحها.. بعدا جديدا للوجود..

غالبا ما أغادر شقتي وليس في جوفي غير مرارة فنجان قهوة سوداء بلا ذرة سكر، وبقية تردد، ومذاق السجائر الخمسة التي أدخنها تباعا فور مغادرة الفراش لأتمكن من فتح عينيي بعيدا عن أعين أمي التي لم تكن تطيق أبدا الأمر، فكثيرا ما تردد على مسامعي كلما ضبطتني أدخن قبل تناول فطوري عبارات اللوم والعتاب التي كانت ألفاظها كتعابير مسكوكة، بنبرة حادة لا تخلو من عطف الأمومة "يوما ما ستقتلك هذه السجائر.. هذا السم.. اتق الله في نفسك.. ولا تدخن على الأقل إلا بعد أن تفطر.."

أمي.. صلبة.. قوية.. ذات هيبة.. تفرض على الجميع بدون استثناء تقديرها واحترامها، تزن الكلمات، بميزان العقل، قليلة الحديث،

مما جنبها زيف العلاقات، وحين يحلو لها الحديث يأتي شلالا دافقا وحكمة عميقة، لم أسمع أحد يناديها إلا باسمها مقرونا بـ"لالة" حبيبة.. كانت تلح علي أن أضع حدا لهذا السم الذي تسميه دخان الموت، وكم خاضت معي معارك عاصفة لأتخلى عن الخمر، وعاداتي التي تصفها بالمخربة، لكنها مع مرور الوقت، أذعنت.. وخانتها صحتها وأنفاسها المتعبة على ربح هذه المعارك اليومية، وخذلها العمر في قوتها التي تضعف يوما عن يوم، بيد أن التدخين بنهم كان عادتي الملحة منذ سنوات وأنا أسير لها، تسيطر على إرادتي رغما عني، ولا ينتعش جسمي إلا بجرعتي الفورية من النيكوتين والكافيين.. بدونهما تظل عيناي شبه مغلفتين ومزاجي معكرا، وأعصابي متوترة...

عمدت إلى أن استعجل خروجي، وأنا ألبس بدلتي الرمادية الداكنة الربيعية، وقميصا أزرق خفيفا وأسوى ربطة عنقي البنية التي اخترتها مقاوما ترددي.. هيأت فنجان قهوة بسرعة من البن سريع الذوبان وفي شبه هدوء تام.. خطوت في أرجاء الشقة خطوا خفيفا.. تكاد قدمي لا تلامسان الأرض، متفاديا أدنى صوت أو ضجة من شأنهما إيقاظ أمي.

فجأة يستفزني الهدوء العام في الشقة، أثار استغرابي إلى درجة الخوف استغراق أمي في النوم حتى هذا الوقت خلافا لعادتها.. راودتني الشكوك، فقد تفقدتها في المطبخ فور استيقاظي حيث اعتادت أن تكون أول من يصحو في هذا البيت، ولم أجدها..

استحضرت مرضها المفاجئ ليلة أمس، وما صاحبه من معاناة نفسية لكلينا، فقد عانت من مغص قوي وحاد، حسبته في البداية

عاديا وعابرا تكفيه مضادات المغص ليسكن، لكنه كان قاسيا، وقويا لم تنفع معه المسكنات.. وأمام عجزي عن تهدئة آلامها وأنينها الحادين والقويين اللذين انفطر لهما قلبي، اضطررت إلى مضاعفة الجرعة.. لكن عبثا.. لم يخب لهيب النار المستعرة في الجانب الأيسر من ظهرها.. تواصل الوجع والأنين.. غلبها الدمع فانهمر كخطين متصلين على خديها، ما أصعب على أن أتحمل مشهد أمي باكية متألمة..! حاولت المسكينة أن تداري ما تعانيه، فمسحت العبرات الحارقة بكم قميص نومها الفضفاض بسرعة وحياء الأم أمام أبنائها، عيناها تخبراني عن مدى الخجل الذي تشعر به وقد اختلط مع الألم.. كانت بين نارين.. ثباتها وقوتها الأمومية، وألمها الجارف، وما يتبعه من انهيار نفسي وجسدي وضعف لا يمكن إخفاؤه، لكنها لم تنج من الضعف وهي تئن، جاهدة تحاول إخفاء اعتصارها ولواعجها، كأن شفرات حادة تمزق أحشاءها، فتمزق كبدي أنا أيضا ألما وحزنا، فقد كنت أتجرع من كأس ألمها جرعتين مضاعفتين، وأذوق عذابها نارا وعجزا، كلما حاولت كتم الألم بالصبر والجلد، اعتقادا منها أنه سيتبدد.. لكن مع مرور الوقت اشتد أكثر فأكثر.. فلم تعد تتحمل ما لا يطاق، وعبراتها التي بللت خديها فضحت هذه المرة بغزارة جحيم معاناتها الذي صار لا يطاق، لا تطيقه هي، ولا أطيقه أنا.. منذ زمن طويل لم أر دموع أمي، ولم أسمع أنينها الذي يفتت الحجر.. ليس أشق ولا أشد وطأة على نفسي من بكاء أمي.. من دمع أمي.. من ضعفي أمي.. وما من شيء بإمكانه أن يقوض ثباتي ويربك حكمتي سوى دموع أمي.. أمي

لا تبكي إلا لأمر جلل.. أمي حتما في محنة أشد من أن تحتمل بالصبر والجلد المعهودين فيها..

تمنيت لو كان بإمكاني أن أجد السند القوي، والدعم النفسي على الأقل في زوجتي أمينة التي لم تكن أمس جزءا من هذا العذاب.. كانت خارج المشهد.. غارقة في اندماج غريب كالسحر..في مآسي أخرى خيالية.. تبكيها.. تحزنها.. تسعدها أحيانا وتؤلمها أحيانا أخرى.. ولا يبكيها حال أمي..

أمينة أغلقت عليها باب الغرفة.. كانت كعادتها.. تتابع أحداث مسلسل أجنبي، أظنه مكسيكيا مدبلجا.. شد انتباهها منذ شهور.. تبكي وتحزن لألم شخصياته وتقلق لمصير بطلتها، بينما في الشقة هذه المرأة المسنة أمي تعاني وتتلوى ألما.. وهي كائن حقيقي من لحم ودم، مشهد معاناة أمي ليس وراءه مخرج يوجه كائنات ورقية نسجت في خيال كاتب، ولا مؤثرات صوتية وضوئية تملأ فراغات اللغة.. أنين أمي.. مشهد تشنجها على السرير وأناتها العميقة المتصاعدة كانت أقل تأثير في هذه الزوجة التي كانت يوما ما كنسمة جميلة في يوم ربيعي بهي.. لا أعرف ما الذي غير أمينة؟ شيء ما وقع في حياتنا الزوجية ولم أنتبه إليه شرخ صدعا عميقا.. بدأ شقا سطحيا.. كلام قليل.. تذمر.. جدال.. خصام.. ثم تمدد في مكر حتى فصل فصلا قاتلا بيننا في غفلة مني أو منها أو منا معا.. لا أستطيع أن أحدد كيف ومتى.. كيف وصلنا إلى أبرد منطقة في علاقة زوجية صارت مكلفة عاطفيا ونفسيا؟ لا أدري..؟ أمينة.. فجأة أعلنت حصارا على نفسها، وعزلت أمي عن حياة البيت.. لا أريد أن أخوض معها نقاشا في الأمر، أخاف من كل

الأجوبة المحتملة، أتوقع نقاشا قد يغلق كوة الأمل الضيقة في استعادتها.. في ترميم حياتنا.. سأترك الأمر هكذا بلا أسئلة ولا أجوبة.. إني أخشى من الأجوبة القاتلة.. من تعجيل النهايات.. لكنها .. هي تدري أن من رحم هذه المرأة المسنة، التي تجاوزت الستين عاما صنعت وجودي.. ومن عرقها سقيت شجرة طموحي.. أمي كانت تحطب من أشجار عمرها حطبا تدفئ به أيامي الباردة وتشعل منه نارا تنير لي الطريق في الأيام الحالكة.. لكن.. أمينة.. خيبت ظني مرة أخرى.. قد أكون أنا من خيبت ظنها دون أدري.. قد أكون رجلا فاشلا في منحها متعة الفراش الملتهب.. ألم يقل زميلي صابر إن الجنس أكبر من قبلة وعناق ومجاسدة؟ ربما أني لست مقنعا لخيالها الجنسي.. لكن كيف أفتح علي باب جهنم بأجوبته المربكة للرجولة؟ وليكن..إني أقربها كما تعلمت أن يقرب الرجل زوجته.. أغازلها كما أدركت.. كما.. أعرف.. وكل خطوة خارج المألوف لا أعرف نتائجها ولا تداعياتها.. وحدهن المومسات قادرات على تفخيخ الجسد، وتفجير تضاريسه والنبش في حفريات لذاته بعيدا.. بعيدا.. أبعد البعيد.. بدون خجل ولا تردد ولا إحساس بالعار وبالذنب.. وحدهن..يبرعن في كسر رتابة الجسد، والوصول إلى الأساطير المعيقة للتشظي.. وحرقها على نار اللذة الجارفة..

أتكون أمينة على علاقة سرية مع غيري؟ هل أهلوس؟ لكن ماذا لو كان ذاك الأخر فعلا موجودا وليس في عقلي وهواجسي فقط؟ ذاك الآخر..الذي قد يشعرها بحدائقها الخلفية المهملة.. ذاك الآخر "أنا" في فراش المومسات..؟ زميلي صابر يسمي العاهرات ببائعات الهوى، وأنا

ما زلت لم أستوعب بعد هذا البيع والشراء.. أفضل تسميتهن ببنات الليل.. العاشقات.. النديمات.. الخليلات على بائعات الهوى، فتسمية زميلي تشعرني وأنا في أحضانهن بالزيف والتقزز.. وتحولهن إلى سلعة.. وتغدو المتعة تجارة مقرفة، يقول صابر إن هذا التعبير حداثي.. حقوقي.. وحافظ لكرامتهن.. لا أفهمه.. كيف يكون كذلك وهو يحول علاقة جنسية إلى سلعة.. إلى تجارة..!؟

أتكون أمينة مشتاقة إلى فخاخ الأسرة وهدم المتاريس؟ إلى سرير فاحش؟ الأمر مستبعد.. فهي لا تخرج.. وقلما تغادر البيت؟ ماذا وقع إذن..؟ أشعر أن بيننا جدارا عاليا يعلو كل يوم.. حتى أكاد لا أراها ولا تراني.. ما الذي غيرها؟ الضوء الذي كان يشع في عينيها انطفأ فجأة بدون سابق إنذار.. الرقة التي كانت سمتها على الدوام تبخرت.. وحلت محلها قسوة جارفة..كانت اجتماعية تكره الوحدة ثم صارت على غرة منعزلة.. وحيدة.. تهرب من سريري.. وتحاصر أمي بأدق التفاصيل والتفاهات..

ليلة أمس.. كانت قاسية .. طويلة ومرهقة.. لم أستطع تحمل رؤية أمي وهي تتلوى وجعا.. ألما على سريرها، كلانا كان يعيش ألمه.. وقد تفصد جبينها عن عرق غزير، وغالبها قيء لم يمهلها أن تتخلص منه بعيدا.. فامتلأ سريرها بما أفرغت من بطنها، في عينيها لمحت الخجل، وقد وضعت يدها على فمها، كأن إحساسا قاتلا بالعار تملكها، وزاد من اعتصارها.. أعرف هذه المرأة .. كانت كنخلة صامدة.. منتصبة القامة في وجه الدهر وتقلباته.. قوية.. تقف في شموخ وكبرياء في وجه رياح الزمن العاصفة، لا تنحني جبنا ولا تتراجع ضعفا.. تظل واقفة.. لا

تنكسر.. لا تنسحب أمام الأزمات.. أعرف أمي وكبرياءها الأمومي.. أعرف أن الضعف يغتال أهم رأسمال عاشت عليه وبه.. رأسمال تغرف منه ولا ينضب.. رأسمال لا يكسد في تجارة ولا يبور في أزمة.. هو خليط من عزة النفس أصيلة وإباء وأنفة فطريين.. من عفة وصبر.. وإيمان وجلد.. أعرف أنها جرحت في كبريائها.. أدرك أن دواخلها في احتراق شديد وملتهب.. تحترق بناريين.. نار الألم الجسدي، وجحيم الألم الوجداني، أدرك أنها تشعر بالضعف.. والضعف يشعرها بالعار.. فجسدها خذلها لأول مرة لدرجة أنها عاجزة عن تأجيل رغبة القيء.. عاجزة عن تنظيف أرضية الغرفة.. نظرت في عينيها محاولا تبديد الشعور بالعار الذي وخز كرامتها وألمها أكثر من الوجع.. وقلت مداريا ألمي وحزني بابتسامة وأنا أنظف الغرفة:

- لا يهم.. أمي.. القيء يباغت الجميع.. حتى في الحافلات.. لا تنزعجي.. الأمر عادي..

بيد أن القيء مصر على هد هذا الهرم العالي، عازم على تقويض بنيان كرامتها.. فاشتد وتواتر.. حتى أصابها الوهن والضعف.. فاستسلمت للضعف.. مكتفية بنشيج يقطع الكبد.. مررت كفي على جبينها المتعرق، لا ارتفاع للحرارة.. إذن لا تسمم.. ورغم ذلك عرضت عليها فكرة نقلها فورا إلى المستشفى.. رفضت رفضا قاطعا.. ألححت ثم ألححت.. فتصدت لإصراري وجزعي بالعبارات التي تقهرني بها وتكبل حرية تصرفي في مثل هاته المواقف الحرجة:

- آ.. "الرضا".. آ.."السخط".. دعني في غرفتي.. أعرف هاته الآلام.. تنتابني من حين لآخر، ثم تزول.. ولا تخف.. الأعمار بيد الله..

أحيانا أشعر أن أمي لم تعد ترغب في الحياة.. أشعر أنها لا تقاوم من أجل البقاء.. كأنه لم يعد هناك شيء يمتعها ويشدها إلى الحياة، فيحفزها على الصمود والمقاومة..

ما يخيفني من شأن أمي.. رغم أنها تعيش معي، أن تفقد الرغبة في الحياة، أعرف أنها تكره زيارة الأطباء وولوج المستشفيات وتصر على القول دائما إن لها رائحة خاصة، تزرع الرعب في النفوس، بل تؤكد في يقين غريب أن للمستشفيات رائحة الموت.. أخاف ألا تقاوم المرض.. أن تستسلم له.. أن يكون اليأس تسلل إلى قلبها في غفلة مني وأن تكون جذوة الرجاء قد خبت في صدرها وأنا منشغل عنها بعملي وعاداتي..

ليلة الأمس.. وهي تتلوى على الفراش من الألم الذي صار كالجمر، أو كأني بالسرير صار من الشوك، داهمني أحساس قوي، أنها رغبت عن الحياة، مستسلمة للعلة، فرغم الوجع الحاد.. رفضت أن تعرض على طبيب.. وحين اشتد عليها الموقف، استعنت في لحظة ارتباك واضطراب فكري، بمنوم قوي كنت أحاصر به ليالي المؤرقة.. المباغتة.. المشاكسة التي تحضرني من حين لآخر دون استئذان ولا دعوة.

تناولت المسكينة قرصين من دون سؤال وبدون تردد، فأدركت مدى وجعها.. فأمي تمج الأقراص الطبية.. وتعاف مذاق الأدوية،

تمددت المسكينة على السرير وساقاها ترتجفان في اضطراب حتى كدت أسمع اصْطِكاك ركبتيها، بعد لحظات.. هدأ الجسد.. وانتظم تنفسها مصوتا في أرجاء الغرفة، وفعلت القرصين مفعولهما المخدر سريعا .. فغاصت في نوم عميق.. خبرته من شخيرها الذي ارتفع.. ظللت إلى جانبها على حافة الفراش، أتابع الحياة في تنفسها، في حركاتها وسكناتها..

استحضرت مشاهد خلافات أمينة مع أمي وأنا أتفرس في الوجه البهي الرحيم.. أمي لا تريد أن تعيش من أجل العيش فقط.. وأمينة لا تفهم ذلك، أو بالأحرى تتجاهل الأمر.. أمي تريد وظيفة لها في هذا البيت حتى الموت، وأمينة تريدها أن تصطف في طابور انتظار النهاية.. أمي تريد دورا في حياتي ولو رمزيا.. يجدد في قلبها الشعور بالفائدة والأهمية، لكن أدوار الزوجة للأسف غير قابلة للاقتسام ولا للتفويت وأمينة لا أولاد في حياتها يشغلونها ويملؤون فراغ يومها الطويل، وأدوارها أصبحت جد محدودة.. فلحد الآن لا نعرف لمَ لم نرزق بالأولاد.. لم نثر أبدا هذا الموضوع.. تجاهلناه عمدا.. كنت أنتظر منها بلهفة الأمومة، أن تفتح الموضوع..لكنها صمتت فصمت.. كأننا تواطأنا على لعبة التأجيل.. أما أنا ففي قرارة نفسي أعرف سبب صمتي، ولكني لا أعرف سبب صمتها.. أعرف طبعي.. أعرف هلعي.. أعرف أنني أؤجل حقيقة محتلمة.. قد أكون عاقرا.. عقيما.. هناك احتمال نتقاسمه معا.. لنا الحظوظ نفسها.. ولأني أخاف من الحقيقة..ولأني غير قادر على الذهاب بعيدا للحصول على الأجوبة.. تلك الأجوبة.. التي قد تحرق أحدنا.. قد تغير حياتنا.. أجلتها إلى الأبد.. فقط أمي كانت

ملحة في السؤال.. كنا معا بلا اتفاق مسبق لا نرد.. نصمت.. نغير المواضيع.. حتى يئست أمي.. ومات الأمل في جوفها، فجفت منابع السؤال..

أفهم أمينة.. وأشفق على أمي.. وبينهما تضيع الحقيقة ويخفت صوت العدل.. أعجز عن أن أكون منصفا والخصمان أمي وزوجتي.. أتحسر على زمن غاب.. واختفى .. حين كان المسنون في بلدي يظلون يؤدون وظائف اجتماعية واقتصادية إلى أن يرحلوا إلى دار البقاء، فيتركون فراغا كبيرا في الدار الكبيرة التي تجمع الأعمام والأحفاد وحتى الأرامل والبنات المطلقات، كانوا محور أي قرار وإن لم تسعفهم أجسادهم التي وهنت وشاخت بفعل السنون في العمل وأداء مهام شاقة.. تتم استشارتهم في أي بيع أو شراء، في الزواج كما في الطلاق، يتكفلون بتدبير أغراض البيت من السوق، والإشراف على تدبير ميزانية الأسرة.. يتفقدون أحوال أفراد العائلة الكبيرة فردا.. فردا.. ينتظرون الغائب بحرقة حتى يعود، ولا ينامون حتى يعود المتأخر ليلا إلى البيت.. يتتبعون مآل كل شيء، من دقيق وسكر وزيت وشاي وتوابل.. خضر.. حمص.. عدس.. يقومون بدور الحكم والقاضي.. دار يلتئم فيها الجميع.. طعام واحد.. مطبخ واحد... وسعادة تكفي الجميع حول مائدة الطعام رغم ضجة الصغار وضوضاء الأحفاد.. تقتسم لحظات اليومي كرغيف الحياة.. دار تشهد الأعراس وحفلات الختان، وحتى المآتم المحزنة.. ولو كانت "عشة".. كوخا قصديريا في حي صفحي.. لكن الأمور بدأت تتغير..

ظلمنا معا يا أمي في لحظة زمنية نشاز.. فقد داهم بلدي يا أمي فجأة وباء مفاجئ وسريع.. وبدأت الأسر الكبيرة تتحلل.. وتتفكك لتتفرع عنها أسر صغيرة، قد تجمعها الأعياد أحيانا وقد تتسع هوة البعد بينها بفعل الزمن، فتنخفض درجة حرارة الأخوة والبنوة لتصل أحيانا إلى درجة الصفر.. يا أمي.. أنا وأنت ضحيتان.. في زمن العبور.. أنا هنا معلق بين مرحلتين..أؤدي ضريبة جيل التحول الهجين.. أتعلمين يا أمي؟ البادية نفسها.. التي كانت الحصن المنيع للعائلات الملتحمة والمتعددة الأفراد والأجيال.. أصابها وباء التفكك وغدا الابن يقتطع له أبوه جزءا من الأرض ليبني حياة موازية لأبويه لكنها بطموحات وأهداف خاصة.. بدأت الأسر النووية تحل محل العائلات.. ما إن يتزوج الابن حتى يغادر إلى سكنه الخاص.. وبدأت الفجوة تكبر.. ثم تتسع.. انتشر بسرعة وباء قطع الأرحام.. يا أمي! اسأليني أنا كيف تغير عالمنا فقست قلوب الأبناء.. وأصبحت الزوجات خلافا للماضي يبتغين في أنانية مفرطة سكنا خاصا، ويهربن بعيدا عن حضن العائلة الكبرى.. أنانية جارفة لنساء عزلن الشيوخ في الوحدة والوحشة.. باستقلال الأبناء عن الآباء.. كأن النساء من الجيل الجديد الطامحات لاستقلالية في العيش والقرار عن الشيوخ، يصنعن توابيت الموت البطيء لآباء وأمهات فقدوا وظيفة الاستمرار في العطاء.. فقدوا رمزيتهم.. فقدوا جدوى وجودهم..

يا أمي! أعرف أننا معا نتألم.. فأن يعيش الأبناء المتزوجون في سكن خاص منعزل عن الأب والأم حدث مؤلم يؤلم المسنين، فكم قصصت عليك حكايات مؤلمة، لآباء تركوا وحيدين..كم طلبت من

الله أن تموتي قبل أن يأتي هذه الزمن.. الذي سميته من علامات يوم القيامة.. كم طلبت اللطف لجيلنا وحياتنا.. أمي أتى هذا الزمن ولم تأت القيامة معه كما توقعت.. ألم تقولي لي يوما وأنا أحكي لك قصة عقوق ابن لأبيه وسطوة الابن على أراضي الأب وطرده من السكن.. يومذاك..؟" لا أعاشنا الله حتى نرى ونعيش هذا الزمن"

أمي نحن في هذا الزمن.. الآباء والأمهات في أرذل العمر، يتركون للزمن.. فيفتقدون دفء الأسرة، وجلبة البيوت.. يعيشون الوحدة القاتلة التي تنهشهم نهشا في الليالي البادرة وخلال أزماتهم الصحية، لينطفئ ببطء ضوء الحياة في صدروهم.. يموتون في صمت.. مكتئبين وقبل الأوان..كأنهم يستسلمون للمرض.. للموت.. بلا مقاومة.. فهم بلا دور في الحياة.. تتقطع كل الخيوط التي تربطهم بها.. فينتحرون بسم بطيء اسمه اليأس.. أمي سامحيني.. لقد خيبت ظنك.. لم أنتصر لك في أي معركة.. والحقيقة أنني عاجز على الانتصار لك في صراعك مع أمينة من أجل دور رمزي في حياتي.. عاجز.. عاجز..

2

هل أغامر وأخرج هذا الصباح دون أن أرمي نظرة عليها..؟ دون أن أحمل في عقلي يقينا أنها ما زالت على قيد الحياة؟ فمرضها ليلة الأمس كان مؤلما..وغريبا مقلقا..فكم مرضت من أيام وليال ولزمت الفرش إلا زمنا واحدا لم تكن تفوته..كان محطة زمنية إجبارية لها.. موعدا يوميا لا تسقطه من انشغالاتها كيفما كانت الظروف.. ولم يفتها يوم دون إعداد الفطور لي..

كيف داهمني هذا الخوف الجارف، مستدعيا صورتها المقلقة مستلقية على الفراش في ضعف ووهن..؟ لا أعرف.. تلك آفتي التي أعيي مظاهرها في أيامي المضطربة بيد أنني أعجز عن السيطرة عليها.. شعرت بانقباض مفاجئ في قلبي، وضيق في صدري، وغصة في حلقي.. ومن أعماقي خرج صوت الجزع قويا، تشكل في أحراش الجزع، هذا الخوف الذي يجد له دائما تربة خصبة في هواجسي التي تخصبه من ارتيابي.. زاد من حدته مزاجي المتقلب، وتناسل الأسئلة المؤجلة للجواب دوما لكنها حارقة.. مؤلمة.. أمي لن يغلبها قرصي ضد الأرق.. لا شيء بإمكانه أن يمنعها عن أداء الوظيفة الوحيدة التي مازالت تتعلق بها كآخر وظائفها في الوجود.. إعداد فطوري الذي كان بوابتها على الحياة، وموعدا لتجديد الهواء في رئة الحياة، للاستمرار.. لم تكن لتتخلى عنه رغم سخط زوجتي أمينة، التي انسحبت رغما عنها من هذا الدور الصباحي بعد صراع طويل.

للأسف هذه هي شخصيتي المهزوزة.. جبان في الحسم ، متردد في المواقف المصيرية.. أهرب في خيبتي التي ألفها قلبي وعقلي بجعات أو

كؤوس في حانات الدار البيضاء، كما أهرب من جحيم الأسئلة المحرجة المرتبطة بعلاقتي بأمينة.. الحانة.. فضاء يؤجل الأسئلة ولا يجيب عنها.. الحانة مكان يغري دوما بالتأجيل.. وأحيانا يصير مكانا لتحويل أسئلة بسيطة إلى قضايا وأزمات مؤلمة.. الحانة هي الفضاء الوحيد الذي يبدد ترددي وذعري، بعض الكؤوس أو الجعات تحولني إلى شخص آخر غير متردد ولا خائف.. الكأس للأسف وحدها كانت قادرة على أن تحولني إلى ذاك الإنسان الذي أريد أن أكون.. حتى أن مرافعاتي في المحاكم أستعد لها بجرعات من الكونياك،

وأغطي على الرائحة بعلك بنكهة النعناع.. أكبر انتصاراتي كانت وأنا في حالة سكر وقراراتي الحاسمة أدين بها للخمر والجعة والنبيذ..

أمي لها وظيفة أخرى روحية وإيمانية.. تبدد خوفي من عقاب السماء وانتقام الله، فلم أكن قادرا على تبريري شربي للخمر بلغة زميلي صابر.. فصابر ملحد ويعتقد أن لا حياة غير هذه التي نعيشها على الأرض، لا يؤمن بجنة ولا بنار، يقول إنها في الدنيا.. هنا.. والآن.. والباقي أساطير.. لم يكن في حاجة إلى من يدعو له ليتصالح مع السماء.. لا أعرف من أين له هذه القوة للتفكير بهذا الشكل.. أنا خلافا له.. أقاسمه الحياة نفسها..الخطايا ذاتها.. لكني في صحوي محرج.. تأكلني الحسرة والخوف.. لهذا أحتاج إلى دعاء أمي لأشعر بتوازن في شخصيتي وهي تدعو لي بالتوفيق قبل الخروج، وتحصن خطواتي بدعوات الرضا.. أشعر أن الله لطيف بي من أجلها.. أشعر بانشراح قوي وهدوء وأنا ألتقط دعاءها، كأنها تصالحني مع السماء بعد

ليلة خمر ماجنة.. مهما كان حالها لا يمكنها أن تتخلى عن تحصين يومي وطريقي بالدعاء..

لأول مرة سأخرج دون تقبيل رأسها المقدس.. دون أن أتصالح مع السماء.. دون أن أحصن نفسي بتضرعها المحصن.. لكن، كيف أخرج ولا أعرف حالها؟ ليست أمي بالمرأة التي تخلف موعدها مع صلاة الفجر والدعاء لي.. لقد عشت معها أصعب الأزمات الصحية ولم تتخلف أبدا.. ماذا وقع..؟ لماذا لم تخرج؟ ماذا لو كانت فارقت الحياة..؟ يا عقلي..! رفقا بي.. إنك تفتح علي بوابة الجحيم أو الجنون... ماذا يقع لي..؟ الخوف تملكني من جديد يؤازره توجسي في الأزمات كالعادة، أحتاج إلى كأس نبيذ.. أو كأسين.. لكن قد أعود يكون الأوان قد فات..

فكرة سوداء تقفز في ضوضاء من عقلي.. وأخرى أشد قتامة ويأسا تخترق صدري، ويسري مفعولها سريعا ملتهبا في عروقي، إعصارا كاسحا لصلابتي.. أحس بخواء في ساقي، كأنهما لم تعودا قادرتين على حمل جسدي رغم نحافتي، كأني بها تصيران من قطن، ورجفة داهمة تتملكني.. عجزت عقبها على ابتلاع ريقي، إذ جف حلقي فجأة.. فأهرع إلى غرفتها في اضطراب وجزع.. أكاد أكبو على العتبة، أدنو في خوف وحذر من حافة الفراش المبعثر على سرير أمي، جسدي يرشح عرقا باردا، أشعر بالغثيان، أهم أن أهز جسدها الضعيف هزا لتستيقظ وأبدد ما جثم على صدري من ثقل الهلع.. تتسارع نبضات قلبي، ويضيق تنفسي.. يغلبني هوسي المعتاد لحد الشلل التام، فيفتح للأسئلة المحيرة، الحارقة بوابة الجحيم.

يا رب..! ماذا لو فارقت الحياة..؟ ماذا لو كانت جثة باردة منذ الأمس..؟ يا ربي..! ليس الآن.. لم يحن الأوان بعد.. ما زلت في حاجة إلى نفسها في حياتي.. إلى كلماتها الآمنة... المطمئنة في روحي... رجاء ربي..! أتوسل إليك.. لم يحن الوقت بعد.. لا يمكنني تصور حياتي بدون وجودها.. لا يمكنني حتى تخيل أنها غائبة غياب الوداع الأخير.. من يصالحني معك يا ربي بعد اليوم إن رحلت؟.. لا أحد.. يا رب! هي الوحيدة القادرة على تذكيري بوجودك.. بحاجتي إليك..

تخرج الأسئلة السوداء جنينية ثم تكبر دوائر في عقلي وقلبي.. لأصير كقصخط الجنون الريح وإحساس بالذنب يفتت عقلي لألامس قاب قوسين أو أدنى خط الجنون.. هل كان علي ألا أطاوعها ليلة أمس؟ هل كان علي أن أرغمها على الذهاب للمستشفى ولو بالقوة؟ يغلبني الدمع.. دافئا أشعر به على خدي، أكاد انخرط في نوبة نحيب..

أخاف من الحقيقية.. من الاحتمال المفجع، فأعود أدراجي إلى الشرفة.. أشعل سيجارة.. مؤجلا التحقق من الوضع، سيجارة أخرى أسوي بها شراع سفينة روحي المضطربة بين أمواج الخوف والريبة، بعد لحظة ظننت نفسي قد حسمت أمري، لابد أن أنهي هذا العذاب.. وليكن ما يكون.. لكن أريدها حية.. مبتسمة.. ترفع كفيها للدعاء لي بحرارة وصدق استثنائي.. وحدها أثق في دعائها، لأنه بلا مقابل وعفوي.. غريزي، أهرع مرة أخرى إلى الغرفة، أتقدم نحوها.. وددت ألا أعرف مرة ثانية أي شيء الآن.. أن أؤجل الخبر المحتمل القاتل.. أن أخرج إلى عملي، أن أعيش هذا اليوم على حسها.. وددت لو كان بإمكاني أن انزع بذرة الخوف من عقلي، التي تكبر مع اللحظات..

أشعر بالاختناق، دواخلي صارت فوضى، رهينة الاضطراب والخوف.. نعم.. أعرف أنني شديد الارتياب.. وأني أسير أفكار سوداوية تعكر صفو حتى أجمل لحظاتي، لكن عقلي في هذه اللحظة يصر على التحقق من فرضية الموت، صار إصراره مدويا، يشتت انتباهي وتركيزي، علي أن أخطو هذه الخطوة أن أتحقق، هل تسلل الموت إلى بيتي في غفلة مني؟ أقترب.. أجفف عرق جبيني بكم قميصي، أفك ربطة عنقي، باحثا عن نفس جديد، كأن الهواء يتقلص في الفضاء، أو كأنني أتنفس من ثقب ضيق.. لابد أن أحسم في الأمر.. أتراجع في آخر لحظة.. أرمي بنفسي على أريكة في البهو، منهكا.. مذعورا أسمع دقات قلبي كذوي يملأ صدري.. تتسارع النبضات.. يوشك أن يغمى علي، أشعر أن قلبي ينفجر خارجا من صدري.. أتعرق.. البلل طال قميصي.. عنقي ونحري، فصار قطارات تتقاطر بغزارة ثم تتسارع لتغدو كخيوط ماء.. أفك الأصداف، يعاودني غثيان قوي يصطاد ضعفي ويشق طريقه نحو معدتي بخبث، ويعلن عن رغبة في القيء.. أعود إلى غرفة نومي، في فوضى نفسية أبحث عن الأقراص المهدئة، أسقط كثيرا من علب الأدوية أرضا، أحدث فوضى وجلبة، قبل أن أهتدي إلى العلبة التي وجدت صعوبة في فتح غطائها وأصابعي ترتعش، أضع قرصين تحت لساني.. وأنتظر.. أنتظر.. أنتظر..

بعد لحظات أقرر العودة إلى غرفة أمي.. أقترب من السرير.. أتلمس الحياة في الجسد الواهن السقيم.. ولم يخفت ذعري كليا بعد وإن روضه المهدئ، أراقب إيقاع تنفسها.. أرى صدرها يرتفع وينخفض، لا أصدق عيني، أشك في نفسي، ربما عقلي يريني ما أردت أن أرى، ربما

يوهمني.. أعود لأتحقق من تنفسها.. بارقة أمل تشرق في ظلمات خرائطي الداخلية المبعثرة.. أهوي بجسمي على حافة سريرها، تتلمس رئتاي مزيدا من الهواء.. علني أخرج من حالة شبه الاختناق.. أتلمس دفء زفيرها بكفي تحت أنفها.. على سطح شفتها العليا.. وأطيل النظر في صدرها.. أتفحص بعيني حركة الرئتين.. أجلس لحظة على حافة السرير.. تتقلب إلى الجانب الآخر.. وهي تقول في صوت خافت وجريح "يا ربي !"..

يا يارب..! حمدا لك.. أمي حية ترزق.. حية.. أكاد أصرخ فرحا، أقفز كطفل صغير في حذر من أن أصدر ضجيجا.. يصدر عني زفير قوي وأشعر برغبة ملحة في تدخين سيجارة.. أشعلها لأول مرة في غرفتها.. سامحيني أيتها القديسة.. أعلم أنك غارقة في النوم ولن تنتبهي إلى رائحة الدخان تملأ سحاباتها سقف الغرفة الطاهرة.. أبلع الدخان ملء رئتي، تحترق السيجارة بسرعة بين أصابعي التي لم تتخلص بعد من الرعشة..

يجد الهدوء مسلكه إلى عقلي ونفسيتي، وأنا أدخن السيجارة الثانية، مطيلا النظر في فرح في وجه أمي.. أعيد اكتشاف هذا الوجه من جديد، وجه طالما ومازال يملؤني بالسكينة، ويشعرني بالأمان، كم أنت طاهرة.. هادئة.. يا أمي..! كم يريحني هذا الوجه المشع نورا.. الذي ما زادته التجاعيد إلا وقارا وقداسة. أشعر برغبة قوية طفولية في لمس يديها، كم تشعرني يداها بالقوة والسكينة.. أقبلها على الجبين بحنو..أشم رائحة شعرها الأشيب.. فأشعر بخدر الطفولة.. ولا أعرف

من أين يأتي عبق القرنفل والحناء والياسمين دفعة واحدة كلما أنحيت لأقبل اليدين الطاهرتين.

أغادر الشقة بعدما هدأ روعي.. وسيجارة ثالثة تتأرجح وسط سحابة من الدخان بين شفتي، تكاد تنفلت جراء بقية رجفة خفيفة لم تغادر جسدي بعد.

3

لم أنتبه إلى وجود حارس العمارة -الكونسييرج- الملقب ب"الشيظمي" وأنا أغادر ردهة العمارة حيث أقطن، بأحد أحياء "بلفيدير" الحديثة بمدينة الدار البيضاء.. كان هنا. منتصب القامة.. واقفا كعادته، يبادرني بالسلام، ليس تملقا ولا تزلفا، بل لأننا صرنا في عداد الأصدقاء.. هذا ما أعتقد على الأقل.. رغم أن عقلي المتوجس ما انفك يحذرني منه.. قد أكون مخطئا.. من حين لآخر لا نكتفي بتبادل التحايا.. يستوقفني، فيطول أو يقصر الحديث بيننا حول مواضيع شتى، أكثرها بلا معنى ولا طعم، وخصوصا عند خروجي للعمل، وحالتي الصباحية المزرية تجعلني أطيقه بتكلفة وجدانية ونفسية عالية، أعرف أنني أجامله في كثيرا من الأحيان، ربما أتقي شره كما يفترض هوسي ولأن ارتيابي المعهود يجعلني أقلص احتمالات سوء الفهم، التي تزرع بذرة العداوة والضغينة والأحقاد بين الناس مجانا، وأنا لست مستعدا لصراعات هامشية مجانية، سببها سوء الفهم، أو سلوك طائش مني غير مدروس العواقب قد يتحول إلى لغم حقد ينفجر في الصدور.. فأكثر الخصومات سببها سوء الفهم..

كنت شارد الذهن، ولم أتخلص كليا من الجزء الذي هدني قبل مغادرة الشقة، وإنه لمن غرائب شخصيتي، أنني أحيانا أطرق جبيني وأنا أسير في الطرقات وأبدو للآخر أنني منشغل بأمر جلل، بينما عقلي يكون في درجة الصفر من التفكير، فقط أكون غائبا، في مكان ما لا أعرفه، يملؤني فراغ وصمت ككائن معلق بين السماء والأرض، لكن تحية البواب المعهودة التي تخالطها ابتسامة يرسمها على شفتيه الدقيقتين،

والتي كررها مرتين علني أسمعه وبصوت مرتفع، وقد استهلها بنحنحة، أخرجتني من منطقة البياض والفراغ الذهنيين.. التفتت إليه، مددت يدي لأصافحه وأنا أهز رأسي تعبيرا عن أسفي مرددا.. معتذرا:

- وعليك السلام.. الشيظمي.. اعذرني..

محرجا.. متحججا بكثرة انشغالاتي حتى كاد يبدو علي التلعثم وأنا المحامي الذي من المفروض أن يجيد التعامل مع مثل هذه المواقف، أردفت:

- اسمح لي.. خويا.. إن عقلي منشغل في قضايا كثيرة.. وأحيانا أكون "مرفوعا".. "هارب لي الريزو.. خارج التغطية"

أتلفظ بكلمات العبارة الأخيرة وقد عجنتها بابتسامة باهتة، ليس نفاقا بل لأني لا أجد في نفسي دافعا للتبسم، وأتمادى في الزيف هذا الصباح فأصطنع ضحكة، علني أذوب جليد سوء الفهم الذي أخشى أن يصقع علاقتي به، التي لي فيها منافع شتى ومآرب كثيرة.. يتقدم نحوي.. نقف معا على آخر درج من سلم ردهة العمارة وفي محاولة منه للتخفيف من ارتباكي وتلطيف الموقف، ترتسم ابتسامة على محياه انفرجت لها بصدق أساريره، أشعر بها حقيقية غير مزيفة، فلم تكن صفراء مصطنعة تليق لكل الوجوه والمواقف الشبيهة، وأنا لي خبرة في تمييز الوجوه والابتسامات، ابتسامة أراد بها حتما رفع الحرج عني ويقول في عفوية واضحة من نبرة صوته:

- لا عليك..! يا أستاذ عزيز..! أتفهم الأمر.. مشاغل الدنيا كثيرة.. والغريب أن هذا العام صار عام التيه والضياع.. سبحان الله.. تيه ألمسه من هنا يوميا في وجوه الناس وعدوهم الجنوني اليومي.. الناس

أصبحوا منشغلين أكثر.. تائهين.. حتى التحية لا يردونها أحيانا..
لا أفهم ما يقع.. زمن "جري علي".. نجري عليك"

ثم يصفق بكفيه مستنكرا وهو ينط كقط كان متربصا ويضمني بقوة.. يلفتني من بين ذراعيه وهو يصيح محاكيا بذراعيه وساقيه مشهد الركض:

- ما هذا..؟ ماذا وقع للناس يا ناس..؟ ما الذي حل بكم؟ لا أفهمكم أنتم تجرون منذ الصباح ثم تعودون في المساء منهكين.. والهم لا يفارقكم.. يا دنيا..! ماذا فعلت بالناس..؟

أسوي بدلتي التي جعدها ضمه لي بتلك الطريقة الغريبة والعنيفة شيئا ما، ثم أعيد عقد ربطة العنق مسويا مركزها وأنا أقول دون تذمر:

- الشيظمي.. أنت لا تفهم.. الحياة صعبة، والمتطلبات كثيرة.. والناس.. الناس.. الله أعلم بحالهم.. كل.. يعلم الله ما به.. أسرار الناس كثيرة وأحيانا معذبة.. ارفق بهم.. وفي هذا الزمان.. إن لم تجر فاتك قطار الرزق والكسب وصرت عالة على غيرك إن وجدت من يطيق ضعفك وعوزك، ويستر فاقتك، فحتى الأقربون من الأهل ورابطة الرحم لم تعد لهم طاقة لتحمل ذويهم من المعدمين..

وجه الشيظمي شفاف.. من الصعب أن يخفي ما يعتلج في صدره.. في استياء. قطب حاجبيه، فاختفت البسمة وقال وهو يسرح بنظره بعيدا:

- يا "خويا"! هذا كلام لا يؤخذ به، ولا "يساوي ثمن بصلة في السوق" فكر معي.. ما بال من سبقنا وعاشوا قبلنا لم تفسدهم الحياة وعاشوا في طمأنينة رغم مصاعب الحياة ومشقة الحصول على الرغيف حينذاك؟ ألم يربنا آباؤنا بالقليل والقناعة والكفاف؟ هذا زمن"اللهطة". لا.. لا.. أبدا.. لا تقل لي ذلك.. الجشع.. الأنانية.. حب النعمة التي في يد الآخر.. هي سببنا في هنفسه قطع "الكرش الكبيرة" صارت "بلا أضلع".. يكاد الواحد بلا حياء يخطف اللقمة التي في فم أخيه.. إني لأرى الواحد منهم يتمنى زوال نعمة جاره.. أما الغطرسة "الفارغة" فحدث ولا حرج.. فبعضهم ما إن يشتري سيارة و"خربة" حتى يظن نفسه قطع "الوادي" وجفت قدماه.. فينظر إليك من أعلى.. كأنك "بخوشة" ولست بشرا.. والمصيبة أن حياته كله بالقروض وأساسها الحرام البين.. والله.. سلني أنا.. أنا أعرفهم واحدا واحدا..
- الشيظمي.. أنت تعلم أنه لا يمكننا العيش في هذا الزمن بدون قروض..
- ماذا تقول؟ القروض هي سبب البلاء.. الربا والسحت.. أعوذ بالله منهما.. هما سبب هذا الجشع
- واللغط، هما الداء وليس الدواء..
- صدقت.. فكلما فتحت للإنسان بوابة القروض والديون السهلة ازدادت رغبته في الاستهلاك الأعمى.
- ماذا تقول؟ كلامك أحيانا لا أفهمه..

- أقصد أن "الكريدي" يغرق الإنسان ويخنقه حتى الموت..
- نعم يغرقهم أو يجننهم.. ألا تر عجب هذه الأيام؟ فبعض الرجال يمشون في الطرقات بلا عقل.. والله.. والبيت الحرام.. إني لأراهم من مكاني هذا فأعجب لأمرهم وأشفق على حالهم.. يكلمون أنفسهم وما بهم جنون ولا سحر.. فقط صارت تلك هي عادتهم.. حتى أنك تسمع بعضهم أحيانا في غفلة منهم يطلقون صيحات تخرج من أعماقهم.. كأنهم في خصام مع "الجن"..

كعادته يخلط الجد بالهزل ليضفي على الموقف جوا من المرح:

- المصيبة.. يا أستاذ.. أعظم عند بعض الرجال الذين يكلمون أنفسهم بصوت عال في الشوارع.. ولا يشعرون بذلك.. احمد الله.. فزوجتك لا تسحر لك ولا تستعين "بخلطات" العجائز "لتبلديك".. فما أكثر المجانين والحمقى الذين يسيحون في الدروب والشوارع.. بل في مدن غريبة عنهم وكل هذا من فعل بعض النساء اللواتي لا يترددن في استعمال أي شيء لترويض الرجل وتكبيله بوثاق لا يعرف أحد فكه إلا هن.. لكن النتيجة أحيانا تكون خطيرة.. الجنون.. والضياع..

بنبرة لا تخلو من عدم رضا عما يتفوه به، أرد عليه وأنا أشير إليه بسبابتي على مقربة من وجه:

- الشيظمي..! أنت واهم.. والله العظيم.. ويركبك الوهم من أخمص قدميك إلى رأسك.. عن أي سحر تتحدث؟! هذا كلام "خرافات".. فلا سحر ولا هم يحزنون.. الزمن والحياة ومشاغلها أكبر ثقل يقض مضاجعهم.. قد تظن الناس سكارى وما هم

بسكارى.. مجانين وهم عقلاء.. يرتبون ويعدون فواتيرهم العديدة في عقولهم، منقطعين عما حولهم.. يضيفون ويطرحون الأعداد.. وهم يمشون في الطرقات وما هم بمخبولين.. هم ناقمون أحيانا.. غاضبون.. متوترون يثأرون لكبريائهم وكرامتهم في مشاهد يتخيلونها.. يسوون خلافات في عالم خيالي عجزوا عن تسويتها في الواقع المر.. فتسمعهم يسبون.. يلعنون.. يشتمون.. فلتات ألسنتهم قد تفضحهم بألفاظ بذيئة وهم لا يشعرون.. قد تركبهم الرغبة في الرد عنفا ينفس قلقهم فيوجهون ركلات ولكمات في الهواء.. فتظن أنهم حمقى.. وما هم إلا ضحايا.. هذا الزمن الأغبر.. يا صاحبي.. القهر لا ينتج إلا العهر والفقر..

- كلامك أحيانا لا أفهمه.. رجاء كلمني على قدر فهمي..
- أقصد أن الدنيا غير عادلة في العطاء والأخذ..
- الدنيا لا تعطي شيئا.. يا متعلم.. الله هو العاطي.. وهو عادل في عطائه وأخذه.. هل أنت يا أستاذ غير راض على قضاء الله؟
- لا أتحدث عن نفسي.. يا شيطان!

أحدق لحظة في عينيه العميقين وقد كان ناتئ الجبهة، بارز عظمتي الحاجبين، كانت نظراته حادة وشرسة بالطبع لا بالمزاج، يبدو لي مصغيا في انتباه واهتمام كبيرين، أخشى أن يكون هذا الحديث مقدمة لسبر أغواري، ولمعرفة أفق تفكيري، فأنا رغما عني ما زلت رهينة ماض يخيفني ويشعرني بالتوجس كلما طال الحوار وتفرع إلى مواضيع حساسة وفرعية.

يعطيني هذا الرجل انطباعا أوليا ولو سطحيا بأنه بسيط.. شفاف.. بلا أقنعة ولا تنميق، يشعرني أيضا أنه يمتلك حظا من الذكاء أقرب إلى الدهاء، وأحيانا يصير عصيا على الاختراق، كجزيرة نائية في محيط عات يحفها شاطئ صخري وعر، أو كأرض لم تكتشف كليا ولا يظهر منها إلا شاطئ صخري وخلفه يمتد دغل موحش..

هل عليَّ إذن أن أصمت؟ هل عليَّ أن أتحاشى لعبة السؤال والجواب الماكرة في بعض المواقف المزيفة؟ قناعتي راسخة.. الصمت درب للنجاة في موقف مثل هذا.. عليَّ أن أزن كلماتي.. أن أكون متحفظا.. محايدا.. لا.. لكن الحياد أيضا مؤلم.. أؤدي ثمنه غاليا.. حرقة في القلب وحسرة في الصدر وقلقا مبعثرا في العقل.. رباه..! أعياني هذا الحياد الرخيص حتى تملكني الإحساس بالعار والهوان وصرت أقرب إلى فكر الدهماء.. بل من العامة من لا يخشى لومة لائم أو عاقبة حاكم في قول كلمة حق..كم أرغب في أن أنتمي إلى أفكاري بلا خوف.. أن أبدد بجرعة جرأة سحرية هذا القلق الذي يكبح أعمق مشاعري، وأصدق أفكاري. رباه..! أعياني هذا الجبن المتستر وراء لغة حربائية..على عقلي أن يقر بوجوده.. ويكف عن الهروب نحو ملاذات لفظية مراوغة.. عليه ألا يخفيه وراء نعوت ومسميات ملتوية.. كالحرص والحذر اللذين رهنا كل مواقفي في الصمت، وحالا دون اندماجي في جماعة سياسية أو مدنية.. لماذا افترضت منذ البداية أن الأحزاب كائنات زئبقية ثم نسيت مع الزمن أن الأمر في البدء كان مجرد رأي فصار عقيدة؟ لماذا ما انفك عقلي يزعم أن كل مجموعة سياسية أو مدنية هي تكتل للمصالح لا غير، وهو يعلم

أنه في البدء كان هذا مجرد رأي للهروب من المسؤولية؟ كيف صارت لغتي المراوغة عقيدة راسخة؟

الحقيقة أن هذه التوصيفات المغرية لسكينة العقل والصدر مطية لي لأخفي بمكر جبني وخوفي من المواجهة.. من أنن أكون في قلب الهم الجماعي... لا على هامشه بدعوى اللاجدوى.. أعلم أنني ضحية الماضي والعبث.. أعلم أن جروح المعتقل السياسي لم تندمل بعد.. لكن، لست وحدي من عانى وكابد.. المعتقلون السابقون خرجوا أكثر عزما وتوهجا.. وساهموا في العبور السياسي بمآسيه وأفراحه.. أما أنا فاكتفيت بفكرة غريبة، أبرر بها جبني.. فكرة صارت عقيدة في غفلة مني "ألا فائدة من السياسة".. "ألا فائدة من أحزاب تصنع في دهاليز السلطة".. أعلم يقينا أن تعميمي هذا مجرد طوق نجاة لعقلي المتردد وقلبي المرتعش للهروب من يم السياسة المتلاطم الأمواج.

سئمت أن أردد دوما ما ينتظرون، أن أتحدث وفق انتظاراتهم.. سئمت من إغلاق منافذ القول الآخر.. المغاير.. سأتحدث بحرية.. سأقول للشيظمي حقيقة هذا الألم الجماعي.. سأشرح له من أين أتى هذا الشيء الذي صار في العقول كالجنون، سأعري له حقيقة الضياع والتيه والظلم والعهر..

- الشيظمي.. الناس.. معذورون.. فهم.. فه.. ف.

يحضني الشيظمي في استغراب واهتمام وقد دنا بوجهه مني حتى أخافني مرددا:

- نعم.. الناس.. ما بالهم؟ ما لك بلعت لسانك؟ تكلم.. أستاذ.. تكلم.. أستاذ..

يغدو صوته قويا في عقلي كصوت محقق ملح قاس، في قبو عفن مظلم غابر، تعبر على غرة صور قديمة مؤلمة كالبرق في عقلي، فترتبك لغتي من جديد، ثم يؤجل العقل جرعة الجرأة، محذرا بصرامة حد الترهيب من مغبة البوح والعري والكشف، فيسمعني دويه المقعقع كرجع الرعد الغضوب، في رعب يتردد صداه مولولا في مدني الداخلية "لا..! أصمت!.. هل جننت؟ العيون والآذان مبثوثة كالفطر في كل مكان، تلتقط كل صغيرة وكبيرة، حتى التفاصيل المهملة في حياة الإنسان" ثم يخفت.. ويصير حميميا في نبرة شفقة "إني أخاف عليك من هذا المدعي المزيف.. كلهم مزيفون.. مقنعون.. هل نسيت علاقته بالسلطة والشرطة.. أصمت..! اليوم.. قلت ما يكفي.. فما أكثر التفاصيل التي تظنها دون معنى ولا أثر وهي حاسمة في مسار الحياة.. بل قاتلة.. فعاقبة رأي أو تعبير عن موقف قد تكون مكلفة.. ليس بعد

يا عزيز.. الطريق طويلة.. لا يغرنك ما تسمعه وتراه.. فأكثر ما تراه مزيف.. حصن نفسك كالعادة بجهلك المزيف.. بمجاراة سطحية للحديث:

- أستاذ.. أين أنت؟ أين غبت؟ سبحان الله..

أشعر بأنفاس الشيظمي دافئة على وجهي، وهو يلوح بكفه أمام عيني مرددا:

- أستاذ.. أستاذ.. "الرجوع لله".. أين سافرت..؟

أنتفض كطائر مبلل الجناحين من زخات مطر، أقول له مبتسما علني أخطو بعيدا عن مصيدة البوح مستجيبا لدق طبول الخطر في عقلي ومبعدا عني كل شبهة:

- الناس ليسوا على شاكلة واحد.. لا ندري كيف يفكرون.. ولا ما هي أسبابهم.. صدقت يا صاحبي.. الله هو العاطي.. علينا القبول بقضاء الله..

يبتعد عني مستغربا وهو يضرب كفا بكف:

- سبحان الله.. ظننتك في غيبوبة.. الحمد على العودة.. على السلامة.. أين سافرت بخيالك يا رجل؟ والله خشيت عليك حتى وهنت ركبتاي.. سبحان الله.. ما هذا؟

- أرأيت؟ هكذا أنا..! أحيانا أغدو مثل أولائك الناس الذين تصفهم بالمسحورين أو المجانين..

منتفضا في استياء وقد تجعدت جبهته وقطب حاجبيه يصيح:

- أستاذ..! ماذا تقول؟ اسمح لي..! لا.. لا! أبدا.. لا تخلط الأمور.. أنت لست مثلهم.. سبحان الله أتقارن الصفاء بالعفن..!؟ لا تقارن نفسك بهم.. أكثرهم تافهون.. مغرورون.. إني أعرفهم جيدا.. عالمهم كبيت من رمل... متغطرسون من فراغ، أخف ريح تهدم هذه الحياة التي يتشدقون بها.. للأسف.. ما زلت هاويا في هذا المجال.. اذهب إلى عملك.. يا طيب..! أتعرف أن منهم من يمر يوميا.. ولا يلقي حتى السلام.. سلام الله يا أخي..!؟

يعود إلى كرسيه، يمد رجليه بعيدا على أرضية المدخل، تبدو ساقاه السمراوان، رقيقتي العظمتين، بهما ندوب طفح جلدي قديم، وآثار خدوش وجراح غائرة مختلفة، ينشغل عني في برم شاربيه بيد وعد حبات السبحة بيد أخرى.

رغم أني أكن له حبا مشوبا بتردد، ولي في علاقتي به مآرب شتى، ما زال ينتابني شعور جارف من الريبة والحذر منه، لم أجد يوما مبررا قاطعا ولا حجة دامغة لتبرير توجسي، بيد أنه كان يعرف الكثير عن الناس والسكان وله علاقات متشعبة، ولسانه سليط أحيانا، وتريبني علاقته بالشرطة.. والسلطة.. من شيوخ ومقدمين، فكثيرا ما توقفت سيارة الشرطة أمام العمارة بلا سبب محدد، فيهرع إليها في نشاط وحماسة، يتبادل أطراف الحديث مع رجال الأمن منحنيا وقد تدلى برأسه داخلها عبر النافذة المجاورة للسائق، يكلمهم مرة ويودعهم بنكتة.. وأحيانا أخرى في صمت، ويعود إلى مكانه وهو يبرم شاربيه بارز الصد "متطوسا".. كان الأمر يروق له، ويشعره بزهو غريب، وسعادة غامرة، أما سكان العمارة فلم يكونوا مضطرين إلى التنقل إلى مقر "القيادة" أو البلدية، للحصول على وثائقهم الإدارية، كان يؤدي المهمة بنشاط وحرفية.. وينشرح قلبه للمدح والمجاملة من لدنهم.. فيردد في تبجح "القائد ورئيس الجماعة لا يردان لي طلبا ولا مسألة.. فسعادة القائد ما إن يخبره "المخزني" أنني حضرت.. حتى يدخلني بدون انتظار أو طابور"

هذا التصرف الغريب الذي يؤمن له موطئ قدم في مدينة لا تخلو من البلطجة والتسلط والإجرام، أتفهمه أحيانا، وكثيرا ما فسرته بما يعانيه أهل القرى من ظلم وبطش حتى تعودوا على الخدمة والسخرة، وصار جاه عالمهم كجاهلهم، يقاس بمدى حظوته لدى السلطة والدرك، وبمدى قدرته على لعب دور الوساطة، والشفاعة لكني ظللت علي تصنيفي له في خانة "الريبة".. متناغما مع حذر عقلي الملح.

في لحظات كثيرة حينما يرضي كبريائي، أو يقدم لي خدمة خاصة أوعز توجسي منه إلى طبيعة شخصيتي الموسومة بالحذر والريبة وإلى الآثار القديمة والندوب العميقة التي مازالت عالقة بالروح والذاكرة منذ اعتقالي الأليم بمعتقل "درب مولاي الشريف" بالحي المحمدي..فضاء "كريان سنطرال" الشهير.. نعم مرت سنوات، بيد أن الجرح الغائر الذي خلفته أحداث يونيو1981 ظل راسخا.. عنيدا في قلبي يقاوم النسيان والزمن وطريا في عقلي يوجه بوصلة الأفكار والحياة في جميع تجلياتها.

أرتب أفكاري، فمازلت لم أنتعش كفاية وأحتاج إلى فنجان قهوة آخر، ومزيد من السجائر..مصطنعا ابتسامة تلوى الأخرى، فوجداني لا يستطيع أن ينسجها عفوية، لمزاجي الصباحي الحاد والمتعكر بلا سبب معين.. أقول برفق وحنو ظاهرين:

- والله "آسي" الشيظمي.. أحيانا يظن الناس أنني أنظر إليهم، وفي الحقيقة. أنه رغم أن بصري مصوب نحوهم، فعقلي لا يلتقطهم، لأنني دائما أمشي وأنا أرتب بعض الأشياء في داخلي.. وكم من صديق أو قريب قاطعني بحجة أنني التقيته ولم أوجه له التحية، أو لم أرد عليه السلام.. وكل ما في الأمر أن عيني فعلا تكونان شاخصتين في الشخص، ولكن عقلي لا يلتقط صورته لأنه يكون في شأن ما..

الحقيقة الأخرى أحتفظ بها لنفسي، فليس كل الحقائق تقال، لأنه لم يكن بالإمكان أن أسر له أنني لم أكن أفكر في شيء معين، بل إن عقلي لا يثق فيه تماما، ولست مستعدا كفاية للبوح بكل شيء، عليَّ

ألا أقول إن جسدي قد تبدو فيه الحياة، لكنه مشلول التفكير وإن عقلي يتوق بياضا بعد هلعي الصباحي وخوفي على أمي.. لا تفكير.. لا أدنى تواصل.. وحواسي تصير.. بليدة.. محايدة تؤدي أدنى وظائفها.. عليَّ ألا أبوح له بما عانيته من تردد وجزع ..

ابتسم وقال وهو يرفع كفيه للسماء متضرعا:

- حفظك الله أستاذ عزيز من كل هم وغم وأبعد الله عنك أولاد الحرام.. يا رب يا سميع.. يا مجيب.. أعلم أن عملك في المحاماة يرهقك.. كثرة المشاكل والقضايا.. والملفات.. قلة الصبر أصبحت سمة شائعة بين الناس في هذا الزمن الصعب.. أريد أن أسألك.. كدت أنسى.. "ذكرنا الله بالشهادة".. كيف صحة الوالدة.. "لالة" حبيبة؟
- الحمد لله.. تعبت.. بالأمس.. وأنت تعرف أنها ما إن تنهض من مرض حتى يلم بها آخر.. للسن أحكام يا صاحبي..
- لا.. عليك يا "مرضي الوالدين".. نطلب من الله العفو..
- آمين يا رب..!

وقف من جديد، مبتسما في مكر ودنا مني أقرب، ثم شد على كفي بحرارة.. فشعرت بخشونة أصابعه، التي تشهد على أصله البدوي، واشتغاله لسنوات في أعمال شاقة كالحرث والزراعة والرعي.. نعم كانت كفه قوية وصلبة لكنها كانت دافئة.. ثم قال في حماس ضاحكا وهو يسوي شاربه:

- أعرف صعوبة عملك.. لابد أنك سهرت الليل في قراءة الملفات..

أضاف وهو يفتعل صوتا خفيا، كمن يهمس منهيا بقهقهة عالية:

- وبعض الكؤوس.. طبعا.. فأنت يا أستاذ لا تظهر لك الحلول إلا والكأس رفقتك.. تغازلها تغازلك.. تكلمك.. تكلمها..

يعاودني الهلع، أتحقق بنظرات خاطفة وسريعة، وأنا أمسح المكان ببصري، أنظر خلفي وأمامي متحققا من عدم وجود الجيران أو سماع العابرين لكلامه.. بحنق أنا أغلق فمه بأصابعي ضاغطا بقوة حتى كدت أخنقه، معبرا له عن سخطي، أصيح في وجهه:

- أصمت أيها الأبله..! قد يسمعنا الناس.. يا لك من متهور..! أيها الماكر.

يطوق عنقي في عناق قوي ثم يطبع قبلة على رأسي.. معانقا.. ضاحكا .. مهونا، هامسا في أذني:

- لا تقلق يا أستاذ..! لكل من هؤلاء الناس "بليته" فحتى الذين يراؤون الناس.. لهم شطحاتهم ولياليهم.. وبليتك أنت أهون لو تعلم مصائبهم..

صارت علاقتي بهذا الكهل.. متناقضة.. غير مستقرة على حكم ولا رأي.. تعرف الكر والفر والمد والجزر في مواقفي، فرغم عدم تبدد توجسي منه فهو لم يكن يفتح قلبه إلا لي في غربته هنا، فتوطدت بيننا أواصر الود حتى أنني كنت لا أجد حرجا في البوح له ببعض خصوصياتي ومشاكلي، إلا علاقتي بأمينة.. هل أجرؤ على البوح له بالحقيقة المذلة كونها لا تقاسمني الفراش منذ مدة؟ كيف ستكون ردة

فعله؟ وأين قد يشط به الخيال والتأويل؟ كما كنت أتحاشى الخوض معه في قضايا الساعة السياسية المحرجة.

كنت أعطل لحظة النشوة الخمرية والثمالة كوابح عقلي الذي ما انفك يحذرني من كل الأغراب.. ورغم أن الشيظمي غدا صاحبي، فقد ظل بعيدا عن منطقة الأسرار والمواقف الحقيقية.. فمهما كانت درجة سكري، كان في عقلي دائما حاضرا.. ذاك الصوت الكابح للعفوية.. بقوة وعنف.. الرقيب.. الجهور.. المخيف.. الفظ أحيانا.. يستيقظ في أي لحظة ويمنعني من البوح بأدق التفاصيل المربكة والحميمية وبآرائي المورطة.. فهذا الرجل رغم تعلمه الديني البسيط في كتاب القرية، يدينه دوما عقلي مهما فعل، فقدرته على الإنصات تحسب ضده وليس له، وتوجسي منه بلغ حد الخوف من ترويجه صورة عني أمام الناس، قد يفعلها ولا.. لكن ما أدراني؟ فحتى إصغاؤه وقدرته على الصمت الطويل بينما أنا أتحدث إليه بحماس، يخيفان عقلي.. فأضطر إلى التوقف أحيانا لمراجعة مقاطع بوح طائش.. والصوت القادم من جهة الحذر في خلدي يردد "ماذا قلت؟ هل جننت..؟ اصمت.. اصمت.."

ربما طيف المستنطقين أيام الجحيم في معتقل درب مولاي الشريف، وصمتهم الغريب ساعة العذاب.. ما زالا يقفان سدا مانعا بيني وبين رفقة بلا شروط ولا حذر.. بل بيني وبين الحياة.. الحياة الطبيعية.. بلا توجس ولا خوف، فأكثر ما تدينه هواجسي هذه القدرة الخارقة على الصمت والإصغاء.. عقلي يجده غامضا.. يحسبه يخفي أكثر ما يضمر.. يهاب قدرته على التكيف مع المواقف والشخصيات.. يصفه حربائيا أحيانا.. كم من مرة لجم عفويتي الصوت الفظ وهو يردد بلا

هوادة "إن حارس العمارة مزيف.. متعدد الأقنعة، إنك لا ترى وجهه الحقيقي.. احذر..!" ولكني أهون الحذر وأخفف حدة الرقابة، حين أراه مكشوفا في أكثر من مناسبة وهو في شرود ذهني يغوص في ذكريات أؤولها مؤلمة من خلال وجومه.. في البداية.. كنت أعتقد أن الأمر مرتبط بالحنين للجغرافيا والأشياء والكائنات..لكني اكتشفت مع الوقت أن هناك شيئا عميقا منغرسا بين الضلوع كشوكة عنيدة يؤلمه.. يهزه.. يخلخل أعماقه.. يجعله في فوضى.. يرتبها بمزيد من لفافات الحشيش، التي كان يبيحها قائلا "ما أحرقته النار.. طاهر.. وحلال"

كان هذا منطقه الذي يريحه..ويحل التناقض في شخصيته.. بين جبة الورع ونزق الحياة.. مثلما أجد أنا نفسي في دعاء أمي وصلاتها ملاذا لي من تناقضاتي الإيمانية.. لكن عقلي لا يقبل بهذا المنطق، بل يلصق بالرجل صفتي النفاق والرياء.. ويجره إلى قالب الجلادين الذين يسبحون بيد ويجلدون ويذبحون بيد أخرى..

يرشدني عقلي الرقيب في دواخلي إلى مواقف غريبة فيه، فيسائل مهارات الشيظمي في الإصغاء والحديث ويحشرها في زاوية الشبهة.. يحاكمها بقسوة ثم يدينها، لا يعتبرها ملكة.. طبعا.. تطبعا.. بل يرمي بالشك كالسهم الخارق، ويدق طبول الحرب على اليقين.. مدويا.. صارخا في كبرياء "انظر إليه..كأنه تدرب تدريبا منهجيا على النفس الطويل في لعبة الصمت، وعلى إجادة مهارة الاستماع"

أحاول أن أروض هذا الحذر فأحاجج غالبا عقلي ببشرية الرجل.. الإنسان في همه وغمه وحنينه وخيباته، أذكره بالأجواء التي يخلقها من أجلي مستثمرا ما جمعه من نكت ومستملحات ونوادر تراثية حتى يرفه

عني.. حججي مهما تعددت يردها هذا العقل المتوجس مستبدا بالحق والحقيقة ويدحضها.. يعدها واهية.. لا تصمد أمام اختباره.. صارخا كأني بصوته يسكن كل خلية في جسدي.. مرددا "لا.. لا.. يا عزيز.. الرجل له منهج واضح في الحياة، وله مهارات لا يتوفر عليها الإنسان العادي.. احذر من صمته.. احذر من أسئلته.. احذر.." أستمر في محاججة عقلي عله يقبل بالرجل في خرائط البوح المباح.. عله يرحمه فيرحمني.. فأواجهه "يا عقلي..! هو كأي بشري.. له لحظات حزن، وإن كانت عابرة، يطردها بافتعال قصة مضحكة.. وأحيانا تجتاحه مشاعر الغربة والوحدة والبعد عن الأهل التي تؤلمه، فتفجر فيه ذكرياته بين هضاب "الشياظمة" وقمم جبالها.. مشاعر الحنين تهزه هزا قويا من الأعماق كلما سرد مقاطع من حياته، أما شوقه الجارف لأبنائه وأسرته فيضفي أحيانا مرارة قوية ولوعة كاسحة على حياته.. حديثه عن الأهل ودفء العائلة يؤلمه.. الألم.. الشوق.. الحنين يؤسسون معا لإنسانيته النقية..فكم تتغير معالم وجهه من مسحة فرح إلى لوعة ترح كلما تعلق الأمر بالشوق.. تعكسها نظراته القاتمة.. الهاربة.. المرتبكة.. يا عقلي ..! ألا يكفي هذا ليكون هذا الرجل كما هو لا كما تصنفه؟ يا عقلي! أشعر به صادقا لا يقوى على الخوض في تفاصيل حياته السابقة دون آهات وحسرة.. الرجل يغير كثيرا مجرى الكلام.. أو يصمت صمت الناسك حزنا لا سبرا للأغوار.. ينقطع عما حوله مرغما كأنه يسافر إلى عوالم أخرى معطلا أي صلة بالعالم حسا وسمعا وبصرا، وحين يهم بالعودة إلى الواقع، يصدر زفيرا عميقا، كأنه تخلص من وزر ما يجثم على صدره، ويتمتم "الله يغفر لنا".. الرجل لا يصمت للإنصات وتجميع

المعلومات.. الرجل يشغله هم جارف.. لا تنصب له مشنقة يا عقلي..! أشعر به صادقا غير مزيف.."

عقلي.. متشبث بحججه على إدانة هذا الكهل، الذي في كثير من الأحيان وهو يغوص في ذاك العالم الخاص به أشعر به.. مضطربا.. خائفا... تهزه مشاعر الحسرة والندم، لدرجة أنه بدون وعي منه يصرخ.." يا ليتني.. لم أفعل"..كأنه في أتون الندم ندم ما.. يحترق لحد الموت.. ما الذي فعله ومازال نادما عليه؟ أخروجه من القرية لأول مرة أم جرم كبير مازالت ندوبه صارخة في نفسه؟ هنا يعود الرقيب القاسي لكسب معركته محاولا حسمها لفائدة الريبة والتوجس ويردد "أرأيت؟ الرجل يحمل سرا قاتلا يلهب جوانبه ويكسر جناحيه.. وجرحا لم يندمل بعد.. حتما الندم والحسرة يفتتان كبده.. فمم يندم؟ وما أصل هذه الحسرة في نظرك؟ لابد أنه كان مصدر مأساة ما.. بل مآسي.. ربما هو جلاد متقاعد.. مختبئ في ثوب حارس ضعيف.. ربما هو مخبر مازال في الخدمة.. حذار.. حذار.."

يا عقلي..كل حججك فرضيات فلا ترغمني على اعتناقها كحقيقة نهائية، وارحم هذا الكهل الذي ما إن يعقد هدنة مؤقتة مع دواخله، حتى يخوض الحديث معي بشكل حميمي دون أن يبخس من قدري أو يحط من قيمتي.. هذا الرجل لا يحط من شأني فهو يغير لهجته وطريقة حواره معي بين الناس، فلا يتجاوز الرسميات واللباقة والأدب.. هذا الرجل يدرك رقعة تواصله، وحدود مزاحه.. صمته ألم.. وليس مصيدة للروح والبوح..

سحبت يدي من يده بلطف، فظل منتصبا، وكان ديدنه في مثل هذه المواقف أن يظل واقفا إلى حين اختفائي واضعا كفه على صدغه محاكيا التحية العسكرية، فقد كانت كنية له أخرى هي "العسكري" اكتسبها بحزمه وانضباطه وقوة صبره، وقدرته على التحمل والانصياع للأوامر بشكل فريد.. والتنفيذ الفوري لحاجات السكان دون تماطل أو تلكؤ، قبل أن أغيب عن بصره سمعته يقول:

- هل من خدمة يا أستاذ..؟ أنا رهن الإشارة.. في كل وقت..

نعم.. هذا هو "الشيظمي" رجل جميع المهمات، الذي يضع نفسه رهن إشارة السكان لأداء مختلف المهام، لا يميز بين أحدهم أعطاه القليل أو الكثير، من حمل قنينات الغاز الثقيلة إلى الشقق إلى التبضع لهم في الأسواق والدكاكين.. بذكائه الخاص يعرف حاجة السكان بدقة، فأحيانا كثيرة أراه يهرع إلى الشارع، موقفا سيارة الأجرة لأحد القاطنين قبل أن يطلب منه ذلك.

التفتت.. خطوت نحوه.. وضعت يدي على كتفه وهمست في أذنه في تودد:

- نعم.. سأرى فيما بعد.. إن أنا.. أو البيت في حاجة إلى خدمة.. حين أعود في المساء.. الله يرحم الوالدين.. على كل حال..

أعرف ما يقصد بخدمتي.. لأنني مرارا وتكرارا، أرسله في مهام سرية وخاصة، حتى زوجتي أمينة نفسها لا تعلمها، وإلا كنت موضوع عدة انتقادات وعتاب يصلان إلى درجة التجريح. أمينة زوجتي للأسف رغم أصولها البسيطة من حي شعبي بدرب السلطان كانت نخبوية التفكير والعشرة لكن الشيظمي كانت له خرائطه الخاصة للتعامل مع الناس.

حارس العمارة هذا الذي يريد عقلي محوه من خرائطي، وإعدامه على مشنقة الحذر.. رقم مهم في حياتي.. حين أهفو إلى كأس وتقفل محلات الخمر أبوابها ليلا، وتغلق الحانات بالدار البيضاء إلا العلب الغامضة والملاهي الليلية اللتين أكره خمورهما لما يطالها من غش وتدليس في غفلة السكارى الذين يخجلون أو يخافون من الاحتجاج وهم رفقة بائعات الهوى اللواتي لا دور لهن غير تحفيز الزبون على مزيد من الاستهلاك مطوقات إياه بالمداعبات والقبل، مفجرات فيه غرائزه الدفينة، التي تغتال منطق الحساب في جو يشعرنه فيه أنه هو سلطان الليلة.

لم أسأله يوما كيف يفعل ذلك، لكنه كان يعرف تجار الخمور الليليين السريين إن لم يكونوا أصلا سريين، فهم يعرضون بضاعتهم على الملأ في زوايا الأحياء المظلمة والساخنة، حيث لا قانون غير قانون القوة والعنف والفتوة، عبر وسطائهم من القاصرين والعاطلين مقابل إتاوة يومية، وهم عيون تاجر الخمور يبلغونه في خفة وسرعة متناهية بحملات الشرطة، وبكل حركة مريبة، فيتصرف في البضاعة بسرعة فتختفي بعيدا دون أن تطالها أيادي الشرطة ولا عيون مخبريهم.

كثيرا ما أنطت به مهمة اقتناء علبة سجائر في الهزيع الأخير من الليل، وقنينة ويسكي فلا يتردد.. ولم ألحظه يوما ساخطا أو متذمرا، ولا متكاسلا.. الغريب أن فتوات ومنحرفي الأحياء الشعبية من ذوي السوابق العدلية يكنون له احتراما كبيرا.. وسمعت أنه يتوسط لهم في قضايا كثيرة لم أسأله يوما عن نوع الوساطة ولا طريقتها، لكنه كان مهاب الجانب من الطرفين مجرمين وبعض رجال الشرطة. لا يتردد في تلبية طلبي.. يقفز على دراجته النارية بخفة ورشاقة، هدير المحرك ضاج..

مزعج لعطب في العادم.. يختفي في الأحياء الشعبية المتاخمة للعمارة، ولا يطول غيابه حتى يعود بالمطلوب في سعادة وحبور وفخر.

يكفي أن أطرق الباب المرقع لغرفته الموجودة في الجوف المظلم للمرأب الجماعي دقا خفيفا، ليخرج مستعدا متأهبا، والأغرب أنه في كثير من الأحيان يطل علي برأسه من كوة قبل أن أعمد إلى طرق الباب، ويناديني باسمي، كأن أذنيه قادرتان على التقاط وقع الخطى وتصنيفها حسب الأشخاص، كان سمعه كآلة لفك التشفي.. أثار إعجابي الأسلوب الذي فرض به هذا المكان الذي يلوذ إليه في الليل للنوم، ففي البداية وضع خيمة من البلاستيك وبعض الأثاث القديم الذي حصل عليه من سكان العمارة كلما أرادوا التخلص منه، ثم كالنملة وفي صبر ونفس طويلين شيد غرفة بإتقان عجيب من قطع الخشب المهملة وورق الكرتون السميك، ومتلاشيات القصدير والنوافذ والأبواب المتقادمة المتخلص منها في المرأب.

لم يسبق له أن فاوض أو ساوم مقابل خدماته، كان يقنع بالقليل ويجود بالدعاء عند كل عطاء، يردد لازمته التي يبدو أنها تريحه "الله يسمح لنا ويغفر للكل.. أطلب لك التوبة يا أستاذ.. فأنت رجل خير.. وابن عائلة.. الله يخلف".. لم يسبق له أن احتج أو تلكأ أو تعذر بظرف ما للتهرب من القيام بالمهمة، كان جاهزا دوما، وكان رجلا كسب حب الجميع مما شفع له فضوله وحبه الغريبين للتفاصيل في حياة الناس..إلا عقلي فهو يرى في كل هذا تغطية ذكية على مهمة جد سرية وحساسة.. أنا وعقلي.. صرنا طرفي نقيض في معركة أريد حسمها انتصارا للرجل وهو يريد حسمها انتصارا للحذر.. للماضي..

أريد أن أخلصه من شوائب الذكريات الأليمة أما هو فيريد أن يخلصني من ثقتي العمياء وعفويتي..

أعرف أن بادية "الشياظمة" قاسية، ولقسوتها أحيانا قست القلوب والنظرات من شظف العيش فكلما قل الماء في بلدي جفت الصدور، وتضاءل الحلم والصبر في المشاعر.. فندرة الأمطار وصخرية الأراضي وقلة الكلأ، غيرت الأمزجة والعادات، إلا الكرم والجود، فرغم كل القسوة الطبيعية والتهميش، ظل هؤلاء الناس يواجهون اليومي في أحلك الظروف بكبرياء وعزة نفس، وإن تفرقوا في المغرب، يتاجرون في تجارات رخيصة، جائلين بين الأحياء والمدن القريبة، يعرضون الثوم، أو زيت "الأركان" في بشاشة وإلحاح غريب.

أخبرني الشيظمي حين صفا ذهنه وحن للجذور أن القرويين يعيشون في بادية الشياظمة، على خبز الشعير أو الدقيق المدعم الذي قد لا يصل إليهم رغم تدني جودته، كما يعيشون على بعض الزراعات "المعاشية" النادرة، وما يجنونه من تربية الماعز لحما ولبنا شعرا.. إذ ألف هذا النوع من الأنعام المناخ شبه الصحراوي للمنطقة والرعي في الجبال الوعرة حيث تكثر النباتات الشوكية، وبعض الأشجار الصامدة في سفوح الجبال، التي تتغذى على أوراقها لكن هاته المنطقة رغم قسوتها واختلاط تربتها بالحجارة، يعيش سكانها على ما تجود به أشجار الزيتون وشجرة الأركان الأسطورية التي لا تنمو إلا في مناطق محددة بالمغرب فهي شجرة مغربية بامتياز.. لم تفسد المدينة بعد هذا المنطقة، فمازال القرويون هناك يشبعون بالقناعة، ويحمدون الله على كل شيء.

رغم أن الشيظمي كان قليل الكلام إلا في حالات نادرة وطقوس خاصة تحفزه على الثرثرة، فقد خبرت منه أنه أول ما رأى النور كان في بيت من قش وطين.. ترعرع وشب في أجواء القسوة والشظف ومشقة العيش، كما يردد في فخر دائما، إلا أنه كان كهلا بشوشا تجاوز عتبة الخمسين حولا بقليل.. اشتعل رأسه ذو الشعر الكثيف القليل التجعيد شيبا رماديا، وزاده ذلك وقارا وإجلالا ووسامة في تناغم مع شاربه الكث الذي كان لونه أسود فاحما ولا يكف عن فتله في لحظات تأمله.. كزعيم شيوعي.

عقلي بهواجسه يحتاط منه ويرفض منحه تأشيرة الدخول إلى عالم الصدق والثقة وأنا يبدو لي طيب القلب والمعاشرة.. كثير الشكر والحمد، قلما يتذمر.. متأهبا للصلاة دوما، دون تزمت ولا شدة، يحفظ عن ظهر قلب كثيرا من السور القرآنية التي حفظها في كتاب القرية، وإن كان في كثير من الأحيان لا يفهم معاني بعض الآيات، وتختلط المتشابهة منها عليه فيلحن، هذا ما أكده لي إمام مسجد دأب على مجالسته بين صلاة وأخرى، يغتاظ منه، للحنه وسوء حفظه غيظا.. لم يكن يصده بجهالة ولا بغرور، وكان يكتفي بالضحك وتقبيل رأس الإمام، والإمام منبهر بقدرته على مواجهة كل موقف جاد بالهزل والنكتة، فيجاريه في مزاحه باحثا فيه عما يغير به إيقاع حياته الرتيبة..

يلازمه أينما حل وارتحل، مذياع صغير الحجم يأنس به في وحدته، ويبدد وحشته، مذياع يكاد يكون أثريا لصندوقه الخشبي المستطيل الشكل الذي فقد لونه الأصلي، فتحول إلى الزيتي وسط الخدوش وبقع الأوساخ العنيدة، وأزراره الدائرية البلاستيكية الكبيرة كانت عجيبة

لحجمها الكبير، أما مسطرة المحطات العريضة فقد كانت مقسمة ومدرجة خانات من كبرى إلى تقسيمات أخرى صغرى بأرقام لترددات الإذاعات التي تسبح في ضوء أبيض باهت يستنزف بطاريته بلا شكل.

كنت لا أعرف كيف كان قادرا على عد حبات "السبحة" التي تقفز بين أصابعه وفي الوقت ذاته ينصت بشغف إلى البرامج الاجتماعية، تدينه لم يحل بينه وبين تدخين "الكيف" ولا اقتناء الخمور لي، ولا مجالستي وأنا أشرب، ولم يمنعه من تعقب النساء والفتيات العابرات بنظراته دون غض بصره.

كان تدينه معتدلا.. كآبائنا.. وأجدادنا.. وجيراننا.. يحسن الظن في جميع الناس.. عيبه الوحيد أنه يكثر من التفاصيل في حكيه وحديثه إذا خرج من صمته وإن فتحت له شهية الحديث، يهتم بأخبار الناس ولو كانت حميمية، يقاسمني إياها، مستنكرا حينا وطالبا الستر والعفو حينا آخر، أشعر به من خلال اهتمامه بقضايا وأخبار السكان، أنه لا يعرف حدود وظيفته، ويخلط الأمور عن جهل، فالأمر كان عنده جزءا من وظيفته ويستهويه، ولم يخف أنه متنفس مهم لحياته الرتيبة، وكثيرا ما ردد على مسامعي قولته الشهيرة "لا أحب أن أستعلم عن شيء.. ولا أريد أن أعلم.. وأنا لا أعلم.. وأعلم حين يطلب مني.. خصوصا كل ما يدب ويسري في هذه العمارة.. لكن لابد أن يكون لي جواب على كل سؤال متعلق بالعمارة.. طبعا أنت تعرفني يا أستاذ..! أنا كجوف البئر.. لا أفصح عن الأسرار إلا للضرورة.. فمثلا لا يمكنني أن أغلق فمي كلما احتاج إلي القائد أو "الكومسير"، "راه المخزن هذاك.."

ومثل هذه العبارات يلتقطها هاجسي ويضمها إلى صك الاتهام، أنا أحاجج عقلي بعفويته، وعقلي يحاججني باعترافاته ويحذرني منه.

وأذكر حوارا حادا دار بيننا على إثرها، حيث جازفت بحذر لسبر أغواره بفضول مغلف بالهزل، متفاديا أن أشعره بتجسسي على عوالمه النائية، في محاولة مني لفهمه حق الفهم، فافتعلت مزاحا وسألته ضاحكا وأنا أطوق عنقه بيدي وأصارعه وهو يحاول التملص من قبضتي "ربما يا ماكر! لم أنج من لسانك..تحكي أسراري.. ربما.. وتبلغ عني أصدقاءك المعلومين كل شيء.. بالتفاصيل.. يا ثعلب! اليوم.. سأعاقبك"

يومذاك.. انفلت من قبضتي ذراعي بخفة وغضب.. ثم تراجع القهقرى بضع خطوات، وقطب جبينه، وأطرق رأسه إلى صدره وسكَت صمتا ثقيلا.. مديدا ثم أرخَى عينيه إلى الأرض حتى خشيت على نفسي منه، فحسبت إني طعنته في مقتل، رفع رأسه فجأة، وشرارة غضب تلمع في عينيه، وثب نحوي مزمجرا، حتى اقترب مني.. منقبض الأسارير... ضاقت عيناه فقبح وجهه، وانتفخت أوداجه وهو صرخ في وجهي "أتعاقبيني..!؟ تعاقبني.!؟ ماذا تقول..!؟ آه..! لو كان بإمكانك فعلا أن تعاقبني وتريحني..! اقتلني إذن..! وأرحني من همي وغمي.. لكن انتظر.. هل أنت.. حالم..!؟ من يعاقب الآخر أنا أم أنتم..؟ اتركني في حالي..! فأنا لا أجيد إلا عقاب نفسي وجلدها..

استند على الحائط، مطرق الجبين، حتى خفت عليه وخشيت منه، مد يده إلى قنينة ماء بلاستيكية، عب الماء منها عبا، ثم توقف ليلتقط أنفاسه وسط لهاث سريع.. فهدأ.. وبدا لي أنه استرجع "صوابه".. أمام

اندهاشي واستغرابي.. دنوت منه، مربتا على كتفه، وقلت له بلطف، وحنان محاولا ترميم ما شرخت "لا عليك... لا أحد يحاسبك فقط.. كنت أمازحك" لم ينتظر طويلا، وقال في حزن وهو ينظر إلي في شحوب خلفه لهاثه واحتقانه، وما عهدته فيه "أتظنني بلا وفاء ولا عهود...؟! أتظنني أبيع أصدقائي لمن دب وهب..؟! ربما قد أخطئ أحيانا لكن.. لا.. لا.. يا صديقي لقد تجاوزت الحدود وظننت بي الظنون"

سقط في يدي يومذاك، وقسوت على نفسي لحد اللوم والندم الذي اقتات من نفسي نارا واعتصارا، فألححت في ترضيته معانقا إياه قائلا "لا عليك.. سامحني لقد كنت أمزح" فشدني بكلتا يديه من خصري وهزني عاليا.. وهو يضحك بعدما تخلص وجهه من وجومه صائحا "من يصرع الآخر.. الآن..؟ يا صديقي..! أنت طيب يا صاحبي.. لن أؤاخذك على كلمات تذهب مع الريح.."

شعرت بأنفاسه الدافئة يتسارع إيقاعها على قفاي من شدة الجهد، أنزلني أرضا، وانخرط في نوبة ضحك وهو يردد بعدما استوى على مقعده يسترجع قواه.. بين لهاث وسعال، ثم قال بصوت خافت "وهل لك أسرار يا أستاذ..؟ أتظن السكر سرا يا "غشيم"؟ أصدقائي الذين على بالك.. لا.. لا.. يهمهم أمثالك.. يا رجل! يا طيب! أنت واضح كالزجاج.. شفاف لا تستر شيئا.. أما الماضي فهو طيش وانتهى.. ارتح !"

بقدر ما أدخل الطمأنينة يومذاك، إلى قلبي بقدر ما أشعرني بدهائه وهو يلوح أمام وجهي بسبابته بمكر وخبث واضحين، مضيفا في ثقة

بعدما استرجع أنفاسه وقل لهاثه "ربما يوم تطلق لحيتك..وتحف شاربك.. وتداوم على صلاة الفجر.. قد تكون لك أسرار.. لا أسرار لك يا صاحب الكأس وربطة العنق.. من يدري قد تصبح لك يوما ما.. فالناس يتغيرون باستمرار، ويغيرون مراكبهم، دون أن نفهم الأسباب.. فسبحان مسبب الأسباب.. مقلب القلوب ومغير الأحوال"

تبدد اعتقادي وتزحزحت ثقتي في نفسي على قدرتي تصنيفه، فاستغل العقل المتردد الوضع ودس سموم التوجس في الصدر ومن جديد اشرأبت رؤوس شياطين الهواجس الملتهبة شكا وريبة وعاد في مسوح الناصح إلى لعبته الماكرة.. مرددا في دواخلي "أرأيت.. الباطن والظاهر في كلامه؟ أنت حتما لا تفهم هذا الرجل أو بالأحرى لا تعرف غير غلافه الخارجي، ظله.. صداه فقط، هو ماكر يكشف عما يريدك أن تعرف.. يفهم الكثير ويحتفظ بأشياء كثيرة لنفسه.. إنه يلمح إلى ماضيك يا أحمق..! كيف عرف؟ إنه يلمح إلى اهتمام الأجهزة الأمنية باللحى التي تنبت فينبت معها الذعر.. أترى؟ أما زلت غرا وتظنه عاديا..؟

سرى سم الخوف في عروق مشاعري فبدا لي الشيظمي مريبا.. مخيفا، وشعرت بشبه تهديد، ربما صدق هوسي ربما.. أو أن عقلي تمادى في إعطائه أكثر من حقه علي وخلق منه فزاعة وما هو إلا كائن بسيط، لكن الرقيب الفظ عاد هذه المرة قاسيا مرددا "ماذا لو كان عينا من عيون السلطة؟" يا عقلي! لو كان كذلك سأكرهه.. سأتمنى موته.. لكن وإن يكن، لا شيء فيها يجعلني أخاف منهم.."

هل انتصر هاجسي على عفويتي؟ ها أنا ذا أشعر أن حقدا جنينيا بدأ يتشكل في صدري ينعش ناره عقلي الذي انتصر للكراهية، وفي شعور غريب وجبان تمنيت حسم هذا الصراع الأليم بطريقة سهلة أخرى.. فقلت "ماذا لو مات الشيظمي وانتهى الأمر؟" عقلي وهو يستحضر سياط الجلاد وبرودة القباء المظلمة، ورطوبة الجدران العفنة، وشحوب الأضواء الحزينة أفتى فتواه القاتلة وقال "ستشرب نخب موته عرسا في مدنك الداخلية" لكني لست مستعدا لظلم الرجل..

أنا هكذا ما زلت غير قادر على السيطرة على مخاوفي وهوسي، كم حاولت عبثا أن ألجم وحش التوجس والهلع الضاري، الذي ما إن ينفلت من عقاله بكلمة أو أدنى إشارة قد تكون عفوية، لا يعيرها صاحبها معنى حتى يصير سفاحا للسكينة والطمأنينة.. فتغدو الهواجس ضارية.. وفي عقلي تتناسل وتكبر كدوائر ماء في بحيرة عقب رشقها بحصى، وتتحول هولا وهلعا يقضان مضجعي، ويعكران صفو أيام طويلة، فأهرب مؤقتا إلى الكأس من بطش الوحش الضاري.. إني لا أتمكن من مجابهته وجها لوجه إلا في زمن وفضاء الحانة.. وعلي أن أنتظر أياما وأياما.. ليهدأ مع النسيان ويتبدد بين الانشغالات ثم يخبو بفعل الزمن.. بل يكمن في جهة ما في عقلي مؤقتا.. أعرف كم أنا جبان.. وأني لم أولد جبانا.. وأشعر بالعار والخزي، كلما تملكني هاجس.. يكون في البدء طائفا، فيصير هاجسا، ثم كابوسا يحرق الأخضر واليابس في تضاريسي الداخلية، لا يقبل إلا أسوء الاحتمالات، يشط بعيدا عن أي بريق آمل، أو سلام عابر.

الشيظمي.. لا أريد أن أخسر هذا الرجل، لا أريد أن أكرهه، لا أريده خصما لي، لكن كلما استجمع عقلي تفاصيل من حياته وأقواله ليدينه، يصير بالنسبة إلى رجلا غامضا وأشد ما يريبني هو الغموض، لهذا صرت أزن كلامي وأتحاشى النقاش معه في المواضيع الحساسة، فأنا ما زلت لا أدرك من هذه الجزيرة إلا أشجارا قليلة تخفي أحراشها.. وما رسخ الريبة أعمق وأعمق في عقلي وكياني لدرجة الذعر، حديثه عن الماضي، أيعرف هذا البواب البسيط ماضينا جميعا..؟ رباه جراحي ما زالت طرية.. متى تندمل؟

ودعته.. وتمنيت لو كانت لي عينان في مثبتتان على ظهري، حتى أتمكن من مشاهدته ومعرفة تقاسيم وجهه وأنا أخطو بعيدا عنه، فقط قهقهته تلتقطها أذناي، غارقا في ضجتها.. تعاوده كحة قوية تقطع انتشاءه، فكم كانت صولته في الحديث تسكره، فتبرق عيناه بريق الزهو..

4

اعتدت أن أعبر مشيا بعض الدروب والأزقة المتاخمة لشارع "إميل زولا" صوب الشريان الكبير شارع "مولاي إسماعيل" الذي يربط وسط المدينة بعدد من الأحياء وخصوصا الشعبية في اتجاه العاصمة الرباط، بين لغط وصخب عاليين أخطو غير مسرع ولا متثاقل، بين هذا وذاك، على الرصيف وقد ضاق بكراسي وطاولات المقاهي الممتدة..

عادة دأبت عليها لأنعش جسدي وأطرد الكسل عن عقلي وجسدي، ألتقط كالعادة قسوة في الوجوه والحركات، ويوثق عقلي بحسرة مشاهد كثيرة لوجوم سكن القلوب والعيون فقست له الأنفس والألسن لحد البذاءة.. سفاهة وعهر لا يراعيان لا جنسا ولا سنا، فلا أحد مستعد للتنازل عن حصة من زمن أو فسحة في طريق، الغضب يركب النفوس لأتفه الأسباب، وجيل جديد من المقيمين يحسم كل خلافاته التي قد يصطنعها لأتفه الأسباب غضبا وعنفا وتهديدا.. عادة المسالمون يتحاشون الأزمات والخلافات، يتنازلون عن حقهم ليس حلما لكن خوفا من بطش هذا الجيل الجديد من المنحرفين الذين لا يتوانون في استعمال العنف والأسلحة البيضاء أو إحراج الآخرين بالسب والوعيد.. المسالمون يصبرون ويتحلمون في أكثر الأحيان على مضض مما يتعرضون له من سب وشتم، درءا لكل شر ويمضون في طريقهم بلا أدنى ردة فعل، فالغضب الجارف البذيء هو أسلوب يومي لبعض الكائنات البشرية الغريبة الأطوار العابرة أو المتوارية في زوايا الأزقة.

جحافل المنتظرين للحافلات المتهرئة، في أكثر من محطة، تفتح شهية السرقة للصوص المندسين بين الحشود في الزحام.. مشاهد يومية

قاسية ومؤلمة لتزاحم شديد وقاس غير رحيم ولا حليم، صارت مألوفة وعادية..تزاحم أعمى يخبط خبط عشواء.. لا يفرق بين مريض عليل وصحيح سليم، ولا بين امرأة ورجل، تزاحم كاسر وعنيف أحمق وقاهر لا يميز بين صبي وكبير ولا بين شيخ ويافع، تزاحم أجلف همجي لا يفرق بين مرضع وحامل وقوي غاشم.. السرعة في قوة والغلبة هما الحاسمتان في هذه المواقف المضطربة.. لا يهم صراخ أم مرضع أو أخرى حامل، ولا توسل شيخ عاجز منهك ولا شخص مريض عاجز، كل واحد غدا عالما معزولا عن الآخر، هو مركز هذا العالم، وبعده يأتي الطوفان. تحول الناس إلى جزر معزولة العواطف والشعور، بلا تواصل ولا جسور، دموا كل القنوات الإنسانية، واكتفوا بالعزلة واللامبالاة.. فلا أحد في هذا التدافع الفظيع مستعد للتنازل عن مقعده لعاجز أو مريض أو شيخ أو حامل.. الأطفال والمراهقون يتسابقون إلى الكراسي بلا حياء ولا خجل، أمام أنظار آبائهم الذين لا يجدون حرجا وهم يرون الشيوخ والمرضى يتألمون في صمت، تسندهم أجساد الركاب عند اهتزاز الحافلة بين الحشد المتلاصق الأبدان ولا أحد مستعد لترك مقعده..

أمة أصابها وباء الأنانية، فاقتات المرض من قيمها وأخلاقها، وضاعت هويتها في المستنقع الآسن للذوات الخربة الأنانية، ففقدت الحياء والفضيلة، وركبت مركب الجشع والرذيلة.. رباه..! مدينتي المتشظيمة الهوية المتعددة الأصول والجذور، تغيرت مسخت.. وتشوهت.. كما مسخ الناس وتشوهت أفعالهم.. جاءت المدنية والعصرنة بكل مظاهرها في اللباس والعمران والحياة، وتخلفت عن

العقول والنفوس والقلوب.. متى لا نتزاحم؟ متى ندخل الحضارة الجديدة من بوابة القيم والفضيلة؟ متى نصير جزءا من هذه الحضارة بالاحترام والحب والتقدير وحسن الجوار والإيثار؟ أين أضعنا أنفسنا؟

أمر بين الأزقة، يلتقط بصري أجساد أطفال نحيلة من الهزال.. طرية شبه عارية هدها الجوع والبرد والسقم والمخدرات، على أدراج العمارات ما زالوا نائمين، متعبين.. جائعين.. في أسمال عفنة وخرق متسخة بالية وأحذية مقطعة، يفترشون قطع ورق علب "الكرطون" المفككة، مكومة أجسادهم، ركبهم نحو رؤوسهم، غير مبالين بما يحدث حولهم، تسري مرارة في صدري من حسرة وينقبض قلبي انقباضا مؤلما، فأي قلب هذا لأم تترك فلذات كبدها تائهين في الدغل الليلي الموحش للدار البيضاء!؟ أي أسرة هذه.. تجد عيونها سبيلا إلى النوم، ولا يقض مضاجعها غياب الصغار وضياعهم في مدينة لا ترحم ولا تقدم شيئا مجانا!؟ أي أسرة هذه تجتمع حول مائدة الطعام ولا تفتقد صغيرا غاب ولا فتاة صبية بلا قوة ولا حول صار الشارع مأواها!؟ كيف يجد الطعام طريقه بسهولة إلى البطون!؟ كيف يفرحون في الأعياد والمناسبات!؟ لابد أن أمرا أشد وأصعب وأشق من حياة التيه لهؤلاء المشردين الصغار، جعل الأسر تتقبل الوضع، ولا يثير فيها شفقة الأمومة والأبوة والأخوة الفطرية..

غالبا ما أحزن ولواعجي في خط تماس مع مشاعر الاكتئاب وأنا أتفحص الأجساد المريضة والنفوس العليلة المدمرة اليائسة، مستحضرا في قلق صورتك الأيادي الغادرة للعابثين بالبراءة والمرضى نفسيا تطالهم ليلا، فالمدينة لا تخلو من باحثين ذئاب عن متع استثنائية، خارج

المألوف، فقد يصير الأطفال والفتيان واليافعون المشردون ضحايا شهوات منحرفة غريبة، ثم يغدون محترفين مع الزمن من أجل لقمة عيش في البداية تبدد جوعهم، ثم يتحول الأمر عندهم مهنة في عالم دعارة الأطفال، فليس مستبعدا أن يشغلهم في دعارة خفية لكنها موجودة، نخاسون محترفون، مقابل الحماية والمخدرات والطعام والمأوى أو بالتهديد والترهيب.. إننا للأسف نمر كل صباح ومساء.. صيفا وشتاء.. أمامهم كأننا لم نر شيئا.. أو نوهم أنفسنا أننا محايدون عاطفيا، والحقيقة الصارخة والمؤلمة أننا عاجزون.. غير قادرين على تغيير الأمور..ضعاف أمام تيار الجهل والأمية والفقر والانحراف، مشلولون أمام تغيير هذا العالم الذي يحبل بالجشع والقهر والعهر والظلم .. ضعفنا جعلنا نراهم ولا نراهم.. كأنهم صاروا شيئا تافها مألوفا الرؤية، والأصل أنه شاذ غريب، تهتز له المشاعر وتتقطع الأكباد له ألما ورحمة، رباه..! كيف ألفت القلوب والعقول مشاهد البؤس والتشرد فصارت عادية في أيامنا لا تثير فينا أدنى شعور بالشفقة..؟ كيف وصلنا إلى ما نحن عليه؟ أين فقدنا ومتى أنفسنا؟ هناك خلل أصابنا جميعا في اشتداد وطيس الطموح والرغبة، فنتنت قلوبنا ونفوسنا، وتلطخت عقولنا بالجبن والاستهتار.. أدينا الثمن غاليا.. فقدنا أنفسنا.. ويا له من ثمن غال!

جحافل المتسولين والمتسولات.. يلحون على المارة طلبا واستجداء للصدقة التي جفت منابعها في الصدور، وتبددت محفزاتها في الجيوب، يلحون مصرين في ضجر واستياء، بعض السابلة في قلق يلجؤون إلى الغلظة الخشنة والفظاظة القاسية، لردع وصد غارات المتسولين المحرجين الذين كان لكل منهم أسلوبه وطريقته ومنهجه لاستثارة الشفقة في

القلوب..فهذه عجوز قد تقوس بجلاء ظهرها تكاد جبهتها تلامس الأرض، لم ينفعها عكازها لتقف منتصبة، ولا وشاح شعرها لستر رأس أشيب أحمر من خضاب الحناء، تمد يدها للمارة وقد تجلى المرض بينا في خطاها ونبرة صوتها الضعيفة، تشهر وصفة طبيب وعلب أدوية فارغة التي تنفلت من بين أصابعها المرتجفة، فتلتقطها بصعوبة جالسة ثم واقفة بمشقة، تستجدي العطف بعجزها باكية منتحبة: "يا مسلمين..! يا رحماء..! أعينوني على شراء الدواء.. ليس لي لا زوج ولا ابن.. أعينوني.. رحمكم الله وحفظكم من كل سوء.. ارحموا هذه الضعيفة.. فالزمن غدار ولا ثقة فيه.. حصنوا أنفسكم بالصدقة، فهي تمنع شر البلاء.." وهذا شاب قوي وسيم لولا ساقه المبتورة رفقة زوجته الشابة التي تذرف الدمع الساخن، في حضنها رضيع وقد تعلق بتلابيب جلبابها صبي آخر، تعرض مأساة أسرة بلا سقف ولا دخل: "يا سادة.. يا أصحاب القلوب الطيبة.. الرحيمة.. ارحموا أسرة من التشرد .. لم نؤد الإيجار منذ شهور.. وصاحب الغرفة سيرمينا في الشارع.. ساعدوني.. وهذا زوجي رموا به إلى الشارع بعد حادثة شغل بلا تعويض لا معاش.. صار عاجزا.. عاطلا.. أنقذونا من الشارع.. من التشرد... الله يرحم والديكم"، وهذا حافظ للقرآن يجلس في الزاوية نفسها قرب شباك الأداء الإلكتروني للمصرف، يتلو آيات قرآنية بصوت رخيم شجي وينتظر العطاء ونساء أخريات في مقتبل العمر يجررن أطفالا صغارا ورضع ملتصقين بحلماتهن، ويتهن بين الأزقة والمدارات..

عليَّ كل يوم أن آخذ جرعة مضنية من هذا الأسى والألم.. صعب أن تجد نفسك عاجزا.. غير قادر على تغيير وضع ما.. فأكتفي بالصمت كالآخرين.. ألوذ بحصن اللامبالاة.. أستمر في المشي.. أدندن كعادتي محاولا شغل عقلي بأغنية طربية، وأمشي.. أمشي.. أمشي كعادتي قبل أن أستقل سيارة أجرة.. عليَّ أن أمشي لأخفف وطأة الأسى عن صدري، لأستعيد السلام الروحي.. لأشعر بالحياة رقم قسوة المشاهد لأبدد صورة الشيظمي.. صور الصباح المؤلمة الكئيبة.. لأتخلص من الهواجس..

زعيق أبواق منبهات السيارات ومختلف الناقلات وأصوات هدير الحافلات الضاجة التي كانت تنطلق بجنون ينتشلاني من صمتي المؤقت، ألوح لسيارة أجرة، كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحا، والشوارع والطرق طفقت تتحول جحيما لا يطاق من الضوضاء والضجيج وسحابات الأدخنة السوداء وما يرافق ذلك من توتر الأعصاب وتعكر الأمزجة.

الطقس مال إلى الاعتدال بدون غيم كما حدست وخطوت اقتفاء لخطى بوصلة حدسي، أشعر ببرودة في قدمي، فسيارة الأجرة متهالكة، وبها عدة شقوق ومنافذ يتسرب منها تيار هوائي بارد، كدت أصاب بالاختناق من شدة كحة عميقة، بسبب تسرب أدخنة عادم السيارة، من ثقوب متعددة، استسلمت للأمر الواقع، لم أحتج ولم أعلق لأنني أدرك أن بعض السائقين تكون ردودهم قاسية وأحيانا جارحة، كان السائق يرمقني من حين لآخر من خلال المرآة العاكسة، حيث كنت أجلس في المقاعد الخلفية، كأنه يريد الخوض في حديث طويل، أشعر به

متأهبا، متربصا بفرصة مواتية لإقحامي في حديث رتيب وممل، كنت أغلق باب الكلام بانشغالي المصطنع باطلاعي على أوراق في ملف، بيد أنه لم يطل صمته رغم ذلك وقال متذمرا:

- أتعبتني هاته السيارة اللعينة، وصاحب المأذونية، أقصد مالك حق استغلال "التاكسي"، لا يريد تغييرها، أنا لست المالك.. أنا فقط سائق.. أي حماره.. نعم.. حمار المالك.. لا أخجل من قولها.. ربما تظن أن الكلمة تجرحني.. لا.. لا.. أنا حمار وبغل.. "أوزيد" لو لم أكن حمارا.. حيوانا.. ربما الحمار أحسن مني.. ما رمت بي الأقدار بين يدي صاحب هذه المصيبة "أبو كرش"، "فران" لا يشبع من الحطب.. اسمع.. نوابضها مختلة تفتت مفاصلي وتقصم ظهري.. عظامي تضررت.. عجلاتها دائمة الأعطاب.. أما المالك فلا يهمه إلا المدخول..

يرمقني بلمحة سريعة، كان رجلا في ربيعه أو خريفه الخامس على ما يبدو، ضخم الجثة طويلا، تكاد قامته تلامس سقف السيارة، لكنته كانت شاوية بدوية، رغم أنها لطفت بمعجم حضري بيضاوي، لم يحلق وجهه منذ أيام قليلة فقط.. شعيرات كأشواك قاسية، متفرقة على ذقنه، على قلتها كانت كافية لترسم شخصية متشائمة.. قلقة.. يرتدي ملابس دون اتساق ولا تنظيم.. أصلع .. بارز الصلع، سروال تجهد عند فخذيه، وقصر حتى بدت مقدمة ساقيه.. ينتعل حذاءا مغبرا به أثار الطين، من جلد مشبك، قميصه انحسر عن كرشه الكبيرة، ففاضت عن حزام السروال، ساعة يدوية مزيفة من "الكوارتز" تطوق معصمه في ضيق بحزامها البلاستيكي الأسود، ينشغل عني حينا

بالبحث في صنيدق السيارة الأمامي.. يخرج قرصا صلبا، يعمد إلى وضعه على لسان قارئ أقراص، تتعثر العملية، يعوقها عطب ما، أشعر بغضبه، من ملامح وجهه، الذي احمر احتقانا، وانقبض حاجباه، يعيد العملية مرة ثانية يواجه العطل نفسه، فيتحول إلى قناة إذاعية على المذياع المدمج مع قارئ الأقراص، وهو ينقر بسبابته نقرات متتابعة رتيبة على بطن المقود.. ثم يضيف وهو يحرك رأسه كأنه منسجم مع إيقاع، مقطبا واجما بجلاء:

- هذا المحرك اللعين..سريع السخونة.. يسخن فتسخن أعصابي.. على هذا الحمار المسمى "أنا" "حاشاك" من حين لآخر أن يتوقف مرغما.. مكرها.. وينتظر حتى يبرد.. ليضيف الماء، وطيلة اليوم استنشق هذا الدخان الأسود السام الذي سيقتلني حتما بداء الرئة، أطلب الله أن أجد عملا آخر.. ويعفو علي من هذا العذاب.. وأنتهي من هذه المحنة.. جهنم.. أف..! يا لطيف..! نحن السائقين نتعب وأصحاب المأذونيات الذين هم في غنى عنها يغتنون بلا تعب ولا كل.. أتعلم أن الملاكين.. هم من عليه القوم.. وليسوا في حاجة إليها..؟ لا أعرف كيف يحصلون عليها.. والفقير مثلي أحق بها..

أكتفي بإيماءة عابرة برأسي معبرا له بصمت عن اتفاقي معه ورضاي ثم أرد دون أن أرفع عيني عن الملف، محاولا أن أكون معتدلا في خطابي، فسيارات الأجرة كمائن خفية للبوح والتفريغ، فأنا أكره أن يجر لساني أحد لا أعرفه إلى مضمار الجدال في السياسة والقضايا الشائكة والمحرجة:

- الله ييسر لأمور.. الصبر.. الصبر.. يا أخي..! ما من مهنة بلا متاعب.. حياة كلها تعب.. يا أخي! "حاول على نفسك" فالتوتر يؤثر على الصحة.. والأمر لن ينتهي.. ولن نحل مشاكلنا بالقلق الزائد.. دع الأمور لمدبر الأحوال الذي هو كل يوم في شأن..

التفت إليّ التفاتة سريعة، ألمح احمرارا في عينيه، تقطيبه كان واضحا لكن أكثر عمقا، بدا أن جوابي المهلهل لم يرضه، ولغتي لم تكن له متنفسا ولا حافزا على المزيد من الثرثرة، ضغط على منبه السيارة بقوة، حتى شعرت أنه يرد على جوابي الذي لم يرضه، بطريقته الخاصة، فاستعاض بالمنبه دون ضرورة للرد لفظيا.. مطلقا زعيقا ثم شهق وزفر بعمق وآهات.. عاد فرمقني رمقات متقطعة عبر المرآة العاكسة وهو يعض شفته السفلى، ويزفر ثم يزفر بقوة، عكست درجة حنقه وتذمره وغيظه ثم تلهى بالدندنة.

تقاربت السيارات فجأة حد التصادم.. لم يكن الأمر استثنائيا.. فقد ألفت القلوب هذا الملل، والعقول هذا الضجر، والجوارح سيل الشتائم وفوضى الأبواق الصاخبة، واعتادت الصدور سحابات الأدخنة القاتمة

وتكيفت العقول مع وقع التوترات الدائمة، يفتح السائق النافذة الجانبية اليسرى قربه، ثم ينخرط في نوبة غضب موجها الشتائم واللوم إلى فارز أزبال، يقود عربة بحمار: "واعباد الله، هل هذه مدينة الدار البيضاء.. أم نحن في قرية؟ أنظروا إلى البدوي الأخرق.. الذي هاجر من "وراء الشمس" يقطع الطريق بعربته، والحمار أجفل خوفا من كثرة

أصوات المنبهات.. آبني آدم.. إنك أنت الحمار.. شوف آستاذ! "هذ لكلاب".. والبدو.. "هركاوة" استوطنوا الدار البيضاء"...

وحصل ما كنت أخشاه، قفز الشاب الزبال من العربة وترك الحمار يجرها في فوضى وجلبة معرقلا السير حتى ضج المكان بأصوات أبواق المنبهات، كان الزبال قويا طويلا واسع المنكبين، عريض الجبهة، تسلح بعصا ثم انطلق كالسهم الخارق نحونا، ينوي الانتقام من السائق وهو يرغي ويزبد، وشرارة الغضب تتطاير من عينيه، حافيا.. أشعث الرأس.. وسخ الملابس لحد العفونة بيد أنه كان فارها رغم الندب الغائر على حنكه، اعترض سيارة الأجرة وطفق يهدد ويلوح بالعصا ويتوعد شاتما ببذاءة:

- انتظر أيها القرد..! دعني أرك من هو الحمار.. يا أكبر بغل..! سأريك من هو البدوي يا "خماس" عند أسياده.. الله ينعل أمك العاهرة.. وأبوك الديوث.. يا ابن..

فانقاد السائق الغضوب لعاصفة غضبه الهوجاء، فلم يكن من المسالمين الذين يتفادون أمثال هؤلاء، فكبح السيارة كبحا ارتفع له صرير قوي، ثم ترجل منها في جنون وعربدة، وقصد الصندوق الخلفي لها فأخرج مفك لوالب العجلات، واتجه نحوه وهو يزبد مرغيا في أوج إعصار نفسي مدمر حتى انتفخت أوداجه وتطايرت شرارة الغضب العاتي من نظراته شاتما:

- اقترب.. يا ابن العاهرة.. يا ابن الساقطة.. لأريك من هو الديوث.. أيها العفن القدر.. سأهشم "لأمك" الرأس.. يا حيوان..!

ظننت أن جريمة واقعة لا محال، لم يمنع اشتباكهما الدموي لحد الآن سوى تسلح كل منهما بسلاحه، وانتظارهما الفرصة المناسبة لإجهاز كليهما على غريمه.. بدا السائق أكثر إصرارا من الزبال الذي شغله وأحرجه الحمار وهو يجر العربة بعيدا وسط ضجيج المنبهات الذي صار عاليا ومتنوعا، لحسن الحظ أن شرطي مرور على دراجة نارية مر من هذا الشارع، فتوقف وحال بينهما بصعوبة.. فنهر الزبال الذي أذعن وهدأ ثم جرده من العصا، وطلب من السائق المتهور أن يركن السيارة جانبا.. بدا لي من بعيد كلاهما يدليان بحجتهما وعذريهما ومظلمتيهما، قبعت في السيارة، أنتظر مترقبا، حتى دنا مني الشرطي وقال :

- صباح الخير سيدي.. هل رأيت ما وقع؟ فالسائق يطلبك شاهدا على اعتراض هذا الشاب لطريقه.. وتهديده أولا..

فكرت لحظة.. فأنا أعرف ثمن الشهادة ضد منحرف في بلدي.. ولم أكن مستعدا لأكون طرفا في حادثة مرشحة أن تكلفني الكثير، فقد يفكر الشاب في الانتقام مني، ثم قلت في لطف:

- سيدي الشرطي، أظن أن الأمر لا يحتاج إلى محضر رسمي.. الأفضل أن يتسامحا وأن يمضيا كلاهما إلى حال سبيليهما.

قطع كلامي السائق في غضب ولم تهدأ عاصفته بعد، وقد جف لعابه، وبدأ أبيض على جانبي شفتيه كدقيق الطحين مرددا وهو يهتز اهتزازا كقط محاصر، مرغيا، في غضب صائحا وقد انتفخت أوداجه:

- ماذا تقول؟ نتسامح..!؟ وهل أنا من طينته؟ لابد أن آخذ حقي منه.. لقد سبني ومس كرامتي وهددني هذا المتسخ..

تدخل الشرطي بفظاظة هذه المرة وقد نفد صبره وقال بنبرة مستبدة:

- لا تشتمه..! فأنت أيضا كنت تهدده بمفك العجلات.. خير لكما أن تتصالحا.. وإلا أقلكما إلى مركز الشرطة..

دنا الشاب مني وقد بدا عليه الهدوء وانفرجت أسارير وجهه وبدا لطيفا وهو يخاطبني:

- لقد سمعت سيدي ما كاله لي من سب وشتائم.. الله يرحم والديك كن حكما بيننا..

شعرت بطيبوبة الشاب رغم ما صدر منه، فسحبت السائق بعيدا وقلت له في حزم:

- اسمع.. أنا محام.. نعم إنه في ورطة.. ولكنك أنت أيضا في ورطة، الشرطي سيدون في محضر الواقعة أنك هددت الشاب أيضا بمفتاح العجلات.. زيادة على عرقلة السير.. اسمع الزبال ليس له ما يخسر.. أما أنت فتعيش على "اليومية".. حكم عقلك.. ستكون أنت الخاسر.. ضياع الوقت يعني ضياع المال..

قاطعني وقد ظهر عليه بعد التعقل:

- ألم تر ماذا فعل؟ لقد كنت أدافع عن نفسي.. لقد أراد ضربي بالعصا..

- وهل العصا مثل مفتاح فك العجلات الثقيل.. أمام المحكمة..؟ إنه سلاح قاتل.. تعقل.. اقبل الصلح واذهب إلى عملك.. لا فائدة لك من هذا النزاع..

- من أجلك فقط.. سأقبل..

تصالحا عناقا.. في أعماقي..كنت أضحك.. لأن رائحة الزبال كانت نتنة وقوية، وليس أمام السائق إلا التظاهر بعدم التقزز..

استأنفنا الطريق وعاد السائق إلى عادته القديمة، كأن شيئا لم يقع، فقال لي في غطرسة:

- المتسخ.. لو وصلت إليه لهشمت رأسه.. أنا أعرف هذا النوع من الكلاب لا يصلح معهم إلا العصا..

لم أرد عليه.. ينقر المقود بأصابعه، يشغل الراديو، ثم يضيف:

- أرأيت يا أستاذ كم امتلأت الدار البيضاء بالبدويين حتى صارت متسخة؟ متى نتخلص من هؤلاء؟ لم نعد نحتمل الوضع.. كل من يبيع بقرة أو حمارا يقصد الدار البيضاء، ويشتري "براكة".. ثم يحصل على شهادة السكنى.. ويصير ابن البلد.. يمارسون مهنا قدرة... وسخوا المدينة هؤلاء الأوباش.. يقضون سنينا في "الكريان" وفي أحياء عشوائية.. ثم تمنحهم الدولة شققا فيما بعد.. وابن البلد الأصلي يظل بلا سكن في دور الكراء..

أشعر بالامتعاض وأوشك أن أرد عليه بقوة لفظ تليق برعونته أردد في أعماقي "ومن منا من هذه المدينة المتشظية الهوية؟ من منا لم يأت سواء هو أو آباؤه أو حتى أجداده من البوادي إلى الدار البيضاء..؟ الدار البيضاء تجمع كل الناس من أصول مختلفة وجذور متشابكة من كل حدب وصوب.. لو سألته عن أصله، لأحالني على قبيلة أو دوار..هذا إن كان لك أصل.."

أحتفظ بردي لنفسي.. مستجيبا لسلطة عقلي، فأنا أكره أن أضطر إلى الدفاع عن فكرة، في حضرة العناد وغشاوة الجهل والتعصب والغضب التي تعمي العقول والقلوب وتغلق منافذ العقل... يقول هاجسي "اصمت.. اصمت.. لا جدوى من النقاش.. لن يغير الحوار شيئا.. فلا أمل لكفي ربح سجال فكري أحد طرفيه جاهل متعنت.. وغضوب.. يقسم الناس حسب الأصول لا العقول.."

5

أصل منهكا نفسيا متعبا وجدانيا إلى مكتبي.. أتخذ مكانا على الشرفة، على كرسي بلمسة تقليدية جميلة، بالشقة التي جعلتها وزميلي صابر مكتبا للمحاماة بشارع "أبي ذر الغفاري" بحي "سيدي البرنوصي" الشعبي.. خلافا لهذا الحي الشعبي الذي أشعر به بالراحة والعفوية، وعدم اضطراري إلى التكيف مع جماعة بشرية مسجونة في وهم الزهو والغطرسة والغرور، فهناك حيث أسكن كل شيء مصطنع.. من السلام إلى العزاء.. من التحية إلى الدعاء.. أكاد لا أشعر بالأعياد.. لا أعرف متى يفرح أو يحزن جيراني، يمر العيد صامتا بلا طعم ولا أثر كباقي الأيام، هنا حيث أعمل في هذا الفضاء الشعبي المفعم بالعفوية والارتجال، من هذه الشرفة عيناي ترصدان الحياة الجامحة، التي تنساب ببساطة دون تكلف ولا تصنع إلا قليلا.. أرى الحياة على حقيقتها وتغيراتها الطارئة، أرى الأيام في تبادلاتها وتجلياتها وصولاتها وقهرها.. أشعر بالمواسم والفصول والأحداث في وجوه الناس في ضحكاتهم وفي أحزانهم وحركاتهم وجوههم غير مزيفة، تعلن عن أحوال البلاد والعباد بلا زيف ولا ولا عناد.. لغتهم اليومية وثيقة صادقة عما يجرى وعما يتشكل في القلوب والصدور بلا مجاملات ولا مساحيق.

الشوارع والأزقة هنا وثائق حية، على تغير الأحول.. فالقسوة بدأت تبدل تبدلا سلبيا العادات والأعراف، وصار الناس أقرب إلى العنف في سجالاتهم وخلافاتهم من الحلم والصفح ،يشهد على ذلك بجلاء عدد السجناء في السجون وتراكم الملفات القضائية في المحاكم، فإذا كانت الدروب والحارات هنا أقل أمنا وأكثر خوفا، إلا أن الحزن حزن والفرح

فرح والألم ألم.. الناس هنا يفرطون في الفرح احتفالا وبهرجة، كما يفرطون في الحزن بكاء ونحيبا وشقا للجيوب وتمرغا في التراب.. الأعراس ضوضاء لا اعتراض عليها، ورقص وغناء حتى الفجر، والمآتم بكاء وجنازات حاشدة ومعزون من كل صوب وحدب..من الجيران والأهل وإن سكنوا في البوادي والجبال، لا اعتدال في مشاعرهم ولا توسط في لواعجهم ومشاعرهم.. السكارى يسكرون حتى يفقدوا توازنهم ويسقطوا أو يترنحوا.. يلعنون ويسبون ويهددون في جنح الليل.. ويبكون.. كالأطفال.. كأنهم لا يحتسون الكؤوس ليفرحوا، بل ليبددوا سأما مسيطرا أو هما جاثما على الصدور، أو يؤجلوا خوفا مهيمنا. الخصام دائما مرشح ليتطور إلى شجار عنيف دموي، إلى أبشع الجرائم.

الناس هنا، قلما يدخرون ادخارا ذكيا لأيامهم الآتية، مستهلكون حينما تجود الحياة، وصابرون قانعون حين تشح السماء في المواسم المضطربة المناخ.. الحياة هنا رغم تبدل الأحوال، فيها جرعات من سعادة مفتقدة.. الناس يستغلون أي مناسبة للفرح.. قد يفتعلون المناسبات للاحتفال..

من هذه الشرفة تعلمت الكثير والكثير، مظاهر البحث عن لقمة العيش في أسواق عشوائية لبائعين في صراع مستمر على الطرقات مع أعوان السلطة وفي الساحات العمومية تغري عقلي بالتحليل واليقظة، ألتقط انشغالات الناس كأنني في عقولهم أسمع أحاديثهم وأحلامهم البسيطة، أكثر المشاهد وإن كانت محزنة.. قاسية.. تنعش ذكريات طفولتي وزمنا مهما من شبابي.. وأكثر النساء يشبهن أمي في نضالها المرير من أجل تربيتي وضمان العيش لي..

كم أشعر بالوحدة القاتلة في الحي البارد الموحش الجديد حيث أقطن، فأحن إلى زقاق طفولتي بالمدينة القديمة، لقد ولدت وترعرعت في حي أثري هو النواة الأصيلة الأصلية لمدينة الدار البيضاء، المدينة القديمة.. يرعى شؤوننا الروحية وحزننا الوجداني عن كثب الوالي الصالح "سيدي بليوط" من قبته الخضراء التي حاصرها الإسمنت من كل جهة.. ورغم ذلك ظل صامدا.. كان يبدد خوف أمي وجيراننا.. يمنح الأمل حفنة تراب من باحته التي تظللها سقيفة من قصب التف عليه نبات اللبلاب وكرمة عالية انتشر في حوضها "الغنباز".. حفنة تراب صلصال خشن يشفي بها الراقد الوقور تحت القبة المهيبة علل الأبدان وسقم النفوس، ويضمد بها جراح الروح وقروح الصدور وجرعة ماء عذب من بئره العميقة التي لا تنضب كالإكسير يعيد بها الحياة الطافحة بالرجاء إلى القلوب المحطمة من الجفاء والعقول التي سكنتها الأهواء.. كيف..؟ لا أعلم.. فمازالت رائحة البخور وعود "الند" و"القماري" عالقة بروحي تمنحني خشوعا وسكينة روحية..

كانت أمي تزور القبة الخضراء من حين لآخر، وكانت لها مواعيد مع الولي في مناسبات خاصة، فكلما غلبها القلق واشتد عليها الهم والغم فضاقت الدنيا بها بما رحبت كانت كان يكفيها "قرطاس" شموع وبكاء ونحيب في الضريح وبوح وشكوى صادقان تحت غطائه الأخضر، لتجديد الأمل في القلب والتنفيس عن الصدر الكرب، والعودة بالفرج بعد الضيق الغاشي، أمل قد يصنعه الوهم أو الاعتقاد الإيماني الراسخ أو البركة المنظرة.. وأنا بين الوهم والبركة تائه.. لا يقين عندي.. إلا أن أمي كانت تقفل عائدة بعد زيارة روحية منشرحة القلب مفعمة بالأمل.. لهذا

أحببت الولي الصالح "سيدي بليوط" وقدست فيه منذ نعومة أظافري إجلالا وأكبارا وتوقيرا قدرته السحرية ومعجزته الكريمة على صنع الفرح في عيني أمي، وتبديد الغم في صدرها، وتجديد الأمل في قلبها.. إلى أن قرروا أن يهدموا في عقلي رمزية هذا الولي الصالح..عيادة الحارة النفسية الجماعية الرخيصة بلا صور أشعة ولا تحاليل دموية حين تصدى لهذه المهمة أستاذي في الثانوية ذات يوم قائلا في ثقة العالم الفذ "اليوم.. سأحدثكم عن الوهم.. وقوة الوهم على التأثير في العقول.. كلكم تعرفون القبة الخضراء التي هناك.. على بضعة أمتار من محطة القطار حيث يوجد ضريح "بليوط".. يومذاك استغربت في البداية من لغة أستاذ الفلسفة غير المبجلة ولا الموقرة للولي الصالح ، كيف ينطق اسمه بدون "سيدي"؟ ثم استأنف الحديث هو ينظر بقوة في عيوننا المتعطشة للمعرفة شارحا "يقولون إن اسمه هو "أبو الليوث" ومنه اشتق اللسان الدارج وهو يلوك الاسم مع الزمن اسم "بليوط" والحقيقة الصادمة.. أن الضريح فيه قبر رجل "نصراني".. يضم رفات ربان فرنسي هوت طائرته المقاتلة في مكان القبة، فدفن هناك، ووقره الأجانب احتراما لذكراه فدفنه وزيارته ووضع الزهور على قبره"، ملكتني الرعشة حينذاك وداهمتني الرهبة مع حيرة قلقة، ماذا يهرطق هذا الأحمق؟ كيف لولي صالح غسل صدر أمي وأنا شاهد عيان مرارا وتكرارا من الهم والغم وأسكن آلامها وأشفى مرضها وفرج كربها الثقيلة ببركته أن يكون على ملة غير ملة الإسلام..؟! وأذكر أن الأستاذ كأنه أحس بحيرتي ربما من نظراتي واستنكاري الصامت من تقاسيم وجهي، دنا مني قريبا وقال وهو يضع يده على رأسي "العقول المتفتحة قادرة على تمييز الخرافة من العلم.. لا تكونوا متخلفين

مرددين كالببغاوات أساطير الأولين دون تحليل ولا تمحيص، فأصل سيدي بليوط فرنسية، اشتقها اللسان المغربي الدارج من "pilote" والتي تعني ربان طائرة مقاتلة.." لم تغب عني أبدا قهقهته الساخرة التي ظلت راسخة في عقلي، استحضرها كلما مررت أمام القبة الخضراء.. ومازالت تلك القهقهة تحضرني وصوته الموقن بفكره يتردد صدى مدويا في عقلي "إنكم تزورون بقايا رفات نصراني.."

أمي ترفض هذا الكلام وتصر أنه "أبو الليوث" الذي روض الأسود في هذه المنطقة وجلب الخير والبركة للمدينة في زمن ما، وعلمها البسيط يفتي لها في النازلة أن اللسان الدارج حول اسم "أبي الليوث" إلى "بليوط". وتقول في ثقة: "عندكم أنتم يا أولاد اليوم "بيلوط" وعندي أنا وأصحاب النية الصافية الصادقة سيدي بليوط الوالي الصالح.. "أبو الليوث".. زوج لالة عائشة البحرية التي ضريحها على الصخرة الشاطئية هناك..في سيدي عبد الرحمان.. "دير النية ونعس مع الحية"" أما أنا فأنني ما زلت هناك زمنيا حيث تركني أستاذي مترددا في الحسم وأميل أكثر لـ "نية" أمي.. رغم أنني لم أحسم في الأمر نهائيا وما زلت أبجل الولي الصالح مادام يمسح كرب أمي.

مدينتي القديمة الغارقة في الحلم وفي بهجة التلبد، حيث نشأت صالحت القديم والجديد دون نفور أو صراع، لكن الجديد المغري غوى القلوب، واستهوى النفوس، فزحف شيئا فشيئا يعضده الجشع والمضاربات العقارية والأحلام المجهضة، فتقلصت المدينة القديمة أطرافها، وخربت وتآكلت دورها فصارت آلية للسقوط، تخلف قتلى وضحايا من حين لآخر ولاسيما في الأيام الممطرة، وتخلى أكثر السكان الأصليين عن

المكان وهجروا.. كما هجر يهود الملاح ويهود الأزقة الذي عاشوا بيننا وعشنا بينهم في وئام ومحبة وحسن جوار وإخاء، وطفق وباء العنف والمخدرات وقسوة الحياة يغير العلاقات ويغير قيم الجوار.. والمدينة بسورها التاريخي الذي ما زالت مدافعه وقلاعه شاهدتين على عصر ذهبي، فقدت عذريتها وتلاحم أهلها وأسرها.

كان الثري فيها جزءا منها ومن باقي أزقتها، لم يختر السكن بعيدا في "فيلات" وعمارات راقية في أطراف الدار البيضاء، بل كان بين الناس يعيش ويتنفس ويربي أبناءه بلا غطرسة ولا تجبر، يفرح لفرحهم ويحزن لأحزانهم، كانوا ميسورين لكن لم يكونوا جشعين لصوصا للمال العام وأغنياء المال الفاسد والممنوعات، يمارسون عدة أنشطة.. كان جلهم تجارا أو مالكي مصانع صغيرة وورشات، وظلوا مرتبطين بالفلاحة والزراعة يمتلكون ضياعا في بوادي مختلفة.. لهذا ظلت أصولهم الريفية وارتباطهم القوي بالأرض والشجر يشذبان أرواحهم ويمنعان خلقهم من درن المدينة ويغسلان ما علق بعقولهم من عفن الثروة.. فظلوا كرماء.. رحماء..

بيوت الأغنياء كانت زاويا مشرعة الأبواب، يحج إليها المريض والمعدم، لا أحد ينقم منهم أو يحسدهم على النعمة التي كان للفقراء نصيب منها، أبناؤهم كانوا أصدقاءنا وكانت الأعياد والمناسبات تجمعنا بلا تمييز ولا هرمية.. المدينة القديمة.. بدكاكينها وتجارها وأنشطتها.. غادرها الأثرياء، فلم تعد إلا فضاء للفقر والقسوة والعنف.. فتولدت النقمة في القلوب والغضب في النفوس من الأثرياء الذين بعد ما كانوا جزءا من الحياة، صارت لهم حياة خاصة في فضاء خاصة محروسة، وأماكن للهو والمتعة لا يطؤها إلا الغني.. وصار لأبنائهم مدارس خاصة،

فانتصب السور عاليا حاجزا فاصلا بين عالمين، ففصل بين الفئتين.. وبموت طبيعة الأشياء في تعددها وتناغمها من خلال تعايش الغنى والفقر جنبا إلى جنب، تتشكل الهويات الصغرى، وتنشأ العداوات والأحقاد والضغائن محل المحبة والتآزر.

في العمارة الجديدة حيث أقطن أشعر ببرودة المشاعر والعلاقات، أكاد أجزم أن كل شيء فيها مزيف.. من السلام.. إلى الابتسامات.. نكاد نحن الجيران لا نعرف بعضنا البعض فيها.. نلتقي في الردهة أو في البهو أو المصعد، ولا أحد فينا يمد يده للآخر للمصافحة، لنشعر بدفء العلاقات وقيمتها.. سلام عابر، كأن الكل محتاط، متوجس من شر كامن، وغير مستعد أن يفتح ولو كوة في حياته، فبعضهم يكتفي بهز رأسه ورسم ابتسامة عابرة مزيفة.. لا زيارات.. لا لقاءات في أعراس.. فقط هي المآتم ترغم البعض لحضورها لأنها في الزقاق وعلنية.. وأحيانا يموت جار وينقل إلى المقبرة من المصحة، ولا نعلم..حتى نكتشف غيابه، فنضطر للتعزية في البهو أو المصعد كلاما مسكوكا، بلا معنى عاطفي.. مآتم تقام من حين لآخر.. كأنها احتفالات.. أكل وشرب وتبذير لا نظير له..

في هذا الحي الشعبي حيث مقر عملي أتنفس حياة غير مزيفة بعنفها وغضبها ونزواتها ومروقها وآلامها.. الموت هنا حقيقي مؤلم يعقبه عزاء وأجواء شجية عارمة، يتقاسمه الجيران حدادا معلنا من خلال الوجد والمشاركة في المندبة.. والامتناع لأيام عن إظهار الفرح والإنصات للموسيقا والتلفاز.

أشعر ببرودة الكرسي المصنوع من خشب قديم، أضع عليه لبدة دافئة، وأسرح بنظري في الأفق البعيد، كم يعجبني كرسي هذا على الشرفة، له مسندان منقوشان ومنحوتان بشكل هندسي جميل، تفوح منه رائحة العرعر المميزة التي تجعله من الماضي الجميل، صامدا وسط ثورة الأثاث العصري النمطي الذي بلا روح ولا لمسة يد ماهرة مبدعة، عاشقة للخشب، تعالجه بأياد دافئة، لتحوله إلى جمال حي، إلى وجود بهي، يؤدي وظيفته ويمتع الناظرين في الوقت نفسه.

أسرح ببصري في مشاهد تؤرخ بدقة لحياة شارع اختلطت فيه كل الأذواق وحبل بالتناقضات، أشعر بإزعاج بسيط كلما التقطت عيناي ساعة رقمية على الرصيف لوكالة بنكية، لا شيء فيها مضبوط غير التاريخ، يومض ضوء أحمر مشيرا إلى الزمن "الاثنين الثاني من إبريل 2001" وتشير خانة الوقت إلى الحادية عشرة صباحا، مضيفة كعادتها ساعة إضافية إلى الوقت الحقيقي، لا أعرف لِمَ تقاعسوا عن إصلاحها أو تدقيقها على الأقل.. لماذا لا يهمهم الأمر وهم سادة الدقة والحساب العسير..؟ مؤشر الحرارة الرقمي المومض ضوءا أحمر على اللوحة نفسه خادع، به خلل كأنه يرصد حرارة موسكو، إذ لا تتجاوز أرقامه المضيئة 12 درجة منذ سنوات.

أثار انتباهي بواب العمارة المقابلة، يتابع بنظراته المفترسة في شبق طافح النساء والفتيات العابرات، كان شابا قوي البنية، يبدو أنه في عقده الثالث، أزهر البشرة، وسامته تظهر من خلال اعتنائه بشعره الكثيف الأشقر، لا هو بالمسترسل ولا المجعد، يسويه بدهان واضح من بريق شعره فيجعله يلمع، لا ينفك يصفصفه بمشط يخرجه من جيبه ثم يدسه، ويسوي

ملابسه بطريقة استعراضية، معتدل القامة، يضع نظارتين شمسيتين، ينزلهما قليلا كلما تحرش بعابرة، ينتعل صندلا رياضيا، وقميصا أسدله على سرواله "الدجين" الأزرق، يجلس جانبا على أدراج العمارة، على وسادة مكتنزة عالية فرشها على كرسي عال، يسنده الجدار الرخامي، ينهر من حين وآخر هذا ويطرد ذاك.. وأشرس خصومه هم الباعة الجائلون.. الذين لا يطيقهم ولا يطيقونه ولا يسمح لهم بالبيع في الزقاق ولا الاستقرار بزاوية فيه، في صراع كر وفر معهم طيلة اليوم، عيونهم المتعبة تفسد عليه غارات التحرش والمعاكسات، وتدينه نظراتهم القاسية رغم صمتهم، ولا يسمح حتى للأطفال والفتيان باللعب قرب العمارة، كان يريد تحرير الزقاق من العيون والرقابة، وهمه الشاغل هو أن يظل الفضاء فارغا من الشهود. من حين لآخر يختفي داخل العمارة ويعود وفي يده كوب القهوة، التحرش بالعابرات ومعاكستهن عادته ومتعته وهوايته، مما جعله يحاول غوايتهن بالكلام الحلو والإغراء بالأناقة والترغيب، لا أعرف لماذا كنت أكرهه، كم مرة تمنيت أن أخنقه حتى الموت وبلذة كلما شاهدته متحرشا أو ناهرا أطفال الحي.. بعبارات مغرية أراه يتحرش كثيرا بفتاة عابرة أو امرأة لا يراعي متزوجة وأرملة.. ملتفتا كلص يمينا ويسارا، مؤمنا غزوته اليومية، لا أعرف سبب التفاته هكذا أو هو بقية حياء أم خوف ما..؟

كعادته.. وكصياد متمرس ينصب شراكه.. ينتظر في صبر وأناة.. تمر فتاة.. يغازلها.. تتجاهله.. دونما غضب.. لا تستجيب له لغتا، لكنها تثيره أكثر وهي تزيد من حرارة أنوثتها فتميد بقوة بجسدها المكتنز وقد ضاق بـ"جلابة" زرقاء، فتهيج مع حركاتها غريزته وتشتعل، فجأة

تستدير.. دون توقف.. تمنيت لو صفعته.. رغبت في شدها هي نفسها من شعرها وصفعها.. آه..! لو كان بإمكاني أن أضع حدا لغروره.. لشبقه.. لرعونته.. أنتظر منها ردة فعل قوية.. أتوق إلى فضيحة في هذا الصباح لهذا المستهتر الأرعن، لكنها.. البلهاء ترمقه بنظرة إغراء قاتلة وترميه بسهم نظرة حارق عجنتها بابتسامة مغرية عززت شبقه وزادت ثقته في قدرته على صيد الطريدة.. ثم تختفي في زقاق جانبي..

سقط في يدي وأنا أتابع هذا المشهد الذي خذلتني فيه هذه الخرقاء.. وأغضبني لحد الضغينة هذا البواب الشاب المستهتر الذي أشعر به صار عود كبريت أشعلته توا هذه الفتاة الغنوج العابرة بقوة في شهوته وتركته مستعر الغريزة، ملتهب الشبق، يلتفت يمينا ويسارا في اضطراب. يرمي بنفسه وراءها كسهم طائش، مقتفيا أثرها.. مهرولا.. ملبيا دعوتها القاتلة.

تمر دقائق قليلة، وأنا على الشرفة في شبه فراغ ذهني، فجأة يمتلئ الشارع بالصراخ والفوضى، مما أعادني إلى الأجواء الخارجية الشاب البواب، يركض في هلع واضع من نظراته.. هاربا.. شابان يعدوان في ضجة وجلبة وصياح في أثره وبضع نساء يولولون في صراخ اختلطت فيه الشتائم بالصياح.. تزل قدمه فيكبو أرضا، علامات الضرب المبرح بارزة بجلاء على وجهه، كدمات وخدوش أظافر.. تمزقت ملابسه، وصار قميصه خرقا وتبعثر شعره الململع.. شج جبينه، فسال دم غزير حتى طال صدره، واختلط بدم فمه ورعاف أنفه سيلان جرح آخر غائر في رأسه، يشبعه الشابان ضربا بعصي، وسط صراخه وتوسلاته اللتين لم تمنعاهما من ضربه وسحله وجره وسحبه أرضا.. تلتحق بهما الفتاة التي

تحرش بها في هرولة وغضب، فتشده من ناصية شعره، وتسحبه جرا وهي تلعن أصله وفصله، إحدى النسوة تقول في غضب عارم وقد غلبها اللهاث والإعياء:

- هذا الكلب.. ابن العاهرة.. ولد الساقطة.. يظن بيتنا بيت عاهرات، دارنا دار ساقطات.. دائما يتحرش بلمياء، وهذا الصباح سقط "الصعلوك" في الفخ، الذي نصبناه له حتى أدخلناه إلى البيت، ماذا يظن.. أننا "قوادات"..؟ الحمار.. المكبوت.. لعنة الله عليك، اليوم "ستأكل ما أكل الطبل يوم العيد.." أيها الكلب.. الوسخ..

مرافقة أخرى للمرأة وكانت طاعنة في السن ممتلئة الجسم قصيرة القامة، تخطو خطوات ثقيلة في صعوبة، التحقت بهم حافية، أكاد أسمع لهاثها ولو من بعيد، وتنهيداتها من ألم المفاصل، لا شيء يستر جسمها الذي فاض لحما غير لحاف أسود، وشعرها "منتوف"، في فوضى، على جبهتها وشم واضح.. تدنو بصعوبة من الشاب البواب، وفي غضب جارف وإعياء غالب تكاد لا تستجمع حروف كلماتها تصرخ:

- كم من مرة منعت أبنائي من هذا اليوم "الأكحل" لقد وصل السكين إلى العظم.. تظنون بناتنا عاهرات.. يا ابن العاهرة..! إنك ابن عاهرة.. وأبوك "قواد".. ونشأت في بيت قوادة.. وإلا ما ظننت أن كل البنات ساقطات".. يا ابن العاهرة.. يا "قواد..." يا "ولد الحرام" الكلاب لا تلد إلا الكلاب مثلك..

تصفعه صفعة قوية.. فيختل توازنها.. وتسقط على جسده بجسدها الممتلئ الثقيل، يسحبها أحد الشابين من تلابيب ملاءتها البيضاء،

بعيدا عن الحشد.. ويصرخ في وجهها محتقنا حتى انتفخت أوداجه في بحة:

- عودي إلى البيت..! ألا يكفيك مرضا السكري والضغط.. أتريدين أن تموتي هنا..؟ نحن قادرون عليه وحدنا.. عودي..! عفاك..

ترد عليه وهي تحاول الإفلات من بين يديه مهتزة وقد ضاق تنفسها:

- اتركني.. أؤدب هذا الكلب إذا كان هو حميدو "الشيكي" فإنا ولد الأعور"..
- لا لن أتركك.. اذهبي.. عودي إلى البيت.. يا رب سأرتكب هذا اليوم جريمة..

تتدخل نساء فضوليات، من الزقاق نفسه، يلححن في التوسل إليها والتودد لإعادتها إلى بيتها، وابنها يحدجها غاضبا.. ثم يصرخ:

- إن لم تعودي.. سأرتكب جريمة.. سأقتله.. عودي..! وإلا ذبحته أمام عينيك كخروف العيد.. لن ترتاحي حتى أدخل السجن.. عودي..! يا رب..! سأرتكب جريمة هذا اليوم..

ينطلق كالسهم النزق، يشق الجموع بكلتا يديه وبقوة جارفة وتيجان عات، شرارة الغضب الذي سيطر عليه كالعاصفة تتطاير من عينيه، يصرخ وقد انتفخت أوداجه، مزمجرا:

- أين هو الكلب..؟ سأقتلك.. سأذّبحك.. يا حميدو الكلب!

يركله ركلة شديدة، يصرخ على إثرها الشاب من شدة الألم وينتحب كطفل صغير، ثم يعمد في غضب جارف إلى خنقه بشدة

وقوة، حتى تجعد وجهه في تقلص وجحظت عينا البواب، واحمر وجهه واجتمع فيه الدم، وقد نفد الهواء الذي كان في صدره، يرغم بعض الرجال الذين تدخلوا قبل فوات الأوان وبعد صراع وشد وجذب الشاب على إفلات الرقبة من قبضة اليدين اللتين كادتا أن تزهقا روحه، فتعود الحياة للبواب هواء يتنفسه بقوة وقد خارت قواه. يتقدم آخرون فيحولون بينه وبين الشاب الذي بدا منهكا من الضرب والاختناق. يعود من جديد أخ الفتاة مشرئبا بعنقه بين الحشود، محاولا الإفلات من قضبة الناس الذين منعوه من تنفيذ جريمته، يهتز بين أيديهم في غضب طافح، أرغى له فمه:

- دعوني.. أنهي حياته..!

أمام تهديده وغضبه العاتي، لم تجد الأم بدا من الانصياع والانقياد، تجر ذيل ملاءتها فتثير غبارا والنسوة معها يهدئنها، تنصرف معهن.. وهي تئن، وتتحسس بيدها حوض ظهرها.

يضعف حميدو ضعفا بينا وسط الجموع التي احتشدت، فتضعف قواه، ويبدو عليه الإنهاك النفسي والجسدي، يتوسل بينهم متعاطفا أو حليفا رحيما أو شفيعا مقبولا، وهو يتفحص الوجوه، ويطلب الرأفة والشفقة، بنظرات الضعيف المغلوب على أمره، لكن لا أحد في صفه، ولا أحد مستعد للمشاركة في حلف خاسر، فلا رفيق يرفق بمتحرش طاله بطش أسرة معروفة بحسمها الخلافات بالبطش والجبروت. لا أعرف هل تعاطف الناس مع الأسرة تزلفا ومحاباة وخوفا من بطشها وجبروتها، أم غيظا مما صدر عن الشاب البواب.

وحده الآن عليه أن يؤدي ثمن رعونته، وحده عليه أن يواجه قانون الزقاق، والكل مستنكر لفعلته.. تدور عيناه في حدقتيها من شدة الهلع، يلجأ إلى تقبيل الأقدام، والتمسك بتلابيب بعض الرجال كطفل صغير خائف صغير، وقد صار الدم أكثر غزارة على وجهه حتى غطى على ملامح وجهه ولطخ صدره، وتمزق ما بقي من خرق في ثيابه، وفقد فردة من صندله الرياضي:

- "ها العار".. "عافاكم".. سامحوني.. دعوني أذهب.. هذه آخر مرة.. والله.. أرجوكم.. أتوسل إليكم.. لم أعرف أنها ابنتكم..

تجمهر الناس حتى أغلقوا مداخل الحي، كل يشرئب بعنقه مستطلعا، متسائلا، ويستعلم القادمون الجدد السابقين عما يقع، فإن استخبروا ضربوا كفا بكف.. مستنكرين.. مستغربين.. منددين علنا أو سرا أو بين هذا وذاك همهمة، تفضحهم إيماءاتهم وحركاتهم.

طفق الشاب البواب في محاولة لتليين غضب أفراد الأسرة، يبرر فعلته النكراء بأسلوب أثار موجة غضب عارمة.. عبرت عنها الهمهمات وترديد أصوات الناس في صدروهم وعكستها تعابير الوجوه الحانقة:

- أرجوكم.. "عفاكم".. والله ما كنت أعرف أنها أختكم.. سامحوني..

وما إن نطق بالعبارة الأخيرة، حتى عبروا جميعا عن استيائهم وامتعاضهم، فاختلفوا بين تأديبه ضربا، أو تسليمه للشرطة، لكنهم أجمعوا على القصاص.. لا أحد تعاطف مع الشاب، وتمنوا لو شاركوا

فيه، لكنهم تحاشوا ذلك، خوفا من العواقب، وتركوا أسرة الفتاة تنتقم لهم، حتى شباب الحي، والرجال المتزوجون.. بينهم من رفع صوته:

- لابد.. أن يجلد.. لابد أن يضرب على أخمص القدمين.. "حملوا الكلب الأجرب"

وصوت آخر شق الجموع بقوة صائحا:

- قيدوه الحمار بالحبال، كبلوه بقوة بلا رحمة ولا شفقة.. لا رحمة لأمثاله.. وسلموه للشرطة، فلن يجد من يقدم شهادة في حقه.. أو أقول لكم.. عروه.. ثم طوفوه بين الأحياء ليكون عبرة للجبناء..

كهل قصير القامة، غزا وجهه البرص، مغبر الوجه، أشعث الشعر، يصيح بصوته رافعا يده كخطيب مفوه لشد الانتباه:

- لا هذا ولا ذاك.. لابد من خصيه.. سنعلق خصيتيه على قصبة ونرفعها في رأس الحي أو نقطع قضيب هذا الكلب.. هل يظنون ألا رجالا في الزقاق؟

وما هي إلا لحظات حتى ظهر شيخ قصير القامة أبيض اللحية والمهذبة في عناية، يرتدي جلبابا صوفيا ثقيلا أصفر غير داكن و"بلغة" نعلا مغربيا جلديا أصفر، تقدم نحو الجمع فساد صمت غريب، فسحوا له الطريق بسلاسة بين الحشد، يبدو أنه موقر وذو مكانة روحية عندهم، وهو يتمتم في شبه خشوع ونبرة قوية:

- العنوا الشيطان..! اكتموا غضبكم! أطفئوه بالصلاة على النبي عليه أزكى الصلوات وأتم سلام.. اطردوا إبليس اللعين بالتعوذ من الشيطان الرجيم، إنه يجري منكم مجرى الدم.. اللعين.. الرجيم..

انتهى الأمر.. يا أبنائي.. لقد لقنتموه درسا لن ينساه.. أتريدون قتله.. فتصيروا ظالمين بعدما كنتم مظلومين؟ انهض يا بني.. لا أريد أن أراك مرة أخرى هنا.. اذهب.. لا حول ولاقوه إلا بالله.. عودوا إلى بيوتكم.. وأشغالكم.. رحمكم الله..

تقدم أحد الأخوين ورد على الشيخ باحترام، خافضا صوته مطرقا الجبين:

- "سي" الحاج.. الحاج عمر.. أتعرف ماذا فعل هذا الكلب..؟ لقد اقتفى أثر أختي "لمياء" وتبعها حتى الصوان داخل البيت.. وليست المرة الأولى. حسبها عاهرة.. يحسب بيتنا دار دعارة وفاحشة.. كأننا لسنا رجالا.. وأمي.. انهارت .. وكادت تموت من فعلته..

يومئ إليه بيده، أن يصمت، كأنه ضجر من كلامه، ثم يقول في حزم:

- قلت انتهى الأمر.. "لي غلب يعف".. لقد أدبته، ولا أظنه سيعود بعد اليوم إلى مثل هذا السلوك..

يقف وهو يهش بعكازه، حائلا بينه وبين الناس، الذين كانت لهم رغبة قوية في ضربه حتى الموت، فينفض الجمع في سكون، ويعود الهدوء إلى الحي، يتقدم الأبرص محتجا ويقول في غضب:

- هل سيمضي إلى حال سبيله.. هكذا..!؟ ما هذا يا أهل الحارة؟ غدا سنجده في غرف نومنا من عفونا هذا..

يحدجه سي عمر بنظرة قاسية، وينخسه برأس عكازه ويقول وهو يهز رأسه في استياء:

- اذهب إلى حال سبيلك.. أنا أعرفك يا قدور "سفناج" الحي.. تشعل النار دائما وتتبرأ منها.. لا أريد أن أسمع صوتك.. اختف من أمامي يا حطاب العداوات.. اذهب.. اذهب..! أما أنت يا أحمق..! اعتبر بما وقع لك اليوم.. وضعه "حلقة في أذنك" تذكرك إلى الأبد بما حدث..

ينهض الشاب المسحول، يسوي ملابسه في وهن وضعف، يتحسس جراحه وأعطابه بيديه، يتلمس الأضرار في جسده ثم يخطو بتؤدة متعبا.. جريحا.. رفقة الشيخ الذي لزمه حتى انتصب واقفا، يمشي في عرج ويختفي عن الأعين بين جحافل العابرين.. يجر ذيول الخيبة، والإحساس بالهوان يعصره بدون شك، وجرح أصابه اليوم، طال كرامته وكبرياءه لا أعرف متى سيندمل.

أحسست بمتعة غريبة، وانتشاء قوي، عقب رحيله ذليلا، صغيرا..وأكتشف دون أن أعي حقدا دفينا كنت أكنه لهذا الشاب البواب، ويعري حقدي القديم عن رغبة حقيقية في المشاركة في سحله وضربه.. لماذا تملكتني هذه الرغبة في ضربه؟ لماذا كنت منشرحا وأنا أراه يسحل ويطارد ككلب مسعور في الزقاق؟ لا جواب لي.. غير أنني أشعر بكراهية غريبة لهذا الشاب المتهور.. فليست هذه هي المرة الأولى التي أعيش معه المشهد المعذب للتحرش بالنساء المغلوبات على أمرهن.. لا أعرف لمَ الفتيات والنسوة كن يفضلن الصمت.. وبعضهن يخترن الهروب والابتعاد عنه بتغيير الرصيف أو الاتجاه.. دون أن يدافعن عن أنفسهن، أو يصددنه كلاما أو فعلا، كنت سأكون أكثر سعادة وفرحا، لو أن إحداهن غرزت في وجهه أظافرها، وولولت حتى تفضحه

وتعريه أمام الناس، فيرشقه الصغار الذين يحرمهم من اللعب في الزقاق بالحجارة، ويطارده الباعة الجائلون الذين عانوا من جبروته كلص الأسواق.. ما الذي يخيف النساء من ردعه.. وهن الضحايا؟

اختفى بواب هذه العمارة لتنهض شخصية الشيظمي من ذاكرتي رغما عني كطائر الفينيق الذي ينبعث من الرماد، وقد حفزها مشهد المعاكسة والسحل، أيكون في شخصية الشيظمي شيء من هذا الشاب ولكن بطريقة أخرى؟ فطالما كنت أشعر بغرابته وشخصيته المتناقضة.. إنهما يشتركان في الوظيفة، وفي إدمان مخدر الحشيش، من يدري ما يفعله الشيظمي طوال النهار، في غفلة من الساكنة.. قد تكون صلاته وسبحته قناعا يخفي فيهما شخصية الذئب الذي ينتهز فرصة انشغال الراعي للانقضاض على القطيع.. عقلي عاد من جديد ليقيم مقارنات عبثية ومجنونة، وأكاد أقسو على رجل يختلف اختلافا كبيرا عن هذا حميدو، أشعر بالخجل من نفسي لكني في سذاجة أتمادى في عبثي، وأمنح العقل المتردد الشكاك كل الأضواء الخضراء ليمر نحو المناطق الحساسة، والأسئلة المحرجة، مفترضا أن يكون يضاجع بعض نساء العمارة.. أتوقف لحظة.. أعرف هذه الطريق القاتلة الذي يتعمد عقلي الزج بي فيها.. ذاك الجحيم الذي لا يطيقه أي رجل يدفعني إلى التفكير فيما أهرب منه." الربط بينه وبين هروب أمينة من سريري.. "يريدني عقلي في مكره المعتاد أن أقحم احتمالا ضعيفا من هذا النوع في حساباتي، ليكبر بالعبث والريبة ثم يغدو هاجسا خانقا. يريدني أن أصل إلى حافة الجنون، لا ليس الأمر كذلك يا عقلي! أمينة.. أعرفها.. لا يمكن أن ترتمي في أحضان مثله.. عقلي يرد

بحجته.. ما المانع؟ المرأة تظل أنثى على كل حال ..؟ ولها غريزة.. وأنا لا أقاسمها السرير منذ مدة.. لا.. أمينة أنثى متعلمة، ولا يمكن لشهوة طائشة أن ترميها في أحضان مغامرة من هذا النوع..

عقلي يزج بي في متاهات غريبة وتطفو على سطح ذاكرتي قصص لخيانات غريبة، رجال لا تنقصهم الفحولة ضبطوا زوجاتهم بين أحضان رجال بلا تعليم ولا وضع اجتماعي.. حالات كثيرة.. من الصعب علي أن أفهم أسبابها، لكن عقلي يعرضها حجة له ضدي، يقوض ثوابت الثقة، يؤجل اليقين دوما، ينبش وعري طبقات النفس، معريا تلك الطبقة البدائية الحانقة.. الغاضبة.. الأنانية.. ويحفر بعيدا في رواسب ذكورتي القلقة، الغيورة.. الأنانية.. العاشقة للامتلاك.. يا عقلي! أرجوك توقف عن نسج الخيالات والأوهام وعرض الاحتمالات القاتلة.. توقف.. رجاء توقف..

أعود إلى مكتبي، أخرج قنينة ويسكي، كنت قد دسستها بين ركام الملفات، أرمي بكأسين متتابعين بلا مكعبات تلج ولا ماء في حلقي.. أتقزز.. الكؤوس الأولى دائما صعبة الابتلاع، ومذاقها قوي لا يطاق.. أمد رجلي على طاولة من زجاج.. أتأرجح على الكرسي الملولب، أوشك على السقوط، أنفجر ضحكا.. ثم تداهمني نوبة ضحك هستيرية، ليحط عقلي بمكر ومن جديد في عالم الشيظمي رغما عني، لكن بشروطي هذه المرة بعيدا عن الطبقة العميقة في تضاريس رجولتي حيث يترسب الغضب.. والحقد.. ومظاهر شتى للامتلاك.. أعيد بناء بعض الحوارات بيننا.. ما يشفر من رسائله، وما يرسلها واضحة بينة.. صفقة أعقدها مع عقلي، أكتفي بتحليل لعبة "الشيظمي" في الكلام

الملغز أو الذي يحتمل التأويل.. أستحضر طريقته في سرد واقعة أو حدثا من حياة العمارة، وأبحث إن كان هناك سر مختفي بين الكلمات، أو عن قصة مغامرة نسائية له، لم يسبق له أن تحدث عن النساء..عن علاقته بالمرأة.. كان يفتي في بعض الأمور بجسارة وجرأة جامحتين أو يبدي رأيا مستشهدا بتجارب حياته أو تجارب من يسميهم "القدماء" ويستخرج آيات قرآنية من ذاكرته التي احتفظت بقوة بتلك الأجزاء التي حفظها من القرآن. مرة كان يأتي بالدليل القرآني فيصيب، وفي كثير من الأحيان يأتي به خارج السياق ولا علاقة له بالواقعة.. أحيانا كثيرة أشعر بشروده الذهني، كأنه يغوص في ذاته... شيء ما كان يؤلمه.. يزعجه.. من خلال معالم وجه التي تتغير بسرعة من انبساط إلى تقلص وحزن، أشعر أن له قناعا يعيش به بيننا، وأن له أسرارا يكتمها.. وحين تطفو على السطح تؤلمه.. آهاته المفاجئة.. زفيره الجارف وهو صامت يفضحان صراعا داخليا في نفسه.. ألما.. حسرة.. ندما.. لا أعرف ما هو بالتحديد... لكن الرجل مهما بدا متناسيا الدنيا وهمومها يبدو أن له ما يكفي منها، ويواريه في صدره..

أي سر في قلب رجل مقهور؟ فهو كباقي جحافل الرجال والشباب الذين هاجروا قراهم ومداشرهم و"دواويرهم" سنوات الجفاف بالمغرب، بعدما شحت السماء، وخاصمت سحبها الممطرة الأرض والبشر والبهائم، وتشققت الأرض من العطش، ونضبت الوديان فامتلأت بالحصى والأتربة..و بعدما جفت مياه الآبار على قلتها وعمقها.. ونفقت البهائم من ندرة الكلأ وندرته في المراعي، واستفحلت عملية قطع الأشجار المثمرة التي أعلنت موتها رغم انتصابها جافة الأغصان،

وصارت وهي المعطاء الكريمة بالأمس وقودا رخيصا للأفران والحمامات العمومية.. الشيظمي.. هو فقط أحد هؤلاء الرجال الذين ودعوا الكروم الجافة وأشجار الزيتون اليابسة وأشجار الأركان المحتضرة بالدمع والحسرة والألم العميق.. ترك البلاد كما يقول في حسرة وشوق" لم يبق هناك غير الشيح والريح "وقطعان الماعز العجاف.. الهزيلة.. الضامرة.. وسحابات النقع الكئيب الذي سكن السماء والأرض والبيوت والساحات، والوجوم الذي حل في الصيف بدل الأعراس والأفراح، وتوتر الأعصاب الذي يفجر نزعات قبيلة دامية، وصراعات لأتفه الأسباب"

ألم يقل ذات ليلة في حسرة "حين تقل المياه.. تكثر الصراعات حول عيون المياه على قلتها وحول أراضي الرعي رغم ندرة حشيشها وأعشابها"؟.. هكذا أخبرني وأنا أجالسه في غرفته، وهو يدخن "عشبة" الكيف من غليونه –السبسي– الطويل، الذي صنع عوده من شجيرة الدفلة.. تحدث كثيرا ليليتها على غير عادته، أحب التفاصيل هذه المرة، حزن عميق جامح قفز من عينه من شدة الأسى قال إنه وجد نفسه يحزم أمتعته ذات صباح تاركا وراءه زوجة وخمسة أبناء، رحيله لم يكن سلسا وسهلا ،كما ردد لي في كثير من الأحيان، وكان يعيد القصة ذاتها، كأنه يجد في سردها راحة وسكينة، كانت تلك "العشبة" التي يدخنها تفجر فيه لواعج قوية تعصر قلبه، فيعطل فرامل البوح، ويبوح دون تردد بما يؤلمه ،و أشد ما آلمه تركه وراءه أبا شيخا وأما عجوزا مريضة فقدت البصر جراء رمد قديم أصابها، وأختا أرملة بطفلة.. وحدها زوجته لطمت الخدود وانتحبت لرحلته نحيبا قويا انفطر له قلبه، ولولا عادة الرجال في قريته أنهم لا يبكون ويظلون صامدين أقوياء في

أشد المواقف وأكثرها ألما، لبكى بكاء الأطفال، وارتمى في حضن زوجته.. فالدار البيضاء مدينة غول، والشائعات عن عنف أهلها وكثرة اللصوص والنصابين كانت حديث العائدين في المناسبات والأعياد.. قال إنه لم يعد قادرا على تحمل مشاهد الإعدام اليومية، للكروم التي تقطع وتتحول إلى حطب الحمامات، لم يعد قادرا على رؤية أشجار الزيتون تذبل رويدا رويدا، أمام عينيه، فيخفت الأمل في قلبه.. لم يعد قادرا على رؤية الوادي وقد جف وصار فجا يملؤه النقع، والحصى، وممرا للدواب والعابرين بعدما كان صعب العبور من شدة تدفق المياه..

أستحضر مقاطع قوية من جلساتنا الليلية الطويلة، لا أجد خيطا رابطا بينه وبين الشاب الذي سحل وضرب.. شخصيته.. همومه.. ألمه حكاياته.. لاشيء يدينه عندي.. كل كلماته لا علاقة لها بالجنس ولا بالنساء، نظراته الشبقية وتفرسه في النساء فقط يدينانه.. من هنا يريد هاجس العقل أن يشنقه بلا مرافعة دفاع.. من هنا يعبر الهوس القاتل منتعشا بقلق العقل نحو السؤال الحرج" كيف يتحمل الحياة بدون امرأة؟" الهاجس الأعمى يا رب.. يمضي بلا هوادة في زرع بذرة الريبة والقلق بعيدا ويصور "الشيظمي" عابثا.. فاجرا.. ماكرا.. ماجنا.. يعيث فسادا في العمارة.. أيستغفلني..؟

أحاول مداواة سم التوجس بترياق المنطق.. أليس العقل مرتع المنطق؟ فلم يدفع بمنطق آخر أصله احتمالات لمحاكمة غير عادلة..سأصد الفرضيات الحمقاء مقتبسا أجزاء من حواراته معي، ألم يقل لي إن ما يشغل باله أكثر.. هم.. الأولاد.. القرية.. سأقدم شهادة أخرى ضد العبث والتوجس من حديثه معي حين قال ذات ليلة أنه

لولا هجرته للمدينة، لقتله القحط والجدب بالحسرة والإملاق، وحين أخبرني أن النساء والأسر والشيوخ.. الذين يبقون هناك في "الدواوير" والقرى النائية بالشياظمة يعولون على ما يرسل إليهم من نقود رفقة أبناء القرية أو عبر مساعد سائق الحافلة الرابطة القرية بالدار البيضاء، ويتعمد الأبناء والرجال أن يرسلوا المال على قلته يوم السوق الأسبوعي حتى تتمكن الأسر من شراء حاجياتها، مما يدخل الفرحة والمرح على قلوب كثير من الأسر.

ألم يقل لي إن السوق الأسبوعي مهم في البادية، الذهاب إليه رمز للنعمة، يوم السوق لا يبقى في الدوار غير النساء والعجائز والمرضى.. الرجال يمتطون الحمير والبغال ويتوجهون باكرا للسوق.. ويل لمن عجز عن "التسوق" ستلوك الألسنة سيرته، وسيظل رهينة بيته مثل النسوة.. وهو يتعمد إرسال المال يوم السوق الأسبوعي، ليحفظ كبرياء أسرته..

أسترجع ملامح زواره وضيوفه، فالشيظمي لم يكن رجلا يعبس ويتذمر في وجه زواره الوافدين عليه من القرية، ولم يكن يشعر بالخزي والعار من سكنه العشوائي المتواضع.. بل كان من حين لأخر يستقبل وافدا من أسرته أو أصهاره.. لمرض أصابه، ونظرا لتشعب علاقاته بكثير من الناس بما فيهم الأطباء، فقد كان يجد لهم دائما مكانا للاستشفاء الأمر الذي يزيد من اعتزازه بنفسه وفخره.. فكيف يكون هذا الرجل مزيفا.. مقنعا؟

رجعت بذاكرتي نحو الوراء وتوقفت عند السنة التي حللت بها بالعمارة، منذ سنتين ونيف.. تقريبا.. صيف 1999 ساعدني يومذاك في حمل الأمتعة، وهو يرحب ببشاشة، لمحته يتفحص جسد أمينة، لم

أهتم بالأمر حينذاك.. لكن حادثة سحل الشاب البواب حميدو "الشيكي"، جعلتني أستحضر ذلك بقوة وريبة، لم يعد تفرسه في جسدها عاديا.. الآن.. استرجع لحظة احتسيت معه أول كأس شاي.. مساء اليوم نفسه، كانت له نظرة خاصة للنساء العابرات..لم يكن يغض الطرف، لم يكن يقل شيئا، لا تغزلا ولا تأثرا، لكنه كان يقتفي بنظراته خطواتهن بغرابة، لم أعرها انتباها يومذاك.. لكني اليوم..يبحث هاجسي عن أي تفاصيل جنسية في حركاته وسكناته، لحسم المعركة المعلنة ضد الثقة فيه.

أسترجع طريقته في الإلحاح.. ألح بقوة عليَّ أن أقاسمه كوب شاي، وهو يصبه.. كان يتصاعد بخاره من إبريق مغربي من طراز قديم، في كوب صغير وقد دأب على أن يرفع الإبريق عاليا وهو يملأ الكؤوس، وكان لهاته الطريقة وقع خاص وطقس لا يتقاعس عن تنفيذ كل شعائره بدقة وانتظام، كان لصوت الشاي المتدفق من الإبريق المرتفع من الأعلى صوت كخرير المياه، يظل يفرغ ويملأ دون كلل ولا سأم إلى أن ترتفع فقاقيع كزبد الموج على سطح الكوب، وكثيرا ما كان يناولني كأسا وهو يردد بفخر "كأس شاي معتق برزته البيضاء... وبنعناع مراكشي "بوري"."

هذا الرجل هو الذي علمني بخبرته في أول لقاء، كيف أميز النعناع الجيد من النعناع الذي كما يصفه بلا مذاق ويفسد الشاي، أذكر تفاصيل محاضرته عن الشاي حين قال "كلما كان النعناع باسقة عيدانه وأوراقه كبيرة غير قاتمة الخضرة، فاعلم أنه بلا مذاق، وهو نعناع السقي.. النعناع الطيب الرائع هو القصير العيدان، لصغر الأوراق، فيه

خضرة داكنة.. ما إن تمرر كفيك على أوراقه حتى تترك فيهما عبقا جميلا، وهو لا يسقى بل يعتمد نموه على ماء المطر، لهذا يسمى "البور".. وهو أشد وأطيب رائحة ومذاقا.."

نعم.. كان هذا أول درس تعلمته عنده في فصل إعداد الشاي، ثم علمني ألا أضع النعناع والشاي فوق النار، وأن أعصره بين أصابعي وأنا أضعه في الإبريق، وألا أضع السكر في الإبريق وعلى النار حتى لا يحترق ويعطي مذاقا مرا، بل نبهني ألا أستعمل الملعقة في تذويب السكر بل أذوبه بعدد معين من الصب تكرارا.. ومرارا.. وأن أتذوق من حين لآخر.. لأضبط نسبة الحلاوة، ومدى تناغم الكل.. فعلا.. كان للشاي الذي يعده نكهة وطعم خاصان، وعبير كعطر زهر الليمون يظل ملتصقا بالذوق..هذا نفسه الذي عقلي لا يريد تركه وشأنه.. يريده خصما لا صديقا..كابوسا لا بلسما.. يريده في خانة ما المشبوهين.

أنشغل عن هذا الهذيان بطلب فنجان قهوة عبر الهاتف، أضع قنينة" الكونياك" بعيدا على رف مكتبة جدارية، أحاول قراءة بعض الملفات، أقلب أوراق ملف قديم، أنفض عنه الغبار، عطس قوي يهزني هزا، أشعر براحة بعده، بدأ مفعول الشراب يسري في العقل وطفق عقلي كعادته يؤجل الأزمات الآن.. يا لسحر الخمرة.. وأد الهواجس ممكن الآن ولهيب الخمر يشتعل في عروقي، ويبدد الهلع، الأسئلة القاتلة ممكن الآن احتواؤها وجعلها قابلة لحصار مؤقت.. أعلم أن الخمر لا تحل مشكلا بقدر ما تؤجله بعدما تنعشه.. بعد حين رن جرس المكتب.. فتحت الباب، النادل "الحمري" بخفته ورشاقته المعهودتين، ولكنته الأمازيغية، منفرج

الأسارير..ضاحكا كالعادة يسلمني الفنجان في لباقة وحسن كياسة، يساعده على ذلك دماثة خلقه ، وهو يردد تسبقه الابتسامة كالعادة:

- صباح الخير أستاذ.. سوداء "اكسبريس" كالعادة.. "قاسحة"

ابتسمت في وجهه وقلت:

- لا تغير عادة.. لا "تعادى".. أحسنت.. تبارك الله عليك..

قبل أن يغادر، توقف فجأة ووثب داخلا إلى ردهة المكتب خفة وحيوية لم أعهد اجتماعهما فيه معا وهو يسر لي في شبه حذر:

- أستاذ..! أرأيت ما وقع اليوم..؟ آوه.. مصيبة.. جريمة كانت ستقع.. لولا ألطاف الله..

- ماذا تقصد؟

- أولاد الأعور، كادوا يقتلون اليوم حميدو "الشيكي"

يدنو مني كأني به يخشى من أن يسمعه أحد فيقول بصوت خافت وهو ينظر للباب:

- صياد النعام "إلقاها إلقاها".. ولا أخفيك سرا.. لقد كنت متشوقا لهذا اليوم.. فحميدو قوي البنية، ويلاكم بقوة.. لقد نهيته يوما عن فعلته، فلكمني.. لم أكن قادرا على رد لكمته.. بصقت في وجهه وهربت.. وفوضت أمري إلى الله.. وها أنت ترى الله يمهل ولا يهمل.. سلط عليه من هو أظلم منه.. أتعلم أنه فرض نفسه بوابا على الساكنة، وحارس السيارات نهارا وليلا في الزقاق..؟ سمعت أنه أخذ حظه من السجن..ولا أحد يعرف أين يبيت ويقيم..

نظرت في وجهه، فلمست فرحا ومسحة شماتة تقفز من عيني هذا الشاب العشريني وأردفت وأنا أرشف القهوة متظاهرا بعدم معرفة البواب:

- من هو حميدو؟

يدنو مني، ثم يضيف:

- واو.. ومن لا يعرف هذا النزق..؟ البواب.. في العمارة.. هناك.. يكنونه بـ"الشيكي" أي الأبهة، فهو لا ينقطع عن النظر في المرآة ومشط شعره، ورش العطور..

أشار إلى العمارة المقابلة للمكتب:

- هناك.. يعمل.. لقد أشبعوه ضربا.. وكادوا.. "حاشاك" أن يفعلوا به الأفاعيل.. لولا "سي عمر".. الحاج تاجر الكتان.. الذي يملك أكبر محل للأثواب في "القيسارية".. لقد أنقذه اليوم من بين أيديهم.. كادوا يقتلونه.. ويا ليت سي عمر ما فعل..

الحمري يتحدث عن واقعة الصبح، دخلت مكتبي.. فتبعني بخفة..كهر أليف .. يبدو أنه يريد البوح بشيء ما:

- "شوف" أستاذي.. أنت تعرف أولاد الأعور..
- لا.. أبدا.. لا أعرفهم..
- يا لطيف.. إنهم "بزنازة".. يبيعون الحشيش.. ويتناوبون على الدخول إلى السجن.. أبوهم الأعور.. سمعت أنه كان قاطع طرق في أيام زمان.. وفقئت عينه اليمنى في صراع مع عصابة لصوص منافسة أيام الاستعمار..

يضحك، هازئا.. ثم يستطرد:

- ويروجون الكذب والبهتان.. يقولون إنه كان فدائيا.. وإن النصارى هم من فقؤوا عينه.. على كل حال لقد استفاد من كذبه، وحصل على رخصة لسيارة أجرة كبرى..

تظاهرت بعدم معرفة التفاصيل، وسألته بعدما جلس على كرسي أمامي دون إذن وبعفوية:

- أقول لك ما سمعت.. لقد كان حميدو الشيكي يعاكس لمياء كلما خرجت لقضاء مآرب شتى لأسرتها.. حميدو يفكر من "حجره" حتى أنه اختار العمل بوابا.. ليمتع عينيه بأجساد النساء.. رغم أنه قوي.. ويستطيع أن يصنع المعجزات بقوته.. لكنه اختار السهل..

أتظاهر بعدم معرفتها، تنقيبا عن مزيد من المعلومات وأساله متظاهرا بترتيب أدوات مكتبي:

- لمياء.. من لمياء هاته؟
- لمياء بنت الأعور.. الجميلة الفاتنة.. لعوب.. خارقة.. قنبلة.. "ساطة واعرة".. تأسر قلوب الرجال بلا رحمة وتخلب عقولهم.
- هل تعني أنها..؟
- لا.. لا فقط.. هي تحب الإيقاع بالرجال في شباك هواها.. لم أرها يوما مع أحد لكنها.. بلباسها الضيق.. وفتنتها.. تزرع الفتنة في القلوب.. ولولا قوة وجبروت إخوتها.. لغازلها الجميع.. فقط الخوف يمنعهم..
- وهل حميدو لا يخاف من إخوتها؟

- حميدو رغم طيشه.. جريء.. ربما يعرف ويغامر.. حميدو لا شيء يخيفه إن اشتهى امرأة.. إنه يغدق على العاهرات كل ما يكسب.. كريم معهن.. وسمحت أنه عاق لوالديه.. "مسخوط الوالدين"
- قل مغامرا.. لا يفكر في العواقب.. يكرم العاهرات ويترك والديه بلا معيل..
- المهم هو الوحيد الذي تجرأ وغازلها.. بالكلمات.. والإشارات.. علم أخواها الأمر فنصبا له مصيدة.. قالا لها استدرجي الكلب إلى صحن الدار.. سنعلق خصيتيه على باب الزقاق.. والمغفل سقط في الفخ.. واو.. جاء بقدميه.. ضبطوه وسط الدار..

بدأ يردد كلمة "ضبطوه" منتشيا وهو يقفز كأنه يتلذذها، فأحسست أني لست الوحيد الذي يكره هذا الشاب:

- ضبطوك.. يا حميدو.. ضبطوك يا "الشيكي"
- ثم .. أش طرى.. ماذا وقع؟
- المسكين..كان يظن أنه أوقعها في شباكه.. لكنه ذهب إلى قبره بقدميه.. أعمته الرغبة.. فما إن دخل صحن الدار حتى انهالوا عليه بالعصي.. لا يعرف من أين تأتيه الضربة.. ولا الصفعة.. ولا الركلة.. فأطلق ساقيه للرياح.. من حسن حظه أنهم لم يغلقوا الباب.. لكنهم طاردوه.. وأشبعوه ضربا.. وفضحوه..

أتظاهر بما لا أعتقده وأقول له متأسفا:

- لا.. هذه همجية.. لم يكن عليهم أخذ حقهم بيدهم..

- والحقيقة أنني في نفسي كنت أقفز مع قفزة "الحمري" ولولا وضعي لأظهرت فرحي.
- في الحقيقة يا أستاذ..! يستحق ما وقع له.. فهو لا يستحيي.. وتجاوز حدوده.. لحسن حظه أن أخاهم الأصغر "شرمولة" البالغ من العمر 18 سنة لم يكن موجودا.. فهو لا يعرف إلا الرد بالسكين والشفرات.. ويقضي الآن عقوبة السجن منذ أشهر..
- ولمَ ولج السجن؟
- هم يبيعون الحشيش، ويتناوبون على دخول السجن.. سمعت أن الأمر يتم باتفاق مع بعض البوليس الفاسدين.. أولاد الأعور "شاريين السكتور" و"تتفاصلو" مع المخزن يعني يشترون براءتهم أو تخفيف السجن عنهم.
- الحمري..! أنت تقول شيئا غير معقول ولا منطقيا هذا كلام مجانين.. ليس الأمر كما تظن.. والبلد ليست "سيبة" حتى يتمكن مثل هؤلاء من شراء البراءة.. لا هذا كلام خرافات..

يقفز من مكانه.. يلتقط نظرات من النافذة بخفة ونزق، كأنه يبحث عن شيء، ثم يدنو مني في حذر ويقول:

- والله.. صدقني يا أستاذ.. إنهم.. جعلوا في صفهم بعض الفاسدين من المسؤولين.. وحتى لا يحرجوا رجال الشرطة الفاسدين يقدمون كل مرة واحد منهم للقضاء، لكن بملفات خفيفة.. وهكذا.. ولكل شيء مقابل..

- هذا خيال في خيال.. أنت تتابع كثيرا الأفلام البوليسية، حتى اختلطت عليك الأمور..

في الحقيقية، أنا أيضا تصلني مثل هذه الأخبار.. ومن زملاء لي.. لكنها تظل أخبارا فقط.. لا غير.. كلام الناس.. الناس يزيدون وينقصون في الأخبار حتى تصير مثل الخرافات.. و"فوق" هذا لا أريد أن يورطني لساني في حقد مع جهة ما.. أنا لا اعرف شيئا وانتهى الأمر..

يلح الحمري في القول، يشعل سيجارة من علبتي دون طلب استئذان.. ويقول كمن يفشي سرا خطيرا:

- يا أستاذ! إنهم يتناوبون على دخول السجن حتى لا يفقدوا زبناءهم.. سمعت شباب الحي يقولون إنهم يرشون بعض رجال الشرطة، ولهم علاقات مشبوهة.. المهم.. الأمر لا يهمني.. ما أعرف أن الأخ الأصغر في سجن عكاشة، ويعامل معاملة خاصة، حتى أنه يحدث أسرته بالهاتف.. واتخذ من السجناء المعدمين خدما يغسلون ملابسه ويطبخون طعامه، مقابل السجائر والطعام، وربما يفعل ببعضهم ما يشاء..
- ما يشاء..؟ ماذا تعني يا أحمق..؟ يبدو أن خيالك خصب..
- هذا ما سمعت.. لم أقل إني رأيت.. فأنا لم أدخل السجن أبدا.. والحافظ الله.. واستحيي من ذكر لك ما يقع.. فكثيرا ما أسمع أن بعض السجناء الضعاف والفقراء لا يخجلون في منح أجسادهم لغيرهم من الأقوياء، لحاجتهم للحشيش أو السجائر على الأقل.. يسمونهم "الغلمان"

- اسمع يا الحمري.. هذه مجرد إشاعات..و كلام مقاهي.. أتظن السجن غابة؟
- أقول لك ما أسمع.. بل حتى بعض الأسر الزائرة لأبنائها تتحدث في الأمر..
- الأمر مجرد كلام لا منطق فيه لا أكثر ولا أقل..

يصلنا فجأة صوت صياح من الخارج كأن أحدا يطلب النادل "وا الحمري.. الحمري.. وفينك المسخوط"

يشرئب برأسه من النافذة كالمذعور ثم يرد على المنادي:

- أنا آت.. حالا.. حاضر.. غير "بالشوية"..

يثب خارجا.. يهرول نحو الباب وهو يردد:

- أترك الأمر سرا بيننا.. فأبناء الأعور لا يرحمون أحد.. السلام..
- انتظر.. ما بالك ترتعش..؟ أنسيت إكراميتك..؟

أؤدي له إكراميته بجود، فعادتنا في المكتب أن نؤدي في أخر كل شهر مع إكرامية سخية حسابنا للمقهى التي توجد في الطابق السفلي، شعرت بانشراحه وهو يركض نحو الخارج.. يقفز أدراج السلم بخفة وحيوية مرددا:

- الله يخلف...

6

رن الجرس، في ضجر أدلف نحو الباب.. يرن بقوة رنات ملحة متتابعة.. وقوية، وترت أعصابي وأشعلت حنقي:

- آت.. قلت أنا آت.. توقف.. ما هذا؟.. تمهل.. ما بالك..؟ أوف.. "لم تنته الدنيا بعد"

تنتابني نوبة غضب.. كاللهب أشعر بها تسري في دمي، أوشك أن أفرغ جامها في هذا الطارق غير الصبور، والذي يدق الجرس كطفل يعبث بالزر، أفتح بقوة، أكبح العاصفة وأنا أمام.. امرأة.. شابة.. مثيرة.. تسبقني إلى القول وتقول في دلال وهي تعلن غارتها الفاتنة بطقطقة كعبي حذائها العالي على الأرضية، وتميد لها كما تميد عيدان الخيزران لهبوب ريح خفيفة:

- صباح الخير.. هل أزعجتك..؟
- لا.. أبدا..

أتفرس فيها متأملا، وصوت في داخلي يردد "وهل مثلك يزعج غيري؟" تلج وهي توزع نظرات زائغة كأنها ثملة، ثم تنظر إلي في إثارة وتقول:

- ربما لم آت في الوقت المناسب..
- لا أبدا.. أبدا.. تفضلي..

أفترض أنها تجاوزت الثلاثين سنة بقليل.. طويلة دون عيب، نحيلة دون هزال.. ترتدي جلبابا أزرق، وتستر شعرها بمنديل، لكن نعومته بدت من خصلات شقراء متمردة تجاوزت المنديل واستوت في بهاء

على الجبين، عيناها واسعتان زرقاوان، أشفارها منتظمة وطويلة في سواد كهدب دقيق لنخلة.. لم أستطع التمييز هل هي رموش زينة أم حقيقية لجمالها البهي.. في ارتباك.. ظللت واقفا، دون أن أنبس بكلمة، ثم لجمت اضطرابي وقلت متظاهرا بالحزم:

- تفضلي.. مرحبا..

ابتسمت وقالت وهي تعيد استكشاف فضاء شقة المكتب بنظرات هذه المرة ثابتة تدقق في الأثاث والأشياء:

- أريد أن أعرض عليك قضيتي.. هل أنت الأستاذ المحامي؟

فتحت باب مكتبي بسرعة.. دعوتها للدخول.. جلست.. وضعت الساق على الساق.. وهي تستوي على الكرسي، فأبان شق جانبي في جلبابها عن ساق جميلة ممتلئة ملفوفة في جورب طويل مخملي.. أسود.. شفاف... زاد من فتنتها وإثارتها.. وعصف بتركيزي.. قلت وأنا أستجمع الكلمات وسط عاصفة الإثارة:

- أنا وزميلي الأستاذ صابر نشتغل في المكتب ذاته.. من تقصدين؟ ربما تقصدين زميلي صابرا؟

دفعت بافتراضي هذا وأنا أرجح كفة زميلي، فهو الوحيد القادر على جلب زبونات بهذا الجمال والإثارة لكنها ردت بعفوية غريبة لكن بهية، وابتسامة عريضة تعلو شفتيها الممتلئتين، وهي تسوي وشاحا حول جيدها:

- لا يهم.. من فيكما.. على كل حال.. أريدك أنت أن تتكفل بقضيتي.. فليس صدفة أن ألقاك اليوم وحدك.. أنا أؤمن بالأقدار.. نحن مسيرون لا مخيرون..

محاولا الهروب من قتل محتوم لكبريائي، من جراء نظراتها الجميلة الزائغة، أرد وأنا أتظاهر بعدم الاهتمام:

- نعم.. لكن.. لابد أن أحدا وجهك إلى المكتب وإلى محام معين.. فلا يأتي الناس صدفة إلينا.. إلا لماما..

تتظاهر بتسوية ملابسها.. تتقدم نحو لوحة مقلدة معلقة على جدار مكتبي الذي أفسدت طلاءه الرطوبة.. تتفحصها.. أتفحصها.. ثم تعود إلى مكانها، هي تعيد ترتيب ناصية شعرها:

- لا.. فقط.. أبحث عن محام يبعد مكتبه عن مقر سكناي.. لأسباب يطول شرحها.. سأوضحها لك فيما بعد آه.. تعبت وأنا أجول بسيارتي نحو هذا الحي.. لا يخفى عليك الاكتظاظ والازدحام.. ذلك يوتر أعصابي.. والفوضى في كل مكان.. للأسف مازال الرجال يعتقدون أننا لا نجيد السياقة.. ويلصقون بنا عدة تهم..

- نعم.. بعضهم يعوز ذلك إلى سرعة خوف المرأة وارتباكها في المواقف المحرجة على الطريق..

- الأمر أكبر من ذلك.. الأمر مرتبط بعقلية التخلف.. بعقلية ذكورية.. بأفكار مترسبة في أعماق الرجال وإن زعموا أنهم لا يفكرون بعقلية ذكورية.

تحليلها.. رؤيتها للقضية.. مصطلحات.. مفاهيم.. لا نسمعها كثيرا.. لم يكن مجرد رأي تافه أو انطباع عابر، الأمر الذي جعلني.. احترز من تبخيس ذكائها.. أحول مجرى الحديث علني أجعله سطحيا ووديا قائلا:

- التنقل في هذه المدينة الغول أصبح رحلة شاقة.. قطعة من جحيم..

تضيف وهي تتفرس في وجهي، ثم تشيح بوجهها عني عائدة إلى الجدار متفحصة اللوحة ذاتها، المزيفة، المقلدة، لمشهد فروسية مغربي من القرن الماضي، لا أعرف سبب اهتمامها به..

- ترجلت.. وتمشيت في الشارع، أقرأ اليافطات على مداخل العمارات.. حتى اهتديت إلى مكتبكم.. للأسف المتحرشون يستهدفون النساء كالذئاب المسعورة في الشارع.. يظنون أنها مطية سهلة لنزواتهم.. لمجرد أنها تتمشى في الشارع لوحدها.. أو تجلس في مقهى..

أؤجل الرد لحظات.. أستحضر فجأة حميدو البواب الذي ضرب قبل قليل وعيناي على اللوحة التي أثارت انتباهها، لأول مرة أتفحصها باهتمام وأدقق في تفاصيليها في محاولة مني لاستجلاء ما أثار فضولها الغريب، أغوص في رسوماتها بدقة، تبدو لي كوكبة من الفرسان، أطلقوا بارود بنادقهم توا في الهواء، سحابة فوق رؤوسهم من دخان أبيض، في جلبة ظاهرة تعكسها الأجواء وملامح وجوه الفرسان ونظرات الحشود.. وسط الحلبة تظهر الخيول جامحة.. متقاربة، والفرسان على محياهم بدت علامات التوتر أكثر من التمتع بين النقع والمتطاير، يحكمون بشدة

عنان الخيول التي قد تجفل من لعلعة البنادق، وعلى جنبات المضمار، نصبت خيام كبيرة، وفسطاط شغله وجهاء وأعيان البلاد على ما يبدو من زيهم وملامحهم والفضاء الذي يشغلونه، المفروش بالزرابي، بينما انتشرت وجوه مشبعة بلفح الشمس لبدويات وبدويين وقلة من أهل المدينة على الجنبات المسيجة تدل عليهم ملابسهم، يبدو الجميع مشدوهين بالمشهد كالسحر وراء أسوجة من قطبان حديدية، متوازية ومتعامدة في تقاطع نصبت للتحكم في التدافع وعزل المضمار عن الحشود، ولتحول دون مرور الناس إلى الحلبة. أخرجني من شرودي، صوتها الأنثوي الرخيم:

- نعم.. هل أنت متفق معي..

أعود إليها بعقلي وجوارحي وأقول:

- المرأة المثيرة دائمة محط المعاكسات.. فبعض الرجال يقرؤون لباس قراءة خاصة، المرأة المثير بالنسبة للبعض.. في الشارع العام دعوة مفتوحة..للأسف ما زلنا نقرأ المرأة من الخارج لا من عقلها وأفكارها.. قد يعتقد أحدهم أن امرأة في مقهى وحيدة.. ساقطة أو بائعة هوى..

تضحك في غنج متعمد، اكتشفه في تغير ملامحها واهتمامها الزائد بتسوية خصرها وحركات جسدها المائد، وتقاطعني قائلة:

- لا.. حتى المحجبات.. هن أهداف محتملة للتحرش.. المشكل ليس في الشكل بل في العقول كما أشرت.. أظنك تتفق معي، أن الرجل هنا.. مازال سجين ثقافة ذكورية..؟

هل احترازي كان في محله؟ لا أدري.. فتوجسي أعرفه جزءا من مزاجي.. رغم أنني أدرك إدراكا واعيا أنه أحيانا نقرأ ردات أفعال الناس قراءة خاطئة.. ونضعهم في خانات لا تناسبهم... فقط ..اعتمادا على هاجس أو تأويل أحمق.. أو استنادا إلى غرور معرفي.. نجعل منه صنما مرجعيا..

أغير مقعدي.. أجلس قبالتها.. تضيق المسافة بيني وبينها بعدما جلست مرة أخرى، تفصل بيننا طاولة رخامية دائرية صغيرة، برودة الغرفة، تثيرها.. تفرك ساعديها بيديها، ثم تسرح بنظرها في السقف المتآكل من تسرب مائي قديم، أضع أوراقا بيضاء أمامها، وقلم حبر جاف بين أصابعي، وأقول في ثقة وأنا أفرك راحتي كمن يريد أن يطرد عنه البرودة:

- حان وقت الجد.. أريد الآن أن أسمع قضيتك.. لكن رجاء انتظري..

أخرج في هرولة واضحة، أقصد الشرفة، أنادي على الحمري، مشرئبا بعنقي منها، أرفع صوتي عاليا لكنه لا يجيب خلافا لعادته، يرد على أحد الزبائن وهو يتطلع إلي:

- أستاذ..! الحمري.. ذهب في طلبية..

ألوح له بيدي شاكرا، ثم أعود وأقول راسما ابتسامة على شفتي تخفي ارتباكي:

- أعتذر.. سأطلب لك شيئا.. من مقهى آخر..

أضع سماعة الهاتف على أذني وأسألها بإلحاح:

- ماذا تشربين..؟ رجاء أنت ضيفتنا ولابد أن نكرمك..

رفضت مبتسمة.. بأدب ولم تتوقف عن كنس الفضاء بنظرها كأنها تريد اكتشافه قطعة قطعة:

- لا.. شكرا.. احتسيت ما يكفي هذا الصباح من القهوة..

ترددت بعد لحظة، ثم استأذنتها في السماح لي بالتدخين وأنا ألوح بسيجارة بين أصابعي:

- هل يمكن.. أن.. أن..؟

قالت.. وهي تهز رأسها معبرة بحركتها عن عدم اعتراضها:

- طبعا.. لا مانع.. لا بأس.. "ويلي أستاذ!".. كلنا سجناء هذه السيجارة.. العادة اللعينة.. لكن للأسف.. لا أستطيع التخلي عنها.. حاولت مرارا.. لكن تعودي النفسي والجسدي أقوى من إرادتي عن الإقلاع.. على الأقل خفف منها.. أرى المرمدة ممتلئة..

أخرجت علبة سجائر من حقيبتها، وضعت واحدة بين شفتيها، وعادت تتلمس الأشياء في حقيبتها اليدوية، باحثة عن الولاعة، اضطررت أن أشرئب بعنقي مقتربا منها، منحنيا بقامتي، لأشعل لها السيجارة.. يغمرني نشوة وانتعاشا عطرها، ورائحة جسدها الزكية بعطر الورد، تنفلت الولاعة من بين أصابعي.. التقطها بسرعة.. أزندها مرات ومرات في ارتباك، قبل أن يستعر لسان لهبها، متلعثما أقول، كأنني في ضيق نفس:

- دائما.. ما تخونني.. أصابعي.. في الصباح..

نفثت السحابات الأولى لسيجارتها بعدما سحبت نفسها قويا، فتحولت إلى شبه حلقات بيضاء في الهواء، رفعت رأسها نحو الأعلى وهي توزع الدخان المتصاعد.. كان كثيفا.. اختلط بعطرها الجميل، سوت جلستها من جديد على الكرسي وقالت:

- اعذرني على جرأتي.. ربما أنت في حاجة إلى كأس..

انفجر لغم الحذر مدويا في صدري وتناثر قطعا حادة تغتال السكينة، فتعليقها فتح منفذا سريعا للجزع والشك القاتلين المسافرين دوما من عقلي المتربص مع ريح الكلمة والإشارة الغريبتين نحو صدري، فالتقط العقل الحائر من جديد كلماتها وأطلق العنان لوحش الارتياب وهو يمهد الطريق للهاجس الخانق "هل من مكيدة جديدة..؟ كيف عرفت هذه المرأة أنك تحتسي الخمر..؟ احذر..! هناك خطر ما.."

فقلت لها في لطف مواريا شكي بثقة مصطنعة وأنا أطرق المنضدة برؤوس أصابعي في إيقاع رتيب:

- وكيف عرفت؟ هل سبق والتقينا في مكان ما..؟

قاطعتني قبل أن أنهي كلامي وهي ترسل ضحكة عالية من شأنها أن تطلق عنان الغرائز لأشد الرجال ثباتا في مثل هذه المواقف:

- لا.. لا يذهب فكرك بعيدا.. فقط رائحة الويسكي مازالت تفوح من فمك.. والقنينة مازالت هناك.. هناك.. على الرف..

ألتفت إلى حيث أشارت، فإذا بالقنينة والكأس ما زالا على رف الخزانة الجدارية، إلى جانب صورة لي بكسوة المحاماة، ومزهرية بها زهور بلاستيكية، وكتب أكثرها لم أقرأها، إلا الروايات والقصص التي كانت

تقاسمني وحشتي بعوالمها وشخصياتها، ولكنها أكثرها الآن غدا للزينة فقط.. كعدة أشياء في مكتبي.. وفي صالة الشقة.

أراحني جوابها، وفي الوقت نفسه، حمل معه معلومات مهمة ومثيرة، المرأة ليست عادية.. فليس من السهل أن تميز من خلال رائحة الفم نوع الخمر.. وأن تعرف نوعه من خلال القنينة فقط..

ناولتني علكة بنكهة نعناع.. واقتربت مني كأنها تريد أن تسر إلي بشيء مدنية رأسها من وجهي، ويعود العطر إلى صولته في نفسي، تحدق في عيني بنظرات حالمة زائغة، والرمشان حمامتان جميلتان ترفلان، تحت حاجبين يبدوان كقوسين جملين منحوتين بدقة، وقالت بدلال:

- أيمكنني أن أثق في سريتك يا أستاذ..؟ "عفاك".. أريد أن أعرف.. فقلما أثق في الرجال.. أكثرهم خيبوا ظني.. وأنا وحيدة لا رجل لي ولا سند..؟

عادت من جديدة بمكر جميل لتعلن عن تفاصيل مهمة في حياتها، أشعر بأنها تناديني، تسحبني قهرا إلى مصيدتها، تخبرني بوحدتها، بعدم ارتباطها بطريقة ملتوية.. أكاد أفقد صرامتي، أعاود ترميم انهياري الوشيك بالاستعانة بسيجارة فورا، وأرد عليها مصطنعا تبلدا عاطفيا، وعدم اكتراث مزيف:

- اسمي الأستاذ عزيز.. لالة.. عزيز..! أتمنى ألا تنسي هذا الاسم..

تقترب من النافذة، كدت أسالها عن اسمها.. ترددت.. أجلت السؤال، ترمي نظرات على الشارع، تسوي خصلتها الطائشة من

جديد، تجلس كاشفة مرة أخرى عن كعبها، وساقها الممتلئة والدقيقة عند الكعب.. وفي غنج سافر، تقول:

- أستاذ..! أقصد عزيزا.. أنا فقط أريد أن أحل مشكلتي دون ضوضاء ولا ضجة.. الكتمان أهم شيء عندي..
- مهنتنا هي مهنة الكتمان بامتياز..
- هل أجد صدرا أدفن فيه أسراري.. للأسف لا حظ لي.. كل الصدور خانتني.. كم قاسيت من جراء طبعي العفوي مع الناس.. آه!

فجأة تسقط حقيبتها اليدوية أرضا، فيتبعثر ما بداخلها.. علبة سجائر.. أحمر شفاه.. قارورة عطر بلورية زمردية اللون.. مرآة.. أوراق مختلفة.. محفظة نقود.. افترضت أن الأمر متعمدا.. ربما تريد جس نبضي.. وقياس درجة حرارة نزقي.. وحين انحنيت أجمع ما سقط أرضا.. التقط بصري في لمحة بصر خاطفة عازلا طبيا، مدت يدها إليه، التقطته دون خجل وقالت وقد عجنت الكلمات بالضحك، وهي تلوح به كخرقة ثوب، يهزها الريح، ملتصقا بين إبهام وسبابة كفها:

- المسكينة.. صديقتي.. المتزوجة.. تخجل من اقتنائه.. فأشتريه لها من الصيدلية.. للأسف ما زالت النساء تخجل من الأمر.. هل أنت ضد هذا الفعل؟

سقط في يدي في الوهلة الأولى وصدمت، حتى كدت أحسبها مومسا محترفة، بل كدت أعتبر الوضع دعوة لا تقبل التأويل لممارسة الجنس بيد أن تبريرها أعاد الأمور إلى نصابها، وأعاد إليَّ التحكم في

عنان توهمي، وشد لجام اشتعالي، فعبرت لها بعد أن استجمعت الكلمات عن تفهمي قائلا:

- لا.. لا.. الأمر جد عادي.. وصديقتك محظوظة بك..

أنحني لجمع ما بقي على الأرضية فتنحني في الوقت نفسه، تتسابق أصابعنا لالتقاط الأشياء. تختلط أنفاسنا في لحظة جنون.. يلتقط بصري من شق كاشف في جلبابها على نحرها، ثديين غير ناهدين وإن كانا ممتلئين في غير ارتخاء.. محررين من عناهما.. لكنهما منتصبان.. ويتسلل من جديد إلى أنفي عبق جسد كزهر الليمون.. تدب في جسدي رعشة.. فأشعر بأدغالي الصاخبة تستيقظ.. تصحو.. تمشي على أنقاض ثباتي.. رغما عني.. تعيدني إلى رشدي بصوتها الأنثوي الفاتن ضاحكة:

- شكرا.. أستاذ.. أقصد عزيز..

تتسلم من يدي الحقيبة.. استحضر في رمشه عين من الزمن حميدو "الشيكي"، فأخشى أن أكون مثله لكن بطريقة أخرى.. استرجع حكمتي وأرد عليها منحنحا:

- ثقي فيَّ.. فالسرية واجب مهني.. دون أن تطلبي مني ذلك..
- أعرف ولكن ما مررت به من محن جعلني لا أثق في أي أحد.. خصوصا الرجال.. دائما يخذلونني..
- لا تخافي.. فأنا مطالب بالسرية قانونيا.. وأخلاقيا..
- اسمح لي لم أقصد الإساءة إليك.. رجاء.. لا تفهمني خطأ..
- أنا أتفهم الأمر.. لالة.. بالمناسبة لم أعرف اسمك بعد..

تطلق قهقهة عالية وتقول في مرح:

- كنت أنتظر منك أن تسأل.. لكن يبدو أن أمرا ما شغلك عن أهم سؤال..
- لا.. فقط.. كنت..

في الحقيقة سهوت عن الأمر وانشغلت بتفاصيل الجسد الممتلئ أنوثة عن أبسط الأعراف في التواصل وشغلتني تجليات مبهمة لرغباتها الطائشة، لكنها كانت كملاكم ماهر ومحترف يدبر زمن اللقاء باقتصاد في الأنفاس والجهد، ويوزعه على كل الجولات، في انتظار الضربة القاضية، وعقلي كالعادة يجبرني على الحذر والتريث، تشعر بارتباكي.. فتقول وهي تمرر يدها على عنقها:

- زينة.. زينة.. تشرفنا..

أردد في أعماقي: "زينة والله زينة..".

تردف وهي تشد جلبابها حتى رسم جسدها بوضوح:

- والآن هل ممكن أن أعول عليك.. ألن تخيب ظني كالآخرين؟
- لا.. أبدا.. كوني مرتاحة، كأنك تكلمين نفسك، أتعلمين يا "لالة" زينة..؟
- رجاء زينة فقط..
- نعم.. زينة.. أتعلمين أنه حتى لو باح قاتل لمحاميه بجريمته.. لا.. لا يحق له الكشف عن اعترافات موكله.. ألا تشاهدين أفلام السينما سيدتي؟..

- تقصد كقس كاثوليكي.. يستمع للاعترافات داخل سقيفة الاعتراف.. ولا يبوح بها أبدا.. لكنكم للأسف لا تمنحون الغفران.. هل أنت مستعد لتمنحني الغفران؟
- لم أسمع بعد.. ولا أظن امرأة في عقلك وحكمتك في حاجة إلى غفران..
- كلنا يا عزيز.. نحتاج إلى جرعة غفران ولو مزيفة، ولو كان الغفران كاذبا.. وهميا.. دعنا من هذا.. وأنت هل ستكون معي أم ضدي..؟
- ضدك!؟.. معك..!؟ أنت موكلتي وأنا معك دائما..
- دائما.. دائما.. حتى النهاية..
- طبعا.. بلا شك..
- حتى النهاية.. أخاف أن تخيب ظني.. أخاف أن تكون مثل الآخرين.. يوما ما سأذكرك بوعدك هذا..
- لا أفهم..

تدنو مني فجأة، تزاحمني على الكرسي نفسه وتحشرني في حيز ضيق منه وتجلس وقد التصق جسدها بجسدي، تضع يدها على يدي، وتضغط بقوة، قد تكون حركة عفوية لامرأة في معاناة.. قد يكون الأمر بسيطا.. أخويا في ذهنها.. ذكوريا في ذهني.. أستشعر نعومة جلدها وجمال أصابعها الدقيقة الطويلة، المطلية الأظافر بطلاء وردي شفاف، تخيلتها أصابع من شمع.. كانت ناعمة.. على الأقل هذا ما أظن.. خشيت من رغبة جامحة ما تدخلني في نفق التيه وتجرني إلى المجهول..

أسحب يدي بروية دون أن أبدي لها أدنى توتر.. أنقذ نفسي بطوق التريث في اللحظة المناسبة، من خط التماس بين مدفعية التهور خندق الحكمة.. أقف.. تنهض.. تجر في جلبة كرسيها قربي.. تجلس في اضطراب.. وتجهش في البكاء بحرارة:

- ساعدني.. رجاء.. ساعدني.. إنني أعيش في جحيم لا يطاق.. في عذاب يومي.. حرمني متعة الحياة..

ارتمت في حضني، فاجتاحتني مشاعر متناقضة، في عقلي ضجيج من الأفكار ورهبة تسري في صدري، هل تلف حبال شراكها حولي؟ هل هي عاطفة بريئة لامرأة مجروحة وفي حاجة إلى حضن للبكاء؟ هل تهد رزانتي..؟ هل الأمر مؤامرة؟ هل جهة ما سلطتها علي؟ جسدي سينهار.. لست قديسا.. لأحتمل هذا الجسد الصاخب بالأنوثة.. هذه لحظة مهمة حاسمة.. في مصائر الناس.. خطوة واحدة غير محسوبة ولا نفكر فيها كفاية قد تؤدي إلى التيه.. قد تفتح بوابة جهنم.. قد تغير الخرائط والوجوه.. والأقدار.. شعرت بجنون دقات قلبي.. حتما ستلحظ تعرق إبطي من شدة التوتر.. لكن تفكيري بالمؤامرة صور لي مشاهد خيالية مربكة ومخيفة.. مفترضا أن جهة ما في صمت تتفرج علي أو تستمع لحديثنا.. مما أطفا جمرتي.. وأيقظ عقلي، وأعادني إلى هوسي.. من أدراني أنها تغويني لتفضحني لتبيع فضيحتي لأعدائي وخصومي؟ لكن من هم أعدائي؟ أنا طيب.. ونزيه.. لا أعداء لي.. ومن يدري..؟ ربما أغضبت جهة ما.. شخصا ما دون أن أدري.. عليَّ أن أحتاط.. ربما مزحة أصدقاء.. ربما مكيدة .. ربما..

يقاوم ويصمد عقلي أمام عاصفة غوايتها العاتية، شبقي أحمق مجنون.. لا يلجمه غير التوجس..يريد أن ينفلت من عقاله..كحصان أجلف.. يقاوم العنان.. أشده بهاجسي وترددي بيد أن جسدي يستهتر بلجام العقل.. أوشكت أن أصير قصبة في مهب رياحها العاصفة.. عقلي المشكاك يسترجع سطوته.. يأمرني بقوة بلجم عنان غرائزي، يأمرني أن أبعدها عن حضني.. يلح.. ثم يلح.. يصر احذر.. احذر.. الجسد المتهور.. يكاد يطلق العنان.. شفتاها تقتربان من شفتي.. أشعر بنفسها الدافئ.. أشعر بجسها يرتعش.. يا عقلي! أنا الآن في حاجة إلى وصايتك.. إلى قلقك.. عقلي يستجيب.. يجدد الترهيب.. ينعش طائف الخوف من ردة فعل صادم.. التوجس من المكيدة.. الريبة من عداوة كامنة.. من انتقام مفترض.. أبعدها بلطف.. أقول مرتبكا.. مضطربا:

- لا تحزني.. لابد أن نجد معا مخرجا بإذن الله..

تبتسم في وجهي وتقول في دلال:

- لست سهلا..

تلوي خصرها في شبه نصف دورة.. وهي تتمشى وتقول في لين وفتنة:

- لكل شيء أوان.. لا عليك.. أنا أجيد الصبر..

ثم تطلق العنان لضحكتها القاهرة للحكمة والصبر.. أعود إلى مقعدي أمام المكتب هاربا من خسائر محتملة في لحظة ضعف بشري.. أشعل سيجارة.. أرشف رشفات متتابعة من الفنجان أمسح شفتي

بأصابعي يدي، مضطربا أبدو.. حتما لاحظت ذلك.. حتما ستعاود الكرة، لتجهز علي.. أصمد أمام الغواية، وأتذكر حميدو أكاد أتفهمه.. لكن شتان بين الوضعين، أنا هنا وسط عاصفة أنثى، تجرفني نحو شط الرغبة القاتلة وهو.. الأخرق.. كان العاصفة المجنونة الذي انقلبت عليه فعصفت بكرامته.. ألم يحاول عبثا غواية الفتاة وسحبها إلى عالمه؟ أما أنا.. الآن.. فأكاد أكون الضحية.. تحت سياط الغواية..

أقول متلعثما محاولا جمع الحروف والكلمات التي صارت عصية:

- ما هي قضيتك.. أريد أن أسمع؟

تستغرق هنيهة في صمت عميق، كأنها حلقت في كون آخر.. حزن داهم غير ملامح وتقاسيم وجهها.. اختفت الابتسام فجأة، كأن قناعا سقط.. وبدا الوجه الجميل مثقلا بالشجي والألم.. كل قطعة فيه تعري جرحا محتملا.. تسوي جلبابها الذي تبعثر وهي بقربي.. وترمي وشاحها خلف ظهرها بعدما طوقت به عنقها، تركت الناصية الطائشة، تأخذ منديلا ورقيا، تمسح ما لطخته الدموع وقد اختلطت بالمساحيق، تضع سيجارة بين شفتيها، لم أعمد هذه المرة إلى إشعالها لها.. لانشغالي بترتيب فوضاي الداخلية.. تشعلها بولاعة ذهبية صغيرة الحجم، نقش على وجهها حرفان.. وتقول وهي تأخذ نفسا عميقا:

- وي.. هذه قصتي..

7

تقول زينة ومع البوح الجريح تسلل الحزن العميق الغادر يعري في خذلان رواسب الأعماق ويكشف الأسرار، عيناها تبرقا بريقا مغايرا اختفت معه البسمة وتداعت له المآقي بالدمع المتأهب في زاويتي الحدقتين للفضح والكشف: "اسمي المتداول والمعروف هو سعيدة، والحقيقة أنه اسم مستعار يجنبني أسئلة الفضوليين الذين ينبشون في تاريخ الناس، لتحديد أصلهم وهويتهم.. من خلال معرفة الاسم الحقيقي.. فبعض الأسماء، دالة بقوة.. ولها خصوصية قبلية.. تحيل بالضرورة على منطقة ما.. وبدون تزييف اسمي الحقيقي هو "زينة" كما قلت لك عمري 30 سنة، "أقاطعها.. مندهشا: "لمَ تخافين من أن يربط الناس بين اسمك وجذورك..؟ ليس عيبا أن يعرف الناس أصولنا.. لا أحد يخجل من الأرض التي كانت مسقط رأسه.."

تستطرد في حرقة وهي تسوي زينتها أمام مرآة جيب صغيرة، وقد خانتها دمعة غادرة: "لكل شيء وقت.. سأوضح الأمر فيما.. الأمر لا علاقة له بجحود ولا بتنكر للأصل.. فأنا فخورة بأصلي.. ربما أصلي هو فخري الوحيد.."

تضع المرآة المستديرة بعروة بلاستيكية في حقيبة يدها، ثم تشعل سيجارة، تلتهمها التهاما سريعا، فتحترق بسرعة بين أصابعها، لابد أن في صدرها حرقة ألم وحسرة، تم تردف وخيمت سحابة الحزن على جفنيها تكاد تعصر مدامعها رغما عنها ورغم جلدها الذي بدا لي يذوب كقمة جبل مثلجة تحت لهيب لواعجها "في دوار"آيت واسيف" الأمازيغي.. التي تعني أهل الوادي.. المنغرس في سفح من سفوح جبال

الأطلس المتوسط، فتحت عيني على الدنيا من أب فلاح وأم لا هم لها سوى إرضاء زوجها وإخوتي وجدتي من أبي..كنا أربعة أبناء.. ثلاث بنات وابن واحد هو البكر، كنت أعيش حياة هادئة بينهم، كنت الصغرى المدللة.. تزوجت أختاي مبكرا.. في عمر لم يتجاوز الرابعة عشرة سنة على عادة وأعراف بلدتنا.. الكبرى من أحد أبناء الدوار، والأخرى من فتى من دوار مجاور، الذي هو ابن خالتي.. ورغم ظروف العيش الصعبة، وقسوة المنطقة الجبلية خريفا وشتاء..إذ كانت الثلوج تحاصر بيوتنا ودورنا لشهور طويلة باردة جدا.. فنضطر للعيش على القليل.. نقتصد في الحطب أكثر من ما نقتصد في الدقيق والزيت والشاي.. لم يكن من شيء محدد ينغص علي حياتي.. كنت فراشة نادرة حالمة أهيم بعفوية وبراءة بين المروج والبساتين والحقول وفجاج الجبال التي تحف كسور منيع قريتنا، تداعب خيالاتي طيور شتى.. العنادل وطائر الحسون واللقالق وطيور الإوز الوردية اللون، قرب السواقي الهائمة بعشق أشجار اللوز والخوخ والرمان والتفاح، أردد مواويل أمازيغية تدغدغ الوجدان وتلهب الخيال، أشق أشغالي كانت الحطب الذي أحطبه رفقة الفتيات في عمق الغابات الجبلية حيث تتعايش أشجار الأرز والسنديان والصنوبر.. أحمله على وزرا ثقيلا يقصم ظهري.. لكن ألم الطريق والحمل الثقيل كان يبدده العشق العميق للأرض والشجر والماء والهواء.. ستقول ربما من أين اكتسبت هذه القدرة على التعبير والوصف رغم تدني مستواي التعليمي..؟ لا تتعجل..! ولا تستبق الأحداث.. فالشعر في قبيلتنا ملك متوج منذ الزمن السحيق، الخيال والإبداع يختاران من يشاءان من النساء

والرجال.. واختارني أنا.. الشعر في قبيلتنا تاريخ وهوية وخلود، أرتجله أمازيغيا شفافا.. يعانق الأوتار بحرارة وتناغم.. أغنيه بين الوديان وفي رقصات "أحيدوس" فليس عيبا في قبيلتنا أن تغني الفتاة وترقص.. كنت شاعرة بالفطرة.. شعري.. قصائد بلغة قبيلتنا المفعمة بالصور والأحاسيس، كنت أنسج صورها مما حولي بدون تكلف.. تأتي منسجمة مع إيقاع الطبيعة.. مع خرير الأنهار والأودية.. وصدى الجبال.. مع زخات المطر، ووابل السماء وقعقعة الرعد.. ووميض البرق.. كانت أغاني ترتدي بياض الطبيعة حين تحاصرنا في البيوت الثلوج التي على قهرها لنا نقدس فيها نبع الحياة وبياضا يبدد ظلمة الدجى،وأصابع ناصعة تكنس مشاعر اليأس من الصدور.. كانت أغاني ترشح ماء عذبا سلسبيلا فتغدو ظلالا في جنون القيظ الحارق، كانت تتحول فراشات.. لتحلق مع الصدى، ناقلة عبق الربيع البهي.. وكانت الطبيعة.. معلمي وملهمي.. وكانت حكايات جدتي عن مآسي العشاق مصدر إلهامي.. تعلمت منها البدايات.. ثم حلقت في دوائر خيالية خاصة بي.. وعربيتي لا تقل عن أمازيغيتي قوة، الخيال هو الأصل والكلمات ما هي إلا وعاء..

نشأت في بيت من طين سقفه من جذوع الصنوبر والخيزران، جدرانه من طوب مدكوك أو قوالب عريضة من الطين المضغوط.. بين أسرار القبيلة الدافئة أرتع وأدفئ الحلم والبهاء، أحاور شجر اللوز وهو يتفتح عن زهرات بيضاء ما تلبث أن تثمر ثمرة اللوز، أقاسم مع والدي وإخوتي أعمال الزراعة وتربية قطيع مختلط من الماعز والغنم وبقرة وحيدة.. كانت الزراعة بسيطة لكنها كانت عالمنا الجميل.. وبهجتنا

اليومية.. لم أتجاوز في دراستي السنة السادسة ابتدائية، وبعدها انقطع مشوار دراستي، لبعد المدرسة الإعدادية عن الدوار مسافة بعيدة، لا أدرى ربما تفوق خمسين كيلومترا.. وكان من الصعب أن أستقر لإتمام دراستي في مركز القرية، حيث لا حل سوى كراء غرفة تضم عدة فتيات.. لكن في أيامنا آنذاك، لم يكن سهلا السماح للفتاة بالدارسة في مركز القرية.. لكني تعلمت من السياح الزوار لغتهم وقرأت كتبهم بهم، واطلعت على حضاراتهم.

كنت شاعرة الفصل وراويته.. أحفظ الشعر.. وأرويه عربيا كان أم أمازيغيا.. الجمال لا لغة له.. لا وطن له.. صدقني.. كما يطربني الشعر العربي، تطربني قصائد "الرياس" لكن لا أحد يعيش غير قدره.. آنذاك كان قدري محددا مسبقا.. كنت أراه في وجه الفتيات قبلي.. ومن خلال حياة المتزوجات الصغيرات في السن، آمنت بحدود حظي العاثر في التعليم.. قبلت بـ"المكتوب".. بقدري.. وعشت حياتي أدبر أيامها ككل فتيات الدوار.. إلى أن يقرر أهلي تزويجي برجل أو فتى من عمري.. كباقي الفتيات.. كان الزواج منتهى الطموح وأفق كل الغايات..

ما من فتاة سبق لها أن احتجت.. أو رفضت.. كانت قرارات الزيجات تتم بشكل سريع.. كم من صبية تزوجت وهي مازالت في نعومة أظافرها ولم تحض بعد..! أخذت أخذا من طفولتها.. اختطفت من عرائسها.. من خيالها البريء.. من عالمها الذي كان بسيطا، بدون غرائز ولا شهوة.. في البدء كان يبدو للفتيات الصغيرات العرس بجميع طقوسه كنوع من اللعب.. لهذا يظنهن الجاهل سعيدات في ملابس

العروس الأمازيغية.. في براءة كن ينخرطن في أجواء العرس من طقس الحناء إلى طقس الدخلة.. لا يدركن أن قرارا مصيريا اتخذه الشيوخ سيغير حياتهن، وسينقلهن إلى مرتبة الأنثى الناضجة قبل الأوان التي ستصير أما مازالت تواقة لحضن أمها وللعب بدمى تصنعها من عيدان وعظام وخرق بالية"

أستوقفها بإشارة من يدي، ملحا على المزيد من التوضيح:

- ما زلت أبحث في ثنايا قصتك عن مشكلتك.. وصدقا طريقتك في السرد تبهرني..

ترد علي بقوة وفي كبرياء.. شامخة:

- رجاء.. دعني أنهي الحكاية.. لا تتسرع.. لا تنس أنني شاعرة بالفطرة.. وهناك تفاصيل في حياتي ستبدد الضباب الذي قد يكتنف قصتي..

أشير لها بيدي أن تستأنف في شبه اعتذار.. تنهض من الكرسي، تبتعد قليلا.. تقترب من النافذة.. تتكئ على الحاجز الإسمنتي وتستمر في الحكي بعدما رمت نظرة إلى الخارج، كأنها تطلب هواء نقيا "كان يحل بقريتنا خلال الصيف من كل عام سياح من الداخل والخارج .. للاستمتاع بالطبيعة الجبلية وبمجاري المياه العذبة الرقراقة.. وبأجواء دوارنا الهادئ إلا من خرير السواقي ومياه العيون المتدفقة، ورحلة الروافد المائية في رحلة طويلة من قمم الجبال بلا كلل، إلى حضن مصب نهر أم الربيع.. فكان دوارنا يتحول في كل موعد مصيفي إلى خلية نحل.. إلى فضاء ضاج مفعم بالحركة.. لا يهدأ إلا في الساعات الأولى للفجر.. وحتى الفجر له أصحابه ورواده في الجبال وعلى سفوحها وبين المروج.

يأتي السياح فرادى أو جماعات يرافقهم أحيانا مرشد سياحي إن كانوا مجموعة من الأجانب.. وتأتي معهم الفرحة والسعة في العيش.. نفرح لحضورهم الذي ينعش اقتصاد دوارنا، وتزدهر معه تجارة بسيطة في أرجاء البلدة، فبعض الناس من قبيلتنا والتخوم حولوا البيوت إلى دور سياحية يستقبلون فيها السياح، وبعضهم فتحوا مطاعم بسيطة ملتصقة ببيوتهم، تقدم الخبز المحلي "تنورت" والطاجين بلحم الماعز.. والشاي المعبق بالنعناع.. وأنشطة أخرى ظهرت مع الحاجة والطلب.. بيع التذكارات.. والأقمشة والأوشحة المحليتين المزركشتين بأنامل النساء وزرابي محلية.. ولم يكن غريبا في بلدتنا الطينية البيوت، أن ينبغ شبابها في اللغات وفي النحت والرسم وصقل الصخور النادرة وقد احتكوا احتكاكا شديدا بعدة جنسيات.. وليس غريبا أن تنفتح النفوس والعقول في أرجاء البلدة دون تفسخ وهؤلاء السياح من كل حدب وصوب صاروا جزءا من حياتنا.. فشربنا من معين حضارتهم رغما عنا بحذر واقتصاد.. فنفوسنا تمج كل غريب يغير عاداتنا وقيمنا.. قرأنا كتبهم.. مذكراتهم.. حتى الإنجيل قرأناه.. لكننا لم نقايض قيما بقيم وعقيدة بعقيدة من أجل لقمة العيش.. كان لنا كبرياؤنا الجماعي.. هو الذي يحصننا ضد كل انحراف.. ويلقحنا من ضعف العوز والفاقة.. ورغم ذلك تسللت بعض قيمهم وسلوكهم إلى البيوت.. فانتشر بين الشباب حلم الهجرة إلى الغرب..فعرفنا الزيجات المختلطة.. وأخذنا حظنا من العابرين.. ومن الغرقى.. ومن المفقودين..

وجاء اليوم الذي سيغير حياتي.. في قيظ شهر "غشت".. كان عمري حينذاك 15 سنة.. حل بالقرية مجموعة من الشباب من الدار

البيضاء أذكر كان صيف 1986.. كانوا كثيري الهرج والمرج.. نزقين في حيوية جارفة، كل شيء عندهم يتم بالصخب.. فرحهم.. جدالهم.. تسوقهم.. لعبهم الجماعي.. إلا شابا منهم تميز بهدوئه.. وصمته.. وقامته.. كان كبطل أسطوري خرج من رواية رومانسية.. وبدأ "المكتوب" يتشكل خارج الانتظارات والتوقعات ، دون إرادة مني ولا إرادة من الشاب الصامت.. كان إعصارا قويا عصف بي ربما أولا.. فقض مضجعي.. وغير عاداتي وغير شهيتي للحياة والطعام ومتعي العادية، صرت أنتظر عبوره من زقاق ضيق ينحدر من أعلى تل عبورا ببيتنا ويؤدي إلى نبع مائي.. بشوق وحرارة.. شعور لم أجربه قبل لذلك ظل غامضا غير قابلا للتعبير، عصيا على اللغة، كنت أراقبه من شق الباب.. أسترق النظر إليه من نافذة غرفتي المشبكة بالحديد.. ثم أصبحت افتعل أمرا ما للخروج ومصادفة مروره.. فعصف به ما عصف بي.. لا أعرف من أحب الآخر بداية، شوقي له لم يمنع أنوثتي من أن تمارس لعبة التمنع.. لم أكن أريده أن يعتبرني رخيصة وسهلة.. كبريائي وأنوثتي جعلاني أتظاهر بعدم الاهتمام ولا الاكتراث.. التجاهل.. لكن.. إلى متى؟ فاستنجدت بأشعاري التي أحفظها، لأفهم هذا الشعور وأستجليه من لبس الأحاسيس، كان حبا.. عشقا.. بلا شك..

صار يطاردني كالمجنون دون أن ينبس ببنت شفة.. يمنعه خجل واضح من حسم المطاردة، يكتفي باقتفاء أثري.. لا كلام.. لا حركة.. غير حديث العيون والملامح، حتى خفت عليه من بطش شباب الدوار.. لا أعرف كم طال الأمر.. لألين.. وأقرر الوصال بلا تفكير

في العواقب.. لأرحم نفسي وأرحمه.. لأقرر أن أغسل لوعتي تحت شلال يديه..

مراد..! آه..! كم تمنيت أن أطفئ لهيب الشوق بالحديث إليه..! فكانت الخطوة الأول صعبة.. مترددة.. موسومة بالخوف.. كيف أساعده على البوح..؟ أن أحقق رغبتي الجامحة في أن نكون معا.. فقط أنا وهو.. لا خبرة ولا تجربة ولا سابقة لي في الأمر.. كان هذا هو الحلم.. كان هو البداية والنهاية.. فسرت كالمغشية علي نحو قدري.. مسحورة بتعويذة العشق التي نسجت خيوطها وطلاسمها من سحر مكين لضياء عينيه.. من أثر أخاذ لخطوه.. من الرماد الذي يخلفه لهيب عبوره أمام البيت"

أنظر في عينيها، لحظة نطقت الاسم "مرادا".. تعبر دمعتان ساخنتان مآقيها رغما عنها نحو وجنتيها اللتين غدتا بلون الجمر.. يتغير نبر صوتها، تصير فيه بحة، يضيق نفسها، أشعر أنني في حاجة إلى أن أكون قربها أجلس مرة ثانية في المقعد المقابل لها، تأخذ سيجارة، أشعلها لها.. هاته المرة في قلبي بدأت تكبر مشاعر الشفقة والرحمة، وتخليت عن شعوري الأول أنها حاولت إغوائي.. بافتعالها سقوط حقيبتها.. كانت عفوية.. معها لأول مرة تتبدد هواجسي وتتراجع ريبتي المرضية، ويصمت العقل الحذر..صوتها كاف لنشر الدفء في جلستنا هاته.. نعم.. كانت شفافة.. صادقة.. لا ريب في ذلك.. أحسست أنني مستعد لتوجيه ضربة قاضية إلى هواجسي فقلت في نفسي "كف يا عقلي عن تصنيف الناس والتوجس منهم..! فتصنيفاتك فوتت علي فرصا كثيرة لفهم الناس والحياة.. من السهل أن تحاكم الآخر وتضع حدا لكل علاقة.. لكل

تواصل محتمل، لكن من الصعب أن تفهمه.. أن تؤجل على الأقل الأحكام المسبقة.. أن تعطيه فرصة للأخر مهما يكن.. أن يكون كما هو لا كما تريد أنت أيها العقل المتردد"

أشعل سيجارة.. المرمدة تفيض بأعقاب السجائر، أفتح نافذة تطل على زقاق ضيق وراء المبنى حيث يوجد المكتب، تهب نسائم باردة جميلة، تسقط أشعة الشمس دافئة على الكائنات والأشياء.. تبدد برودة الغرفة.. أقول لها في تعاطف وحنو مفضوحين:

- آه..! كم عانيت يا سيدتي..

تحدجني بنظرة قاتمة، في مستاءة وتقول وهي تسرح شعرها بأصابعها:

- عدنا من حيث بدأنا..؟ قلت لك رجاء ناديني زينة.. فقط..
- آسف.. لن أكررها..

تنفث سحابات الدخان في الهواء بطريقتها الخاصة التي بدأت أألفها.. تدخن ورأسها نحو الأعلى، كانت تتذوق سيجارتها، وتدخنها بطريقة درامية، ثم تعود للبوح الجميل رغم الألم والجراح بما تبقى من قصتها بآهة عميقة: "التقيت بمراد عند نبع العين، حيث كنت أستسقي للبيت، شعرت بنظراته القوية العميقة.. المربكة.. مرة ثانية تعريني، تفضح قلة حيلتي، حاولت أن أتفاداه.. هيهات.. شيء ما دافئ.. جارف.. يسحبني نحوه.. أشعر كأنني أهوي في سقوط حر من عل فأظل معلقة بين الأرض والسماء.. خفة تنتابني.. كأن الجاذبية انتفت.. صرت فراشة للتو.. مستعدة للتحليق.. تتبدل خطواتي.. بل أفقد أسلوبي المعتاد في

المشي.. أشعر بالأنثى التي في تستيقظ في بكل لهيبها نارا تحرق التردد والخوف.. فتغير نظراتي.. تفكيري.. دقات قلبي.. ويضطرب خطوي، ما أجمل أن تشعر المرأة بأنوثتها الصاخبة! لأول مرة يداهمني العشق كالإعصار.. يشل الحذر.. وينزع من طريقه بقوة وجبروت كل متاريس الخجل والخوف.. جارف.. مدمر.. شرع بوابة الصدر بنظرات مجنونة في البداية.. ثم كلمات محتشمة كالجمر هنا وهناك.. يا ليته ما تكلم..! يا ليتني لم أخرج يومها للسقاية..! يا ليتني لم أولد وكنت نسيا! قاومت حبه صمودا وكبرياء لا خوفا في البداية.. أصده بكبريائي صدا طيبا، لكن تمنعي كان هشا لصلابة صخرة الواقع الجارف، لم أعد قادرة على تحمل ترقب ظهوره في فضاءاتي.. حتى خشيت أن يقضي عطلته ويعود من حي أتى ..تاركا روحي وقلبي معلقين بعشق لم يكتمل بهاؤه.. أرق.. فألم ثم اعتصار وعزم أخيرا على فتح حياتي وقلبي له، وليكن الثمن ما يكون.. لم أعد قادرة على تحمل كل هذا الجنون والعبث.. وحده الحب يشعر المرأة بأنوثتها.. وحده الرجل قادر أن يخلق الفرق في وجود امرأة بين الوجود العادي التافه.. والوجود الاستثنائي البهي.

وكان اللقاء المصيري عند نبع الماء.. كان هناك كالعادة.. يترقب ظهوري وفق جدول أشغالي الذي صار جزءا من حياته اليومية، كسر خجلي وترددي، بعفوية الواثق، وبدد مسافة الغربة بمبادرتي الكلام صائنا كبرياء أنوثتي.. حتى صرت قادرة على الكلام في حضرته..كان صادقا شفافا.. ليس لعوبا ولا عابر متعة، وجدته حاسما في حبه.. في قراره.. لا يريد مغامرة ولا عاشقة.. يريدني أنا.. معه في السراء والضراء لبقية حياته.. لن يعود دوني.. غدوت أمله.. هواءه.. مبرره للطموح..

أنا محظوظة.. أن يسافر العشق من بعيد ليأتي إلي ملتهبا.. صادقا.. بلا زيف ولا كذب.

وتعددت اللقاءات والمواعيد، كل لقاء نعمة.. وكل نعمة هي رحمة.. وتغير في العقل والوجدان.. كل موعد كان نسمة من نسمات الشوق والجمال.. وكل حديث خطوة نحو تضاريس جسدي الذي كنت أقمعه.. وأعتبره عبئا علي وعلى أسرتي وقبيلتي.. لا نعمة من السماء، فكم أشعرتنا العيون والأحاديث بعار مختلق اسمه جسد الأنثى..!

حلا الحديث لحد السكر، وصارت لكل الأشياء معاني جديدة، فضاءات كانت رتيبة.. ما إن تجمعنا حتى تنتعش جمالا وروعة، وتجدد روعتها.. وصارت الدنيا أرحب.. وأوسع من الرؤية.. الزمن سريعا يمضي في كل لقاء.. بالأمس كان بطيئا.. قاتلا.. بلا معنى.. يجثو على قلبي وهو يعبر بين محطتين.. الشروق والغروب.. الزمن لا يوجد إلا داخل عواطفنا.. منذ التقيت مرادا صار للزمن إيقاع آخر..ومحطات مختلفة.. غدا سريعا.. هاربا.. دوما.. ووجدت نفسي في حضنه الملتهب.. وتعرفت على أسراري.. ومكامن سحري التي تجبر الرجال على السقوط وأنا أتملس رائحته.. عرقه.. منتشية بنشوة العشق.. بعيدا عن أعين الناس.. أول شفة اكتشفت فيها أنوثتي كانت شفته الحارقة، القادرة أن تصير في رشفة ثم لغما يفجر أنوثتي.. يعرفني على نفسي.. على قدسية جسدي.. على بهاء كل جزء فيه.. يداه تكشفان لي تضاريس فاتنة.. رائعة.. في جسدي كانت من قبل مقموعة، عارا.. غير معلنة.. مهددة بالضمور.. بالتلاشي.. أنوثتي التي اكتشفتها عرفتني على الرجل.. كم هو

ضعيف.. ويستحق الشفقة..! كم هو بشري.. رائع في بشريته.. قوي في ضعفه بين أحضان المرأة..!

كانت يده الساحرة، الدافئة أول يد داعبت قنديلي صدري واكتشفت نعمة أن يكون لي ثديان مجنونان.. لم يخلقا لإرضاع الرضع فقط.. هما فتيلتان يشعلان كبريت البدايات.. هما نبع الحياة ورحيقها في الآن نفسه.. اكتشفت كل ألغامي الجميلة التي كانت تنفجر جملا.. مراد صالحني مع أنوثة كنت أحسبها عارا..

لم أسأله عن عمله.. فقط كنا نستسلم للتيار ندعه يحملنا إلى حيث يشاء.. لم أكن أدري أن تيار العشق يصيب العقل بالعمى بالصمم، كانت تلك لحظة فارقة في حياتي.. عطلت الخوف والوجل والخجل.. وتركت جسدي يعلن وجوده.. يعلن سلطته.. يمارس لعبته.. وفي أعماقي صوت يردد "وماذا بعد.. وليكن ما يكون"..

لمسته سحرية.. تؤجل التفكير في القرارات والعواقب الوخيمة.. بإرادتي يزور مرارا وتكرارا تضاريس جسدي، سلمت له نفسي في ليلة تحالفت معه الطبيعة.. تحت شجرة وارفة، والبدر مكتمل قال "أريني مدى ثقتك في".. قلت "كيف؟" قال "دعيني أرتع في حديقتك المغلقة.."

بكيت في حضنه، وأنا أمنحه زهرة أنوثتي، بكيت.. ليس ندما.. بل هكذا شعرت برغبة في البكاء.. وشعرت أنني صرت جزءا منه.. وصار جزءا مني.. لم يعد هناك شيء يخيفني.. أشعر بصدقه.. بحنانه.. فلتأت العواقب عاصفة.. قاتلة.. كما شاءت.. لحظات معه بعمري.. وبعدها الموت.. العدم..

في الصباح قبل أن يندمل جرح انهياري التام، جاء زائرا أسرتي، بوجه مشرق، وبإرادة الرجال، كان فارسا حقا في زمن غير زمانه، قال لأبي "زوجني.. زينة حالا.. وإن رفضت قتلت نفسي".. أبي كان رجلا بسيطا لكنه خبر الحياة وله رصيده من الحكمة، أخبره أنه يعلم علاقته بي، ولا عيب أنه جاء يطلب الزواج.. لم يتردد أبي.. ووافق..

دعا والدي الفقيه ورجالا من الدوار.. وأولمت أمي للنساء.. حضر الأهل من عائلة أمي.. وغاب لأسباب كنت أجهلها حينذاك عمي سليمان وأسرته.. قال الفقيه في حضرة الكل:

- نشهد أن زينة ابنة "محند آيت ساعف".. صارت زوجة مراد البيضاوي.. على سنة الله ورسوله.. صداق قدره 1000 درهم.. بالتوفيق أن شاء الله.. مراد.. فارس.. شهم.. يقول.. وهو يبتسم:
- اسمي الكامل مراد "الزعري".. دون ذلك رجاء في سجلاتك.. وهذه بطاقتي هويتي الوطنية..

قدم مراد بفرح المبلغ لأبي.. أمام الحضور.. كان أصدقاؤه البيضاويون يرددون أهازيج بالعربية.. أغاني شعبية.. لازمة واحدة فقط جمعت أصدقاؤه وأهلي، حين كانت الحناجر تصدح مصلية ومسلمة على النبي.. وارتفعت الزغاريد حين تلا فقيه الدوار رفقة الحاضرين الفاتحة.. ورددت الفتيات والنساء أهازيج أمازيغية.. وليمة بسيطة.. بلحم الجدي.. ثم التلاوة القرآنية الجماعية.. فالدعاء.. الليلة كانت بسيطة.. لكن لن أقايضها بمال الدنيا.. بلا طقوس.. حتى أني لم أخضب كفي على عادة فتيات الدوار بالحناء.. قالت فتيات الدوار "زينة سترحل إلى المدينة..كم هي محظوظة.. ." قلت أنا في نفسي..

"لو كان مراد في الجحيم لرافقته".. قال أبي ليلتها "لقد اخترت هذا الشاب.. أخبرتني أمك.. عن علاقتكما.. لا أحد يستغفلني.. هو الآن زوجك.. خذا الغرفة العلوية.. فهي لكما" ما أعظمك.. أبي..! كنت كقديس تبشر بالحب والسلام.. لو كان بالإمكان لجعلت لك ضريحا.. فأنت أحق بالقبة.. والزيارات.. أحق بالدعاء.. أحق بالمحبة الأبدية.. لن أنسي تلك الليلة يا أبي..! كيف لهذا الرجل البسيط غير المتعلم أن يفتي في العشق.. وألا يقف سدا مانعا أمام سعادتي..!؟ لم تكن تعوزه الحجة ولا السبب ليهدم معبد عشقي..لكنه كان حكيما.. رحيما.. ما أعظمك أبي..! لقد كنت سابقا لعصرك.."

حولت زينة مجرى الحديث، نظرت إلي نظرات دهشة، كأنها عادت توا من كون آخر واستفاقت ثم قالت في أسى وحسرة:

- أرى في عينيك الاستعجال رجاء.. عزيز..! لا أريد سمعك.. فقط..
- أنا معك.. زينة..! أصغي إليك.. ألتقط كل التفاصيل.. صمتي دليل على حسن إصغائي.. لم أشرد أبدا.. أنا معك..

تنظر إلى وجهي في قلق جلي، ويكاد الألم يقفز من نظراتها.. أشعر بحزنها طافحا في بريق العينين.. تسحب هواء زفيرا قويا وتقول وهي بعد شهيق عقبه آهة عميقة.. في أسى واعتصار:

- أريد قلبك.. وعقلك.. بل كل جوارحك.. التفاصيل ليست حشوا.. في التفاصيل تسكن مأساتي..

- أعرف يا زينة..! التفاصيل أحيانا تحول الهامش إلى المركز.. التفاصيل ليست بلا معنى.. وإلا سقطت من حكايتك..
- اسمعني.. رجاء.. فأكثر الذين حكيت لهم الحكاية..كانوا مشدودين إلى جسدي أكثر ما كانوا يصغون إلى معاناتي.. أعرف.. لست بليدة ولا ساذجة.. كانت أنوثتي الصاخبة غشاوة سميكة تغطي عقولهم.. فكانوا ينصتون.. لحديث الجسد.. متظاهرين بالإصغاء عقلا.. كانوا فاشلين.. تافهين.. حثالة.. قذرين.. ماكرين.. أغبياء.. المرأة في عقولهم جارية يسهل جرها إغراء وسحبها إلى الفراش.. ولا أخفي عليك أنني أشعر بثقل كبير ينزاح من صدري، وأنا أسرد لك حكايتي.. تأخرت كثيرا في أن أجد صدرا أرتمي فيه وأبكي كطفلة صغيرة بلا عقد ولا خوف..
- رجاء استأنفي.. أريد أن أعرف البقية..

شعرت زينة برغبة ملحة في الحركة ربما ضجرت أو تعبت نفسيا وجسديا، فقصدت كسر رتابة الموقف، طفقت تذرع المكتب ذهابا وإيابا وهي تحكي، توقفت عند لوحة زيتية لصديق لي.. كانت اللوحة رمزية.. متشابكة الأشكال والوجوه.. وكنت أجد صعوبة في استجلاء موضوعها ورسالتها الفنية والإنسانية، بيد أنني كنت أشعر بالجمال الغني الذي لا تعبر عنه اللغة أمامها في تناقض مكوناتها وأجزائها وألوانها وكانت تشعرني بالراحة في ظلالها وتدرج الضوء فيها وفي اختلاط الكائنات بالمجسمات والأشياء فيها.. حيث يصير للكرسي رأس.. وللجسد ساعة محل الرأس..

قالت بنبرة حزينة وهي تنفض رماد سيجارتها في المرمدة: "كان يوم جمعة على ما أذكر.. نعم.. الأمر أكيد.. فالرجال في مركز القرية كانوا ينسابون في سكينة بين الأزقة والدروب نحو المسجد.. في جلابيبهم البيضاء.. كان الآذان جميلا وقويا، ينبعث من حنجرة ندية.. شجية.. اختلطت في الأجواء جمالية صوت المؤذن وقداسة اللحظة.. في مخدع الهاتف فاجأني مراد ومن عينيه تقفز الفرحة..:

- ستتحدثين اليوم.. إلى أمي.. تعالي اقتربي! لا تخجلي..!

يعرض علي الأمر بلا إعداد نفسي مسبق، تملكني خوف من الموقف، وانتابتني رجفة في ركبتي ورعشة في صدري، من أين استمد كل الجرأة الكافية لأحدث أمه؟ قد تحسب زواج ابنها السريع.. نوعا من الغصب.. أحدق فيه وهو يحاور أمه.. أرى الشاب اليانع في عنفوانه اليانع يعانق 21 ربيعا.. يأسرني لون بشرته الزهراء، لولا الناس لداعبت في هاته اللحظة شعره المسدل الذي يكاد يغطي رقبته.. أنتظر.. ألتقط بعض كلماته هو يتحدث وعيناه السوداوان ترسلان بريقا ساحرا كلما حملق في.. مراد كان كشخصية تخرج من زمن الفرسان حالما.. قويا.. ممتلئ العضلات.. تزيد من جماله ووسامته عروق زرقاء بارزة على ساعديه.. ممتلئة دما.. صارخة.. بالحياة.. وبالحماسة.. أتذكر وأنا في اعتصار الانتظار.. حضنه الدافئ.. كنت كعصفورة تقفز بين عروش نخلته السامقة، وحدها ابتسامته كانت كافية لتغريني بالسقوط.. بالحلم.. بالتحول خيط ماء ينسل في حلم بين أصابعه الناعمة.. أو نارا تشتعل على صدره..

- ألو .. ألو.. ماما.. زينة معي تريد أن تكلمك..

باغتني واشتد علي الموقف حتى أحسست بالأرض تحت قدمي تدور، وأوشكت أن أسقط ويغشى علي، لكن لا مجال للهروب.. لا مفر.. يلح ثم يلح.. ويبتسم.. لكن.. زينة.. يا حبيبي.. مرتبكة.. تائهة.. آه! لو كان بإمكاني أن أتواصل معها بأمازيغيتي التي تزخر بمعمار وجداني.. وحدها لغتي الأم.. تستطيع أن تعبر عن مشاعري وخيالاتي.. ومجازاتي.. وأفكاري.. شفافة.. واضحة.. طرية.. نحو الآخر.. عربيتي التي تعلمتها بالمدرسة.. ومن خلال اختلاطي بالزوار بالدوار.. لن تفي بالغرض.. لا عجب فقد نمت أزهار مشاعري الفواحة داخل حدائق لغتي، وكل إحساس مهما كان دقيقا، فقط أمازيغيتي تستطيع صوغه.. لا لضعف في الدارجة العربية.. بل فقط هنا ولدت.. في بيت لغتي الأمازيغية.. داخل كلماتها الرقيقة الساحرة ترعرعت وشبت ثم أينعت عواطفي ومعرفتي وأفكاري.. أحاسيسي الجميلة لا أجد لها مقابلا إلا في لغتي.. إن عبرت عنها بلغة أخرى.. أشعر بها مصطنعة.. باردة.. ملتوية..كل المشاعر الجميلة.. كل المجازات.. لا يمكن أن تعبر من الصدر والعقل بهية إلا عبر نهر لغتي.. ذاك الدفق الدافئ.. العفوي.. الخصب.. وقلت في خجل وخوف: "ماذا أقول لها يا مراد..؟ ملحا، مشجعا ناولني السماعة وهو يردد مبتسما: "كلمي أمي.. حماتك.. يا زوجتي الجميلة!"

وصلني صوت دافئ.. فشعرت بالطمأنينة.. وشعرت أن صاحبة الصوت ليست أما أنانية.. ولا متسلطة.. أليس الصوت بصمة الروح..؟ ببساطة قالت: "مبروك ابنتي.. والله فرحت لكما.. وبنات المنطقة معروفات بالصبر.. وجميلات.. وأخلاقهن فوق الشبهات.. لا أعرف

كيف أجازيك.." ربي! كم كان صوت الأم دافئا.. سلسا.. رحيما.. ينشر الأمان في النفوس.. بضع كلمات تخرج من جنان الصدر بددت الخوف.. كلمات لم تكن كباقي الكلمات.. صدقت يا ماجدة الرومي.. كلمات.. أضافت أوتادا جديدة لخيمة شغفي.. ونشرت إشارات العبور السهل على الطريق الوعر الذي مشيت فيه نحو مراد.. الآن أحظى بمباركة الأم.. ورضاها.. وأكاد ألمس فرحها يسري في خيوط الهاتف، ليسقط في قلبي ناشرا السكينة.. وقلت لها فرحة أكاد أصير نسمة تسري في سلك الهاتف لأصل إليها وأعانقها في حب ومودة "نعم.. خالتي.. حتى أنا مشتاقة لرؤيتك.. ومراد.. لا يكف عن الحديث عنك.. كنت خائفة.." ويعود الصوت الأمومي الحنون ليرفع عني الحرج والخوف فأسمع منها "لا تخافي يا حبيبتي.. الزواج قدر.. كتاب مكتوب.. كتاب قيدتما فيه قبل أن تولدا.. الله يسهل"..

غدوت سحابة يومذاك لا محالة.. والله كنت كأني أشعر بضلعي تتشققان عن أجنحة.. شعرت أن لي قدرة سحرية على التحليق مع الفراشات.. فرحا.. شغفا.. ثم عاد وكلم الأم.. ووعدها أن يعود في أقرب وقت ليحضرها لترى أسرتي.. من أجل التعارف.. وحث التراب في أفواه المشككين وعيون الخبث والضغينة..".

ضجة عابرة من بهو الطابق.. تثير انتباه زينة، فتتوقف عن الحكي.. أحد يحاول فتح باب المكتب الخارجي، أسمع صرير دوران المفتاح في عين القفل المتصدئة.. أطلب منها لحظة أن تنتظر.. فجأة يظهر زميلي صابر رفقة الكاتبة لطيفة في البهو.. يثيران الضجة كالعادة.. يقهقهان

لنكتة أو لموقف ساخر على عادتهما.. أسمعه يقول لها "انظري إن كان "سي عزيز" في مكتبه.."

تطرق لطيفة الباب.. تلج مارقة دون استئذان كالعادة.. أشعر بذهولها.. لا عجب.. فالمرأة التي في مكتبي فاتنة.. ساحرة.. ومثيرة.. أغلق باب التأويل في عقلها وأوفر عليها الأسئلة.. قائلة برسمية واضحة:

- السيدة زينة.. زبونة..

مقدما لزينة الكاتبة أيضا:

- الكاتبة.. لطيفة.. التي بدونها لن تقوم لهذا المكتب قيامة..

تبتسم لطيفة في خبث ابتسامة باهتة صفراء هي تتفرس في زينة.. لكن وقع الإطراء عليها عطل فضولها فبرقت عيناها وميضا جميلا.. تتفحص زينة من جديد من أخمص قدميها إلى هامتها بنظرات خاطفة. وهي تلوي شفتها.. تعلو عينيها مسحة تجاهل وعدم اكتراث متعمدتين، كأنها لا تريد أن تشعر هذه المرأة أنها استثنائية.. ترد ولا أعرف هل تخلصت من هاجس ما.. هل تتناسل الفرضيات الخرقاء في عقلها..

- تشرفنا..

تخطف نظرة استصغار سريعة في وجه زينة ثم تلتفت إلي مغيبة المرأة الساحرة.. يا لكيد النساء..! ثم تقول لي في حزم وهي تهز رأسها:

- أستاذ الساعة الآن الثانية عشرة ونصف.. ألن تذهب للبيت للغذاء..؟

- آه..! مر الوقت بسرعة.. لم أشعر به..

تقول لطيفة في مكر وهي تنظر إلى زينة وهي تنقل نظراتها بين وجه زينة والسقف:

- يبدو أنك كنت جد مشغول.. فلم تشعر بالوقت..

زينة ترد الكيل كيلين.. دون أن تنظر إلى لطيفة، تتعمد تجاهلها هي أيضا.. مبتسمة في وجهي.. دانية مني كأنها تريد إغاظتها تقول في استعطاف أنثوي:

- أدعوك للغذاء معي.. لنتشارك الملح والطعام.. وأستطيع أن أكمل لك القصة في المطعم.. فالجلوس معك شيق.. ولا أظنك سترفض لي هذا الطلب.. لا أظن.. ألست غالية عليك.. أرجوك عزيز..

تنتفض لطيفة غاضبة هذه المرة، وتطوق خصرها بيدها وتقول في حنق واستياء:

- لالة.. لالة.. الأستاذ عزيز.. عزيز.. لا يتناول الطعام في المطاعم..

وتهز رأسها باستغراب.. وهي تعض شفتها السفلى.. إن لم يكن استنكارا لجرأة زينة.. قد يكون استياء.. لا أعرف.. أخذت بدلتي.. وأطلقتها وراء ظهري، لم أجد الوقت الكافي لعقد ربطة العنق التي فككت عروتها بعدما طال الحديث.. وأسرعت لأطفئ بخروجي حريقا قد لاح لهيبه فخرجنا معا.. مكتفيا بتحية عابرة لزميلي الذي كان يطل من الشرفة.. مشيعا بنظرة غضب للطيفة وهي تتعقبني:

- أستاذ لم تعقد ربطة عنقك.. عد..

- لا عليك.. سأعقدها في الطريق..

- أستاذ.. انتظر.. الأستاذ صابر يريد أن يكلمك..

- سأعود.. سأعود..

وأنا في الأدراج ألتقط سمعي قهقهة صابر وهو يصيح:

- دعيه.. يا لطيفة.. فهو جد مشغول.. دعيه..

8

اختارت هي الوجهة.. تاركا لها حرية القرار، كنت مسحورا مشدوها..حائرا محيرا.. ضائعا في تفاصيل حكايتها.. أثار انتباهي غلاف لرواية بالفرنسية على لوحة القيادة بالسيارة، كانت رواية سبق لي أن قرأتها في زمن ما.. من الأدب الفرنسي الكلاسيكي.. الرواية حفزت ذاكرتي من جديد، وحفرت بعيدا، لتفرج عن ألم قديم لجرح غائر لم يندمل، داهمتني صورة ذاك الأستاذ الذي جلد نفسي وأجهض طموحي، واختزل ميولاتي الإبداعية في جملة لن أنساه مدى ظللت أتنفس هواء الوجود.

كنت عاشقا للقراءة لحد الإدمان، أقرأ كل ما تصل إليه يداي، شعرا أو نثرا، حتى تهذب ذوقي وصقلت لغتي، هذا ما ظننت يومذاك، أعتقد أنه كان يوما أسود في حياتي من سنة 1978.. يوم أعدمني الرجل العارف برصاصة طائشة من رعونته وغطرسته العلمية، فأجهض حلمي في أن أكون أديبا.. تمنيت لو داومت على الكتابة، محاولاتي القصصية الأولى.. لو لم أعر ذاك الرأي القاسي الطائش اهتماما أدى إلى القطيعة مع الحلم، مشهد ذاك اليوم القاسي المشؤوم عادت يفجرها كتاب حنينا وألما، أذكر أنني كنت في الفصل.. تقدم نحوي وهو يهز رأسه..لم أنس ابتسامته الباهتة الصفراء..لم تكن تشي بشيء غير السخرية والاستصغار..أمام الطلبة أعاد لي نصا قصصيا من نصوصي الكثيرة، وبلغة الناصح الملم قال وهو يبعثر الأوراق في غطرسة ويذبح طموحي بشفرة غير حادة "لا مستقبل لك في القصة..فكر في شيء آخر عدا الكتابة".. وساد الخبر في الثانوية.. فانتشر كالنار في الهشيم،

حطب منه الأعداء والحساد ليدفئوا نار حقدهم، وقد كنت أديب الثانوية، ودفئت بها صدور الحاقدين والتافهين.. والنتيجة المرة، توقفت عن الكتابة.. ودعت ذاك الحلم الجميل على محراب ناصح مغرور قربانا لغروره الذي كبح طاقة كامنة كانت كافية لتغيير مسار حياتي.. لم أفهم لحد الآن لمَ لم يكن ذاك الأستاذ لبقا.. لبيبا.. مربيا.. في نقده وفي توجيهه؟ كنت مازلت طريا.. غض العود.. قابلا للنحت.. والعجن.. والتهذيب..

يخرجني صوت الساحرة الفاتنة من جحيم الماضي، بنبرته المثيرة.. العذبة.. وقد لمحت تفحص عيني للرواية.. تعيدني إلى الحاضر:

- نحن هنا.. سبحان الله أستاذ أين سرحت بفكرك..؟
- لا شيء.. فقط طفت على سطح عقلي ذكرى مؤلمة.. وأنا أنظر إلى هذا النص الروائي.. وقد قرأته منذ زمن بعيد..
- إنها رواية.. لإميل زولا.. "جيرمينال".. لحس الحظ.. أني لم أتوقف عن القراءة.. رغم خروجي المبكر من المدرسة..
- قل لي هل تحب الأدب.. الرواية خصوصا؟

في حسرة يفضحني زفيري القوي أرد:

- كان الأدب عالمي ومتنفسي.. كانت لي معه قصة عشق.. أجهضت في المهد..
- ستحيكها لي فيما بعد.. يبدو أنها شيقة.. والآن.. سنتغذى.. بالسمك بمدينة المحمدية..

وافقت دون تردد، وضعت حزام السلامة، واسترخيت على المقعد الوثير المريح، أنتشي برائحة زكية تعم السيارة من بطاقة عطر متدلية، أشعل سيجارة، تضع قرصا على لسان قارئ الأقراص، تصدح موسيقى أمازيغية.. شجية.. أكاد أغفو على نغماتها ومواويلها الأطلسية، التي طافت بي بين الجبال، مع أسراب الفراشات.. تحلق بي وتحط في عالم زينة بقريتها الجميلة، أكاد أسمع خرير مياه السواقي من خلال المواويل القوية.. أشعر بكبرياء الجبل في بحة الصوت.. وصدح المغنيات الشجي.. أجول البساتين بين أشجار اللوز والرمان والخوخ، أشم الروائح العبقة لتمار الأشجار..رائحة الثرى وقد بلله ماء مسافر من عين بعيدة تخترق في نشوة خيالي ومسامي.. أكاد أسمع رقرقة ماء النهر.. أسمع همسات الطبيعة في حوار مع العنادل واللقالق.. زينة.. تترجم لي الشعر.. المعنى.. وأنا أنتشي.. يا ليتني تعلمت هذه اللغة الشعرية الجميلة.. ولأول مرة أكتشف روعة الأمازيغية في موسيقا مفرداتها العميقة وعمق دلالات مفرداتها.. يصدح المغني .. شعره عشق في عشق.. آهات.. آلاما في البين.. في الفراق.. كان حوارا .. لوما.. وعتاب العاشقين.. على ضفتي نهر.. بين عاشق عاد توا من رحلة طويلة.. ومحبوته التي انتظرته طويلا.. وقد تغيرت الحياة والوجوه والأقدار.. فات الأوان.. العائد من أجل معشوقته.. يكاد يجن.. والمعشوقة جنت قبله.. شعر لا يقل عن المقطوعات العالمية لكنه مدفون في الصدور.. محكوم عليه أن يظل شفهيا.. والأبهى في القصيدة هو عمقها الإنساني، فالعاشق.. رحل بحثا عن آفاق جديدة بعدما ضاق الحياة في بلدته، عاد محملا بالهدايا

والنفائس التي ادخر مالها عرقا وكدا.. ضاعت الحبيبة منه.. وجرف ماء النهر هدياه وقلبه المنفطر.

بعد وجبة الغذاء.. ركنت السيارة على حافة شاطئ صخري.. تتلاطم الأمواج بقوة، تكاد تمد أياديها لتسحبنا نحو لجة البحر العاتي نحن والصيادين.. والمشدوهين بجمال الموج العالي على الأجراف.. بعض العشاق في خلوات خاصة.. أياد تطوق الخصور.. شفاه تتلمس قبلة في غفلة من العيون المترصدة.. بعيدا عن الأنظار.. أجساد تسرق لحظة عناق متوارية بين الصخور في كهوف الأجراف.

تهمس وهي تنظر في عيني في إغراء وبهاء وتكشف شعرها، متخلصة من الوشاح:

- حان لشعري.. أن يتحرر.. أن يأخذ حظه من دفء الشمس.. ونصيبه من نسائم الربيع..

أسدلته.. تلاعبت به كثوب حريري بأصابعها الدقيقة.. كان ناعما، عبثت به نسائم البحر فغدا وحده غواية لا تطاق.. ثم سوته بيدها.. كخيوط حبة الذرى تراقص حرا مع التيار.. فرأيت المحيا المضيء على طبيعته.. وبما أنني قررت أن أعطل هواجسي وأن انتصر لها ضد عقلي المتردد الموجس.. وألا أنخرط في دوامة التأويل.. وألا أفتح محاكم التفتيش.. وألا أنصب المشانق قلت لها متحررا من خوفي:

- هذا الشعر لا يستحق أسره في منديل.. كم أغار من الوشاح الذي يجمعه ويضمه..

تضحك.. ثم ترد:

- أهذا غزل.. بدأت تخيفني..؟

مرتبكا.. مضطربا.. أحاول ترميم الموقف خوفا من خطوة طائشة:

- أريد فقط أن أقول..

تقاطعني وقد غدا رمشاها رصاصتين في قلب الحكمة، وعيناها سهمين في صدر توجسي، وكفها على شفتي:

- شو.. توقف.. لا تضف شيئا.. رجاء.. دعني أتلذذ بالعبارات الجميلة..! وليكن غزلا.. ما العيب في ذلك..؟ الصدق يمنح الغزل جذوة الاشتعال.. لا تبخل علي به.. رجاء.. خصوصا وأني أشعر بصدقك..

فتحت الطريق من جديد أمام تبعثري.. طيور جارحة كاسرة، في أدغالي بدأت تستيقظ مرة ثانية.. تطل من الأعالي.. تتجمع أسرابا.. تحوم.. حول الجسد الشهي.. أحس بجوعها.. بظمئها.. أؤجل رحلتها.. إلى أن أؤمن الطريق نحو النبع.. نحو الحديقة الساحرة.. أصواتها الحادة من قلة صبر وجوع تملأ دواخلي ضوضاء.

نتمشى كعاشقين.. أكاد أشد يدها.. أكاد أطوق خصرها.. أكاد أسبح مع التيار.. أرتب من جديد فوضاي الداخلية.. وأغرق في الصمت.. في متعة التأمل.. في نشوة تناسل الاحتمالات القزحية.. لحظة... لحظة من نشوتي الأولى وتسحبني من يدي.. لنجلس على صخرة يكاد الموج يعانقها ضمة العاشق، هدير البحر يؤجج لوعة اللحظة .. صمت فاصل، أستعيد فيه هدوئي الداخلي.. ونعمة النظر إلى الأشياء في جوهرها.. في مثل هاته المواقف حين ترتفع درجة حرارة

الرغبة.. كل شيء حولي يستعيد جوهره.. بهاءه الذي غشته مخاوفي.. وعاداتي القاتلة الرتيبة.. تهمس لغة حالمة وهي تسرح بنظرها في الأفق:

- سأحكي لك جزءا من قصتي.. أهم جزء فيها.. الجزء الذي غير حياتي.. المنعطف القاتل..

ما عاد في الإمكان، تأجيل البوح، ومع البوح الأليم تعود الكواسر الجارحة إلى الأدغال، وتختفي في انتظار إشارة من الجسد الشهي، أقول وأنا في سحر اللحظة كالمسحور:

- كل حكاياتك مهمة.. كل شيء منك وفيك مهم..

في جرأة جميلة، غدا رأسها على صدري، فاختلطت الروائح العبقة في روحي.. نظرت بعيدا في الأفق الغامض ثم رفعت ستارة البقية من الحكاية وقالت: "وجاء يوم السفر، ودعته كزوجة جندي يهم بركوب قطار متجه إلى الجبهة المشتعلة، أحسست حينذاك بقلبي ينزع بقوة من صدري، كأن رصاصة تفجرت في أحشائي، دموعي كانت غير كافية، لتبريد حرقة الفراق، ظلت يدي تشد على يده لآخر ثانية قبل أن يمتطي السيارة.. أذكر أن صديقه كان يستعجله..كان تائها.. ينزل أكثر من مرة.. ثم يعود للسيارة.. يعانقني.. ويردد "سأعود قريبا..".

تنطلق السيارة بحبيب القلب ومهجة الروح.. أشيعه بنظرة أخيرة.. يلوح لي بيده.. فيبدو لي كمن يقطن غمامة سوداء.. كان وطء الوداع قويا لا يطاق.. لم نعد قادرين على أن نفترقا ولو لثانية.. صرنا جسدا واحدا.. وعلينا الآن أن نجرب الفطام.. أن أفطم مسام جلدي من لمسة يده.. وشفتي من رحيق روحه.. مؤقتا.. مؤقتا.. وما تبقى لنا غير الخيال والأحلام والذكرى الطرية، لنملأ المساحات والفراغات.. لنقطع

المسافات.. لنلتقي.. لنتمرغ كطفلين على ضفة النهر.. لنسبح معا في كون يلغى فيه الوجود إلا نحن.. في لحظة الانصهار والبهاء.. إلى أن يعود الجسد إلى الجسد.. والروح إلى الروح.. فلنشحذ الخيال.. سنصقل مرآة الذكرى لنسكن أثرا قويا.. في حلم يقظة.. سأناجي كل مكان مررنا به.. فلن تنسى الأماكن لوعتنا.. الآثار ستبقى وفية.. الهمسات.. القبل.. الضحكات.. عليَّ فقط أن أرهف السمع للطبيعة الحنون.. لأستعيد كل الموسيقى الجميلة..

قال سأعود نهاية الأسبوع.. ومضى الزمن ثقيلا في قسوة واحتراق.. أسبوعان انقضيا ولم يعد الحبيب.. تكالب على قلبي الجريح الشوق والريبة.. قال أبي "الغائب حجته معه" وقال أهل "الدوار "وهم يبددون الفراغ القاتل في حياة لم تعد تجدد في قلبهم الآمال "ربما سئم منها.." أهل الحضر والسهل يعشقون ويملون سريعا.. "وبين كلام والدي وأوهام القبيلة.. كنت لا أملك غير يقين واحد، أنه سيعود حتما.. سيعود.. سيعود..

مع الزمن.. طال غيابه.. وفي غيابه، ابتدع الفراغ الذي يسكن القلوب والدروب حكايات وأساطير. فبدأت دائرة الشك تكبر في عقلي.. قالت فاطمة ونحن عند النبع نغسل الملابس "ربما.. كذب عليك.. أنت لا تعرفين أبناء الدار البيضاء. إنهم يغيرون الفتيات باستمرار.. و"كازا" تعج بالجميلات"

انزويت بعيدا.. بكيت.. انتحبت في حرقة على حظي العاثر.. ومسحت دموعي وعدت وقلت "أنتن يا بنات لا تعرفن "مرادا" حق

المعرفة.. إنه يحبني ولا بد أن أمرا قاهرا ما منعه.. أمرا قاهرا.. فلن يمنعه من الوفاء بوعده.. إلا الموت"

وصدق حدسي.. جاءت حجة الغائب.. مع غيره.. جاءت صادمة.. قاتلة.. نعيا تشيب له الولدان.. مراد هلك يوم سفره في حادثة اصطدام قرب قرية عين لوح.. مات وصديقه ولم ينج من الحادثة الخطيرة غير اثنين من المجموعة.. ضاقت الأرض بي بما رحبت.. وزاغ البصر، وعمي العقل، وشخص البصر.. وشل اللسان ووقر السمع.. ورحلت رحلة التأجيل في ملاذ الخيال هاربة من صدمة الواقع الأليم.. لم يعد لساني قادرا على ترجمة أفكاري.. شل.. تعطلت أحاسيسي.. قيل إنني جننت.. والواقع أني لذت بعالم مواز.. صنعته بخيالي.. وكان فيه مراد حاضرا.. يضحك.. يكلمني.. يعانقني.. يبيت في حضني.. أبيت بين ذراعيه.. فقالوا وما توقفوا.. وأبدعوا في صناعة الأسلحة لقتلي ودفني حية حتى رموني برصاصة الجنون ..رددوا في نواديهم وأعراسهم وسمرهم "جنت زينة.. المسكينة.. فقدت صوابها.. وأصبحت تكلم نفسها".. وزادوا واستزادوا في نهم لسيرتي كأنهم على جثتي وجدوا العزاء لأنفسهم ولغربتهم فقالوا" أصبحت مسكونة.. الصدمة أحرقت روحها.. إنها جسد بلا روح.. فتحت الطريق لجني فسكنه" كنت أسمع.. أعيي.. ولا أحتج.. لم أرمم التأويلات.. كنت أتركهم يفعلون ويملؤون الفراغات بما يشاؤون وبما أراحهم.. أدخنة خانقة لأبخرة ظنوها ترمم شرخ الروح.. فأخطؤوا الطريق إلى الجرح في غرور.. تمائم تكتب بالزعفران وماء الورد وتكسى بجلد الماعز مصانة من التلف في حرز من نحاس، حسبوها في ثقة اليائس تطرد الروح الشريرة التي سلبت عقلي وروحي، فتاهوا عن

الدواء بجهل الداء.. رقية المرقين بأصواتهم الجهورة والأخرى الحزينة الرخيمة التي تدمي القلب ويسيل الدمع رقرقاقا وقعا وتأثرا، ظنوها تغسل الصدر من نفخ ونفث الشيطان الذي سكن الأعماق، فحاروا في الشفاء حيرة حفدة الأولياء في القبب النائية.. وأنا بكل بساطة، أينما حللت أحمل في عقلي عالمي.. وفي صدري حبيبي الذي أحببته في الواقع فأنعشت وجوده في خيالي، فظل حيا في جوارحي ودمي..

تكالب علي مرض جسدي غريب.. وجع مفاجئ.. قيء مستمر.. قالت أمي لأبي "أظن الفتاة حاملا".. قال أبي "كيف عرفت؟".. قالت " لم أر دما في خرقها منذ ثلاثة أشهر.. وهذا القيء.. يؤكد شكوكي"

يا ربي! كم أنت رحيم.. بدأ الجنين في بطني يعلن عن جوده، يبشر بحياة من روح الحبيب العزيز.. كلما تحرك في بطني.. استعجلت خروجه للدنيا.. لينوب عن أبيه في مسح دمعي، وغسل صدري من الحزن، ليغدو على صدري التميمة والتعويذة، ليصير في عالمي قبة المرتجى، والولي الصالح المبتغى، ليصير في ليالي رقية البراءة تتلى إنا الليل والنهار.. والدواء الذي حارت فيه كيمياء العقول..

وأزف يوم مولده.. أذكر ذاك اليوم بقوة.. كان الجو ربيعيا.. أحد أيام الربيع كشهرنا هذا من عام الأمل والرجاء 1987.. آلام المخاض لم تنزع من قلبي رغبتي الغالبة على وجعي في أن أرى وليدي.. أن أشم رائحة مراد في جلده، أنا ألمس جزءا منه.. فأتى البلسم للروح والجسد، مضيئا بوجهه ظلمة حزني، ليحل عقدة لساني، ويفك لغز بكمي الانفعالي.. قلت

"مرحبا بك لتبدد وحشتي.." وعادت الكلمات إلى اللسان الذي أضرب عن الكلام.. وكانت أول كلمة نطقتها اسمه "أنيس"..

رضع ثديي.. فأحسست بالحياة تعود إلى جسدي.. الضوء الذي انطفأ في روحي أعاد بريقه بنظرة جميلة منه، كنت أغوص وأسافر في نظرات عينيه فأرى روح مراد.. شعلة قلب مراد.. وهو على صدري يصير سحابة عطوفا تمطر ماء يخمد حرائق روحي.. وبدأ يبدد وجوده الحي.. عالمي الموازي.. من أجله علي أن أعيش عالم الحقيقة.. أعتذر لمراد في خيالي... أخرج من باب الهلوسة في صمت كما دخلتها في صمت.. حان الوقت لأبكيك يا مراد.. فانتحبت.. وكان عويلي شديدا.. لطمت وجهي.. وتمرغت في الرماد.. أعلنت حدادي.. واعترفت أخيرا بموته.. وداعا حبيبي مراد.."

تتوقف زينة عن الحكي، تسرح بنظرها في الأفق البعيد، تكفكف دمعها الساخن، ألتقط تنهيداتها، أشعر كأن صدرها لم يعد يتسع للهواء.. في الأفق القرص الشاحب للشمس البرتقالية، يختار أن يرحل غرقا في موتها الأسطوري اليومي، لتعود من جديد للحياة مشعة.. ساطعة.. كأنها تعيش على وقع الانبعاث المتجدد.. بعض النوارس في أسراب ترحل للمبيت والشفق يسحبها القرنفلي بعيدا.. تقطع سيوف طلائع الليل كبد الشمس المحتضرة.. فيغرق الأفق في النزيف بين الأشلاء.. وتتخضب الدنيا بحناء عرس تشييع الشمس إلى مثواها اليومي، في جنازة من حضارة قديمة.. برودة المساء تقشعر لها الأبدان والمشاعر، أدعوها للعودة إلى السيارة، وأنا في قمة التشويق.. لأعرف

أين دوري في كل هذا؟ افترضت أنها قضية نسب.. أو ربما إرث.. في الحقيقة لا أعرف.. ولأول مرة تعطل توجسي.. وتواري هلعي..

أشعر بإنهاكها النفسي، وهي تقود السيارة، كانت شاردة الذهن، أقول لها ونحن على طريق العودة:

- لنؤجل بقية الحكاية إلى يوم آخر..

أنزل من السيارة.. قرب مكتبي، تودعني بسرعة، بعد أن رمقتني بنظرة مبهمة.. تضغط على الدواسة، أسمع صرير انزلاق العجلات من قوة الانطلاق، تترك وراءها غيمة نقع.. دون أن تحدد تاريخ الزيارة الثانية، تختفي السيارة في لمح البصر.. ليبقى في يدي أثر عطرها فقط، وجزء من حكاية مؤلمة.. ونظرات قاسية لأحد أبناء الأعور ترصد خطواتي.

9

كما حلت في حياتي بدون سابق إشعار، اختفت وانقطعت الأخبار.. ظللت أنتظر قدومها لشهور.. كل يوم في شوق جارف، وحيرة واستغراب..تزاحمت في صدري مشاعر متناقضة.. الشوق واللهفة.. الرغبة والشهوة، في صراع وصدام محتدمين مع الخوف والرهبة. بقدر ما حن قلبي لها، وسعرت بسحرها الأخاذ رغباتي الكامنة، بقدر ما أيقظت مخاوفي.. فمن تكون هذه المرأة التي عصفت بروحي حين باحت بوح العاشقة، واختفت دون وداع..؟ ولأني أسير هذا الارتياب رغما عني، أقنعني عقلي أن في غيابها نعمة، وفي اختفائها حكمة ربانية، ربما دعوات أمي لطفت قدرا هداما، ربما دعواتها درأت عني مؤامرة غادرة..ربما يد الله رعتني بعنايتها، فأبعدت عني شرا محتملا.. ويرتاح قلبي لحجة عقلي، فتصير النقمة نعمة، ويصير اختفاء زينة حكمة ربانية..

ورغم ذلك لم يكن سهلا ولا ميسرا لقلبي.. أن يتناغم مع عقلي، الاحتدام النفسي كالعادة.. كان مستعرا حامي الوطيس تشتعل بناره غابات الأرق والمعاناة، فقد كان يرن جرس المكتب، فيدق قلبي حتى أخاله سينفجر شظايا خارج صدري، وبدل أن أخنع للواقع على مرارته في الأيام الأولى من رحيلها، جلدت نفسي حتى البكاء جلد الغاضب.. الحانق.. شككت في قدرتي على إثارة النساء، وطال الشك علاقتي مع أمينة بظلال الأسئلة القاتمة المحرجة، شككت في نفسي أني خيبت ظن زينة.. فافترضت أنني لم أكن على موعد مع رغباتها.. وأنني أجلت ما لا يؤجل..

توالت الأيام بطيئة.. ثقيلة.. مؤلمة.. كئيبة.. وبعد أن عقدت هدنة مع قلبي المكلوم.. الجريح.. عادت لوحة الفرسان على جدار مكتبي لتفجر من جديد الشوق واللهفة.. عبثا أحاول أن أجدد مبررا لغيابها، ويشاء عقلي أن يقحمني في منطقة ماكرة، وأنا أدقق في اللوحة التي شدتها تفاصيلها يومذاك.. وفي لجة الاضطراب النفسي، يهتز من جديد مركب يقيني وبديهياتي على أمواج الأسئلة الكاسحة للسكينة، أهو حب.. عشق.. أم نزق واشتهاء؟ وانتصر عقلي للشهوة بدل العاطفة، صدقته لأني كلما عصرني الحنين استحضرت كل تفاصيل جسدها الغض.. فالشوق كان يهزني رجات مؤلمة، وأنا أتحسس رائحة نحرها التي ظلت عالقة في ذاكرتي، وتملأ علي الأجواء...

تأثر عملي بالأمر لأيام.. وتفهم زميلي صابر الظروف الصعبة التي أعيشها.. قال "هي أزمة عاطفية.. تجلد حتى تمر العاصفة" اشتغلت لما يقارب ثلاثة أشهر على ملفات قليلة وسهلة، أكثرها لا يتطلب مجهودا كبيرا.. إلى أن وجد عقلي الطريق للسلام المؤقت كعادته، فاقتنعت أنه لا فائدة من التعلق بالوهم. كانت طيفا جميلا عابرا في حياتي وتلاشى وعلي أن أسير.. أن أنسى.. هي نزوة وستتبدد بالنسيان أو التعويض..

ذات مساء من أمسيات يوليو وأنا أهم بعبور الشارع نحو عتبة العمارة، رأيت سيارة "زينة" مركونة على الرصيف على بعد أمتار.. لم أتمالك نفسي، رجفة دبت في فرائصي.. وكان الجو دافئا.. خواء في ركبتي.. اختلطت في صدري مشاعر متناقضة.. تردد.. توجس.. حيرة.. فرح مشوب بالشك..

أهذه زينة؟ أجاءت من أجلي؟ أتنتظرني؟.. عدوت نحوها كالمجنون.. ثبطت سرعتي فجأة رعشة غامرة.. فقبل أن أصل.. انطلقت السيارة بسرعة، مخلفة صرير صوت العجلات المنزلقة على الإسفلت.. تسمرت في مكاني.. من الذهول والحيرة.. انتابني شعور بالغبن في الوهلة الأولى، لكنه تحول إلى خوف من ظهورها واختفائها بهذه الطريقة.. أتراقبني؟ ماذا تفعل هنا؟ أهي سيارتها أم أن السيارة لشخص آخر؟

بما أنني لم أر السائق، أخمدت نار الشك والهلع.. بالتجاهل.. وأوهمت نفسي أنها ليست هي.. فقد خيل إلي أنها سيارتها.. الطلاء نفسه، والطراز نفسه.. هناك ألف احتمال أن تكون سيارة شبيهة لسيارتها.. كادت أن تعود إلى عالمي من نافذة هذه الحادثة، لولا أني أقنعت نفسي من جديد تجنبا للألم أنه خيل لي الأمر، وتشابهت علي السيارات، فجأة، استرعت انتباهي جلبة وضجة غريبتان أمام العمارة.. توقفت سيارتان سوداوان رباعيتا الدفع نفيستان ومن طراز نادر أمام العمارة.. فانتفض الشيظمي كالطائر المبلل الأجنحة ونط من مكانه، مسرعا مهرولا في اتجاههما وقد شمر "فوقيته".. قبعت في مكاني.. أشعلت سيجارة، ثم تقدمت نحو زاوية مظلمة بعيدا عن الأنظار.. متظاهرا بالانتظار، وطفقت أرقب في فضول ممتع ما يحدث، فضولي في لذة يريد أن يقودني إلى معرفة هؤلاء القادمين في سيارتين فاخرتين، لابد أنهم من علية القوم، أو تجار مخدرات من الصفوف الأولى.. فما عهدت ساكنة العمارة إلا من الطبقات الوسطى.. بدا لي صاحبي حارس العمارة.. ممتقعا اللون أقرب إلى الخوف من الاهتمام الزائد بالضيوف الاستثنائيين.. مضطربا.. وما عرفته إلا رابط الجأش.. عزيز

النفس، منتصبا في إباء وأنفة لا ينصاع كبرياؤه للجاه ولا للمال..هذا التبدل المثير للدهشة والاستغراب في أحوال الشيظمي زاد المشهد إغراء وتشويقا.. يكبو صاحبي في مشهد ساحر وهو يهرول كحصان انتفض لألم الناخس..ثم ينتصب واقفا في خفة دون أن يتحسس ألمه، وهو يسوي تلابيبه ويصيح ولم يفارقه بعد الاضطراب:

- زبيدة..! زبيدة..! تعالي.. انزلي.. "سي" الحاج سليمان هنا.. أين ذهبت يا حمقاء..؟

يترجل ثلاثة رجال.. أحدهم ضخم الجثة، بارز الكرش، واسع الجبهة، منتفخ الحنكين، كبير الرأس، سمين الرقبة حتى تراكم اللحم طبقات.. يداري صلعا في مقدمة رأسه، بتوزيع زغب شعيرات قليلة يتيمة، أنيق بلا شك في بدلة عصرية زرقاء داكنة.. سلسلة ذهب تراخت بثقلها على معصم يده اليسرى.. وأخرى أثقل طوقت عنقه، ساعة براقة نفسية تطوق المعصم الممتلئ، خواتم من ذهب على الأصابع متفرقة بفصوص براقة.. نظراتان شمسيتان، حجبتا عني رؤية عينيه فحجبت عني معرفة ظل من أغواره، حذاؤه غريب شيء ما، ربما قدماه الطويلتان والممتلئان وكتلة لحمه الطافح شوهتهما، كان يبدو كمن يمشي على حافتي قدميه.. أما الرجلان الآخران، فأحدهما كان نحيفا، ضئيل الحجم، قصير القامة لحد العيب الخفيف ، بشرته بيضاء تميل إلى صفرة خفيفة، يرتدي جلبابا أبيض رفيعا، وطربوشا أحمر، تحسبه من هندامه إماما ورعا، ينتعل حذاء أبيض..بلا خواتم عدا خاتم زوج من فضة، ولا حلي غير ساعة نفسية، والآخر الأسمر.. طويل القامة، في وجهه بثور سوداء.. أظنها ندوب لطفح جلدي قديم، يرتدي بدلة وحذاء رياضيين نفيسين..

يصفف شعره الكث الفضي في اتجاه رقبته.. خلافا لهم، كانت نظرته قاسية وحادة، يكنس الفضاء بنظرات سريعة، مكتشفا ما حوله، إلا أنهم كانوا جميعا، في عمر متقدم، ربما في العقد السابع.. تدل على ذلك التجاعيد العميقة على الوجوه، وانكماش جلد أعناقهم وأياديهم الذي اهترأ وخطاهم الحثيثة والمتثاقلة..

يتقدمون جميعا نحو العمارة في موكب نظاراتهم موجهة للأفق، يتناوبون على السعال، لا أعرف هل من المرض أم من فعل الدهر أو الإعياء.. يصادفون زبيدة على الدرج الأخير من الردهة.. تبدو مرتبكة، تمسح يديها بطرف قميصها الذي شمرته وجمعته حتى ركبتيها وعقدته حتى لا يعوق حركتها وهي تنظف الأدراج.. تقبل كتف الرجل الضخم الجثة.. وتقول مبتسمة في جو احتفائي وفي ارتباك:

- جاءنا الخير.. زارتنا البركة.. مرحبا سي الحاج.. مرحبا بكم.. "توحشناكم.."

بدا لي أنها لا تجد الكلمات المناسبة، وأن لهذا الرجل هيبة وشخصية قويتين، تربكان من حوله، وأحسبه الأهم بينهم، فقد تأخر الرجلان عنه إجلالا واحتراما لمقامه، وأفسحا له الطريق، فسارا وراءه في خطى وئيدة. ينهر الشيظمي زبيدة، ملوحا من بعيد، مهددا بحركة بيده، وهو يهم بفتح الصندوقين الخلفيين للسيارة:

- يا حمقاء ..! تعالي.. يا بهاء..! ساعديني..

يضحك الرجال الثلاثة حتى الردهة بقهقهاتهم، وهم يشيعون زبيدة بنظرات لا تخلو من غواية، وهي مهرولة نحو السيارتين، مرددة في اضطراب:

- أنا آتية.. صبرا.. يا وجه النحس.. كدت أسقط.. أتريد أن أكسر ظهري لترتاح..؟ دعني أولا أقم بالواجب مع السادة.. "الصواب" ضروري.. وواجب.. دائما أنت مستعجل.. يوما ما ستعرف من الأحمق.. يا أخرق..

تنتابني ضحكة أكبحها بصعوبة بأصابعي.. الشيظمي يحاول عبثا فتح السيارتين، يتقدم لفتح الصندوق الخلفي لأحاديهما.. صارخا في حنق وغضب:

- كيف أفتح هذا الصندوق اللعين؟

تقهقه زبيدة في سخرية، لم يتلاش لها غنجها ودلالها.. وترد عليه وهي تصفح خفيفا خديها:

- من الأخرق الآن.. أنا أم أنت..؟ هات المفاتيح.. أنظر يا جاهل.. هذا زر الفتح عن بعد.. نضغط.. هنا.. اعرف الآن أنك أتيت من المراعي مباشرة إلى الدار البيضاء.. فمازالت رائحة روث البقر عالقة بجسدك..

في غضب يتقدم نحوها محاولا الإمساك بها ولكنها كانت أخف منه وأسرع، فيعود إلى السيارة لاهثا وقد كادت أنفاسه تنقطع من الجري وهو يزمجر:

- سنرى من "السراح" فينا.. يا خرقاء! ركبت السيارات قبل أن تولدي أنت وتأتي من وراء الشمس.. وهذه السيارات "عقدوها" لا أكثر.. هذه رخصتي ربما أقدم من سنك..

- اصمت.. أنت لا تفهم .. "عقدوها" تقول.. بل يسروها.. انظر.. بهذا تفتح وتغلق من بعيد.. وتشعل منبه الإنذار..

ومضت أضواء السيارة الأولى ومضتين، ثم فتح الصندوق الخلفي في انسياب، وأعادت زبيدة العملية ذاتها مع السيارة الثانية.. كأنها تصنع السحر أمام ذهول الشيظمي الذي بدا مشدوها بالمشهد.. فقال:

- كنت أعرف أنك شيطانة..

- اسكت.. فضحك الليلة غباؤك..

أما أنا فقد استرعى انتباهي، معرفة امرأة تشتغل منظفة عمارات وشقق، لطريقة فتح وإغلاق سيارات فارهة من هذا الطراز بمفاتيح التحكم عن بعد.. رجحت أن تكون لها تجربة سابقة.. لكن الريبة تسللت إلى عقلي من جديد، وبدأت تشخص أفعال هذه المرأة التي من تلك اللحظة صارت غامضة، وفي مرمى مدافع توجسي.. من تكون؟ وكدت أنجر وراء تيار التوجس المعهود في والذي لا أستطيع لجم عنانه إن انفلت من عقاله، لولا أني اكتفيت في غياب الأجوبة.. بأخذ الحذر منها خصوصا وأنها قريبة جدا من هذه الجماعة المشبوهة التي لا تقل عنها غموضا وغرابة..

طفق الشيظمي يخرج علبا من الورق المقوى، رمق رمقة خاطفة صوب الجهة المقابلة للشارع.. ظننت أنه رآني، لكن الظلمة حيث أنا، حجبت عنه الرؤية بوضوح وبدأ في نقل العلب في مشقة، نحو شقة ما في العمارة، استغرقت منه العملية وقتا طويلا، ومجهودا مضنيا، بينما انشغلت زبيدة، بإخراج قففا، تركت الثقيلة منها ليحملها الشيظمي، وتكفلت هي بالخفيفة.. اكتشفت معطى آخر جديدا عن هذه المرأة

الجميلة فهي لم تكن قادرة على المهمات الشاقة، وطريقة حملها للقفات كانت غير متزنة وافتقدت لمهارة المعتادين على العمل الشاق.. أنهكتها بشدة وبدت لي أنها لم تخلق للأعمال الصعبة، لان قلبي لها، فلا بد أن هذه المسكينة أخرجت قهرا وغصبا للعمل.. قد تكون أرملة..فقدت زوجها، فاضطرت للعمل.. أو.. لا أدري..

اختفى الكل.. ساد صمت.. وهبت ريح ساخنة.. ثم غدت زوبعة خفيفة أثارت الغبار، وحملت في تيارها ما خف من الأزبال والنفايات.. طال عيني الغبار.. خرجت من الزاوية المظلمة، نحو عمود كهربائي أمام العمارة، ضوؤه الساطع جذب الفراش الذي حلق وحام في جنون حول المصباح.. الهدوء يحل بهذا الحي باكرا، أغلقت الدكاكين، فخفت الحركة إلا من قلة من المضطرين للخروج، وسكنت النفوس والأبدان.. فساد هدوء موحش لا يكسر وتيرته غير صرير الجنادب وهي تقفز هنا وهناك ودوي من حين لآخر لهدير محرك سيارة أو دراجة نارية، وهديج الريح التي تصوت من الشرق ساخنة على غير عادتها..

انطفأ فجأة مصباح العمود، فغرق المكان في الظلمة، إلا من ضوء يشع من نوافذ الشقق والأضواء الكاشفة من بعيد للسيارات.. أشعلت سيجارة، فومضت الولاعة وميضا خاطفا كخيط برق فسرى في صدري شعور برهبة عابرة ورجفة خشوع.. فمن يدري؟ فربما عيون ترصدني وتتبع خطواتي، وتحصي أنفاسي دون أن أدري.. ربما زينة تراقبني من مكان ما.. هذه المرأة اللغز التي دخلت حياتي كعاصفة.. وخرجت منها كما دخلت تاركة عاصفة أخرى من الألم والشوق.. وإن تبددت مع الوقت..

فقد تركت شكا عميقا في عقلي.. من تكون.. ومنحته جولة أخرى في معركتي معه ضد التوجس.

ماذا أفعل ..؟ ماذا أفعل هنا وحدي وقد تجاوزت الساعة العاشرة ليلا؟ هممت بالصعود إلى شقتي لكن فضولي كان أقوى من ارتيابي، ربما هو جزء من توجسي.. فأنا لا أعرف بالتحديد لمَ أريد معرفة التفاصيل عن هذه الجماعة؟

وانتظرت عودة الشيظمي لأعرف المزيد من التفاصيل، ولم يتردد صاحبي الذي مازال عقلي يؤجل ترسيم صداقتنا، في الإجابة عن تساؤلاتي وهو يلهث، بعدما عب الماء عبا، وطفق يمسح عرق جبينه الراشح بخرقة منديل.. قال في أنفاس متقطعة:

- هذا سي الحاج سليمان وصاحباه.. وكلهم حجاج.. الله يزيد "الما ف الدقيق"

- من هو فيهم؟

توقف عن الكلام، وحدجني فجأة بنظرة استغراب وقال وهو يتفرس في:

- أستاذ.. ما عهدتك هكذا.. وتهمك أخبار الناس..

أداري فضولي وأنا أسوي بلا سبب شعري، وأقول:

- لست فضوليا.. فقط من حقي أن أعرف جيراني.. ألست على حق يا صاحبي؟

- إن كان الأمر كذلك فلا بأس.. الرجل السمين.. الذي يضع النظارتين.. هو الحاج سليمان.. الذي تظهر عليه آثار النعمة..

- ومن هو يكون الحاج سليمان هذا؟
- إيه.. "غول" من غيلان هذا الزمان.. "خانز فلوس" ألم تسمع بسليمان جبار..؟ إنه رجل مهاب الجنب، ذو جاه ومال وحظوة عند الكبار هناك في الرباط.. نعم.. إنك لا تعرفه.. فهو غالبا يأتي بعد منتصف الليل.. هو صاحب العمارة.. لكنه صيته عال في البلد..
- ماذا تقول؟ العمارة عبارة عن شقق في ملكية أصحابها.. والشقة التي أكتريها أعرف صاحبها..
- نعم.. نعم.. الحق معك ولكن ما لا تعلمه هو أن سي الحاج هو المقاول الذي بناها وباعها شققا..
- وماذا يفعل هنا؟
- ترك لنفسه شقة في الطابق الخامس.. يأتي إليها من حين لآخر.. هو وأصدقاؤه.. هل هذا حرام..؟
- آه.. لم أقصد.. من قال ذلك؟ أحاول أن أفهم فقط.. لكن أنت لمَ متوتر.. ليس من عادتك.. أن تغضب من أسئلتي..؟ ما بالك؟
- ومالك أنت وتوتري؟ لا شيء.. يا أخي.. دعني وشأني.. "ما علم بـ المزود غير لي مضروب بيه"
- يظهر لي أنني جئت في ساعة غير مناسبة..اسمح لي...
- في تبرم وعصبية طافحتين، يرمي بالمنديل الذي كان يجفف به عرقه بعيدا ويقول في حنق:
- من قال ذلك؟ فقط أنا عصبي اليوم.. "الساعات لله"

يبدو في غير حاله، فمجيء هذه الجماعة وتره، وعكر مزاجه، فصار فظا معي، ولم أعهده إلا لطيف القول، طيب الحديث، قليل الحنق. أرتب على كتفه، في حنو، مبتسما محاولا تخفيف غضبه، وأقول:

- لا عليك.. أعتذر.. ربما صرت ثقيلا عليك..

استرجع أنفاسه، نظر إلى نظرة عميقة، ثم وقف ودنا مني قائلا في عطف:

- ما بك.. يا رجل..؟ قد شغلك الحاج سليمان.. لم أعهدك سريع القلق.. وتريد أن تذهب في غضب.. يا أستاذ..! كل ما في الأمر.. أني لا أحب حضوره.. يكلفني الأمر عناء كبيرا.. هل ارتحت الآن؟

يعود إلى مقعده، يستوي بعد لحظة صمت وهدوء.. يشغل المذياع، أهم بالانصراف:

- تصبح على خير..

يجرني من يدي.. يبتسم.. يجلسني مكانه، يقول واقفا:

- يا "خويا" لن أتركك تذهب وأنت مستاء مني.. اسمع.. هؤلاء الناس خير لك ألا تعرف عنهم شيئا.. الحاج سليمان وحش كاسر.. مقاول كبير وفلاح من الأكابر.. له يد طويلة.. ونفوذ...اتصال هاتفي منه وتنقلب الدنيا.. لا يرحم أحدا إن عرقل مشاريعه.. صل عليه صلاة الجنازة.. و"لا تابع ولا متبوع" غارق في النعمة حتى الأنف.. أراض.. ضيعات.. مواشي.. هذا الوحش الكاسر.. لم يتوقف عند البر.. بل امتد إلى البحر..

بواخره للصيد تجوب شواطئ المغرب، وتملأ حساباته بالمال الوفير.. وهو رئيس جماعة في قرية لن أذكرها لك، لا أحد يترشح ضده.. خوفا منه.. أما الرجل الذي يضع طربوشا أحمر الحاج عبد العزيز فهو شخصية كبيرة من الرباط.. وسمعت أنه إمام مسجد كبير.. ويصلي بكبار وأعيان البلد.. ولكنه ابن جاه و"شان" من أظنه فاسيا.. فهو ينطق الراء غينا..

- عنده لثغة.. لابد أنه من "دار كبيرة".
- طبعا.. الحاج "سليمان جبار" لا يصاحب إلا الكبار.. ومن فيه منفعة ما..
- والآخر..؟
- الآخر.. تقصد "المغوبش".. ينادونه بالحاج "الصاروت".. هو ضابط كبير متقاعد في الدرك "جدارمية".. نعم سيدي.. وما أدراك ما "جدارمية".. هم شركاء في عدة صفقات.. يخدمون بعضهم البعض.. المهم لا شأن لنا بهم.. ولا تعرهم اهتماما.. هم الليلة للراحة فقط.. فكلما زار الحاج الرباط جاء صحبتهما للمبيت والاستراحة هنا..
- الاستراحة فقط..
- هذا هو الكلام الذي لا أريده.. "حفر تجبد حنش" أستاذ..! الله يخليك.. دعهم في شأنهم.. المهم نعيش من موائدهم.. ولا نتدخل في ما لا يعنينا..
- سمعتك تنادي زبيدة .. من..؟

- هل كنت هنا..؟ لقد مضى على مناداتي لها أكثر من ساعة.. يا ماكر.. كنت تراقبنا..
- لا.. أبدا.. اتق الله يا رجل.. هل جننت.. حين وصلت في البداية وجدت الجلبة، فذهبت أشتري السجائر..
- زبيدة التي تسأل عنها.. امرأة خرقاء.. "بوهالية".. بنت "باب الله" منظفة العمارة الجديدة.. تعمل منذ شهور.. لم يسبق لك أن صادفتها.. لكنها تعرفك.. وهي امرأة طيبة.. في حالها.. تريد رغيفا باردا حلالا بلا مشاكل.. وقد كلفتها بتنظيف شقة الحاج سليمان من حين لآخر.. وعندها مفتاح الشقة.. كانت المسكينة تعيش حياة كريمة في كنف زوجها.. كأميرة إلى أن مات زوجها.. فترملت.. لم يترك لها شيئا.. لحسن حظها ليس لها أبناء.. المسكينة.. عليها أن تعمل لتأكل.. الحياة صعبة كما تعلم..

يمسح عرق نحره بالخرقة.. ثم رقبته، وينطلق بسرعة نحو العمارة:

- سأصعد عندهم.. ربما هم في حاجة إلى خدمة ما.. السلام.. تصبح على خير..

10

قبل أن ينطلق المصعد، يمرق إلى الداخل منير أحد جيراني الذي اكتفى بالنظر إلي وتحيتي بهز رأسه، أضغط على زر الطابق الرابع يومض ضوء أحمر مستفز، يضغط هو على زر الطابق الثالث، يتحرك المصعد في هدوء دون جلبة، يعم صمت رهيب.. أتفرس في وجه هذا الشاب، الذي حدثني عنه يوما الشيظمي، كان يشفق عليه، ويقول إنه شاب لطيف طيب السريرة، رغم أنه منطو على نفسه.. لا يضمر الشر لأحد.. لا يحب مخالطة الناس، ويعمل في التأمين حسب ما قال له.. لم أعرف كيف باح منير له بتفاصيل حياته، لأني كنت أجده، ضائعا، خائفا دوما.. مضطربا.. مبهما.. في كل المصادفات.. لكن الشيظمي رأى فيه ما لا أراه.. وكان يكن له المودة ويذكره خيرا..

بدا لي منير شابا لم يتجاوز الثلاثين حولا، مربع القامة، ممتلئ البدن دون سمنة، أمرد الوجه، ناصع بياض الأسنان المتراصة في نظام عجيب، قلم أراه مبتسما، سحابة وجوم تظلل حركاته، وترافقه غالبا، قسمات وجهه تكاد تكون ثابتة.. نمطية.. تزيد من قسوتها نظراته الحادة، التي لا تعكس أي أحساس جميل ولا يغيرها موقف ولا مقام، كصنم من حجر في بدلة بسترة وسترة تحتية غريبتي اللون الأصفر الفاتح الصارخ، وربطة عنق فضية اللون، يضع نظارتين أنيقتين حمراوين الإطار، وحزمة جلدية بنية سميكة النعلين، يركز نظره على مرآة المصعد، ويسوى ربطة العنق من حين لآخر دون حاجة ملحة،..يمرر يده على شعره الأجعد المرطب بدهن لماع، محاولا ترويض بعض الشعيرات المتمردة على المشط.. من حين لأخر يرمق العداد الإلكتروني للطوابق الذي يرسل بريقا أخضر،

بنظرة خاطفة، ويسرق أخرى عابرة على المرآة.. استغربت لبياض بشرة وجهه، ولاحمرار وجنتيه الشديد، أهو من الارتباك، أم من الخجل أو الخوف؟ شفتاه غامقتا الحمرة، كأنه يعالجهما بأحمر شفاه..

لا يبادلني.. أي حديث.. أشعر بعينيه تتفادان أن تتقاطعا ونظراتي.. رغم الغلظة التي بدا لي أنه يصطنعها أحسست أنه تائه.. كطائر بري حبس توا في قفص.. تحول امتعاضي منه فجأة إلى لحظة شفقة وأنا استحضر شهادة الشيظمي، فأشفقت عليه من عذابه اليومي، فهذا الرجل حتما يخفي وراء هذا الوجه العبوس والصلابة عزلة رهيبة.. فكم رأيت من نماذج مثله تحتمي بالصمت والتجهم من الآخر، لمداراة الضعف وتجنب الانهيار.

يمرر لسانه على شفتيه في حركة لم يحسبها، فتتقلص عضلات وجهه رغما عنه.. تأكد لي أن وراء هذا القناع كائنا آخر هشا، فحين أصدر المصعد أزيزا حادا نتيجة الحبال التي تحمله القليلة التشحيم، تحول الرجل ذو الوجه القاسي القسمات إلى صفحة متعرقة وامتقع وجهه اصفر، شحوب مفاجئ شق طريقه مبددا حمرة الخدين.. يبدو عليه التوتر، يداري اضطرابه بطقطقة أصابع يده، يمسح العرق المتفصد من جبينه بمنديل مطرز بخيوط حريرية زرقاء في زواياه الحادة، يوزع النظر على سقف المصعد، كأن المكان يضيق به، أكاد أسمع دقات قلبه، وارتفاع وتيرة تنفسه، يخفي ذلك برباطة جأش مزيفة وعارية لا تنطلي على أحد.. يستمر في مسح الفضاء وهو ينقل النظر هنا وهناك في ذعر يحاول السيطرة عليه، يحك أرنبة أنفه بسباته.. يفرك شحمة أذنه.. اهتزاز خفيف ومنتظم لرجله عرى اضطرابه فصار مكشوفا أمامي..

عندما توقف المصعد بالطابق الثالث، فمرق خارجا، كأنه يهرب من وحش كاد يبتلعه، أو كمن تخلص من وزر ثقيل أنهك ظهره، مخلفا وراءه عطره القوي، هرول في الردهة دون أن ينبس بكلمة واحدة، لكن شيئا ما أثار حفيظتي.. الرجل يبذل مجهودا كبيرا للاعتدال في المشية كأن جزمته بها مسامران يؤلمان قدميه، وبدا لي تصنعه لقسمات القسوة والشدة، كأنه يستعير شكلا آخر، على غرة تخونه حركة طائشة بيده وهو يسوي شعره بطريقة غير ذكورية، عقلي يريده حالا موضوع التوجس والريبة.. يريد إدانته.. أيكون منير شاذا؟

يصادف زبيدة في البهو، تقف للسلام عليه.. يشدني المشهد، لا أضغط على الزر.. أريد أن أعرف كفاية.. وأنا أرى منيرا يدلف كالهارب.. لا أعرف كيف ولِمَ لم يرد عليها، ولم يعرها أدنى اهتماما.. وقد نادته باسمه دون رسميات حتى ظننت في البداية أنه يعرفها، لكنه تفاداها بطريقة قاسية.. وبدا لي أنه يسكتها بحركة منه.. بدا مرتبكا.. واصل سيره.. المرأة بدت مصدومة في البداية من تجاهله، تسمرت لحظة في مكانها وهي تنظر إليه وهو يمشي مهرولا كأن كائنا خفيا يطارده، لا أدري كيف تملكني إحساس جارف بأن الأمر ألمها وخلف في مشاعرها جرحا عميقا، ربما من إيماءات رأسها، الذي كانت تحركه في حركة دائرية، وهي تعض على شفتها السفلى، حين تغيرت ملامح وجهها. سحابة حزن مفاجئ غطت بريق عينيها الواسعتين الجميلتين، وغضب ومضت شرارته في نظراتها، فتغيرت معالم وجهها حتى تجعدت جبهتها .. ثم ارتخت.. لوت شفتيها في سخرية وقالت: "ماذا وقع؟"

لكنها قفزت مذعورة، بعدما اكتشفت وجودي في المصعد، لا أعرف ما الذي أخافها، حتما كان تظن المصعد فارغا..ربما يعرفها منير.. ربما عشيقة له في السر.. وكادت الخرقاء أن تفضحه.. ربما.. ربما..

- انتظرتك.. هل أصعد..؟

غيرت نبرة حديثها تغييرا جذريا.. فرمت في أذن منير كلمات قاسية.. كأني بها اصطنعت الأمر في ارتجال غير موفق:

- كلنا أبناء تسعة.. الستار الله.. انتظر أستاذ..! سأصعد..

حتما التقط الرجل كلماتها، إذ تعمدت أن تسمعه إياها رافعة من حدة صوتها بقوة ولكي تسمعني أنا أيضا.. ربما أرادت أن تبدد شكوكي، وتعطيني انطباعا أنها لا تعرف الرجل.. وهي تلمز وتهمز له، مشرئبة برأسها من باب المصعد.

سلمت.. فرددت السلام عليها، ابتسمت في وجهي فابتسمت.. كاد جسدها أن يلتصق بي رغم اتساع رقعة المصعد، حلت منديل شعرها في حركة سريعة، وبدأت تصفف خصلاتها جاعلة من أطراف أصابعها مشطا، أهملت بضعا منها على مقدمة الرأس أسدلتها كشلال ماء في سلاسة على جبهتها، بعدما أعادت ترتيب قميصها الذي انحصر عند ساقيها، بدأت تثرثر معبرة عن غضبها:

- فعلا.. قل الرجال.. ماذا يظن نفسه؟ أيعتقد أنه مختلف عنا، أنا أعرفه حق المعرفة.. وأسراره لا تخفى عليَّ.. ويوما ما سأعريه أمام الرجال..

- ظننتك تعرفينه..

ارتبكت حتى بدا ذلك من تلعثم لسانها وهي تركب الكلمات، وقد تثاقلت وتباعدت الحروف.. وردت بصعوبة.. وهي تبصق رذاذا على بين نهديها تشيرا:

- "الله يا ودي "تفو.. تفو.. أعوذ بالله منه.. أنا لا أعرف مثل هذه الأشكال من الرجال.. أش جاب شي ل شي"؟

- اسمح لي ظننت ذلك حين سمعتك تنادينه باسمه..

ارتبكت في وضوح من تعليقي، وانتظرت لحظة قبل أن تجيب منشغلة في مكر بتسوية ملابسها ثم قالت هازئة وهي تلوي شفتيها وتؤرج خصرها:

- وليكن.. فهل هذا يعني أني أعرفه..؟ أنا فقط أؤدي واجب السلام.. هل هذا عيب؟ ربما السلام في بلادكم حرام..

- ولمَ أنت غضبانة..؟ سلمت ولم يرد.. فليذهب إلى الجحيم.. "إعاود لمخو"

في تهتك طفقت تسوي حاملة ثدييها، وتسوي قميصها، ثم نظرت إلي في خلاعة وقالت:

- كما قلت.. إلى الجحيم "إعاود ل راسو"..

وضربت صدري بقبضة يدها ضربا خفيفا ثم أردفت وهي تحدجني بنظرة زائغة مثيرة، والعلك يتعذب بين فكيها، في دلال وغنج

- ويا ليته كان رجلا..! مثل الرجال.. الرجال.. من طينتك..

تملكني إحساس غريب، وفي لحظة انبهار، رغبت في أن أعمق معها الحوار بعيدا لأعرف أكثر عن هذا الرجل، ولتكشف لي كل أسراره، وتمنيت للأسف في خبث دفين أن تسرد فعلا لي تفاصيل حياة جاري الذي كنت أصادفه من حين لآخر.. يبدو أنها تعمد إلى نزع الرجولة عنه.. هل الدافع هو الانتقام، أم أنها تريد إخباري لا غير؟ فتضاربت الأسئلة في عقلي، لتتلاطم على صخرة الحيرة، هل هو مغرور أم خجول؟ هل هو متكبر أم مذعور؟ هل هو شاذ أم منحرف..؟ أخرجتني المرأة من اضطرابي، رافعة إيقاع صوتها الاحتجاجي مرددة وهي تميد بخصرها وقد شدت وركيها بيديها لتضبط إيقاع حركة جسدها كمن تقدم وصلة رقص:

- سبحان الله في خلقه، هذا الرجل المتكبر، لا نعرف هل امرأة أم رجل، الله يستر، مشيته تفضحه..

رغبتي في معرفة التفاصيل وأدها وصفها الجارح للرجل، فالنعوت والأوصاف في هاته المدينة تنتقل بسرعة غريبة كالنار في الهشيم، وأنا لا أريد أن أكون طرفا في غيبة أؤدي عنها ثمنا غاليا في مسلسل القيل والقال، وقد يبدأ الأمر بسيطا في شكل إشاعة طائشة تخرج من فم أرعن فتساعد في نشرها رياح الضغينة والحقد، وكم من غافل وغافلة ألصقت بهما إشاعة جارحة دون أن يدريا. أحسست بالندم يعصر قلبي من خستي ونذالتي، كيف فكرت بنذالة وخبث أن استخبر المرأة التي بدت لي على إطلاع واسع بأسرار العمارة عن الرجل وعن أسراره؟.. وددت في الوقت نفسه لو كانت لي الجرأة لأضع حدا لثرثرتها، لأقول لها ألا تخوض معي في الأمر.. وتترك الرجل وشأنه.. ما

شأنها هي إن كان يمشي كالمرأة أو البطة.. فتضاربت رغباتي بين فضول غريب، واستياء مريب..

يبدو أنها مصرة على الحديث والخوض في حياة الرجل، لتنفس عن نفسها، كانت مستعدة أن تقدم لي لو طال الوقت سجلات كاملة عن سكان العمارة، حركاتهم وسكناتهم، كانت تنتقل بسرعة إلى مواضيع متعددة وشتى، وتملأ البياض القليل بتسوية القميص ومنديل الشعر، أشعر أن المرآة في المصعد تسكن الجميع، أخطف نظرة على صورتي المنعكسة أرى فقط ظلا شاحبا لرجل في عقده الرابع.. زرقة تحت العينين ربما من كثرة احتسائي للخمور.. وصلع مبكر بدأ يتسلل إلى مقدمة الرأس من مفرقيه.. نحافة وطول قامة.. سمرة بشرتي الخفيفة صارت داكنة من التعب والسهر..نحافة وجهي كانت دائما تثيرني، كان كأنه بلا لحم.. بارز عظمتي الخدين، مما أعطى لأنفي المتوسط الطول الدقيق بروزا.. أتفحص عيني.. فيهما حول خفيف.. كانت أمينة أيام زمان تقول إن هذا الحول الخفيف هو سر جمالي.. أتلمس حاجبي، كثافة الشعر فيهما سمحت لشعيرات أن تنمو في فوضى.. أكاد أنتفها بأصابعي.. لولا نظرات المرأة.. زغب متفرق في وجهي هنا وهناك.. فقد كنت خفيف شعر اللحية..

أثارني سكون وصمت المرأة في لحظة ما، رمقتها تنظر للمرآة مرة ثانية مستطلعة صدرها، تسوي بطريقة مستفزة ومثيرة من جديد حاملة ثدييها، ثم تواصل الحديث عن منير ولازمتها اللغوية لا تفارقها "النفخة على الخوا، كون غير كان راجل بعدا".

لابد أن جاري منيرا بتجاهلها، لم يكن يعلم أنه فتح عليه باب جهنم، فلن تنسى له هاته المرأة ذلك، وهي التي جرحت في كبريائها ولم يرد على سلامها ولم يلتفت إليها، فقررت حتما أن تنتقم لكرامتها.. وليس أسهل من الطعن في رجولته وشرفه. أحاول أن أجد تأويلا لنزعها الرجولة عن جاري منير، هل فعلا لا يعرفان بعضهما البعض؟ أكيد أنها تعرف أشياء كثيرة في العمارة لا أعرفها، العمل في تنظيف الأدراج وتلميع المرايا وأرضية ردهات الطوابق يمنحها فرصة لجمع المعلومات، والتنصت على الشقق، ومعرفة الزوار والمقيمين، لابد أن لها خريطة عن أزمات الأسر، كائن من هذا النوع مصدر مهم للمعلومات والأخبار.. تعيدني المرأة إلى الواقع وهي ترفع من قوة احتجاجها صوتا عاليا شيئا ما قائلة:

- أتعبتني هذه الأدراج أغسلها مرارا وأمسحها، لكن لا أعرف من أين يأتي كل هذا الغبار؟.. الدنيا صارت عاهرة في هذا الزمن "الأكحل"

استجابة عفوية مني، ربما ماكرة اتقاء للسانها السليط، قلت مبتسما ومعبرا عن تضامني الاضطراري:

- نعم، كان الله في عونك..

في ريبة، أتملص من خوض المزيد من الحديث معها، ربما هذه الماكرة الماجنة تنصب لي فخا للبوح.. لمعرفة المزيد عني.. وهل لي أسرار حتى تخيفني؟ حتى الشيظمي.. الخبير بالأسرار قال إني بلا أسرار..

لا أعرف كيف تسلل الذعر من جديد إلى قلبي، وعقلي مصر أن ينهي ليلة بالهواجس، فقد رمي في روعي فكرة سوداء وغريبة وأفترض أن

زينة وهذه المنظفة مجندتان لترصدي، وأقحم الحمري في المؤامرة.. وبدأ في خبث ينسج المشهد الخطير المخيف.. ما هذا العبث يا عقلي..؟ إنها الصدفة فقط.. لا غير.. أوف.. كم تتعبني هذه الهواجس لحد الانهيار.. رباه..! الرحمة.. لكن عقلي يصر ويلح ويخرج صوت الذعر عارضا حججه مرددا "ألم تسمع مرارا بعض الأصدقاء يرددون جازمين وفي ثقة الخبراء أن المنظفات وماسحي الأحذية وحتى المتسولين والمتسولات والندل والنادلات وحراس السيارات وخصوصا الليليين.. يتم تجنيدهم لجمع المعلومات، وهم عيون الشرطة والمخابرات؟ احذر..! ابتعد عنها..! ألم تسمع أكثر من مرة أن ماسحا للأحذية قد يكون مخبرا لدى جهاز استخباراتي، وهو يشتغل متخفيا ومستعيرا هاته الهوية ليسهل عليه السمع وجمع المعلومات والانطباعات، وجس حس الرأي العام من واقعة أو حادثة أو قرار تسبقه إشاعة لرصد ردود الفعل الأولية بالاندساس بين جموع السكارى في الحانات، حيث الكأس في كثير من الأحيان تدفع الناس إلى الثرثرة والكشف عما في عقولهم وصدورهم..أو التجوال بين المقاهي.. الحمري.. النادل.. زينة.. والمنظفة كلهم مرشحون بامتياز ليكونوا عينا لمن يأمر..؟" أصد الصوت المتوجس الأحمق في أعراض وأقول له "لا.. لا.. الصدفة هي التي جمعت هؤلاء في هذه اللحظة.."

شقتي هادئة.. باردة العواطف.. غارقة في الوجوم.. كان بإمكان أمينة أن تبدد شعوري بالوحشة في بيتي بأنوثتها ودفئها، فهي جميلة لا ينقصها شيء.. أصغر مني بخمس سنوات.. طويلة دون عيب.. ممتلئة الجسد دون سمنة.. واضحة الخصر، دقيقة العنق، واسعة العينين،

يعجبني أنفها الدقيق، وشفتاها الرقيقتان، يعجبني صدرها الضامر فلم تكن ناهدا، ثدياها محتشمان لكنهما منتصبان..

أرمي بنفسي منهكا على أريكة في الصالون، يصلني صوت خافت منبعث من التلفاز، الساعة الحائطية على الجدار تشير إلى الحادية عشرة، وتطن بصوتها في أذني طنينا قاتلا..أمي في غرفتها حتما، أنهض.. أطرق الباب.. أجدها تصلي.. جالسة على السرير، خانتها ركبتاها وخذلها الظهر، فلم تعد قادرة على القيام بالصلاة ركوعا وسجودا إلا جالسة..

أدخل غرفة نوم أمينة.. أراها مستلقية على بطنها تتابع مسلسلاتها التي لا تنتهي، تشير بيدها دون أن تلتفت وعيناها على التلفاز:

- لم تأت للغذاء.. الأكل في الثلاجة.. سخنه إن كنت جائعا..

على الأريكة في صحن الشقة، أسترجع أحداث اليوم بتفاصيلها، أتوقف طويلا عند السيارة التي خلتها سيارة زينة.. هل كانت هي؟ إن لم تكن هي.. فلمَ انطلقت بسرعة؟ أستغرب من أسئلتي وأنا الذي ظننت نفسي حسمت القضية بتشابه السيارات.. لكن الأمر لم يكن كما اعتقدت.. وجه "زينة" يبعثرني من جديد.. واندس عطرها بين شغاف روحي.. ففاض في الخيال جنونا ونشوة.. أعيد تشكيل الجسد جزءا جزءا، أشعر بقشعريرة تدب في بدني، تتملكني الحيرة، أنغمس في تساؤلات وتحاليل في صمت.. ما دوري في كل ما حكت، إن كانت تنوي الرحيل؟ تتناسل الأسئلة.. أتساءل عن سبب انطلاقتها السريعة ووداعها الجاف منذ شهور.. أعود إلى جلد نفسي بالأسئلة المؤلمة نفسها التي خلتني تجاوزتها.. فيعود قهر السؤال المحير إلى لعبته المضنية..

هل خيبت ظنها؟ هل ترددي وهواجسي خذلاني لحظة عرت عن شعرها..؟ أتساءل ثم أتساءل.. في دوامة مغلقة من الأسئلة المعلقة الأجوبة.. هل كان الرحلة إلى مدينة المحمدية دعوة صريحة للحظة حمقاء..؟ هل كان علي أن أتقدم بشفتي نحو الجمرتين الحارقتين..؟ هل كان علي أن أطوق الخصر الدقيق بيدي، وأداعب الخصلات المتمردة بأصابعي..؟ هل كان علي أن أطفئ نارا اشتعلت وعميت عن رؤيتها بغشاوة التوجس..؟ استحضر الأجواء.. وإن مضت عليها شهور مازالت ندية.. طرية.. في ذاكرتي.. فحولنا كان الكون يتشكل من اللذة والنشوة.. حولنا كان العشاق يختزلون الوقت في قبلة وعناق.. ماذا دهاني؟ ما أغباني..! فهي التي أخذتني إلى هذا المكان.. وتعرفه حق المعرفة.. فهل أرادتني أن ألتقط الإشارات؟ أن تدلل طريقي نحو رحيق أزهارها؟ هل خيبت ظنها؟

تمنيت أن أعرف بقية قصتها.. للأسف تركتني للحيرة تنهشني.. أشعر بالضيق.. صورتها تخنقني.. تحاصرني بكل أنوثتها الصاخبة.. الفياضة.. امرأة لم يكن رأسمالها أنثويا فقط، طريقة تحليلها.. رؤيتها للأشياء كانت استثنائية، شخصيتها القوية هي التي حالت بيني وبين حديقتها..كنت كلما فكرت أن أترك التيار القوي يجرني نحو شواطئها الموحشة، تصدني فكرة عميقة تسكن مفاصل حديثها، تروضني رؤيتها للأشياء الذكية، فهل خيبت ظنها؟ فهل ستعود مرة أخرى؟ متى؟ ليتني أعرف؟ ماذا دهاني؟ ألم أحسم الأمر؟ ألم يتلاش الشوق إليها، أم أنه كمن متربصا بضعفي.. في جغرافيا ولعي؟

أرتدي سترتي وأقرر تأجيل هواجسي ببعض الكؤوس.. فعلي أن أمسح هذا الضجر الجارف الذي جثا على صدري، وأتخلص من هوس "زينة" الذي انتعش الليلة..

في البهو منظفة العمارة تلمع الأرضية، وقد كشفت عن ساقين ممتلئتين، سمعت وقع خطواتي، فانحنت أكثر لتكشف عن مفاتنها، كانت امرأة بضة الجسم.. تبدو لي غيرت ملابسها.. غير أنها مازلت تضع وشاحا أزرق على شعرها الذي تظهر منه بعض الخصلات الشاردة الشديدة السواد، غيرت فقط فستانها ولبست آخر شفافا شيئا ما ترتسم عليه ملابسها الداخلية خطوطا مثيرة، مررت من جانبها، نهضت مبتسمة، واستقر نظري على نحرها حيث كشفت عن جزء من نهديها.. قالت وهي تسوي وشاحها:

- تفضل.. أستاذ.. إن احتجت إلى شيء، فأنا هنا.. اطلب ما شئت وسترى قدراتي..

أرد بابتسامة وحيرة:

- شكرا.. شكرا.. .الله يجازيك خيرا..

تعترض طريقي وتقول وهي تطوق خصرها، وتميد والعلك في عذابه المعهود بين أضراسها:

- لا تخجل من شيء.. اطلب مني ما تشاء.. أنا هنا لخدمتك..

متلعثما أرد:

- حفظك الله..

تقترب مني وتهمس:

- الحاج سليمان هنا..
- علمت.. الرجل متعب.. يريد أن يستريح
- أنت على "نياتك" أستاذ.. إنه يأتي هنا لأشياء أخرى.. أنت المنهك.. أما هو فسلطان كل ليلة.. ضحك ولعب وخمر وبنات.. والعجب العجاب هؤلاء العجزة فوق..كيف يفعلون مع "البنات" وهم على مسافة شبر من القبر؟
- ربما.. العمل أيضا..

تمكنت أخيرا الماكرة من إضحاكي، حتى دمعت عيناي وهمست خوفا من الضوضاء:

- حقا أنت حمقاء.. من أدراك بما يفعلون؟

تلوي شفتيها في سخرية، وتضع يديها على وركيها ثم تميد وهي تقول بعدما ضربت صدري بقبضة يدها:

- سلني أنا التي أنظف "أزبالهم" ووسخهم.. أثار أفعالهم تظل شاهدة على مجونهم.. سبحان الله "يعطي الحمص لمن لا أضراس له".. وأنت يا شديد.. "زعما" لا تخرج رجلاك من "الشواري"؟
- وليكن تلك حياتهم.. لا يهمني الأمر.. أما أنا فلا "شواري" عندي ولا بردعة..
- هو حاج.. ورفع يديه في الحرم المكي.. هما نفسا اليدان اللتان يحتسي بهما الخمر، وتعبثا بالأجساد الفتية.. أما أنت.. فلم تحج بعد.. لا حرج عليك..
- وليكن.. تلك حياته وكل شاة تعلق من كراعها..

هل غلت وكرعت هذه الهاتكة الأرملة التي ربما طال عليها الحرمان من الفراش، فاشتاقت الجماع في هذا الليل؟ هل تجرني إلى حضنها وتسحبني بكلامها المثير الغاوي إلى فراش المتعة؟ عقلي يصدها، محذرا من عاقبة لذة عابرة، في حضن امرأة غامضة.. علي أن ألجم شبقي حذرا من سوء العاقبة..

- الله يخليك دعيني أمر..!

ألحت علي، في متابعة الحديث، وهي تشدني من ذراعي بقوة، لم تكن كفها خشنة، بل ناعمة، ودافئة.

- الله يخليك.. ابق معي..!

لم ينقذني منها إلا ظهور الشيظمي، الذي تفاجأ بالوضع، فصرخ في وجهها وهو يلطم فخذيه:

- يا حمقاء.. سي الحاج ينتظر.. أين كنت..؟ سامحني يا أستاذ..! هذه المرأة والله لا تملك حبة عقل.. أعرفها، ثرثارة لا تنتهي من الكلام..

تثب نحوه بخفة ورشاقة، وعلى مقربة من أنفه تتكور كقط، وتقول له:

- ألم تطلب مني أن أعتني بالأستاذ؟ لقد شخت وشاخت ذاكرتك..
- نعم.. إن أراد أن ينظف بيته.. لا أن تزعجيه.. دعي الرجل.. يا حمقاء.. دعيه..

يختفيان في المصعد.. آخر شيء أراه، يدها تلوح لي بها وقبلات في الهواء.. كانت فعلا بلهاء ومثيرة والشيظمي يسحبها في حنق إلى الداخل.

لا أعرف لِمَ أشعلت هذه المرأة فتيل شهوة عابرة في جسدي، فتملكني شعور غريب أنها أكثر أنوثة وسحرا من زوجتي..كانت أنثى في كاملة في تهتكها ودلالها.. في وجودها.. في كل تجلياتها.. ويكفيها هذا لتأسر القلوب.. ويقتفي الرجال أثرها.. يكفيها أن تكون أنثى.. أنثى.. لتتميز عن غيرها.. كم من امرأة تناست قوتها في أنوثتها.. فضلت طريق تفردها.. نبرة صوت هذه البلهاء ومعجمها كانا كافيين لتتوج سلطانة الإثارة والسحر.. كانت كما هي.. فأسرت القلوب وخلبت العقول.. إلا أن قصتها مع منير الذي تجاهلها مازالت طرية في عقلي.. وشكي أنه تجاهلها لوجودي بدأ يخفت ويتلاشى.. لا أتق في عقلي فقد يجدد الأسئلة الحارقة متى شاء جلدي..

11

في حانة "الطاحونة الحمراء" أخذت مقعدا عاليا على المشرب، وأن كان هذا النوع من المقاعد الطويلة ذات القوائم الأربع الحديدية، يؤلم ظهري ولا يريحني، يفطن الساقي العجوز إلى وجودي، يكتفي بابتسامة مسكوكة تصلح لكل الوجوه ولكل المقامات والأحوال، باهتة بلا طعم إنساني، يلوح لي بيده ثم يضع جعة باردة وبضع حبات الزيتون الأسود في صحن وقطعا صغيرة من الفجل، وينشغل عني بمشاهد التلفاز.

نادية الساقية الرئيسة قلما تغادر المقصف، الليلة تحت طلب خليلها الجواد عز الدين، اتخذت رفقته طاولة في زاوية مظلمة، تقارعه كؤوس الويسكي، وهو يعبث معها أو بها، تمتد يده من حين لآخر إلى مؤخرتها وبين فخذيها، وتكتفي هي بالغنج والدلال في تهتك ومجون، وتملأ فضاء الحانة بقهقهاتها الماجنة، عز الدين تاجر معروف في الفضاء النابض التجاري للبيضاء "درب عمر" ينفق أموالا كثيرة كل ليلة،كأنه يغرف المال من البحر، ويغدق على الجميع لهذا كسب احترام وتقدير الجميع، يطيقون فيه فظاظة خلقه، وخشونة الطبع وجلافة اللسان لما يغدق عليهم من مال وعطايا، طبعا في حانة الطاحونة الحمراء لكل شيء ثمن، يكفي أن تكون زبونا لا يجيد الحساب ولا يهمه كم أنفق، لتغدو الآمر الناهي في كعز الدين خليل نادية.. المستجابة طلباته دوما حتى ولو كانت شاذة حمقاء

نادية فتاة تجاوزت عقدها الثاني بنيف، اعتادت ارتداء ملابس فاحشة، شفافة وضيقة لتفجر الغرائز والغواية، نصف سراويل جد ضيقة تنحصر فيها أردافها الممتلئة، صدر شبه عار يكشف عمدا عن نهدين

ممتلئين لكنهما متسقان، وكلما انحنت وغالبا ما تتعمد ذلك، يظهر الجزء الأعلى من سروالها الداخلي المستفز.. خيطا ،رفيعا.. مثيرا يلتصق بالجسم الممتلئ، وباقي الخطوط يكشفها نصف السروال الضيق الذي يرسم كل مفاتنها.. ويعري أكثر ما يستر.. كانت مثيرة بل أكثر من مثيرة.. لغما جنسيا.. أضاف إلى فتنتها بريق أحمر شفاه فاتح ،و ازدادت مآقيها جمالا بخطوط سوداء رسمتها بقلم الزينة لتظهر العينان سوداوين وجميلتين، خلافا لكل فتيات الحانة، لم تقصص شعرها ولم تغير معالمه، فقد كان أشقر مسدولا على كتفيها، أحيانا تغير طريقة مشطها فتجعله غجريا، متموجا في جمال أخاذ، حذاؤها ذو الكعب العالي، والذي لا تتوانى عن طقطقته بأرضية الحانة، يزيدها سحرا وفتنة كلما مادت ومالت، حيث تتابع العيون المأخوذة بالغواية والغريزة الجسم الممتلئ في تموجاته وسكناته ونداءاته، فتميل القلوب ويجنح الخيال إلى الشهوة الفائرة، نادية كانت فعلا على عرش جمال حانة الطاحونة الحمراء.. بلا منازع.

ينهض عز الدين متجها نحو دورة المياه، في الطريق يمد يده إلى سحاب سرواله، قميصه انحصر عن بطنه التي ظهرت مرتخية مشرئبة من قميص انفكت منه صدفتان، منظفة المراحيض التي تجلس على كرسي أمام منضدة في وجوم لا يبدده غير العطاء، تسترق النظر إلى رواد الحانة وكلما ولج سكير ظلت عيناها على صحن تتجمع فيه القطع النقدية التي لا ترسم على وجهها الابتسامة بقدر الأوراق النقدية التي تتسلمها يد بيد وتدسها بين ثدييها، فتصير خادمة الزبون منتصبة كالأمة. تسرع الخطى، ويتملكها حبور ما إن يظهر لها عز الدين

قادما، تفتح له مرحاضا خاصا، وتبدأ في تعطير الأجواء ببخاخ خلطت فيه مركز رائحة الحامض والماء، تنتصب واقفة كخادمة من زمان الحريم، مطيعة مطأطئة الرأس في خنوع.. يا لسحر المال! يخرج عز الدين دون سحب سحاب المياه كالعادة، ويمد لها ورقة نقدية دون أن يتوقف عن تسوية سرواله وسحب القميص عميقا تحت كرشه، لكن رغم ذلك ما إن يخطو خطوات نحو الخارج حتى يضيق القميص بالحزام والبطن المتمردة فينفلت، تمنحه ثوب منشفة وصابونة وتغدق الابتسامات.

أطلب جعة أخرى يمر بجواري عز الدين وما انفك عبثا يسوي قميصه داخل سرواله، ينظر إلي ويردد في وجهي "راك عزيز آخو يا عزيز، ورجل" الساقي يعبر عن رضاه بابتسامة منفرج الأسارير وبإشارة بالرأس يقول "تبارك الله على سي عز الدين وخلاص"، الساقي العجوز عليه أن يكون ممتنا لعطاء عز الدين، وما من مناسبة يظهر فيها إلا وينحني له، فإن نطق ولو حمقا صدقه وأيده، وإن خاصم وجادل آزره ونصره ولو ظلما، وإن سرد نكتة ولو مبكية، ضحك ملء شدقيه ومن على المشرب، مرارا تساءلت لمَ هذا التاجر الكهل الخمسيني يحترمني؟ فكلما لعبت الخمرة برأسه يعبر عن حبه لي واحترامه.. ربما لأني الوحيد الذي لا يحتسي الكؤوس على حسابه، أو لأنني محايد في نصرته، بارد أمام حكاياته ونكته..

تصلني أربع جعات، أسال الساقي عن مصدرها، يشير إلى طاولة عز الدين، أرفع رأسي اتجاهه، يرفع كأسه عاليا، أبادله الحركة والنخب يصيح "في صحة الرجال.. ما شي خسارة في الرجال"، تبتسم في وجهي نادية من بعيد، وددت لو كان بإمكاني رد الجعات، ولأني لا

أريد أن أغدو مدينا لأحد في الحانة، أرد الفضل فضلين، وأطلب لهما معا كأسين، يعبر لي عن استيائه:

- ولا.. أستاذ..! هل سنلعب "التنس"؟

- بالصحة.. تستهل.. يا "ولد الخير"

أشعر برغبة جامحة في التبول، أخطو بتؤدة نحو دورة المياه، خوفا من الانزلاق، فأرضية الحانة أحيانا تصبح لزجة من الفضلات الطائشة لقطع دقيقة من الفواكه، تظل المنظفة في مكانها، استعمل المبولة، أضغط على زر الماء، ينبع بقوة وصخب، يتطاير رذاذ الماء على ثوب بنطالي، أضع قطعة نقدية في الصحن البلاستيكي، وأخرج دون أن أحظى بابتسامة ولا بمنديل ولا صابونة المنظفة التي قيمت العطاء بنظرة خاطفة فانشغلت عني بمسح المرايا في وجوم

حارس الحانة القوي البنية، يصد ماسح أحذية معروف يتردد على الحانات وكان فتى لم يتجاوز عمره خمس عشرة سنة، ويمنعه من ولوج الحانة، يلح عليه متوسلا "عافاك.. الله يرحم والديك" ينهره بقسوة وفظاظة الحارس ويكاد يصيبه بركلة من قدمه لولا تراجع ماسح الأحذية القهقرى، يتشفع له زبون يجلس على طاولة قرب الباب "اتركه يدخل.. لله أدرى بظروفه، لا تقطع رزقه.." يجحده الحارس بنظرات قاسية وفي جلف يقول "إن أشفقت عليه خذه إلى دارك" يصمت الشفيع ويعود إلى شأنه، حميد هذا المفتول العضلات حارس الحانة الذي يفرغها من السكارى المعربدين، يقتص من مثيري الشغب والفوضى برميهم خارجا وتعنيفهم إن دعت الضرورة يغربل الزبناء، يشير إليه عز الدين أن يترك الماسح يعمل، يمد قدميه مرددا "لا باس، لكن أولا لمع حذائي"!

يتنقل الفتى في الحانة وسط أضوائها القزحية المترنحة، ويظل الحارس يتابعه بنظره في ريبة، طقطقة على الصندوق الخشبي تثير انتباه الزبناء، بعضهم يلوذ بالصمت كلما دخل هذا الماسح أو يغيرون موضوع الحديث، لدرجة أنني أراهم يتغامزون، سبق وعلمت أن هناك من يروج أن ما من ماسح أحذية إلا ويشتغل مع البوليس والمخابرات.. يجمع المعلومات، ويرهف السمع وهو يلمع الأحذية، بل ذهب أحدهم أبعد بكثير من ذلك، وقال إن ماسح الأحذية مخبر متخف في شخصية مزيفة، يدون التقارير عن المناضلين النقابيين والسياسيين الذين يترددون على الحانة. أحد مثقفي الحانة الذي اعتاد الحديث في كل شيء.. في الشعر والرواية والفن والسياسة والسينما والإعلام يجزم دون أن يسمح لندمائه بمراجعة أو مناقشة رأيه أن ماسح الأحذية هذا يدون تقارير ترفع لجهات ما لمعرفة المزاج العام للشعب وللنخبة في قضايا معينة، ومصادره قوية

امتلأت مرمدتي بأعقاب السجائر، أطلب من الساقي أن يغيرها، لأني أعلم أنه لن يغيرها بشكل عفوي إلا لمن يغدق عليه العطاء، دراهمي القليلة التي أتركها له على المشرب، وإلحاحي ألا يرفع القنينات الفارغة حتى آخر الحساب، يشعرانه حتما أنني لا أثق فيه، والحقيقة أنني لا أثق في أي ساق في الحانات. يغيرها بلامبالاة ويعيد ترتيب القنينات الفارغة فاتحا فجوة لأخرى، يضعها ويعود إلى حديث هامس مع زبون وهو يشرئب بعنقه من خشبة المشرب حتى يكون أقرب إليه ويضيق مساحة الإنصات، قهقهة نادية تعود لتملأ الفضاء، ما يثير انتباه الزبناء الذين تحولوا برؤوسهم ملتفتين نحو طاولة عز الدين الذين

كان يفاوض امرأة تزعم أنها أرملة وتبيع البيض المسلوق ومناديل ورقية، يصلني صوته وهو يحدث المرأة "واش عندك "شي زلالي".. شي صاحب.."؟ تبتسم المرأة، وتقشر له البيض، مصطنعة حياء مزيفا في تدلل ثم ترد "باقي هذ الساعة أسي عز الدين" تضحك نادية، وتطوق عز الدين بعناق قوي وترسم قبلة على شفتيه وتقول للمرأة وهي تجمع الحروف جمعا وتلوي العبارات ليا والبصر زائغ، وقد ثقل لسانها وتراخى بدنها، وتهاوى إيقاع صوتها، وصارت عيناها نصف ناعستين "هل أعجبك صاحبي؟" تستمر المرأة في تقشير البيض وعز الدين يبلعها كثعبان جائع بضراوة وترد" من لا يعجبه سي عز الدين.. ؟!. الرجولة والشهامة" تطلق نادية قهقهتها عاليا وتصيح "الساقطة، تتغزل بصاحبي.." يشير عز الدين إلى المرأة أن تتوقف عن تقشير البيض، يمنحها ورقة من فئة 100درهم، تدسها في جيبها بعيدا عن أعين الحارس ومنظفة المراحيض ملتزمة بنصيحة نادية، وتنسحب دون أن تعرض باقي سلعتها على باقي الزبناء.

زبون غريب اتخذ طاولة قرب عز الدين، يخوض معه في الحوار دون استئذان.. يغازل نادية، يبدو أن السكر غلبه.. ويتوق أشد التوق إلى حديث جماعي، إلى أذن تصغي إليه.. لهذا يقحم نفسه في أي نقاش.. كأنه ضاق بوحدته.. كم أشفق عليه..! فالحارس القوي البنية مستعد لطرد أي زبون يزعج راحة عز الدين، قد تلعب الخمرة برأسه، ويصدر حكما في شخص ما، ويهمس في أذن الحارس "أخرجه" فيفتعل الحارس أزمة مع غير المرغوب فيه حتى يرمى به إلى الخارج، حركة الحارس هاته لها فاتورة، يؤديها في زهو عز الدين الذي يشعر بقمة

النشوة كلما تخلص من شخص لا يعجبه، وأحيانا يسميهم "البراغيث".. "البخوش"، وبماله يؤثث فضاء الحانة بالوجوه التي دوما مبتسمة في وجهه، فما إن يلج الحانة حتى يقصده أكثر السكارى للسلام عليه باحترام وتقدير.. وكم يحب أن يسمع مع كل تحية عبارات الثناء والمديح! فتاة على في الجهة المقابلة لها، لم ترد على ابتسامته فيشير بأصبعه للحارس إشارة تعني "لا أريدها في الحانة"، فيحاول الحارس إخراجها بلباقة، لكنها تحتج وتتعنت فيجرها بقوة وعنف ويزوج بها خارجا.. صوتها يملأ الشارع.. كفتاة هوى، نعتت الحارس بالقواد، يبدو عليه الغضب، يشير إليه مسير الحانة "دعها وشأنها.."، بعد حين يعم الصمت الشارع، وتختفي الفتاة، بينما يحتسي عز الدين كؤوس الويسكي منتشيا بطرد من سماها "الكلبة."

تسقط في ذهني صورة "زينة"، تزداد حجما وضجيجا مع تواتر الكؤوس، لو كنت أعرف عنوانها، لقصدت بيتها دون تردد، هذا هو سحر الخمرة، ترفع درجة الجرأة وأحيانا تشرع الوقاحة، فكثيرا ما رأيت الأصدقاء لا تصالحهم بعد خصام طويل وشديد غير كأس خمر تبدد الغرور والحرج، وتفجر في قلوبهم قدرة خارقة على التسامح والتجاوز، هنا.. يبكي من لا يستطيع أن يبكي في حالة الصحو..هنا يبوح العاشق بألمه .. وفي الصباح يعود لمزاجه الغريب.. الرزانة.. والحياء.. الخمرة.. لها مفاتيح الصدور والعقول.. لها قدرة غريبة على تبديد المخاوف، وتذليل الطرق الوعرة، لتصير في عين السكير واطئة.. سهلة.. بلا حواجز ولا معيقات.. تمنيت لو كان لي هاته الليلة نديم أثق فيه.. لحكيت له بدون تردد عن زينة الغامضة.. وزبيدة الماجنة..

وأمينة المتمردة.. لكني وحدي.. وعلي أن أحتاط من أي رعونة.. فقد نبهني صابر زميلي في المكتب أنه قيل له إني حين أسكر أكلم نفسي كثيرا.. عليَّ ألا استحضر شخصيات غائبة.. وأحاورها... عليَّ.. أن أنسى زينة.. وزبيدة.. وأن أفكر في شيء آخر..

يتقدم نحوي حميد ويهمس في أذني:

- هناك سيدة تسأل عنك..

ألتفت إليه وأقول بتثاقل:

- من يسألني؟ ربما أخطأت.. لا أحد يعرفني هنا.. وخصوصا النساء..
- لا.. أستاذ.. أكدت لي أنها تريدك أنت.. المحامي..
- وهل أنا المحامي الوحيد الليلة..؟
- للأسف نعم..
- ربما تزعم معرفتي.. اسمع.. قل لها لست هنا.. فأنا لا أعرف امرأة بإمكانها المجيء إلى هنا.. حتى زوجتي لا تعرف الحانة..

ينصرف في استياء واضح، وأتحمله لأنني لم أحسب يوما أنني سأعيش موقفا مثل هذا، فأمهد له بعطاء سخي، يعود وقد بدت عليه مسحة حنق:

- أستاذ.. ترفض الذهاب.. تقول لي.. قل له زينة هنا..

انتفض من مكاني، يسقط المقعد، تتبعه المرمدة، فتنشر غبار الرماد وأقول بصوت منخفض وأنا أسحب الحارس بعيدا حتى لا يسمعني أحد:

- أقالت لك زينة..؟

- نعم وهي "زوينة".. وجميلة.. ناسبها هذا الاسم.. "سعداتك".. الزين والقلدة" عرفت كيف تختار.. لم أكن أعلم أنك "خطير" .. هل أؤكد لها وجودك.. أم أتخلص منها..؟

نعم، الحارس يطلب الإذن دائما في مثل هذه المواقف.. قبل أن يتصرف بقسوة وجلافة، فأحيانا تأتي الزوجات المتعقبات لأزواجهن، خصوصا آخر الشهر، فتندلع الفوضى والصخب.. لهذا تعلم أن يقول دائما "الله أعلم.. لا أعرف.. انتظري حتى أرى."

يتملكني الاستغراب والذهول.. وأكتفي بالحد الأدنى من الأسئلة، التي قمعت تكاثرها بوميض أمل. هل هي زينة فعلا؟ كيف اهتدت إلى الحانة؟ مرتبكا.. أخطو نحو الخارج، تترصدني أعين السكارى حتما، أرمق الحارس بنظرة خاطفة، يبدو لي في حديث مع الساقي العجوز.. العجوز يهز رأسه.. ربما من الاستغراب.. والحارس يسرد له ربما حكايتي وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة.. ثم ما لبثت أن تحولت إلى قهقهة ملأت الفضاء.. استرعت انتباه باقي رواد الحانة.. بعضهم قاسمه القهقهة دون أن يدرك السبب.. فقط لإرضاء غرور الحارس، واتقاء جبروته في المواقف الحرجة، أما الذين أدركوا من التكرار.. أن الحارس رأى مشهدا ساخرا.. أو حدثا استثنائيا.. فقد تحولوا بأنظارهم نحوه.. ثم نحوي.. يبحثون عن نكهة جديدة ليلتهم.. فلا عجب في الأمر.. فمن حين لآخر ينتشي السكارى مزيدا بسلخ جلود بعضهم البعض.. وينتشي الحارس والساقي ومنظفة دورة المياه، وماسح الأحذية.. بتعرية خلفيات ضحايا الحانة بلذة واستمتاع، وهم يخوضون في الحياة

الشخصية لهم، وفي تفاصيل ضعفهم البشري.. وكأن حديثهم عن الضعف البشري، يرحهم ويخلق لهم نوعا من التوازن النفسي، من جراء الإحباط والحرمان وسط عالم ينفق الأموال على بنات الليل وهم في أمس الحاجة إلى جزء منه لتغطية مصاريف حياتهم ..

من بعيد.. على الرصيف الآخر.. تظهر "زينة" أمام مقود سيارتها، أنظر في عين الحارس الذي تعقبني لتكتمل في ذهنه الصورة، وتفاصيل الحدث.. أرصد تأويلاته.. من خلال حركة رأسه وهو يهزه.. كأنه يقول لي "وأخيرا ضبطتك يا أستاذ!" أتقدم نحوها.. استرجع أنفاسي، أمد يدي لأصافحها، تغادر السيارة.. تشرع وجهها لشفتي.. أقبل وجنتيها في خجل.. هامسا:

- زينة.. ما الأمر..؟
- لا شيء.. ألم تشتق إليّ؟ أنسيتني بهذه السرعة؟
- أبدا.. كنت أفكر فيك.. وفي سبب وداعك البارد.. لقد مضت شهور..
- لم يكن وداعي باردا.. فقط كنت منشغلة بأمور أخرى.. آسفة..
- ماذا تقولي يا امرأة..؟ منذ أبريل لم أرك وببساطة تحلين علي كالعاصفة وتظنين أن الأمر انتهى بكلمة آسف..

تقترب مني، أشم رائحة الخمر تفوح من فمها.. نبيذا هذه المرة، قوي الرائحة، تبدو لي جريئة أكثر مما مضى، قد جهزت نفسها وعقلها بما يكفي لتكسير الحواجز.. معا.. في دمنا نار حارقة تحرق الخوف.. والتردد..

ألحظ أن ملابسها تغيرت بشكل ملفت.. فليست هي نفسها التي جاءت مرتدية إياها إلى مكتبي باكية.. ضعيفة.. ظهرت فاتنة أكثر في فستان أزرق منحصر عند الركبتين، نحر مكشوف سافر، انتعلت في فتنة ساحرة حذاء بكعب عال، أسدلت شعرها فبدا أروع مسدولا متحررا من كل منديل.. في غنج، وتؤدة.. تتقدم نحوي وتقول متلعثمة من جراء السكر:

- لا بد أن تسمع بقية القصة..
- يا سيدتي.. لقد غبت بما يكفي لأنسى تفاصيلها..
- سيدتي..؟ أيها الماكر..
- وماذا أقول.. وقد اختلطت عندي الأمور وتشابكت.. تظهرين في حياتي على غرة.. ثم تغيبين كالسراب دون وداع.. ماذا يجدر بي أن افعل..؟
- لم أغب.. عنك إلا جسديا.. لقد كنت هنا..

تشير بسبابتها إلى رأسها وتضيف في تثاقل وقد شط البصر:

- أنت حبيبي.. روحي..
- زينة..! ركزي .. انتبهي..! رجاء.. نحن في الشارع.. الناس ينظرون إلينا..
- ركز أنت.. أما الناس فليذهبوا إلى الجحيم.. ألم تسمع أنك لن ترضيهم مهما فعلت..؟
- لم أكن أعلم أنك مستهترة..
- لست كذلك.. أنا عاشقة... دعني.. أحضنك..

- لو كنت عاشقة، ما اختفيت كل هذه المدة..
- لكل شيء أوان.. دعني أشم رائحتك.. دعني أحضنك..

أهو عشق جارف يا ربي.. أم هي شباك الفضيحة تنسج حولي؟ أوزع نظراتي في كل اتجاه، يداهمني خوف وتنتابني ورغبة، فأشدها من يدها.. أجرها نحو زاوية بعيدة، وأقول في حنق:

- أجننت.. يا امرأة؟
- نعم.. جننت.. لا تقل لي إنك نسيتني..

تكاد تسقط من أثر السكر الطافح.. تفقد توازنها لكن في روعة.. أسندها.. يسري عطرها في حواسي ودفء جسدها يدب في جسدي، أهمس في أذنيها:

- تعالي.. ياحمقاء..! لنذهب.. لكن كيف عرفت أنني هنا؟
- لا شيء يخفى في هذا البلد المعلومة تساوي ثمنها..
- من أخبرك؟
- الشيظمي..
- كيف؟

تلوك الكلمات والعلك.. تضحك وهي تزخرف الحديث بفائض أنوثة، وتميد بالجسد، كراقصة بالي، زاد من إثارتها وقع الكعبين العاليين على الأرض:

- سألت عن عنوانك.. وحصلت عليه.. سحر جمالي كاف لجر لجعل رجل مثل الشيظمي يبوح بما لا يباح أتشك في ذلك..؟ كلمة من هنا وأخرى من هناك.. وعرفت أين ألقاك.. لكل شيء

ثمن.. الأحمق أعطاني ما أريد ويريد مني عهدا أن يظل الأمر سرا بيني وبينه..

- الأحمق.. كنت أظنه متحفظا.. لم أعهده يفرغ كل "الحقيبة" بسهولة

- أنا اعرف الرجل أكثر منك..

- كيف..؟ الشيظمي.. أي علاقة لك به..؟

- ستعرف.. فيما بعد.. إنه جزء من القصة..

حاولت أن أجد الخيط الرابط بين قصة زينة والشيظمي، فلم أجد.. هو من نواحي مدينة الصويرة وهي من الأطلس الصغير، أي شيء ممكن أن يجمعهما؟ لا شيء؟ لا الأصول.. ولا التفكير.. طفقت دائرة اللغز تكبر في عقلي، وهي تؤجل الفصل المهم في الحكاية.. وانتصب إبهام جديد ينتعش من حادثة الليلة.

تقول في ثقة لا تخلو من وهن جسدي:

- لو جلست معه طويلا مع ذاك الكلب.. لعرفت أنه ليس كما يبدو..

- أبله..! كنت أدرك أنه لا يستطيع لجم لسانه.. لكن ليس الناس حقيقة على ما يظهرون ويبدون أستغرب من الأمر.. لم أره يتكلم مع امرأة.. هل غوته؟

- أنت الأبله.. أما هو فماكر.. ربما لعب بعقلك.. فهو يبدي ما لا يبطن.. الشيطان أقل منه شرا..

أشتم رائحة الضغينة في لسانها من ونبرة لغتها الحاقدة.. كراهية وحقد دفينان يرشحان في كلماتها وهي تذكر الشيظمي.. تختلط في عقلي كل الخيوط وتتشابك.. أحاول أن أجد مساحة مشتركة بينهما.. لا شيء.. من أين أتى حقدها عليه؟

- تعال..! لنغادر المكان.. تعال يا حبيبي!

- انتظري..

أقفل عائدا إلى الحانة.. أصفي حسابي.. نظرة الساقي العجوز ثاقبة ومدينة.. يسائلنا عبرها عما بدا له عجبا في شخصيتي، فلم يسبق له أن رآني رفقة امرأة.. فنزواتي ناضجة بما يكفي لأسترها بعيدا عن الأعين.. يمسح طاولة المقصف.. ثم يقول مطأطئ الرأس وهو يقهقه:

- أستاذ..! خذني معك المرة القادمة..

أرمقه بنظرة قاسية.. عنيفة.. أضع حدا بها لجرأته، أكتفي بها دون توديع له على غير عادتي، أريده أن يشعر أنه تمادى، وما كان له أن يفعل.. أحيانا يجب وضع حد للتطاول في مهده، وإلا تفاقم كالوباء.. فأنا أدرك مسلسل إسقاط الهيبة عن الناس أشد الإدراك، فبعض الماكرين يبدؤونه بهزل بسيط، يجسون به نبض ردة فعلك.. قد يطلق عليك لقبا.. أو لمزا.. إن استسلمت واعتبرت الأمر هينا.. مع الوقت يحولك إلى موضوع سخرية علنية.. والسبب أنك لم تضع حدا للبدايات الوقحة، لجس نبضك كضحية محتملة في كرنفالاتهم المزيفة.

من بعيد تغمزني نادية وهي في حضن عز الدين وتقول متلعثمة، والكلمات تكبو على شفتيها، من شدة الثمالة:

- ألن تشرفنا بالحبيبة الجديدة؟

يسحبها عز الدين من حضنه.. ينهض مترنحا، تسقط قنينة فارغة بحركة طائشة من يده، صوت تطاير شظاياها على الأرضية ينشر الفزع المفاجئ في الأجواء، يلوح لي بيده ويقول ولقد لعبت الخمرة برأسه، فعسر لسانه وزاغ بصره وتثاقلت خطواته:

- اتركوا الأستاذ وشأنه.. "القواسة".."الحنزازة"! لا هم لكم سوى ترصد حركات الناس.. طز فيهم يا أستاذ..

يدلف نحو دورة المياه، وقد طفق كعادته يسحب سحاب سرواله في القاعة وهو يتجشأ بقوة، أرد على نادية بابتسامة عابرة.. أشتري صمت الحارس بورقة نقدية، أرمي بنفسي في سيارتها.. توجسي المعتاد يختفي فجأة.. أهو من فعل الكأس.. أم سحر زينة؟ أين اختفى الصوت الرقيب الفظ في هذه اللحظة؟

12

الخمرة عود كبريت يضرم النار في غابات التردد والحيرة، ويلهب الغريزة نارا حارقة، فيتعطل الحذر وترتفع درجة الجرأة، وتفتح بوابات البوح مشرعة دون استحضار الرقيب. وحدها له القوة السحرية الخارقة على قمع صولة عقلي في مهدها قبل أن تصير طائفا فهاجسا ثم هوسا متوجسا

أصعد مع "زينة" بلا تردد سلم عمارة، نحو الطابق الثاني، كانت السلالم مظلمة وعفنة، ومنعطفات الأدراج ضيقة نتنة، والعمارة من المعمار الفرنسي القديم، في شارع 11 يناير وسط مدينة الدار البيضاء، لم تطلها يد الصيانة والترميم، فتهالكت وخربت شيئا ما، أشم رائحة قيء عفن في الأجواء، أضطر لتخطي المتشردين النائمين على الأدراج وفي الردهة.. تقول وهي تجرني نحو الشقة:

- لا تخف.. هم مسالمون.. المصعد معطل.. الحمد لله أنني أسكن في الطابق الثاني..

أطل من حافة السلم متكئا على حاجزه الإسمنتي، أرى مصعدا مكشوفا في جوف العمارة الأفعواني، كقفص حديدي. من حقبة قديمة، أرد عليها ساخرا:

- حتى ولو كان غير معطل.. من يغامر بحياته في هذا المصعد..

تضحك.. ضحكتها المثيرة تملأ أرجاء العمارة.. ترن الجرس.. أقف بجانبها متشوقا.. أقول:

- أليس معك مفتاح؟ هل يسكن معك أحد؟

- بلى.. فقط لا أحب أن أتعب نفسي..

يفتح الباب.. يبدو لي طيف شخص.. أتفرس في وجهه .. عقلي لا يجهد كثيرا في محاولة استجلاء صورة شخص أعرفه.. نعم لا يمكنني أن أخطئ في تحديد هوية هذا الواقف أمام الباب مبتسما وإني اعتدت أن أراه في العمارة في وجوم تصلب، فركت عيني.. تهتدي ذاكرتي أخيرا إلى شخصه.. نعم.. هذا جاري منير.. ما هذا العبث؟ لا أنا سكران أهلوس.. أهذي.. بدأت الصور تختلط في رأسي.. وطفقت الحدود بين الأكوان تتبدد.. هذا الرجل لا يمكن أن يكون منيرا.. طبعا.. لا.. هذا فوق المنطق.. وإن يكن الشبه كبيرا.. فالله يخلق من الشبه أربعين..

كأن الرجل شعر باضطرابي وحيرتي عانقني بحرارة ودفء ومودة مرحبا على عتبة الشقة وقال في لطف وكياسة وحسن تهذيب:

- نعم.. يا عزيزي أنا هو.. منير.. منير.. مرحبا بك.. تفضل.. البيت بيتك.. كم انتظرنا هذه اللحظة لنلتقي ونجتمع معا..

ثم انفجر ضاحكا كأن الأمر عادي، تافه.. مرتابا، أنظر في عينيه، أساله مستغربا:

- سي منير.. هل أنا في حلم..؟ هل ثملت فغدوت أرى ما لا يرى وأخلط بين الوجوه، وأسمع الأصوات..

يبتسم في وجهي، تتبدد في وجهه تقاسيم الصنم، لم يعد محياه محايدا شعوريا، ولا تبدو عليه علامات الارتباك.. بل يبدو هادئا.. ينظر في طمأنينة وثقة، يتقدم نحوي.. يعانقني مرة ثانية، مصافحا ويقول:

– أعرف أنك.. مرتبك من وجودي.. لا تنزعج ولا تكثر من التفكير.. فقد ينفجر دماغك.. دماغك يا أخي.. ستعرف فيما بعد..

منير الوجه العابس.. الصنم.. الرجل الذي تخونه حركاته وتفضحه لدرجة أنني وضعت رجولته موضوع شك.. منير.. الذي لم أره مبتسما أبدا.. بل متوجسا.. هاربا من العيون.. من كل اتصال أو تواصل.. في شقة زينة..!؟ يتحرك بثقة وسكينة.. لسانه متحرر لا تعوقه عين فاحصة، ولا كلمة طائشة، ولا نظرة مشككة.. ترى هل أنا في حلم؟ هل مازلت على المشرب في حانة الطاحونة الحمراء، وما أراه اللحظة هلوسة ومشاهد مزيفة؟

يسحبني من يدي ويشير علي أن أستريح على أريكة فردية.. في صالة الشقة، أرمي بجسدي عليها والعقل منشغل بأسئلة حارقة، فأنخرط في تساؤلات.. حول هذا الفضاء وشخوصه، وسط ضوء خافت منبعث من زوايا الشقة، تتقدم زينة نحوي تجلس بجانبي..

رباه..! هل وقعت في المصيدة أخيرا؟ تلك المصيدة التي كان عقلي يتفاداها.. وكنت أحسب لها ألف حساب.. هل عقلي كان على حق؟ رباه.. هل انتصر صوت الهاجس؟ هل استدرجتني عصابة ما أو جهة ما؟ لن ينفعني الندم.. يا إلهي..! كنت أعرف أن المرأة جسر آمن للمخابرات والمافيات إلى أقوى الرجال.. كنت أعلم أن الجنس أهم نقطة ضعف للرجال، للتحكم فيهم في المخططات المرسومة.. كيف تخليت عن توجسي الذي صار مشروعا الآن؟ إذا كان هذا الرجل هو

منير مع زينة.. فالمؤامرة واضحة لا غبار عليها.. لكن.. أريد أن أعرف عدوي.. خصمي.. من يريد رأسي؟ من يريد سحقي..؟

أشعر أن الخمرة يتبدد مفعولها.. ينتابني خوف جارف.. فلا أكاد أفهم هذه الصدفة.. علي أن ألعب ورقتي الأخيرة.. برباطة الجأش.. أن أداري خوفي بجرأة، وليكن ما يكون.. وقع "الفأس في الرأس".. ليس لي ما أخسر الآن سأحرق كل مراكب العودة، لكن علي ألا أضخم الأمور.. فكما الكأس تبدد الخوف فقد ينقلب سحرها، وتوسع حلقات الشك والريبة في داخلي، لكني رغم ذلك لا أجد مكانا لمنير في حياة زينة.. يفتح منير قنينة ويسكي، يسألني في أدب:

- ماء.. أم تلج؟

نطق الرجل الذي لم ينبس قبل بكلمة قط في حضرتي، وحين نطق، كشف عن الوجه الآخر له.. المرح، المنطلق.. الجريء.. الماجن..

من عينيه يكاد السرور يقفز شرارة قوية.. فأفترض أنه صار الصياد وصرت الطريدة المنتظرة.. المترنحة في الشراك.. فرأفة بي يا منير قبل أن تجهز علي..كن رحيما في نحري..لا تطل عذابي وآلامي.. آه..! يا زبيدة..! أين أنت لتري منيرا الآخر..؟

يختفي لحظات قليلة.. في غرفة مظلمة.. ثم يعود في فستان نسائي.. رباه..! لا مناص من الفضيحة.. لا هروب من قدرك.. أسألك اللطف فيه فقط.. أستحق ما أنا فيه.. الرجل يطلق العنان أمامي لأنوثته ليكون الجسد حرا.. طليقا.. أرى روح أنثى.. دلال أنثى.. ضحكة أنثى في جسد رجل..

يخرجني من حيرتي ويلح في الطلب من جديد.. نعم صدقت يا زبيدة يا ماكرة.. وصدق حدسي.. لقد كان فيه شيء من أنوثة.. فقمعت حدسي.. لكن أمثل هذه الأشياء تغيب عن الخبير في التفاصيل "الشيظمي!؟"

- ألم تسمعني يا أستاذ.. ماء.. أم ثلج..؟ هل أنت دائما هكذا دائم الشرود؟

يا ليتك يا منير ملأت برميلا بالثلج والماء البارد وسمحت لي بالغطس فيه علني أستفيق من هذا الكابوس.. فكرت في الهرب خارجا.. ثم تخليت عن الفكرة متسلحا برباطة جأش مزيفة، وعدم اكتراث مصطنع.. متى تطلق علي رصاصة الرحمة يا منير..؟

يشحذ هاجسي سكاكينه، ويجهز ذخيرة أسلحته ويطلق أول رصاصة في روعي فتنفجر أسئلة قاتلة، احتمالات توشك أن تغدو حقائق لا يأتيها الباطل من خلفها ولا من أمامها، يدوي ملعلعا الصوت الرقيب في دواخلي "رفع الستار عن فصول المؤامرة، ألم أحذرك؟ هناك حتما شخص ما أو فريق تصوير في مكان ما يصور.. يوثق.." بقية أمل أصده بضعف بها" ربما الأمر لا يعدو كونه للابتزاز.. سأقبل به فهو أخف الضرر.. كم أنا نادم على تخلي على حذري المعهود.

أرد على منير والذعر تمكن مني:

- ماء.. أو ثلج.. لا يهم..
- يهم.. الفرق واضح.. وكل له عادته في الشرب..

- بلا خليط رجاء..
- آه.. خبير إذن أنت..
- لا فقط أشربه هكذا..
- لا عليك.. أنا أمزح..

أعيد جمع تفاصيل لقائي مع "زينة"..كل حركة.. كل ضحكة.. كل كلمة.. أملأ بها فراغات إحساسي بمؤامرة.. التأويل كله يأتي منسجما مع هاجسي.. لم تسعفني ولو لقطة منذ قابلتها في دحض افتراضات هاجسي السوداء القاتلة..

تغيب زينة برهة.. في غرفة أظنها غرفة نومها.. ثم عادت إلى الصالة المؤثثة بالأرائك والوسائد الصغيرة المزركشة بلون أزرق.. أنتبه إلى جهاز تلفزيون على رف حديدي متحرك معلق بركن في الصالة، استرعى انتباهي قلة الأثاث لكنه كان منتقى بعناية وذوق وجمال.. لوحات فلكلورية.. شبيهة بلوحة مكتبي.. حوض صغير فيه تسبح أسماك زرقاء وحمراء.. تحت ضوء أزرق خافت.

تخرج زينة فجأة كطيف وقد اختلط بظلال شفافة، في قميص النوم الشفاف.. جمالها عار ومغر وفاحش، لكن عقلي منشغل بما هو أهم.. بين نيران الريبة الحارقة والشك الجارف، فألغى متعة النظر وحل محلها بذرة الهلع.. تميد نحوي.. كلما تمايلت.. ماد عقلي إلى ضفة الحذر.. تأخذ كأسا.. ترفع النخب وتقول:

- نخب البداية الحقيقية.. والأوضاع الجميلة..

تتعانق وتتجاسد الكؤوس الزجاجية.. تأخذ الأذن حقها من السكر رنينا.. تنهض وقميصها الشفاف الخفيف يتراقص كاشفا جسدا بضا.. فاتنا.. تبحث في القنوات.. تنطلق موسيقى شرقية من التلفاز.. تعود لمكانها، تنظر في عيني نظرة ناعسة.. وتقول:

- أظن أنك تتساءل ماذا يفعل منير.. هنا؟ لا تدع الشك يتسلل إلى قلبك.. منير صديق.. ويشتغل معي في الكباريه بعين الذئاب.. ملهى الوردة البيضاء.. وهو جزء مما تبقى من الحكاية..

مستغربا بعد أن رميت بكأس الويسكي في جرعة واحدة في جوفي أقول:

- أي حكاية؟

تعصر شفتيها في خيبة.. وتقول في غنج:

- آه.. يا حبيبي أنسيت قصتي..
- آه.. تذكرت.. لكن لا أجد "منيرا" فيها..
- ستعرف أنه موجود في أهم فصولها.. أعرف أنك مضطرب.. وقد تشك في كل ما حولك.. لا تخش شيئا.. أرجوك اعتبر نفسك في بيتك.. وتمتع باللحظة..

يغيب منير برهة.. مرة ثانية ثم يعود، وقد تغير شكله تماما، ووضع شعرا نسائيا مستعارا، زين عينيه بأشفار الزينة، وضع عدسات زرقاء، وطلى وجهه بمساحيق وكريمات الزينة، أحمر شفاه بلون التوت صارخ على شفتيه، عطر نسائي زاد من وأد بصيص الرجولة، قفطان ضيق

عرى عن ساقين بلا زغب، يضع السيجارة بين شفتيه في تدلل وتهتك، يدنو مني.. يقول في مجون:

- أشعل لي.. يا عزيزي..

ترتجف الولاعة بين أصابعي، وفي ارتباك ملحوظ.. ترتفع ضحكتهما معا في الأرجاء..

يرشف رشفات من كأسه.. ويقول ونبرة صوته أنثوية لا محال ولا يصطنعها:

- هنا.. وفي الكباريه.. أكون كما أنا.. أنا منيرة.. يا أستاذ.. سأريك شيئا.. قد يصدمك.. هل أنت مستعد..؟

لم يتردد.. في رعونة.. تعرى... وألح علي أن أرى جسده، أعضاءه التناسلية وهو يقفز طفل صغير في طيش ونزق صائحا:

- أنظر.. لا تخف.. حتى تغير نظرتك.. لست حقيرا.. لست نذلا.. لست سفيها كما تعتقد.. لست منحرفا ولا خسيسا مريضا.. أمازلت مستعدا لنصب المشنقة لي؟

- حاشا.. أبدا.. أنا أتفهم.. لم أحكم عليك أبدا.. ومن أعطاني هذا الحق..؟

لم تكف زينة عن الضحك في هستيرية حتى ملأت القهقهات الشقة.. وهي تقول ساخرة:

- لا تخف.. لن يغتصبك.. يا أستاذ..!

يرد علي بعدما هدأ غضبه، وهو يلقي بجسمه على أريكة مقابلة للتلفاز وهو يرشف من الكأس في حزن:

- لا تكذب.. لقد رأيت في عينيك ذاك اليوم.. الاحتقار..
- أبدا.. فقط.. أثارني خوفك في المصعد..
- وليكن.. لست أول من يخاف من المصاعد..
- لا عليك.. لا تظن شيئا.. أنا احترمك والله..
- لا أريد الشفقة ولا الصدقة.. أريد الاحترام.. أريدك أن تقبلني كما أنا... لست مسؤولا عن خلقي.. الله خلقني هكذا.. وأنتم.. للأسف لا تفهمون ولا تتفهمون.. كلكم جلادون.. كلكم قضاة الجحيم..

استرجعت أنفاسي ووعيي لا فهم ما رأيت، أنني لم أكن أعلم أن في خلق الله، جنسا آخر.. بين الذكر والأنثى.. ربما قرأت خلال تكويني القانوني عن باب للخنثى في الميراث.. كنت أعتبر كل ميل ذكوري للذكر أو أنثوي للأنثى شذوذا جنسيا.. انحرافا نفسيا.. شهوة مختلة.. رغبات جامحة تخطت الحدود، كائنات أشبعت رغباتها جنسيا، فأرادت أن تجرب شكلا آخر من المتعة.. في أقصى تمثلاتي العلمية، كنت أفهم الميل الجنسي المثلي، بجنسية مغايرة في الوجدان والنفس والعقل غير تلك المعلنة في الجسد.. كنت أبرر الأمر.. بكون الجسد والعقل والنفس ممكن أن يشقوا طرقا متباينة في الهوية الجنسية.. والشذوذ فضول جنسي آخر.. خروج شاذ عن المعيار.. عن المألوف.. تجربة جربت في البداية من باب الفضول.. ثم أدمنت..كما يدمن المدمن.. أو لذة تم اكتسابها منذ الطفولة أو في مرحلة ما ضحية الاغتصاب الجنسي.. لكن ما أراه الآن غريب.. يخلخل كل معاييري.. كل أحكامي.. كل تصوراتي.. عضوا ذكريا ضامرا.. يكاد لا يظهر بلا

خصيتن وتجليات لجهاز تناسلي أنثوي بكل مكوناته.. وثديين ناضجين والصوت نفسه أنثوي.. منير.. يا رباه..! يحمل الهويتين معا.. منير.. أهو جنس ثالث.. أم تشوه خلقي..؟

يقول منير وقد تغيرت ملامح وجهه وخيم على عينيه حزن عميق وهو يسرح ببصره بعيدا في الأفق:

- اسمعني.. رجاء.. يا أستاذ..! لم أختر أن أكون هكذا.. الله خلقني هكذا.. وبسببي وضعي هذا تعذبت وعانيت الأمرين منذ طفولتي تتجاهل الأسرة، وسجن المجتمع.. لن تستطيع أن تتصور صدمتي عندما وعيت بشكلي وجسدي الغريبين في مرحلة متقدمة من الطفولة..؟ كنت أسال أبي عن حالتي..فيكتفي بالصمت أو يقول "هذا خلق الله.." أما أمي فجوابها كان ملتبسا.. وكانت تهرب من الجواب بحرقة ألمسها في عينين مغرورقتين، ولا ينقذها من إلحاحي غير تغيير الموضوع.. والترديد أمامي.. أنت.. صغيري العزيز.. وستظل دائما أحب أبنائي.. مصيبة عظمى.. كنت أريد أن أفهم.. لا فيض حب..

لا أعرف لماذا قرروا منذ البداية أن أكون ذكرا.. كانوا يعرفون أن لي ميلا غريزيا منذ الطفولة للباس وألوان الفتيات.. كانوا يعرفون أن لعبتي المفضلة كانت الدمية، كانوا يلاحظون أنني ألعب مع الفتيات بقوة لاإرادية تجرني إليهن.. ورغم ذلك.. أصدروا قرارهم.. أن أكون ذكرا.. وترعرعت في التناقض القاتل والالتباس الغامض.. وحدي أروض جسما عليه أن يكون كما أرادوا.. روضته.. لكنه ظل دائما يتمرد من حين لآخر.. فبدأت مراهقتي صعبة.. جدا.. بدأ ميولي

للذكور بشكل لا أستطيع أن ألجمه.. خوفي من أن يطلق علي لقب الشاذ.. جعلني.. ألوذ بعاداتي السرية.. مستحضرا من الفتيان ما شئت.. للأسف.. أسرتي محافظة.. أفرادها لم يفهموا شكلي ولا طبيعتي، اعتبروا الأمر عارا.. فصار لزاما علي أن أستر عاري.. ألا أكشف جسدي.. أن أظل تائها بين هويتين.. بين مشاعر متناقضة.. لكني في العمق.. ظللت أخاطب الأنثى.. أمنيها بيوم الانعتاق.. الأنثى هي المسيطرة.. وعقلي يكبحها.. هي التي تسكن تفاصيل هذا الجسد.. والعقل يشل شطحاتها.. كنت ذكرا كما قرر والدي في أوراقي الرسمية.. فوجدت نفسي أنثى حبيسة هوية مزيفة.. حبيسة جسد، الكل يسمه بالعار كلما استجاب للأنثى الذي تسكنه.. الأنثى.. ليست جسدا فقط.. الأنثى روح.. عقل.. شيء أكبر من هذا الجسد المزيف.. هكذا.. عشت.. أمام الناس بشخصية منير المرتبكة.. المزيفة.. الضعيفة.. الخائفة.. وفي خلوتي ومع أصدقائي.. أترك لمنيرة المجال لتخرج.. لتعبر عن نفسها.. لأكون أنا.. كما أنا.. منيرة يا أستاذ.. أنا لست شاذا.. ولا مثليا.. أنا أنثى تسللت إليها في خلل غير محدد التوقيت، بعض مظاهر الذكورة.. قررت مغادرة البيت.. لم يقبل هذا الجسد الغامض غير الحانات ودور القمار والكباريهات فاشتغلت في عدة ملاه ليلية بشخصية مزدوجة.. إلى أن التقيت سعيدة..

أقاطعه وأنا أسقي نفسي كأسا أخرى، بعدما بددت الكأس الأولى حدة اضطرابي:

- من سعيدة..؟

تقفز زينة من مكانها، غاضبة وهي تصيح ملوحة بكأسها في الهواء متثاقلة من شدة الشرب ضعف توازنها:

- ماذا تقول؟ أذاكرتك ضعيفة لهذا الحد..؟ سعيدة اسمي الفني.. يا سيدي.. أم أنك تتناسى.. ربما لست سهلا كما تبدو..
- آسف.. انجرفت مع قصة منير.. أعتذر..
- دعاني أفرغ كل هذا الثقل الذي يخنق صدري.. لأني أنا أيضا لمحت نظرتك الغريبة في أكثر من مرة.. وفيها أكثر من اتهام..وأحيانا أشعرتني نظراتك المريبة بالعار.. لكن لا بأس ألفت تلك النظرات.. وصارت لي مناعة ضدها..
- أؤكد لك أنني لم أفكر في شيء..

يقاطعني في شيء من القسوة:

- المهم زينة.. أم سعيدة.. هي.. التي حررتني.. وعرضتني على طبيب.. وقريبا سأخضع بفرنسا لعملية تحويل الجنس.. سيكون محكوما علي ألا أنجب.. لا يهم.. ولكن سأكون في جسدي الحقيقي الذي يناسب عواطفي.. ميولاتي.. عقلي..

تبددت حيرتي، أشعر بألم الرجل.. وأحس بغبائي.. منير أو المرأة الحبيسة ضحية جسد يعيق إعلان الأنثى الحقيقية، يخنق ضجة الأنثى الداخلية، ألتمس له الأعذار.. أتفهمه.. أشعر بإحساس بالذنب.. فما أسهل أن ننصب المشانق للناس عبثا.. دون أن نمنحهم حق الدفاع.. أو على الأقل أن يبرروا ما نراه نحن غير مألوف..

منير في هويته التي كشفها الليلة، أكثر مرحا.. أكثر إنسانية.. ما إن أطلق العنان للأنثى التي تسكنه في الدم.. والعقل.. والجوارح.. والأحاسيس حتى غابت القسوة عن وجهه.. وتحول الصنم الذي قابلته في المصعد كائنا حساسا.. يفيض بالمشاعر الإنسانية..

بيد أن السؤال المحير، والذي حال دون انطلاقي كل الانطلاق هاته الليلة.. ونحن على عتبة الفجر.. ما الذي يجمع بينهما؟ ما الذي تريده زينة مني؟ أهو العشق أو شيء آخر؟ لحسن حظي أني ارتويت خمرا حتى الثمالة، فازددت جرأة.. وقدرة على مواجهة أي موقف.. بلا تردد..

تنتشلني زينة من تفكيري هذا مع نفسي، وكأنها تقرأ أفكاري أو جالت في رأسي وتقول:

- ستفهم كل شيء.. في الوقت المناسب.. لا عدو لك هنا.. نم "على جنب الراحة"..

أتذكر أنها قالت إنه يعمل معها في الملهى الليلي.. فهل من الصدفة أن يقطن في العمارة ذاتها التي أسكن فيها؟ هل مجيئها إلى مكتبي كان صدفة؟ يبدو أن الأمر معقد وفيه ملابسات كثيرة، على الأقل استبعدت فرضية المؤامرة والابتزاز.. لكن اللبس والغرابة مازالا يخيمان على عقلي، هل أتت بي زينة إلى هنا لينتقم مني منير؟

قالت زينة وهي ترمي بما تبقى من كأسها دفعة واحدة في جوفها:

- سأخرجك من خوفك.. أنا على يقين.. أن الحيرة تتلاعب بك كالريح.. اسمع.. سأبدد كل هواجسك.. سأبدد كل شكوك.. ستعرف بقية القصة..

يترفع آذان الفجر.. أشعر بإحراج كبير.. رهبة فطرية تسري في مفاصلي، كلما ارتفع الآذان وبين يدي قدح خمرة.. تتنهد زينة تنهيدة عميقة.. أشعر أن الصوت الندي للمؤذن خلق بقعة ألم في نفسها.. أبحث عن منير.. أراه قد تمدد على أريكة.. وغفا..

13

غيرت زينة وضعية تمددها على الأريكة المستطيلة وهي تتأوه، بعدما كانت متوسدة يدها اليمنى فأحسست بخدر وألم يسريان فيها وأنت:

- آه.." تنملت" يدي.. يا ربي..

حركتها.. وهي تتأوه ثم دلكتها بخفة، يدب الدفء والدم في عروق اليد.. يتلاشى الألم.. ثم تسترخي على الأريكة نفسها، متوسدة هذه المرة مخدة تحت رقبتها، تتمدد.. في إعياء ووهن.. يلح عليها البول على ما يبدو، تنهض في تثاقل من أثر السكر متجهة إلى دورة المياه.. أسندها ضاحكا.. تنظر في وجهي وهي تطوق عنقي:

- تضحك.. يا ماكر!

نسيم الغبش البارد يهب على الشقة، تتراقص لهبوبه الستائر فتنشر ظلالا باهتة على الجدران ،زقزقة الطيور وهي تهم بمغادرة وكناتها تملأ الأجواء، يتقلب منير على الأريكة محدثا حشرجة، يمد ركبتيه إلى صدره، لابد أن النسائم الباردة المتسربة إلى الشقة من النافذة المفتوحة على الشارع، نفذت إلى جلده، فاقشعر لها بدنه، ينطق بكلمات غير مفهومة.. تنفسه يضيق لحد الخرخرة.. كأنه في حلم أو كابوس عنيف.. أو في صراع مع أحد ما.. فقط تصلني كلمات متقطعة "لا.. أتركوني وشأني" ينقبض قلبي.. أشعر بالأسى، تدلف زينة بعدما غادرت دورة المياه إلى غرفتها، تخرج بدثار دافئ.. تغطيه، وتضع وسادة تحت وجنته.. ثم تلج المطبخ وهي تقول "نسينا أن نأكل.. نسيت أن أضع العشاء.. العش..ا..ء"

طفق الضوء يتدفق إلى الشقة.. جرعات جرعات، بلا تسرع ولا شح، وانخرطت معه زينة، تحكي جزءا آخر من حكايتها، بعدما تعشينا، ونحن مستلقيان، هي على الأريكة الطويلة وأنا على الأريكة الفردية.. فاض بوحها رغم التعب.. فقالت "لما أقفل أنيس ابني عاما من عمره، طلب يدي ابن عمي، وأذكر أن حوارا ساخنا وحادا جرى بين أبي وعمي الذي لم يتورع في القول" دعني يا أخي أستر هذه الفضيحة!"

غضبة أبي كانت كالعاصفة العاتية الغضوب.. يومذاك.. كانت التهبت كالنار الهائجة.. تكاد تحرق اليابس والأخضر.. وصل صداها إلى غرفتي العلوية، فدبت رجفة في فرائصي، ورأيت أمي وهي تهيئ الشاي في ذعر يكاد يقفز من عينيها.. تردد "اللطيف" فمن عادتي أمي الروحية والإيمانية أن تردد "يا لطيف.. يا لطيف.." دون كلل وملل حتى يعود السكون والهدوء إلى روع أبي.

جرحت كلمات عمي أبي في كبريائه.. سمعته يقول بعنف وقسوة "وهل عندي عاهرة في البيت..؟ ألا تخجل من كلامك.. أتظنني قوادا..؟ زينة تزوجت على سنة الله ورسوله.. ومات زوجها.. فهل الزواج من أرملة ستر.. زن عباراتك.. ولا تنس أنني أخوك الأكبر.. ولولا أنني أعرف حقوق الضيافة لرميت بك خارجا.. أي ستر هذا تتحدث عنه..!؟ اسمع يا سليمان.. لقد تجاوزت حدودك.. ليس معي فقط.. بل مع الجميع.. اتق الله

وعاد الهدوء ليعم أرجاء البيت، فأرهفت السمع لألتقط بقية الحوار..قال عمي معاتبا.. "ألم أرفض هذا الزواج من "البراني"؟ ألم أقل

لك إن ابني يرغب في الزواج من زينة..؟ وحدثني من فرنسا عبر الهاتف أن أمنع هذا الزواج بأية وسيلة.. كنت تعلم أنها له وهو لها.. وسفره للخارج كان من أجل أن يعد نفسه للحياة الزوجية.."

ويصلني رد والدي قويا، ينضح بالغضب والتوتر "نعم.. أعلمتني.. لكن بعد فوات الأوان.. وبعد أن قبلت بالشاب.. وأعلن الفقيه زواجهما.. ونحن "الشلوح" لا ننكث العهود، ومتى كنا نخون العهود؟ وكلمتنا توزن بالذهب.. أنسيت ذلك..؟ أم أن الجشع.. أعمى بصيرتك.. وأنساك أصولك.. رحمه الله أبانا فقد كان يعلم أنه منك سيخرج العجب "المعجب" والآن فهمت ماذا كان يعني المرحوم"

عمي سليمان كما أخبر أبي عن جدي حرفيا عبارة "سيخرج منه العجب المعجب.." وفعلا خرج منه الغريب المستنكر، فتغير بشكل مفاجئ .. تحول العم الطيب الرحيم، الحنو إلى آلة عملاقة عمياء صماء لجمع المال وتكديسه، يدهس ويدوس على كل من يقف أمام جوعها المستمر، أصبح لا هم له سوى كنز الأموال وطرد الضعفاء من أراضيهم، بطرق ملتوية تصل أحيانا إلى أفعال إجرامية، يجيد التغطية عليها بالرشاوى والعطايا والولائم..

بدأت بذرة تسلط فيه تكبر، فقسا قلبه وفسد طبعه وجلف منطقه، وكان يخطط للسيطرة على كل أراضي ومنابع الماء في دورانا "آيت واسيف"... كان له شركاء من علية القوم بالرباط، يحضرون من حين لآخر، لينطلق مسلسل ترهيبه للناس، قصد شراء أراضيهم بالغصب والإكراه، مبخسا إياهم في الأسعار غامطا في الشراء كما في الشراء مدلسا أو غاشا ومزيفا، كانت شكاوى وتظلمات الناس عند رجال

الدرك تظل مركونة إلى أن يتحول المظلوم إلى ظالم ويزج به في السجن بعد أن يلفق له قضية جد محبوكة، ساعده في ذلك علاقاته مع شخصيات نافذة..

أسترق النظر، من كوة أرى عمي يدنو من أبي وهذه المرة في رفق، متجنبا غضبه وأتابع الحوار الذي دار بينهما:

- كان ممكنا أن تتراجع.. لم يكتب بعد "الرسم"..
- الزواج دائما كان في قبيلتنا.. فاتحة وشهود.. ووليمة.. وشهود.. التوثيق آخر شيء نفكر فيه.. المهم.. إن ابنك يريد ابنتي مرحبا.. لكن عليك ألا تظن أنك تسدي إلى معروفا..

شرب عمي الشاي صامتا، مطرق الجبين، بينما والدي انشغل عنه في تجاهل، بأداء بعض النوافل من صلاة، وجد عمي فسحة في صلاة والدي، واستأذن للخروج، قائلا "أنا أنتظر جوابك يا أخي.. بلا غضب.. نحن أولى ببناتنا"

انصرف خارجا في شبه هرولة، متفاديا النظر في وجه أبي وسماع رده. لم يترك أبي الموضوع معلقا، قبل أن يهجع إلى فراشه، شاورني في الأمر.. قال لي في عطف "لا تظني أنني أريد أن أتخلص منك.. أنت ابنتي الصغيرة.. يكفي ما عشته مؤخرا من مآسي.. إن كنت ترفضين ابن عمك فأنا أتفهم الأمر.. هذا بيت أبيك.. سيظل دائما مفتوحا في وجهك"

تحت ضغط أمي، وإلحاحها قبلت، كانت تزن في أذني مرددة دون كلل ولا ملل "هل ستظلين طول حياتك بدون بيت.. أبوك وأنا

سنموت يوما ما.. لا بد أن تقبلي بهذا الزواج.. وهاته فرصة مهمة لك لتغيير مجرى حياتك.. سترحلين مع زوجك إلى فرنسا.. لا تترددي.. وأنت تعلمين عمك طاغية لن يواجه الرفض إلا بشر مستطير.. ونحن لسنا قادرين على صده.. سينتقم.. إنه لا يخاف الله.."

حاولت أن أكون واقعية.. أمام الإلحاح الطويل، لم أعد قادرة علة الاستمرار في الرفض، ولعبت أمي دورا كبيرا في تراجعي عن قراري بعدم الزواج مرة ثانية.. وكسرت أسطوانتي التي كنت أكررها دائما "أخذت حقي.. سأتفرغ لابني" على صخرة الواقع.. وتحت مطرقة كلمات أمي القوية.. تركت "أنيسا" صغيري.. نور عيني.. أملي في الحياة.. في حضنها، ورحلت رفقة ابن عمي، إلى بلاد الغربة.. صيف 1988.. انفطر قلبي لترك أنيس.. بدأت معاناة الفطام الوجداني من جديد.. لكن كان لابد منه... فالحياة أحيانا لا تقدم لنا أكثر من خيارين..

استقررت مع عبد السلام ابن عمي في بيت من طراز قديم في مدينة "أنسي" الجبلية.. وهي مدينة فرنسية ساحرة.. ذات طبيعة تكاد تشبه طبيعة القرية التي نشأت فيها بجبال الأطلس.. حيث المياه تجري كسمفونية من العصر القديم في مجاري وأنهار، تسافر من ينابيع جبال الألب.. وأجمل ما فيها طرازها القديم الذي صمد أمام التحولات المعمارية.. عشقت هذه المدينة.. ووجدت في حضنها رغم برودتها.. سحرا أنساني معاناتي.. بيتنا كان يطل على ببحيرة جميلة.. من نافذتي تعرفت على البجع وطيور أخرى كانت تحل بها في هجرتها السنوية..

عبد السلام.. يتقن الفرنسية والانجليزية.. ليس لأنه حصل على البكالوريا بمدينة "آزرو".. بل شرب اللغات من ألسنة السياح الذين كانوا يزورون قريتنا بالمغرب، على غرار عدد كبير من أبناء المنطقة..

لكن شيئا ما في علاقتي مع ابني عمي سمم حياتي، وعكر صفو علاقتنا.. لم أعرف لمَ بدأ يهرب من سريري.. يخاف منه.. في البداية، كان يصرخ في أحلامه.. "سامحني يا مراد.. أرجوك.. دعني.. ابتعد عني .." ثم يهرع خارج غرفة النوم كمن يهرب من مطاردة شبح، تضيق أنفاسه، وأشعر به كمن يريد أن يتخلص من يدين تخنقانه وتضغطان بقوة على رقبته.. قلت له مرارا "يا ابن عمي.. مراد مات.. يرحمه الله.. لست مسؤولا عن موته.. وأنت الآن زوجي.. لا تدع الإحساس بالندم يأسرك في كوابيس مزعجة.. كما اخترت مرادا.. قبلت بك.. أنت.. عد إلى هدوئك.. تخلص من الوساوس"..

لكن تجري الرياح بما لا تشتهي سفن حياتي ومراكب حظي في هذه الدنيا، كنت أحسب أن ما يقع له حدث عابر، وإحساس مؤقت سينتهي مع الزمن، بيد أن كوابيسه تضاعفت.. وتفاقمت.. لم تعد فقط تضيق عليه الخناق في سريري.. بل تطوقه وتحاصره في كل زاوية من زوايا البيت.. لم أعرف كيف أقحم شبح مراد في عقله، وكيف صار ظلا قاتما يظلم أيامه..

ظل مراد.. شبحا أو روحا أو هلعا.. لا أعرف.. يطارده في عمق مشاعر.. يغيب عنه.. ليلة ويأتيه ليلة.. لم يعد قادرا على التواجد معي في غرفة النوم فحسب بل في كل الفضاءات.. طلبت منه أن يصف لي ما يراه، قال ذات ليلة، وقد رشح جسده عرقا من الذعر، في عز

الشتاء الفرنسي "يداهمني مراد.. طيفا.. غاضبا.. ينظر إليه نظرات قاسية.. ثم يصير ظلا عملاقا، فتمتد يداه إلى رقبتي محاولا خنقي.. يأتيني في أحلامي.. يقف محلقا كجارح بشع فوق رأسي في صمت وعبوس.. ولا يدعني حتى أنام في غرفة أخرى.. لكنه مؤخرا صار أكثر غضبا.. يلاحقني في كل مكان.. وأسمعه يعجن النحيب بالضحك.. في مشاهد مرعب."

حاولت في كل مرة تهدئته.. ظنا مني أنه يشعر بالذنب كونه تزوج بي بعد موت مراد.. تكررت كوابيسه.. وصراخه يصلني عاليا مقلقا من الغرفة الأخرى.. لا يقاسمني السرير إلا وهو في قمة السكر.. يخاطب كائنا غير مرئي.. لا تراه غير عينيه.. يتلمس طريقه نحو جسدي وهو يهمس" لا تنفع معك إلا الخمرة.. أخرج من رأسي.. دعني وشأني."

وكم من ليلة وهو في حضني فزع، وأجفل كحصان مذعور مرددا "ما زال مراد يتبعني.. إنه في فراشك.. يتقاسم معنا السرير، يندس بيننا" وأعاود خطابي لأهدئه من روعه.. مبينة له أن الأمر لا يعدو كونه هلوسات.. خيالا.. وتهيؤات.. ابن عمي الذي تزوجته لم يكن شابا يعيش على الأساطير والخرافات.. كان متفتحا.. عقليته علمية.. يسخر من أي تفسير يحيل على الأرواح والسحر.. رحل صغيرا إلى فرنسا.. فاكتسب قيم مجتمعها.. كان يهدأ حينما أكلمه أحيانا.. ينظر في عيني.. محملقا.. ثم يعود للبكاء في حضني كطفل صغير.. مرددا منتحبا "سامحيني.. أرجوك.. سامحيني"

مع الزمن.. لم يعد قادرا على التسلل إلى سريري حتى وهو في قمة الثمالة.. لم يعد قادرا على النظر في وجهي.. ثم جنحت علاقتنا نحو

منطقة جد باردة، أضحى قليل من الكلام.. كأنه عقد صفة مع شبح مراد.. أن يتركه وشأنه شريطة أن يخرج من حياتي.. فصرنا زوجين مع وقف التنفيذ..

وسقط في شراك المخدرات، صار يدمن الكوكايين.. فانقطع عن العمل.. ثم اضطر أن يلجأ إلى أرخص المخدرات.. "الهيروين".. حقن يحقنها في عروقه فتمنحه السلام العابر.. السفر نحو المجهول.. الذي مع الوقت.. تصبح تذكرته غالية.. ومكلفة..

كان يشتغل في فندق "أنسي".. كان يحب هاته المدينة الفرنسية الساحرة، التي تطل على بحيرة مشهورة، كان يقول "آنسي".. لا تضاهيها غير "فينسيا" لكنها أجمل منها.. حافظت على معمارها القديم.. "كان يقول" إنها لوحة رائعة.. «فعلا..كانت جبال "الألب" تحيط بها.. وكانت الروافد ومجاري الأنهار تخترق أزقتها، وكانت بحيرتها تشهد مناظر رائعة لطيور تحج إليها كل سنة..لم يعد يرى جمال وسحر المدينة، فصارت فضاء قاتما في عينيه.. ولم يعد يغادر البيت إلا للحصول على جرعته اليومية..

انقطع عن العمل من أثر الإدمان.. إدمانه غير حياته.. جعله ضعيفا.. عاجزا.. سقيما بلا إرادة.. اضطررت بعد أن توقف نهائيا عن العمل إلى العمل في أحد المطاعم الشهيرة.. أغسل الأواني وأنظف المحل.. لم نستطع العودة للمغرب، تحت إلحاحه وتوسلاته..كان يخشى من ألا يجد جرعته هناك.. كان يخشى من العار.. الهاتف فقط كان وسيلتنا لتتبع أخبار الأسرة وأنيس وحجتنا كانت دائما.. الحفاظ على العمل.. فمن يرحل في العطلة قد يعود فلا يجد عمله..

في يناير 1990.. غطى الثلج مدينة "أنسي".. انقطعت الطرق.. بعدما حل بها محبو التزلج.. من كل صوب وحدب، لا أذكر اليوم بالضبط، كانت المدينة تعج بالزوار.. وكنت مضطرة للبقاء في المطعم حتى منتصف الليل.. عدت للبيت بعد يوم شاق ومتعب.. لأتفاجأ بعبد السلام قد شنق نفسه.. تتأرجح جثته المعلقة بحبل تم ربطه بعروة نافذة تطل على زقاق ضيق.. وبجانبه رسالة.. صرخت.. لطمت.. لا أعرف كم من الوقت مر وأنا في حالة ذهول ثم إغماء.. في هذا الليل لا أحد يسمع الصراخ.. فقط حفيف الرياح.. ونباح الكلاب ومواء حاد كأنين بشري لقطط متشردة يملأ الأجواء..

استرجعت أنفاسي.. تذكرت أنني في بلد لا أعرف قوانينه.. تذكرت أنه علي أن أكون قوية.. رابطة الجأش.. رزينة.. لأنني حتما سأخضع للتحقيق، وسيطوقني رجال الشرطة بمختلف الأسئلة..

خبأت الرسالة وأحضرت الشرطة، بعد التحقيق.. سجل الأمر انتحارا.. والدافع الإدمان على المخدرات الرخيصة.. وحين قرأت الرسالة.. تغيرت حياتي رأسا على عقب.."

أحسست بإعياء فطلبت من "زينة" أن تتوقف عن الحكي.. أحس برغبة قوية في النوم.. أتمدد على الأريكة.. أغمض عيني.. ألمحها في صورة كالحلم وهي تضع على جسدي غطاء.. وتحت رأسي وسادة..

14

مر أسبوع لم أتصل بزينة، ولم تتصل هي بي، كدت أبادر بزيارتها في شقتها بشارع 11 يناير لكين تذكرت أنها قولها المحذر في غرابة آخر ليلة" لا تتصل بي حتى أتصل بك.. رجاء لا تأت إلى هنا.. وأوشكت أن اسأل منيرا أمس حين التقيت به في ردهة العمارة لكنه أشاح عني بوجهه، فأحجمت، بعدما حياني تحية عابرة باردة، لكن هذه المرة ابتسم في وجهي وغمز بعينه..

في المساء.. تمشيت قليلا في وسط المدينة على مقربة من شقتها.. وجلت بلا هدف معين غير تبديد الشوق.. الجو حار رغم أن نسائم البحر تلطفه، شعرت برغبة في فنجان قهوة..

على رصيف مقهى فرنسا في مكان منزو.. تملكني الغثيان وأنا أرى بعض السكارى يمرون في ضجيج وضوضاء.. وآخرين يتقيؤون في الزوايا المظلمة، بعض بائعات الهوى يعرضن مفاتنهن في الشوارع في حذر.. أتصفح الجرائد عبثا كي ينشغل عقلي عن العبث وعن التفكير في زينة.. يتقدم نحوي ماسح أحذية، توجست منه شرا.. عقلي منشغل بترتيب أوراقي المبعثرة، لم يعد يشغل بالي غير زينة.. ليس شغفا ولا تعلقا فقط بل حيرة من عالمها الذي يزخر بالأحداث والعلاقات المباغتة التي تعمقت وزاد من وطأتها انعدام الأجوبة عن تساؤلات شتى..تكاد الدائرة تكون مغلقة.. لم أعر اهتماما بعدها للحياة التي كانت حولي.. بدأت الصور الخارجية تتضاءل ثم تغيب، فاسحة طريقا نحو العقل للهواجس.. العالم الداخلي.

ظهور زينة في حياتي بعثر أوراقي.. فالظهور الغريب والمفاجئ لمنير في مشهد الأحداث جعلني أتوجس شرا.. في الوقت ذاته تغمرني الشفقة عليه وعلى زينة.. كلما جاهدت لتبديد المخاوف وتصديق الوقائع دون تأويل ظل السؤال يؤرقني.. ما علاقتي أنا بكل ما سردت؟ أي دور للمحامي في قضيتها؟ وهل لها قضية..؟ أممكن أن أكون ضحية مؤامرة تحاك ضدي في الخفاء؟ بدأت أفكر فيما يقع لي.. واستغربت من كره زينة للشيظمي.. هل أنا وسط لعبة دنيئة؟ هل حذري طبيعي.. أم أنه ما تبقى تحت رماد سنوات القهر؟ تكاد هذه الريبة أن يصير مرضية إن لم تكن كذلك، كيف تفاقمت مؤخرا حالة الشك عندي إلى هذا الحد..؟ كيف صرت أؤول أي سلوك أو تصرف على أنه مكيدة أو محاولة لسبر أغواري..؟ ما العيب أن تعشقني امرأة لحد الجنون؟

ما هذا العبث الذي يطال تفكيري ويعكر علي صفو حياتي..؟ أنا مواطن عادي، ليس لدي أعداء ولا خصوم.. حتى سجلي خال من أي شيء يشير إلى حادثة اعتقالي في أحداث يونيو الشهيرة.. أيمكن أن تكون المؤامرة من تدبير المخابرات والأجهزة السرية؟ هل يدبرون لي فضيحة لي في الكواليس؟ لا أظن ذلك فأنا لست معارضا.. ولا مشوشا.. ولا أشكل خطرا على النظام والأمن العامين.

أيمكن أن أكون موضوع شك لدى جهاز أمني ما لكوني لم أصوت أبدا؟ لا.. لا أعتقد ذلك.. هم أذكياء ويعرفون أنني فقط غير مبال ولا مهتم.. ولا يمنعني من الذهاب إلى مكاتب التصويت غير الإحساس باللاجدوى، وغالبا ما يتزامن ذلك مع يوم صعب، أعاني فيه من

صداع الثمالة.. أتكون اللامبالاة موقفا معارضا مشبوها؟ خيط الأسئلة يمتد ويطول إلى ما لا نهاية.. علي أن أتخلص من هذا الخوف المجاني..

كيف امتد حذري لدرجة أن ارتاب في ضعف من منظفة العمارة وهي امرأة بسيطة على "باب الله"..؟ المرأة ليست إلا منظفة لا غير، لكن شيئا ما غامضا فيها يثير شكوكي.. والشيظمي ليس إلا حارسا مغلوبا على أمره.. لكن لمَ تكرهه بشطة زينة..؟ أعطيت الأمر أكثر ما يستحق من الأهمية.. زينة امرأة في معاناة ومأساتها كبيرة.. فلمَ أتخيلها مجندة من لدن جهاز ما ضدي؟ ومنير.. الأنثى الحبيسة في جسد ذكوري.. أيمكن أن يكون كومبارسا في مؤامرة تحاك في الظلام؟ أأكون مازلت محط مراقبة منذ أحداث الدار البيضاء المؤلمة التي غيرت روحي وعقلي، وبددت استقرار نفسي، وحولتني إلى كائن تتقاذفه أمواج الشك والريبة؟

يمر أمامي يافع يحمل قنينة غاز.. تسقط منه أرضا، فتتدحرج، ينفجر النادل غضبا ويصيح في وجهه:

- ابتعد من هنا.. أبعد عنا هذه المصيبة.. قد تنفجر بهذه الطريقة التي تحملها بها..
- يرد عليه اليافع بلا حياء:
- "ادخل سوق راسك".. هل تظنها لغما.. يا جاهل..؟
- جيل طائش.. قلة الحياء.. وأكتاف لا تصلح إلا للعراك بدل العمل.. "الله يحفظ" من هذا الزمن..
- قل لنفسك أنت هذا الكلام.. كيف صار لأمثالك لسان..؟!

يحدج اليافع النادل بنظرات قاسية متأهبا، كقط عازم على الانقضاض.. منتظرا فقط المناسبة والرد ليصعد لهجته، فبدا عدوانيا مستفزا.. النادل قرأ جيدا الموقف، ورجح عنده تهدئة الأوضاع وقد بدت له شرارة الغضب تتناثر من عيني غريمه، فلاذ بالصمت، وانسحب..

حدث بسيط.. لم يكن ليمر مر الكرام.. كلمات.. قنينة غاز.. انفجار.. لغم.. تجمعت في عقلي، لتحفر بعيدا وتستفز ذكريات أليمة.. وبعيدة.. لا شيء يتلاشى.. كل شيء مهما اختفى وتوارى في غياهب النفس لا يكون إلا في وضعية كمون.. وتربص.. ينتظر ضعف المناعة النفسية ليعود..

لي قصة عذاب مع قنينة الغاز..تحضرني الآن..فتتشابك مع أحداث حاضر مريب.. مسكونا بالهواجس.. زمن العذاب والقهر.. زمن اعتقالي خلال أحداث يونيو 1981 بالدار البيضاء ظلما وغصبا، أذكره بقوة .. بألم عميق.. وهلع مازال ينتابني كاسحا، ذلك الصباح من أحد أيام يونيو، كنت مازلت غرا.. طريا العود.. لا تجربة ولا "محكات".. لم أكمل بعد عقدي الثاني.. وفي سنتي الأولى الجامعية، لم أعتقد أن الأمور قد تتطور وتأخذ بعدا عنيفا مؤلما، كل ما في الأمر، أن الكل انخرط في إضراب عام، وصادف أن قنينة الغاز في بيتنا نفدت، وكان علي أن أقتني لأمي واحدة، ودكاكين الحي مغلقة، فخرجت أبحث عن دكان مفتوح، وأنا أجول الأحياء بالمدينة القديمة، وجدت نفسي فجأة بين الحشود تدفعني دفعا جارفا نحو شارع الجيش الملكي كالنهر الفائض، الجامح، الذي تمرد على عقال سريره، وتسحبني سحبا كأمواج البحر العاتية، لم أستطع الإفلات من الانجراف، لكني شعرت

بفرح طفولي وسط الجموع المتدفقة بقوة وحماس في الشارع، في البداية كان الأمر ضد إرادتي، لكني شعرت بنشوة الانتماء إلى الجماهير وهي تردد الشعارات وتحتج ضد الزيادة في الأسعار، وضد الظلم والقهر، كانت كأنها صوت واحد.. قلب واحد، كنت أمشي وسط الحشود.. أنتمي لهاته اللحظة.. بلا خوف ولا تردد.. تبخرت تحذيرات أمي، التي كنت منضبطا شديد الانضباط لها لأني وحيدها.. وكل سوء يطالني قد ينهي حياتها.. ووجدت الحماسة والشجاعة الكافيتين فجأة.. لأصبح جزءا من صوت احتجاج جماعي..

وتدفقت قوات الأمن بجميع أطيافها بقوة، صفارات الإنذار كان لها وقع مرعب على القلوب، أرعبني منظر الدبابات وهي تجوب الشوارع، ولأول مرة سمعت لعلعة الرصاص، ورأيت جثثا تسقط، وأجسادا تجرح، ورؤوسا تهشم.. هاربا مع الحشود.. تم القبض علي بأزقة المدينة القديمة قرب "البحيرة" وتم سحلي وضربي.. إلى أن أغمي عليّ.. واستفقت.. لتبدأ رحلة العذاب الطويلة..

قضيت شهورا في أقبية معتقل درب مولاي الشريف بالدار البيضاء، قيل لي فيما بعد إنه فضاء تحت أرضي بمقر ما كان يسميه أهل الحي المحمدي بدار الخليفة، نعم كنت أخضع هناك وبشكل منتظم للتحقيق والاستجواب الشاقين، رفقة عدد من المعتقلين من جميع الأعمار.. ورغم أنهم اكتشفوا أن قنينة الغاز لم تكن معبأة، ابتدعوا عدة سيناريوهات، فقالوا إني كنت أنوي استعمالها لترهيب رجال الأمن ونشر الرعب والهلع بين المواطنين الآمنين، فأقسمت لهم ساردا الحقيقة، واصفا بدقة مساري ذاك الصباح، كانوا يعيرون للتفاصيل أهمية كبرى، وكانوا لا يكلون من

أمري بإعادة سرد المعلومات أحيانا بالإغراء وأحيانا أخرى بالترهيب، وتعليقي على محور حديدي أتأرجح عليه، مما يسهل عليهم جلدي على قدمي والعبث بأعضائي الحميمية.. صرت لأيام لا ألقب في حضورهم إلا بابن العاهرة، واللوطي.. ورغم ذلك كنت دائما أسرد الأحداث بالطريقة والتسلسل نفسيهما، لأنني كنت صادقا.. لم أفهم سبب غضبهم من قدرتي على تقديم المعلومات دون تغيير وتناقض لأكثر من مرة، رغم تناوبهم على طاولة التحقيق، وأحيانا.. يستجوبونني جماعة من خمسة أفراد، فتتقاطر وتتناسل أسئلتهم تباعا وبوتيرة سريعة، وكان علي أن أرد على كل سؤال وعيني في وجه المستوجب حيث كان علي أن أبحث عن مصدر الصوت.. يمينا.. شمالا.. خلفي.. أمامي.. وترقب صفعة من هنا أوهناك وشتم يندى له الجبين يطال العرض والشرف.. كم من مرة أغمي علي من جراء ركلة عنيفة في بطني أو لكمة طائشة على صدغي.. ورغم ذلك، وحسب روايات المعتقلين، كان وضعي أهون ويطاق مقاربة بما عانوه من إشكال وطرق التعذيب والتنكيل.

أذكر أنهم أخذوني ذات ليلة باردة، جروني جر الكبش الذبيح، بلا أدني شفقة ولا رحمة، من قدمي، حتى أنسلخ جلد ظهري، ثم شدوني شدا قويا من ناصية رأسي، وأجلسوني تحت الضوء القوي الكاشف، بصعوبة كنت أجاهد لفتح عيني، قالوا يكفي اعترافي بحقيقة أن القنينة لثقلها كنت انوي توظيفها سلاحا قاتلا عند الرشق بها، يكفي أن أقول ذلك ليسمحوا لي بالعودة للمنزل..

لم أنس أبدا ذلك الصوت الذي تلون فجأة بعاطفة الأبوة وتحول على غرة من قسوة الجلاد إلى شفقة الآباء وهو يردد أمامي في حنو

مزيف "لا تلمسوه.. إنه مظلوم.. وضحية "المساخيط" هو "ولد الناس".. وقد غرر به.. سنعيده إلى أمه.. فقد علمت أنها راقدة في المستشفى حزنا عليه.. يا بني..! فقط أقر أن جماعة ماركسية لينينية.. اسمها حركة إلى الأمام.. هي التي زودتك بالقنينة وطلبوا منك بعد تعبئتها وأن تفجرها، وسنريك صورا وتشير إلينا فقط إلى شخص واثنين، قل هذا وستعود فورا إلى حضن أمك المريضة.. فلن يشفيها من مرضها.. وربما يكون قاتلا غير عودتك.. أتريد أن تكون "مسخوط" أمك.. وتتسبب في وفاتها كمدا معاذ الله.. قل ذلك.. وسأعطيك أسماء بعض المشاغبين.. ووقع.. ودعنا نعد جميعا إلى بيوتنا.. نعرف جميعا أنك بريء.. ولا علاقة لك بالإحداث.."

كدت أسقط في فخه لطراوة عودي وقلة تجربتي، كدت أتبنى السيناريو فورا لأنتهي من هذا الجحيم، وأهرع لإنقاذ أمي من الموت.. طال صمتي، فأمهلوني ليلة.

نصحني أحد المعتقلين، لم أنس اسمه لحد الساعة عمر، في غفلة من الحراس وكان شديد التحمل، رغم أنه يلقى من التعذيب ما لا يطاق، وكان معروفا عندهم على ما يبدو، بعدم مجاراتهم، مؤكدا لي أن اعترافي المزيف لن ينهي عذابي بل سيفتح على جحيما آخر، وسنوات من الاعتقال طويلة.. كما حذرني من أسلوبهم في الضغط علي من خلال التهديد بتعذيب أمي وحتى اغتصابها.. قائلا بصلابة "لن يجرؤ الجبناء على المضي أبعد من ذلك.. لا تقدم لهم شيئا وإلا طلبوا المزيد.."

تجاوبا مع نصيحة عمر في المعتقل، أقسمت للمستجوبين في اليوم الموالي أنني لا أعرف حركة اسمها إلى الأمام، وتحت السياط والشتم والسب، كدت أنهار مرة أخرى، وهددوني بخصيي، وقتلي وتقطيعي قطعا صغيرة وإطعام الكلاب.

تخلى جلادي في لحظة ما عن عاطفة الأبوة والتعاطف، وغير قناعا بقناع، فأوشكت أن أتبنى أطروحتهم ،إذ لا شيء كان أشد علي ألما من إغراق رأسي لمدة طويلة في برميل ماء عفن حتى إذا لمسوا أنني في الرمق الأخير أخرجوا رأسي لألتقط أنفاسي، ولأرد على شلال الأسئلة المتتابعة.. لم يكن يخيفني الضرب على أخمصي القدمين، فقد ألفتا الأ لم حتى صار جزءا من دفء الدم، ما كان يخنقني أشد اختناقا هو تلك اللحظة التي يتم فيها غطس رأسي في البرميل، وانتظار الثانية الأخيرة قبل الموت، لمنحي من جديد نفسا جديدا للحياة، وما كان يرهبني أكثر هاجس أن يقوموا بهتك عرضي بقنينة زجاجية كما سمعت، لكن هذا النوع من التنكيل البشع لم يطلني، لا أعرف السبب، ولكن ربما لصغر سني، ورغم قسوة التحقيق وبشاعته، كنت أبوح بما أعرف، ولو كنت على علم أو اتصال بأي صف ولو من بعيد لاصطنعت انتماء ونشاطا سياسيا لأستريح من بطش الجلادين والحرمان من النوم، كل تعذيب جسدي يطاق إلا الحرمان من النوم، حيث كان يتناوب على الغرفة الشديدة الإضاءة ثلاثة حراس، على رأس كل ثمانية ساعات، لا مهمة لهم سوى إيقاظي من غفوتي أو محاولتي للنوم، تحت إضاءة قوية لمصباح من شدة إضاءته يخلق الهلوسة والهذيان، حتى كدت أجن، ربما

جننت ولم أعرف.. لأني كثيرا ما رأيت في المعتقل عقلاء صاروا يكلمون كائنات وهمية.

أوصاني عمر أن أسافر بعقلي وروحي نحو مناطق آمنة أفضلها..أوصاني أن أتحول إلى سحابة في زرقة السماء.. أن أتحول إلى كائن شفاف قادر أن يتجول في عقولهم بدل أن يتجولوا في عقلي..

كان يقول وهو ينزف دما" كن سحابة.. وجب السماء.. حين تجد نفسك تحت الضوء القوي المسلط الكاشف.. سافر بالروح وعطل بزر التأمل الحواس كمتصوف زاهد في مغارة في جبل معزول. أوصاني.. أن أتنكر للجسد.. أن ألغيه.. بعقلي.. ألا أنتمي له.. وفعلا.. لا أظن أن الأرض ولدت مرة ثانية مثل هذا الشاب حينذاك..كان في قمة الألم لا يحزنه غير آلامنا.. لولاه لجننت.. وكم تساءلت "من أي لهذا الشاب بكل هذه القوة؟" كان مؤمنا بقضيته لحد الموت.. قدم لهم جسده، فعلوا بيه ما شاؤوا.. لكنهم عجزوا أن يسلبوه قلبه.. روحه.. فكانوا كلما عذبوه.. يعذبون أنفسهم بإصراره.. بشجاعته.. بقوة عزيمته..

لذت من العذاب الأليم برحلة الروح.. فنجوت من الألم والجنون.. فالذين ظلوا أسيري أجسادهم، وظلت عقولهم تترقب لحظة الاستنطاق تحولوا إلى كائنات منهارة.. متخشبة.. تقطع كل اتصال لهم بما يحيط بهم، وأصبحت لهم عوالم موازية.. وكان بعضهم يصاب بمرض شديد، فيأخذونه.. في سرية. ولا يعود

كان بعض المعتقلين يجزمون أن من أخذ ولم يعد قتل أو مات تحت التعذيب وتم دفنه.. فلم يكن أمامي سوى الهروب من العذاب بالخيال.. ولأحظى بلحظة نوم، اعترفت بأشياء خيالية، في البداية..

وابتدعت سيناريوهات ممكنة، لكنهم لم يكونوا أغبياء، كانوا يرتقون الأحداث والوقائع والاعترافات رتقا دقيقا.. لا يسهون عن التفاصيل.. فإن وجدوا فيها خللا، أعادوا الكرة، إلى أن يصبح للاعتراف منطق داخل نسق الاعترافات، وقد كان الخضوع للمحاكمة والذهاب للسجن أرحم من البقاء في ذاك المكان المظلم البارد جدا شتاء والمتحول إلى جحيم صيفا.. فقد كان يكفي أن تلتقط أذني وقع أحذية المستجوبين ليلا في الممر، لترتفع دقات قلبي وأشعر كأنها تملأ المكان ضجيجا، وأرتعش ارتعاشا شديدا..حتى تبولت في ثيابي أكثر من مرة.. لكن عمر علمني كيف أواجه الجلاد وأمنحه الجسد بينما روحي تحلق في سلام العوالم الموازية.. لقد حاربت السياط بالخيال.. لكني أقل عزيمة وإصرارا من عمر.. لقد كانت له قضية.. ولم تكن لي أي قضية..

خرجت من البيت باحثا عن قنينة غاز وعدت إليه بعد سنة.. منهكا.. هزيلا.. إنسانا آخر.. محطم الإرادة، فتغيرت نفسيتي، وأصيبت روحي بأعطاب كثيرة، وفقد عقلي كثيرا من توازنه.. فما زلت أخاف من النوم في الظلام، وأخاف همس الناس ونظراتهم.. ويوقظني في هلع صوت وقع الأحذية على الإسفلت ليلا، وينتفض جسدي كعصفور مبلل ريشه تحت المطر كلما رن الهاتف ليلا، أو طرق باب شقتي زائر عير منتظر في منتصف الليل، أدري أنني لم أتخلص من تداعيات وآثار تلك المرحلة أبدا، مازالت تسكنني صور قاتمة، ومخاوف صارت جزءا من تضاريس عالمي الجواني، وفي أحيان كثيرة تحضرني بقوة.. مزلزلة.. مشاكسة.. عنيدة.. مسافرة في شكل كوابيس وصور مشوهة.. ممسوخة.. غريبة كلوحات سلفادور دالي.. مرعبة من مكان ما في الروح أو العقل.

أخرج من هذا التداعي المرير، على صوت منير:

- أستاذ..! أستاذ! ..

أحدق فيه.. لم أتوقع أن أجده هنا.. استغرب.. هل ستظل الصدفة مشجب كل هذا العبث؟

- وي.. منير.. ماذا تفعل هنا؟
- هذه هي مقهاي التي أجلس فيها..
- لم أرك.. حين دخلت..
- إني أجلس في الداخل..
- اجلس..
- يجلس، يسرح بنظره بعيدا ثم يقول:
- زينة تسأل عنك..؟
- ألم تقل إننا التقينا من باب الصدفة؟
- على مهلك.. كنت سأتصل بك.. ما بالك أتشك فينا؟ آه.. ربما تظن أني كنت أراقبك.. أنتظر.. لحظة..

يلج المقهى دلفا، متثاقلا في خطاه، ربما لو أسرع المشي لفضحته خطاه.. ويعود رفقة النادل ثم يوجه له سؤالا مباشرا:

- قل لي.. سفيان يا أخي.. أين أجلس دائما.. حين آتي..؟
- هناك.. في الداخل غالبا.. لكن لمَ السؤال..؟
- لا تسأل.. الله يرحم والديك.. شكرا..

ينصرف النادل وقد علت وجهه معالم الاستغراب، ثم يلتفت إلي منير ويقول معاتبا:

- ما بالك..؟ ألسنا أصدقاء..؟

- طبعا.. أعذرني.. لكني عشت مؤخرا عدة مفاجآت..

- ستعرف كل شيء بالتفاصيل.. لا تنزعج.. والآن زينة تريد رقم هاتفك.. لقد عادت من السفر..

- من السهل عليها أن تحصل على رقم هاتفي.. فلها طرق غريبة للوصول إلى ما تريد..

- طبعا.. هي متميزة.. دعني أسجل رقم هاتفك..

أملي عليه رقم الهاتف، يسجله في ذاكرة هاتفه المحمول.. يقف منتصبا ثم يقول:

- هل أوصلك معي إلى البيت؟

- انتظر..

انهض.. أنتظر النادل، يشير إلي منير بيده قائلا:

- تعال.. الحساب خالص..

لم ينبس بكلمة واحدة في الطريق، أسرق نظرة إلى ساعة الهاتف، تجاوز الوقت منتصف الليل ببضع دقائق.. منير يدندن على إيقاع موسيقى غربية منبعثة من قارئ الأقراص في السيارة.. أترجل أمام باب العمارة.. أودعه قبل أن يباشر ركن السيارة في المرأب النفقي، لا أثر للشيظمي.. حتما لاذ بكوخه، يبدد ملله بسحابات عشبة الكيف.. فكرت أن أعرج عليه.. شعرت بالتعب.. فتخليت عن الفكرة.

15

أصادف زبيدة مرة ثانية في ردهة العمارة، تبتسم في وجهي، تتمايل في دلال مفرط وتعمد إلى إظهار مفاتنها من خلال "جلبابها" الشفاف الضيق الذي يكشف عن ساقين ممتلئتين وكاحلين بارزين في رشاقة، تقول في غنج:

- مساء الخير.. سي عزيز..

الوقت تجاوز منتصف الليل، ماذا تفعل هاته المرأة في هاته الساعة في العمارة، حتى الشيظمي آوى إلى فراشه.. والبوابة الكبيرة للعمارة فتحتها بمفاتحي الخاصة، أرد عليها بلطف:

- مساء الخير.. لالة..

غثيان مفاجئ يداهمني، أتذكر أنني أكثرت من احتساء القهوة ومعدتي فارغة.. لم أتخلص من زبيدة تلحق بي في المصعد، أضغط على زر الطابق الرابع، في صمت مطرق الجبين.. أحاول أن انشغل عنها بمراقبة عداد المصعد. تقترب مني.. تلتصق فجأة بي التصاقا شديدا، فتسري في جسدي رعشة دافئة، لم أميز مصدرها أهو الخوف أم النزوة؟ نظرت في عيني نظرة زائغة، خلطتها بابتسامة غواية وهي تلوك العلك الذي ما فتئ يتدحرج في فمها، وتصنع منه فقاعات تفجرها فتصدر صوت قويا، مما جعلها أكثر إثارة وفتنة تقول:

- أعرفك.. أنت الأستاذ المحامي.. وزوجتك هي أمينة.. وتعيش معك أمك الحاجة.. آه.. المسكينة أثر عليها التقدم في السن.. أعرف أنه يصعب الاعتناء بامرأة في سنها وخصوصا أنها مريضة..

لكن لا تهتم أنا في الخدمة إن أردت.. فقط أشر بأصبعك.. أكن عندك.. إني أجيد عدة أشياء.. جربني

ما إن لفظت بعبارة "تعرفني"، حتى تملكتني الشكوك والريبة، وكدت أسقط مغشيا علي، وداهمني هلع مفاجئ.. مسحت جبهتي بظهر كفي محاولا إخفاء حالة الذعر التي انتابتني بقوة، أحسست بجسدي يتعرق عرقا باردا، وعادت الهواجس تعصرني عصرا، لحد إني شعرت بضيق في التنفس، وفي داخلي صوت قوي لكنه كتوم يردد "هل تعرف هاته الماكرة أمينة؟ هل تعرف أن علاقتي مع أمينة باردة.. بلا شوق ولا نار..؟

استرجعت أنفاسي، وبحثت عن طوق نجاة بين أمواج بحر مخاوفي العاتية والمتلاطمة.. فسمعت الصوت الداخلي نفسه، يطمئنني "لا أظنها تعرف ذلك، الأمر عادي.. أن تعرف كل هاته المعلومات.. ما قالته ليس سرا.."

لكن هاجسي الخانق لم يترك مجالا لليقين فعاد يسائل العقل والقلب في حيرة ويهد هدا كل سقف سكينة أحتمي به من قيظ الريبة، لماذا إذن تلتصق بي هكذا وتغويني؟ ربما هذه هي الخطة.. إنها تجرني إلى شراكها.. الفضيحة.. ماذا لو هرعت خارجة وهي تصرخ مدعية أنني حاولت اغتصابها..؟ لا ربما تريد جري إلى سريرها وفي لحظة نشوة جارفة، تفتح الطريق نحو دواخلي وأسراري؟ لكن..؟ هل لي أسرار؟.. يا رب.. أنا رجل مسالم، فهل جهة ما تشك في وتريد معرفة المزيد عني؟ لا.. لا.. أنا أختلق أوهاما من شكوك زائفة، المرأة فقط تتحرش بي.. ولسانها طويل.. فأنا لا أنتقد أحدا.. لا أعارض.. لا أعترض..

لا أرفض.. لا أناقش القرارات كيفما كانت.. لا أهتم بالسياسة.. أعيش فقط.. فهل ممكن أن يكون وضعي مريبا لجهة ما؟

ابتسمت لها ابتسامة سريعة، وحركة من رأسي تدل على الرضا، محاولا زرع مسافة خضراء بيني وبينها، متقيا شرها.. مرددا:

- الله يخليك.. شكرا .

فأضافت وهي تغمز بعينها اليسرى وتميد برأسها بشكل غريب ومثير:

- أراك عندما تعود أحيانا في آخر الليل متعبا، الله المعين.. الله ستار..

مرتبكا أرد عليها في تلعثم واضح:

- نعم.. أتأخر أحيانا.. أحتاج بعض الأحيان إلى الترويح عن نفسي.. كثرة الملفات.. والعمل المضني..

نظرت في عيني وضربت على صدري بكفها كأن الجواب لم يرقها وقالت وهي تميد جسدها:

- أنت تعرف كيف تعيش.. وطريقتك تعجبني.. ليس مثل بعض الناس.. من العمل إلى البيت ومن البيت إلى العمل.. لا أعرف ماذا يفعلون بأموالهم إن لم يتمتعوا بها..؟

عادت لتسوي حاملة نهديها، مبرزة نحرها وهي تقول كأنها تتحسر:

- للأسف بعض الناس لا يعرفون التمتع بالحياة.. الحياة جميلة..

أشعر بها، من خلال نظراتها، وتمايل خصرها في دلال مشبوه وإثارة مستفزة، أنها تغويني، فأرد عليها باحتشام:

- لا بد للإنسان أن يرفه عن نفسه من حين لآخر...

لحظة صمت، ثم أغوص في يم تناقضاتي من جديد.. نعم.. هي لمحت إلى عودتي الليلية وأنا ثمل.. لا يهم.. الأمر ليس سرا هذه حياتي، والحانة جزء من وجودي اليومي.. أتكون علمت بموضوع زينة؟ ليست هذه المرأة سهلة كما زعم الشيظمي.. لا تريد رغيف خبز وحياة في الظل..

اصطنعت موقفا غريبا.. حين ادعت أنها أضاعت مشبك شعرها.. وانحنت تبحث عنه.. مبرزة مفاتنها وردفيها، وصدرها الذي تدلى منه نهدان ممتلئتان قبل أن أتمكن من الرد لأشبع فضولها انفتح باب المصعد وخرجت متجها إلى شقتي.. فسقطت في أذني كلماتها الأخيرة التي مزجتها بقهقهة مثيرة عالية:

- إني رهن إشارتك.. في أي وقت..

أومأت لها برأسي مرددا " الله يخليك... شكرا"

غادرت المصعد، وصورة مفاتنها ملتصقة بذهني، لم أستطع لبرهة أن أهرب من فتنة نهديها وجسدها الذي يكاد ينفجر من قميصها الشفاف الضيق، اختفت في المصعد، لتتركني مشتعلا بكبريت لعبتها الأنثوية.

في البهو نحو شقتي.. التقيت جاري سي المهدي.. الأستاذ العجوز المتقاعد الذي يعاني من الأرق المزمن، يلاعب كلبه الذي يشبه الذئب، لم يلتفت إلي هو أيضا ليس تجاهلا منه بل لأنه كان منهمكا في ملاعبة كلبه الذي يحب أكثر من أفراد أسرته، يمضى نحو المصعد وهو

يكلمه بحنان غريب، كأنه يخاطب بشريا ينطق ويعي القول، منتظرا أمام المصعد، ينتبه فجأة إلى وجودي ويتقدم نحوي في حركة ثقيلة، إذ العمر الذي جاوز السبعين حولا لم يعد يسمح له برشاقة الحركة، ولا يسعفه في تغيير وضعية جسده بسهولة دون عناء ولا تأوه، وسمعه الذي ضعف يخونه في أكثر من مرة لالتقاط الكلمات، أمام بصره، فنظارته السميكة الزجاج لم تستطع تصحيح كل أعطاب الرؤية بفعل داء السكري، يمد يده المرتعشة مصافحا إياي بحرارة وهو يقول في أسف خلطه بابتسامة:

- اعذرني يا ابني.. عقلي مشغول.. كيف حالك..؟

أرد عليه باحترام وإجلال، لسنه.. ولأن الكل يناديه سي الأستاذ:

- الحمد لله أسي المهدي..

قيل لي إنه أمضى حياته في التدريس وتقاعد منذ سنين، ويقطن وحيدا إلا من رفقة كلبه الذي يذكرني بكلاب الآلاسكا الذئبية ذات العيون البلورية والشعر الكثيف، والنظرات الحادة، وقلما يزوره أبناؤه الذين تفرقوا في البلاد، لكن كانت له بنت واحدة عدا إخوتها تزوره بانتظام مرة في الشهر. وذات ليلة وأنا عائد من الحانة ثملا، تجاذبت أطراف الحديث مع الشيظمي، فأسر إلي، انه رأى ابنة سي المهدي يوما قادمة لزيارة أبيها، وقال إنها تأتي كل شهر، لترافقه إلى المصرف، ليسحب معاشه، وتأخذ جزءا منه، وزاد في ثقة غريبة، فقد كان يمسك بجميع تفاصيل الخبر أنها كانت متزوجة من فلاح من الأعيان من الغرب، وأنجبت منه ولدا، لكنه تركها ليعود إلى بلدته في زعير، حيث تقطن زوجته الأولى وأم أربعة أولاد منه، واستفاض في الحكي مؤكدا في إصرار أن ابنة سي المهدي التي قد تكون على عتبة الأربعينات، كانت

تشتغل في شركة للتعشير، وكانت لها مغامرات وحكايات كثيرة، وكان الفلاح الكبير، يتعامل مع الشركة لتصدير منتوجاته إلى الخارج، فتعرف عليها، فحبلت منه، فكان لابد من الزواج رغم أنه كان في عقده السادس حينذاك.. وقد أقاموا حفل زواج في أحد الفنادق الفخمة، وكاد العرس أن يتحول إلى فضيحة، فالشيخ رفض أن يحمل على هودج العرسان "العمارية"، بعد أخذ ورد قبل ..وتحضرني عبارته صدى قويا في ذهني " نعم..كنت على يقين من فشل هذا الزواج، فالشابة غضة، وطرية، وتحتاج إلى من يلبي لها حاجياتها.. وزوجها الفلاح المسن، لا أظنه قادرا أن يروي شجرة مازالت مثمرة وفي حاجة إلى مياه غزيرة، وهو مريض بالسكري، ولا أخفي عليك سرا، قيل لي إن مرض السكري قد يؤدي إلى الضعف الجنسي، حفظنا الله وإياك منه"

يرهف "سي" المهدي السمع، مجاهدا لالتقاط الكلمات دون أن يحرجني مطالبا إياي برفع الصوت أو تكرار القول، وتغلبه انحناءة خفيفة، أصبحت تلازم خطوه ربما لاعوجاج في عموده الفقري من جراء داء المفاصل، رغم أنه لم يكن بدينا بل كان قليل اللحم، وإن تدلت كرشه التي يخفيها وراء بدلات مهلهلة، فقط ..هكذا يفعل فينا الدهر، وترغم السنون أجسادنا على الانهيار إما شيئا فشيئا دون أن نشعر أو تحدث فينا تغيرا سريعا مفاجئا من علة لا ترحم ولا تمهل..

يقول سي المهدي في أسى وحسرة، وهو يمحص النظر في وجهي دون أن تعوزه تلك الابتسامة التي كانت كإشراق ضوء جميل في وجهه الغابر وسط التجاعيد، ورغم ذلك كان وجوده يريحني لا أدري لماذا كانت لابتسامته سحر جميل تشعرني بالراحة والأمن.

- أشعر بألم كبير في ركبتي، يا ولدي اهتم بصحتك.. فهي أهم ما في الدنيا.. لا يغرنك قوتك وشابك.. فكل شيء إلى زوال.. ورأسمالك هو الصحة.. السمع والبصر والحركة أثمن من مال قارون، وما رحبت به الدنيا من كنوز.. آه.. ليتكم تعلمون.. لكن ماذا نفعل؟ فكل جيل يزعم أن الجيل الذي سبقه، أقل منه معرفة ونباهة.. تلك هي الدنيا..

أرد عليه بعفوية بعدما سحبت يدي من يده الدافئة دوما بابتسامة:

- عليك أن تواظب على رياضة المشي..هل توقفت عنها..؟
- لا مازلت أتمشى ليلا.. رغم أن الخارج لم يعد آمنا..

يدنو مني كلبه، يشم قدمي، يقفز على جسدي، أتراجع قليلا، أمرر يدي على جسده محاولا تهدئته، مبتسما يربت سي المهدي على كتفي، بعدما انتصب بصعوبة ويقول مازحا:

- لا تخف منه، فهذا الكلب هو الذي بقي لي من هاته الدنيا.. على الأقل أطعمه فلا يجحد، أما عن صحتي فهل يصلح العطار ما أفسده الدهر..؟ اليوم يومكم.. والزمن زمانكم..

بنظره يتابع حركات كلبه الذي بدأ يعبث ببعض النباتات البلاستيكية ثم يردف وقد اختلطت العبارات بكحة مفاجئة:

- كيف حال الوالدة؟ أوصيك بها خيرا.. "شوف شوكة الوالدين صعبة".. إياك وإياك..! أوصيك برضاه.. أظنني لا أحتاج إلى توصيتك..

قبل أن أرد عليه ابتسم في وجهي من جديد وطوق عنق كلبه بالرسن وهو يخاطبه "سنذهب إلى الطبيعة الحقيقية، دعك من هذا" جر كلبه واختفى في المصعد، وهو يلوح لي بكف بيضاء صغيرة في تناسب مع قامته، ليتركني ضحية هوس جديد..

أول شيء أثار استغرابي، هو خروجه بعد منتصف الليل للتنزه في الطبيعة رفقة كلبه، هل الأمر له علاقة بالأرق الذي يصيب كبار السن؟ أم أن خروجه الليلة يشكل استثناء؟ لماذا يوصيني بوالدتي؟ هل سمع خبرا من هنا أوهناك؟ أيكون الناس يتحدثون عني وعن إهمال أمينة لها ولي؟ لم يسبق لـ"سي المهدي" أن أوصاني بأمي.. لم يسبق لي أن التقيته يخرج للنزهة ليلا..ما الأمر..؟ هل أمينة تشتكي من أمي على الملأ..؟ هل من آذان تلتقط بحرفية كل صغيرة وكبيرة في بيتي؟ لا سر في بيتي.. لا خوف عليه من العيون والآذان.. أسراري عادية، كحياتي الرتيبة والعادية..

رباه عادت الشكوك إلى عقلي ولواعجي في اعتصار، أشعر بدوار مفاجئ.. الأرض من تحت قدمي تدور.. إيقاع دقات قلبي يرتفع.. أكاد أسعها تملأ الفضاء.. تنتابني رغبة في القيء.. فأستنجد برحمة العقل.. أيها العقل.. ساعدني.. وأخرجني من دوامتي.. ربما لا تستطيع.. لأنك أنت نفسك مصدر الهلع والوساوس فقط قل لي إن كل الشيوخ لا هم لهم سوى تقديم النصح للشباب وحثهم على الاهتمام بالآباء.. قل إنها هي الحقيقة، رسخها في وجداني.. لأرتاح..

سأفكر في شيء آخر، لأهرب من قهري وصلب عقلي لروحي وقلبي، سأتنفس بعيدا عن غطرسة العقل، كم أشقى به حين يحول العالم إلا مجرد كائنات تتآمر في الخفاء، كم يعذبني حين لا يكتفي

بالمعنى المشترك.. البسيط ويبحث عن تأويل لكل شيء، كل لفظة.. كل عبارة.. كل حركة.. هي مجال للشك والحفر، فيها سطح وهمي وعمق حقيقي سأهرب منه وألقي نظرات على أحد جدران الردهة.. لوحات باهتة تعكس الحياة البرية، أشك أن تكون أصلية، لكن رغم استنساخها كانت مثيرة وتفجر بعضها الحلم والشوق والحنين للطفولة، توقفت عند لوحة تمتح من الطبيعة بعض عناصرها، اختلطت فيها الأشجار بدقة بفرس جامحة كأنها تخرج من ضباب كثيف، فجأة يكسر لحظة اندماجي وهذا العالم الأخاذ صراخ امرأة تؤنب ابنها الصغير الذي أحدث ضجة في الممر، الطفل الذي لم يتجاوز الثلاثة سنوات يرمي بكرة "تنس" ويتبعها في فرح عفوي، ليلتقطها.. تدحرجت بين رجلي ثم توقفت، التقطتها المرأة دون أن تعتذر أو تلتفت، ابتسم الصغير في وجهي، ومد يده إلي وهي تجره جرا نحو المصعد، قهقهته ملأت الفضاء.. لوح لي بيده واختفى مع أمه في المصعد الذي أحدث ضجيجا خفيفا.. كان الصبي ملاكا صغيرا، وكانت أمه تزرع فيه أول بذرة للكبرياء والازدراء..

16

ما إن صحوت.. حتى بدأت في استرجاع أحداث ووقائع ليلة أمس، كانت مازالت طرية، ولم تشحب بعد في الذاكرة.. أن أرى "سي" المهدي وكلبه بعد منتصف الليل حدث ممكن.. أن أرى المرأة وصبيها في الزمن نفسه.ممكن.فللناس عادات قد تصدم الآخرين.. لكن لقائي بالأمس بمنير أثار حفيظتي.. أيعقل أن يكون الأمر مجرد صدفة لا غير؟.. أي ريح أتت به الليلة؟ أصدفة جاءت به للمقهى.. أم أنه كان يتعقبني؟ أبحث مرة أخرى عن طوق نجاة.. أمد يدي إلى علبة السجائر.. أشعل سيجارة.. تشرق في عقلي مبررات تثلج الصدر وتعيد التوازن إلى نفسي، وتضيء لي درب الهروب، فأصدقائي يقولون لي إنني كثير الشرود، ويقولون إني أسير التوجس لحد المرض الصدر.. ألم يرتقي من رقبتي نحو رأسي.. ألجأ لأخفف عني حرقة الأسئلة التي تحولت إلى كماشة حديدية تضغط على صدغي.. لحد الإحساس بالدوخة.. أوعز الأمر إلى مزاجي المتعكر في الصباح، أجد في نعت أصدقائي لي بالشكاك" سحابة ظل لعقلي أستظل تحتها من قيظ الخوف والهلع.

أغادر فراشي وألج غرفة أمي.. رهبة طافحة تخيم على غرفتها.. كأن لمسة ربانية تضفي عليها شعورا بالخشوع والسلام.. في صمت وخشوع وطمأنينة تكاد تقفز من وميض عينيها أجدها تصلي جالسة كعادتها منذ تصلبت مفاصلها، ويبست فقرات ظهرها، أمي تصلي الصلاة نفسها أكثر من مرة، أصابها الخرف، لا تنفك تسألني عن الموتى وعن أخبارهم.. تسألني عن عالم اختفت شخوصه ومعالمه منذ زمن عن الوجود لكنه ما زال حيا فيها.

انتبهت أمي إلى وجودي، نظرت إلى نظرة حنان.. شددت على يدها، وعاتبتني عن وجود امرأة في بيتي، قالت غاضبة وهي تجر خطاها بتؤدة خارجة من غرفتها:

- ألم أطلب منك مرارا أن تتوقف عن مصاحبة بنات الليل؟ متى تنضج، وتتزوج وتلد الأولاد كباقي الناس؟

آه! أمي مسحت جل السنوات من ذاكرتها وتوقفت عند أيام دراستي الجامعية، لم تعد تعرف زوجتي أمينة وتخالها مومسا من بنات الليل، والغريب أن أمينة لا يضرها الأمر ولا ترد عليها بل تظل حبيسة شاشة التلفاز.. شاردة.. وأمي تحسبها امرأة غريبة، ترافقني كأيام زمان من حانة مترنحة في شوارع الدار البيضاء، اكتفيت بالنظر إليها، وتملكتني رغبة قوية في البكاء فأجهشت في البكاء كطفل صغير، آه! كم أشعر براحة غامرة وأنا أبرد نار لواعجي الداخلية بنزيف الدمع، أبكي أمي.. نعم.. أمي تلك المرأة القوية التي تكفلت بي منذ رحل أبي وهجرها وأنا رضيع، أمي التي غسلت ملابس الآخرين، ونظفت المكاتب من أجل أداء أجرة غرفة تأوينا على السطوح، من أجل لقمة عيش رغم شظف الحياة، لم تغب عني ولو لحظة تلك السحابة السوداء التي كانت تغطي عينيها أيام الأعياد، وخصوصا ليلة عيد الأضحى، أمي ناضلت وكافحت وتعبت وانتهى بها المطاف في معمل لتصبير السردين، فنسيت أنوثتها وسط رائحة السمك القوية.. نسيت أنها امرأة مازال جسدها صاخبا ومتفتحا، رائحة السمك كانت ملتصقة دوما بجلبابها، أمي.. آه.. تخونها الذاكرة ويهرب منها الواقع في الزمن

غير المناسب، لحظة حق لها أن تستريح من عناء الأيام المرة.. تجرني إلى حضنها مفرجة الأسارير وتقول في حنو:

- أتبكي يا ولدي؟ لا.. لا تبك، سأسامحك هذه المرة، فلا تحضر عاهرة للبيت بعد اليوم! سأنهض لأصلي العصر

كدت أذكرها أن الوقت وقت صلاة الصبح.. فلذت بالصمت، أعلم أنها لن تصدقني، وستفعل ما يملي عليها عقلها الذي أصابه الوهن، في طريقها نحو غرفتها، توقفت فجأة وأدارت رأسها نحوي، وقالت معاتبة:

- متى يهديك الله أنت.. وتصلي؟

لم تنتظر مني الجواب كعادتها، لأن سؤالها كان تأنيبا غير مباشر، انهمكت في تكبيرها وعد حبات السبحة.

يد أمي.. كفها.. نعمة إلهية كم أحب يدها وهي تداعب رأسي كأنني في عينيها لم أتجاوز عتبة الطفولة، أصابعها على شعري تبدد هلعي ومخاوفي وترتب أحيانا كثيرة فوضاي الداخلية، وتطرد صخب دواخلي المبعثرة، في عينيها يبرق الحزن والقوة في الآن نفسه، يداها قادرتان في بهاء على خلط المتناقضات.. وتحويلها إلى وجود متناغم يطاق، حنان مع قسوة.. قوة مع ضعف، اليد نفسها الذي داعبت شعري وأنا طفل ممدد قربها، هي اليد نفسها التي غسلت ملابس الجيران، وقطعت رؤوس الأسماك ونظفت أحشاءها، هي اليد نفسها التي صفعتني يوم اكتشفت في جيب سترتي سيجارة وولاعة، هي اليد نفسها التي ترتجف الآن وتعجز عن عد حبات السبحة..

أعود إلى صحن الشقة، أدخن سيجارتي وأقتفي ببصري في نشوة غريبة كطفل صغير ينشر فقاعات الصابون، أثر دوائر دخان التبغ في الهواء، ثم أسرح بعيدا بعقلي، أستحضر أجواء أحداثا قديمة، يشدني التلفاز أحيانا، حينما يتغير إيقاع الصوت فيرتفع عاليا بتغير المشاهد والأحداث التي تدور دون أن أعي مضامينها، فقط الصور والمشاهد تتابع أمام عيني المفتوحتين لكن عقلي مغيب.. مسافر في فضاءات موازية، أقلب في أوراقي الخفية، أعيد فتح بوابة الأسئلة المحيرة، أتذكر مرحلة من عشق جمعتني وزوجتي أمينة.. ما زلت أشعر بأصابعها تداعب شعري، تحضرني كل الفضاءات التي جمعتنا، كيف اختلسنا القبل والعناق، كيف كانت ترغمني على الحكي والشعر لحظة السكر..

يتوقف عقلي عند عدة محطات، أفتت الماضي القريب قطعا قطعا، أبحث فيه عن اللحظة التي فقدت فيها زوجتي وضاعت مني رغم أننا نعيش معا وتحت سقف واحد، حيث صار لها عالم جد خاص، تتابع أفلامها ومسلسلاتها الخاصة، واستغرب أن عالمها التلفزي يضج بالخيبات والمآسي وحكايات العشق والفراق.. زوجتي تبكي مع البطلات ولا تبكي لحزني، تشاركهم نهاياتهن الحزينة وتتعاطف معهن في الأزمات العاطفية، وحين تعود للواقع تصير قطعة ثلج أو تمثالا خاليا من العواطف.. استغرب كيف صارت قاسية على أمي.. تنهرها، وتعدها نشازا في حياتنا، كيف صار قلبها بلا مشاعر لهذه المرأة أمي.. كيف تحولت فجأة إلى جلادة تجلدها بكلمات قاسية.. جارحة..؟

يرن هاتفي النقال.. أمد يدي إليه.. أظن أن المتصل صابر زميلي في المكتب..

- ألو.. من..؟
- قل صباح الخير أولا..

رباه! صوت زينة هذا.. سيخرجني من وزر الأسئلة الثقيلة على القلب والعقل.. كما أربكني.. أسعدني.. أشعر به دافئا.. أنثويا.. ساحرا.. لكنته الأمازيغية تضفي عليه نكهة أطلسية جميلة.. أكاد أسمع من خلاله خرير السواقي، وصدى المواويل بين الجبال.. أكاد أشم من خلاله عبق الطبيعة العذراء.. رائحة الزعتر.. وشدو الطيور العذب.. نحوي مسافرا عبر بضع كلمات من أنثى.. كان صوتها سحابة ممتلئة بالرحمة ما إن تسقي صدري حتى تونع فيه السكينة والبهاء..

- ألو.. أين أنت يا أستاذ؟
- أعتذر.. يقل تركيزي في الصباح..
- ألم تشتق إلي؟ يبدو أنك نسيتنا..
- أبدا.. وكيف أنساك؟

أوشكت على البوح.. على اغتيال حكمة تغلني بأغلال أساطير ذاتي.. نعم.. القلب يا زينة متعلق بك كما العقل، تسكنينه طيفا.. خيالا.. رغبة.. لكن.. هل يليق بي البوح دون تأمين الخطوة الأولى؟

- شوف.. أنتظرك الليلة في الشقة.. سيأتي منير ليقلك مساء من المكتب.. لا تنس.. سلام..

17

لا أعرف لمَ أوصلني منير إلى الشقة وانصرف، تمنيت لو بقي معي، على الأقل حتى ألج مطمئنا، فأدراج هذه العمارة ترعبني، خصوصا ظلمتها ورائحة العفونة المنبعثة منها.

ما إن هممت بقرع الجرس، حتى فتحت زينة ونظرت إلي نظرة عميقة.. وقالت بقسوة:

- متى تخطو الخطوة الأولى..؟ أدخل...

كان ضوء الثريا المتدلية من السقف قويا، رغم عدم استعمال كل مصابيحها، عمدت إلى إطفائها، وإشعال المصابيح الجانبية ذات الألوان المثيرة، زرقة ضوء تعانق حمرة ضوء آخر منبعث من زاوية السقف، ألمح على المائدة.. قنينات الجعة، قطعا من الجبن وصحنا به حبات الزيتون، وعلبتي سجائر ومرمدة رخامية

خيم الصمت على المكان، فوضعت زينة قرصا مدمجا في قارئ الأقراص، كسرت أغنية كلاسيكية لام كلثوم رهبة السكون، كان تفتح لي الجعة تلو الأخرى، وكنت لا أجد كلاما أقوله، كنت فقط أشتهي شفتيها، أصارع من أجل البقاء منتصبا قويا أمام إعصار الرغبة الجارفة، وعويل نداء جسدها الطري تحت منامتها الشفافة.. يكفي أن تنظر تلك النظرة العسلية، لأسقط قتيل الرمش والجفن.. ألجم الرغبة بالتعقل.. وألجم البوح بالتردد.. وأترك قلبي في اعتصار وعقلي في انهيار.. تدنو مني.. تضع يدها على يدي، أشعر بنعومة أصابعها، رجفة خفية تسري في جسدي، عقلي ينهرني، غاباتي تستيقظ، تكاد

تطرد العقل من أجمة المغامرة، أنتظر لحظة.. أحتاج إلى مزيد من الضمانات.. ليس شد اليد كافيا لطمأنة العقل الحائر.. تتنهد.. وتقول في حزن زحف فجأة نحو الجفنين واللسان كسحابة باغتت صفو السماء:

- أتذكر.. أن ابن عمي مات منتحرا..؟
- نعم..
- حان الوقت لأسرد عليك أهم حدث.. في قضيتي..

وتتمدد كعادتها على الأريكة الطويلة، وفي يدها قنينة الجعة، تحتسيها بلا كأس من حين لآخر، يغلبها تجشؤ قوي، تنتظر لحظة ثم تنغمس في الحكي من جديد:

- أتذكر أن عبد السلام ظل يردد أن مرادا يمنعه مني.. بل يخنقه.. أتذكر أنه ترك رسالة لي.. طلب مني أن أسامحه، لأنه تسبب في مأساة لي ولابني.. قال إنه غضب غضبا شديدا لما تزوجت بمراد.. وطلب من أبيه أن يمنع هذا الزواج بأي وسيلة.. لكن كان الأوان قد فات.. وفي لحظة غضب.. قال لأبيه تخلص من مراد بأي ثمن.. فدبر أبوه حادثة مصطنعة.. أرسل سائق شاحنة صهريج مياه يشتغل عنده، ليقطع عليه الطريق في مفترق طرقي خطير.. هذا السائق.. معروف "بالشيظمي"

طلبت منها، أن تتوقف، وسألتها في دهشة وذهول:

- لا تقولي.. إنه الشيظمي.. حارس العمارة..؟

قالت وفي نبرتها إصرار ويقين:

- نعم.. هو.. الحقير.. الخسيس..

تمد يدها إلي مرة أخرى.. أشعر بالسكينة وأنا أضغط بيدي على أصابعها.. أقول في حيرة:

- لقد اختلطت علي الأمور..
- عبد السلام.. حين قال لأبيه أن يتخلص من مراد.. لم يكن يقصد القتل.. لكن عمي سليمان ظالم عات.. لا يرحم.. لا يعرف إلا القتل للتخلص من كل من يقف ضد إرادته..
- سليمان.. أظنني سمعت بهذا الاسم مؤخرا؟ لا أذكر..
- بل سبق ورأيته.. يوم رأيتني قرب العمارة، وانطلقت بالسيارة دون أن أكلمك..
- آ..كنت أنت إذن..
- نعم كنت أنا.. أراقب عمي "أعماه الله" وأعوانه من الشياطين..
- من تقصدين..؟
- الرجال الذين جاؤوا تلك الليلة بالسيارتين السوداوين..
- من تقصدين؟ انتظري.. تذكرت.. تقصدين "سليمان" الرجل السمين.. وصديقيه.. نعم.. والآن فهمت..
- كنت أترصد.. وأراقب.. وأجمع عنهم جميعا ما يكفي من المعلومات.. لكن قبل أن أوضح لك الأمور بالتفاصيل المملة.. دعني أكمل لك مجرى الأحداث.. احتفظت بالرسالة.. وقررت أن أنتقم من عمي، عدت إلى القرية وزوجي عبد السلام في صندوق النعش مقفل.. لن أدخل في التفاصيل المهم.. تمت عملية الدفن،

وبعد أيام.. دخلت على عمي بالرسالة.. وقلت له إنه لم يكتف بقتل زوجي بل قتل حتى ابنه.. أصابته الصدمة في البداية.. فتظاهر بالإحساس بالذنب.. رغم ذلك لم أتخلص من فكرة الانتقام.. لكن كيف السبيل إليه وهو المحاط برجاله الأشداء..؟ أمضيت ما تبقى من سنة 1990 في القرية أتحين الفرصة للانتقام منه، لكن عمي سليمان.. كان يحسب لكل شيء حساب، في يوليو من السنة نفسها تم اختطاف أنيس ابني من أمام المنزل، لم نجد له أثرا، بحثنا عنه في كل مكان، وبعد أيام طلبني عمي للحضور إلى بيته، وساومني الحقير كالعادة قائلا في جفاء وقسوة "اسمعي.. أستطيع أن أعيد إليك ابنك.. شريطة.. أن تعطيني الرسالة.. وتنسي الموضوع.. وإن حكيت ما وقع لأي أحد.. فلن ترينه أبدا..". أذعنت مجبرة.. مكرهة للظالم.. الغاشم.. لم يكتف بقتل مراد.. أراد أن ينهي سلالته.. خوفا على ابني أعطيته الرسالة.. عاد أنيس إلى أحضاني.. لم أشرح لأحد ماذا وقع.. اكتفيت بالصمت، وقررت عدم العودة إلى فرنسا، وانتظار الفرصة المواتية للانتقام من عمي.. تمر الأيام، وعمي يزداد بطشا وجبروتا، بدأ يشتري الأراضي بالإغراء والتخويف من أهل القرية، من يرفض يحرق له الزرع والشجر، وتنفق بهائمه في ظروف غامضة.. حتى تمكن من كل الأراضي وطالت بطشه كل رافض متمرد، وكل معارض متشوق للحرية، فصارت له الضياع والحقول والبساتين والمقالع والهواء والماء، وفوت عين الماء إلى مصنع لتعبئة المياه، وشيد مشاريع سياحية على ضفاف النهر، وأخرى على سفح الجبل، مما تسبب في بوار نشاط الدوار.. فنزحوا إلى مركز

القرية.. تغيرت أحوالهم، وأشغالهم، فسكنوا الإسمنت والآجر بدل الطين، وشربوا مياه الحنفيات بدل العيون، واستضاءوا بالكهرباء بدل الشمع ومصابيح الغاز، وطبخوا في أواني لا طعم لها بدل أواني الطين والخزف، فصار طبخهم بلا نكهة كحياتهم الرتيبة.. وخبزهم بلا طعم كأحاديثهم المملة واستعاضوا بالتلفاز عن السمر الليلي وحكايات الجدات، لكن ذلك لم يبدد الضجر الذي تسلل إلى النفوس، ولا الفراغ القاتل الذي نشر عادات سيئة.. المدينة بعفنها وصديدها اقتحمت عنوة للبيوت، فعزلت الأفراد، وفرقت الموائد والأذواق.. قل الصبر وانعدم الحلم ووجود النفوس والقلوب، فانتشر الشح والحرص بدل الكرم والإيثار، وانتشرت المخدرات بين أبنائهم والخمور بين شبابهم وكهولهم، بينما عمي سلك مسلكا آخر.. لم يكفه غصب الأراضي بل غصب الإرادات.. فصادر الحريات وتحكم في الأقدار والأهواء.. واشترى أصواتهم في الانتخابات.. بالخوف والمال، ودعم وجهاء في السلطة، ورجال يأتون ليلا فقط يروضون العقول القلقة، ويجلدون النفوس المتمردة.. صار رئيسا للجماعة ثم برلمانيا.. فتغول.. وتغول.. حتى صارت بين أصابعه كل خيوط الحياة في المنطقة، يتحكم في الغاز.. والسكر والدقيق.. والشاي.. والأسواق.. وأنشأ دورا للدعارة.. لتنشط تجارته الأخرى، وسمح للعاهرات من كل صوب وحدب بالاستقرار بالمنطقة، ضامنا لهن الحماية من بعيد.. فتناسلت الرذيلة.. واختلطت الأمور على الناس.. فقدوا كبرياءهم.. أنفتهم وهم يرون الدعارة تنتشر في الأحياء والأزقة.. وباب العهر مشرع تحميه كلاب مسعورة وأياد

تبطش بلا رحمة ولا شفقة.. وعمي.. وعمي في كل ذلك استعبد الناس قهرا وإملاقا فصاروا عبيدا في ثوب الأحرار.. وفتحت محلات بيع الخمور، وتكسد فنادقه، ودكاكين الجزارة والخضر والبقالة التي يملكها.. وطن الدعارة فصارت العصب المغذي للرواج في البلد الذي انتزعت منه الكرامة.. فألف الناس إلا قلة الخنوع والصدقة والعطاء بالتملق بدل العمل.. فتبدل الحال في نفوس الأحرار من صدر يجيش غضبا إن مست الكرامة والكبرياء إلا نفوس استلذت الطاعة العمياء بدل المقاومة والصمود.

نزح الرجال طمعا ووهما في رفاهية مدلسة بأولادكم ونسائهم والشيوخ من دواويرهم، بدءا من دوارنا" آيت واسيف" قرية "آيت أدرار" التي تحولت إلى ماخور كبير.. فوصمنا بالعار.. وصارت قريتنا مقصدا لكل باحث عن اللذة.. مع الزمن.. ألف الناس مظاهر العار، وتأقلموا مع اقتصاد الجنس، ونشطت تجارة الخمور السرية، والنقل السري، وظهر النخاسون والقوادون والقوادات لا يمنعهم حياء من ممارسة الوساطة في البغاء.. شجع على ذلك فقر مدقع.. مذل.. وتراجع النشاط الفلاحي.. وسنوات الجفاف.. العجاف

وحده أبي لم يبع لعمي وقلة من الصامدين من سجنوا في قضايا مفركة، أو ماتوا اغتيالا وغدرا، أبي لا يبيع أرضه ولو بالذهب.. أبي حر أصيل من أحرار هذا البلد.. أبي كبرياؤه هو نور حياته، وحرية إرادته هي رأسماله وثروته ، فصار شوكة في الظالم المستبد، وتصدى للأغراء والبطش صمودا يقوم به الترف المذل.. أبي يذكر كل شجرة من أشجارنا، كما يذكر أولاده.. رائحة التراب تنعش حياته

بالأمل.. بهائمنا كانت عالمه الخاص، يعتني بها من الفجر إلى غروب الشمس.. قاوم الإغراء والترهيب.. والتخويف.. فظللنا نعيش في الدوار الذي صار شبه فارغ من أهله.. فزحف الإسمنت حولنا يطوقنا من كل جانب ينعشه جشع عمي وعصابته.. قطع كل الطرق كقاطع طريق مجرم إلى مياه النهر وضفافه، لم نعد نجد ممرا إلى النهر.. فصمدنا وفضلنا قطع الطريق المضنية نحو ينابع بعيدة على الخنوع والمذلة. استفاق الناس على أسمنت يعلو فنادق ومنتجعات قضمت ضفتي النهر وبهاء قمم الجبال.. وبعدا كانت المنابع الصافية للعيون المائية مشاعا بين الناس، صارت على غرة شركة للخواص.. ونبتت كالفطر آليات كسر الحجارة المخيفة، ومقالع للرمال والحجر ومناجم صغيرة للملح.. وسمعت أن هناك مناجم للذهب والفضة والنحاس يلفها الصمت والكتمان.كان عمي وعصابته وكلابه المسعورة يرتعون في نعيم فاحش يزدادون مالا ونعمة.. بينما الدوار والقرية والتخوم يزدادون عتمة ونقمة. ويأسا.. قال أبي ذات شتاء "لن أغادر أرضي.. إن أرادوا قتلي فليفعلوا.. سدوا عنا المنافذ نحو النهر.. واهمون.. النهر هنا في الصدر.. في العقل.. في الدم.. باعوا عين الماء.. هدموا البيوت الطينية، ودللوا الطرق نحو مبانيهم وقصورهم..سمموا مياه الآبار بنفايات المقالع.. لكنهم لن يئدوا فينا حب هذه الأرض.. لم يستطيعوا أن يسكتوا الطيور عن الشدو.. ولم يستطيعوا أن يحجبوا عنا الهواء المعبق برائحة الأرض والشجر.. ولا ضوء النجوم والقمر والشمس..لهذا ما زلنا هنا.. نحيا.. نتنفس.. وسنظل شوكة في خصر سليمان.."

ولأول مرة بدأت أحداث مؤلمة تطفو على السطح عن انتحار الناس سما أو شنقا.. ام أبي فلم يقتله كلب مسعور في جنح الظلام غدرا.. ولا سفاح مأجور على الطرقات..بل فعلوا أكثر من ذلك.. دسوا في حظيرة البهائم أكياس المخدرات "الكيف".. أرادوا قتله بالذل والعار.. واقتحم رجال الدرك الدار والجوار.. فتشوا كل مكان.. مزقوا الوسائد والأسرة، بعثروا ملابسنا، دفعوا أبي فسقط أرضا..لم يأبهوا لعويل ونحيب أمي التي لم تعهد ذلك فأغماها الهلع ..حتى وجدوا ما بلغوا عنه.. بين أكوام التبن.. لم نعرف بما ابتلينا، ظل أبي صامتا من الصدمة..لم يرد على أسئلة المحققين فقط لازمته عبارة "حسبي الله ونعم الوكيل ".

وبعد عذاب المحاكم والتيه في دهاليزها.. صدر الحكم قاسيا.. 10سنوات سجنا نافذا.. لم يمض على سجن أبي غير سنتين حتى مات غما وكمد، لكن في كبرياء وشموخ، ولم تكن من وصية سوى.. "لا تحزنوا يوما ما سنعود.." في مثواه الأخير كما أوصى دفن في مقبرة الدوار، مقبرة لم تطلها بعد يد الجشع لتحولها إلى مشروع سياحي.. فتغيرت أحوال أمي، وبدأت تذبل يوما عن يوم.. كزهرة احتبس عنها الضوء والقطر.. ولا عجب في ذلك فأبي كان ضوؤها وهواؤها ومبرر صبرها وصمودها فهزلت وضمر العقل وأبى الجسد الضعيف الطعام والماء.. أم كطائر كزوجة هندية.. تحرق نفسها للتحلق بزوجها ليس بالنار ولكن بالصوم الأبدي عن لذة الحياة..وما هي إلا أيام حتى رحلت إلى ضوئها وشعلة قلبها.. رحلت عند فجرا.. وكانت تمني نفسها أن ترحل

وهي ساجدة لله.. فضمها القبر وآخر كلماتها كلمات صلاة ودعاء صفاء.. مبتسمة غير خائفة رغم ذلك رددت وهي في احتظار بين يدي الخالق كلماتها ترسخ الأمل وتطرد اليأس "لا تفقدوا الأمل.. الله سيأخذ لنا حقنا سواء في الدنيا والآخرة".. واريت أمي إلى جانب أبي.. وقد تقلصت جنبا المقبرة وبعثرت بعض القبور كمقدمة للسطوة.. وعملت بنصيحة رئيس مركز الدرك وكان رجلا مغلوب على أمره "يا ابنتي.. اذهبي بعيدا.. خذي ابنك وارحلي.. عمك لن يتوقف.. وأنا لا أستطيع ردعه.. إن يده طويلة.. وله علاقات قوية مع رؤسائي.."

فأخذت ابني وهربت إلى الدار البيضاء.. وهاجس الانتقام يسكنني..

خفت على ابني انيس من سطوة وبطش عمي الجبار.. فقررت إبعاده عن عيونه التي لا تخلو منها الدار البيضاء.. بل كل مدن المغرب.. كان ممكنا أن أعود إلى فرنسا، لكن أوراق إقامتي انتهت مدة صلاحيتها.. اكتريت شقة.. وتدبرت أموري بما ادخرت بالخارج.. مع الأيام بدأت أموالي تشح.. فقررت العمل، كان الأمر صعبا علي ذلك بتواجد ابني حديث السن معي. وهو يحتاج إلى الرعاية عن كثب.. فأخذت قرارا صعبا.. قاسيا ولكنه كان ضروريا.. سلمت أنيسا ابني الحبيب لأسرة لتكفله.. ميسورة.. لكنها اشترطت من بين ما اشترطت أن يتم الأمر بعقد عدلي.. وأن أتنازل عنه نهائيا.. وأمتنع عن زيارته.. وقبلت.. تعذبت في البداية.. بيد أني في الأخير رضخت للأمر الواقع.."

أشير لها بيدي بأن تتوقف عن الحديث، وأقول لها مستغربا:

- وعائلة مراد.. لمَ لم تفكري في اللجوء إليها...؟

تتجرع جرعة كبيرة من جعتها، تشعل سيجارة، تفرغ صدرها من الهواء.. زفيرا قويا عجنته والآهات الحارقة، وتقول والأسى في عينيها يكاد يقفز نارا وألما:

- أتظنني لم أفكر في الأمر؟ فكرت في أسرة مراد.. لكن الموت عجل بموت أمه.. وكانت هي عروة الأسرة.. بموتها.. بدأت أسرة مراد رحمه الله تتفكك.. فاختفى ذاك البيت الذي عاش فيه الراحل وتلاشى بموت الأب بعدها بشهور.. باع الإخوة البيت الكبير.. وزعوا التركة.. وتفرقوا في البلد..

- ألم تري "أنيسا" منذ ذاك اليوم..؟

- ما تظنني أما بلا عاطفة أمومة.. باردة المشاعر.. قاسية بلا قلب.. أما خمدت في صدرها نار الأمومة؟ لا.. أبدا.. الأمومة نور طافح لا يطفئه لا الغياب ولا الموت ولا العوز.. الأمومة نور يشعل في درب الأبناء.. لكن هذا النور يتحول نارا ملتهبة في الصدر من بعدهم وغيابهم.. ابني.. أنيس.. قرة عيني.. كبر وصار فتى يشبه أباه..

أشعر بها في لحظة توقفت قسرا وجدانيا عن الكلام، شردت بخلدها بعيدا في مكان ما، أو انتزعت صورا من ذكريات أبردت حرقتها مؤقتا، كأنها استعادت صورة طرية لمراد.. تنفرج أساريرها.. وتردف "تجاوز ابني 14 سنة بشهور قليلة.. أعرف كل اهتماماته.. عشت كل لحظات

أمراضه.. ونكساته وخيباته من بعيد في صمت مؤلم.. يفتت الكبد.. آه..! كان أشد ألما على قلبي أن أعلم مرضه ولا أستطيع ضمه والعناية به لتمريضه.. تتبعت أخباره دون علم الأسرة الكافلة له، دون أن يشعر بي هو نفسه، عشت كل مراحل حياته.. منذ حبا إلى أن خطا خطوته الأولى.. كنت حاضرة من بعيد وهو يعيش يومه الأول في المدرسة، تابعت كل تغيرات جسده وهو ينمو في صمت ولوعة.. منذ سقطت سنه الأولى إلى أن انخرط هذا العام في مراهقة مبكرة.. وشغب الفتوة الذي جاء كحما سأبيه بلا مبالغة ولا إفراط وتفريط.. يتابع دراسته بنجاح.. والأسرة التي كفلته.. لا أبناء لها.. ولا أعرف كيف سيواجه الحقيقة.. يوم يعلم أنه متبنى..

أما أنا فتقلبت في عدد من المهن.. أكثرها في الحانات والملاهي والعلب الليلية.. حتى استقر بي الأمر في كباريه "الوردة البيضاء" بعين الذئاب.."

يرن الجرس فتنهض متثاقلة. في ضجر كأنها أبت أن يقطع عنها الحديث حدث طارئ أو زائر عابر.. على عتبة الباب، سلام وقبل وصوت أنثوي يطمئن على زينة في شوق وحرارة عواطف عكستها اللغة ألمح ظلا، ثم يصير صورة امرأة، لم أميزها في البداية، ما إن تلج الشقة، حتى أفاجأ بزبيدة رفقة شخص آخر.. أتفحص في وجه الرجل فإذا به الشيظمي.. يتملكني الذعر مرة ثانية.. لا أفهم ما يقع.. يبدو أن الشيظمي نفسه تفاجأ بوجودي.. يسلم في حرج وارتباك وحدقتا عينيه تدوران في ارتياب وقلق، يتصنع ابتسامة باهتة لم تبدد الحرج الذي رشح في العينين والحركات المضطربة:

- الأستاذ هنا! لم أكن أعرف أنك هنا.. صدفة غريبة.. لكن جميلة..

تجره من جلبابه زبيدة وتقول له في تهتك:

- تعال.. أجلس قربي.. تعال يا شيطان!

يحملق فيها وفي وجهي ثم ينقل نظرته الخائفة إلى وجه زينة، فهو ضائع في وضع لا يميزه، أما زبيدة فقد اختلط كلماتها وقهقهة قوية.. تشاركها فيها زينة.. وهي تقول في سخرية:

- ها هو! جاء برجليه.. طائعا..

يقترب مني وهو يكنس الشقة بنظرات مبعثرة.. ويهمس في أذني:

- ماذا تفعل هنا؟

تنخرط زبيدة وزينة في حوار هامس، كأنهما تعمدتا ذلك.. أرد عليه وما أنا بالعارف لتفاصيل الأمر أكثر منه، كلانا مرتابان.. متوجسان.. حائران..

- وماذا تفعل أنت هنا؟

- جئت مع زبيدة..

- أعرف.. هل قلت لك جئت مع الشيطان ؟ أسألك لأي غرض؟

يتردد.. يضطرب الكلام في صدره، لم أميز الأمر هل من شدة هل الخوف أم من خجل مربك، ثم يقول وهو يحملق في المكان ويتفحص الوجوه والأشياء

- دعتني زبيدة لعشاء تأبيني لروح زوجها الميت.. قالت هذه ذكراه السنوية.. وسيكون في بيتها كل أسرتها.. والله.. صدقني..

- يا ماكر! غوتك اللئيمة.. وقادتك الشهوة العمياء إلى خرابك..
- صدقني.. والله العظيم.. ورب الكعبة المشرفة.. لا تنظر إلي هذه النظرة.. فقط أنا للذكرى السنوية لرحيل زوجها.. كذبت اللعينة..

أرد عليه هازئا في سخرية لا تخلو من غضب:

- جئت تأكل طعاما ساخنا أم لحما باردا طريا.. يا لعين..!

يلتفت إلى زبيدة.. متوسلا.. في انكسار:

- الله "يخليك".. يا زبيدة..! قولي له لمَ أنا هنا..؟
- طبعا من أجل عيني.. وقدي وجمالي اللذين لا يقومان..

وترفع صوتها عاليا وقد اختلط الكلام والضحك الغانج:

- يا ذئب..! لا أحد يسلم من سحر جسدي.. ونداء نهدي.. أتريد أن ترى عينة منهما..؟

تخرج ثديا، يبدو ممتلئا مفعما بالأنوثة مستفزا للشبق، يشيح عنه الشيظمي بوجهه وهو يهمهم في حنق:

- أعوذ بالله.. لا.. لا أنت كاذبة.. استري نفسك يا امرأة..! ما عاد الله.. أنا لست فاسقا..
- إيه.. يا شيطان في لباس الفقيه..! يا نار من تحت تبن..! غيرت رأيك لما وجدت عزيز.. ما بالك؟ لا تهتم.. الأستاذ عزيز متفهم..

غلبه الخوف قويا حتى شككت أنه تبول في سرواله، فضاعت النظرات الواثقة التي أعرفها فيه، والكبرياء المنتصب الذي عهدته فيه وهو يركب كلمات لم تعد رطبة، سلسلة على اللسان من فرط اضطراب وهلع:

- دعيني.. أخرج.. يا لعينة..

يتقدم نحو الباب يجده مغلقا بالمفتاح، يصرخ:

- افتحي.. وإلا صرخت.. وطلبت النجدة..

تتقدم نحوه زينة، في قسوة وغضب وتصرخ في وجهه غضبا عاصفا اهتزت له أرجاء الشقة:

- أصرخ يا نذل..! يا حقير.. سنصرخ نحن أيضا.. فمن يصدق الناس أنت أم نحن؟ خير لك أن تعود إلى مكانك وتصمت يا وغد..

يطر إلى الجلوس في ذهول وخنوع بعدما حسب الخسارات، ودرس الموقف لحظة وهو واقف أمام الباب مقطبا الجبين، أسمع بكاءه وهو يقول:

- لا حول ولا قوة إلا بالله علي العظيم.. يا لطيف..! اللهم لا أسألك رد القدر وإنما اللطف فيه..

لا أعرف، لمَ تذكرت حميدو "الشيكي" حارس العمارة قرب مكتبي، واستحضرت مشهد ضربه وسحله من لدن عائلة الأعور، بدا لي في هذه اللحظة لا يختلف عن الشيظمي، فتسرب حقد إلى صدري، وأنا أردد في دواخلي " اللعين.." زهواني" سفيه.. فاسق.. ويمثل علي دور الرجل المتحلي بالفضيلة.. اللعين ربما عاث فسادا في العمارة.. من يعلم ما فعله بالنساء هذا الحقير..؟ اللعين يستحق الضرب والسحل مثل حميدو الشيكي، ربما القتل.. هذا الكلب.. ابن الكلب.. "حسنا فعلت زبيدة.. وعريته.."

مال شكي نحو صورة أمينة، وشط عقلي حتى عج صدري بالحقد والغضب، يريد جرها جرا بريح الكراهية إلى حلبته، يريد الهاجس أن ينتصر لنفسه وقد أدانه مرات ولم أجاريه فقاومت.. قاومت.. لكن بذرة شك بذرت الليلة في أدغالي الحرجة وأخاف أن تغدو يوما شجيرة حنظل مخيفة تزيد حياتي مرارة.

تتجه زبيدة نحو المطبخ وتعود وفي يدها قنينة ويسكي، تضع الكؤوس الكروية.. تملؤها.. بدون ثلج مما أثار استغرابي وحفيظتي.. تقدم واحدة للشيظمي الذي يقول وهو يلوح بيده معبرا عن رفضه:

- لا .. زبيدة.. أنا لا أشرب..
- نعم.. "أش تتخور علي؟ "من يريدني.. لابد أن يقاسمني الكأس.. فاختر..
- زبيدة.. أنا لا أريدك.. أنا أصلي.. ولم أحضر لشيء آخر.. لا تجعلي عزيزا يصدق أنني زان وفاسد..

يضج المكان بالضحك، أنخرط فيه أنا أيضا لدرجة أن عيني دمعتا.. واشعر بلذة غريبة.. ترد عليه في سخرية:

- قل الحقيقة.. جسدي أثارك.. ألم تكن تتمنى هذا اليوم؟
- والله ما فكرت في الأمر..

أنظر إليه نظرات اتهام بلا رحمة، وفي نبرة حنق، أقول له:

- يا لئيم.. كم من مرة كنت أراك تتفرس في النساء.. وتتتبع بنظراتك أردافهن..

- صدقني أستاذ.. أنا لا يمكن أن أفكر فيهن.. أنا غير قادر على التفكير في أي امرأة..

أنظر إلى زبيدة، نظرة إجلال وأردد في نفسي "برافو.. يا زبيدة! أدركت الآن أنك يا لعوب..! نار تحت رماد.. طبعا لم تنجحي معي.. ولكن البليد سقط في مصيدتك.. الماكرة.. كنت تودي جري إلى شراكك.. لكن ما علاقتك بزينة؟"..

تغيرت ملامح زبيدة من المرأة المغلوب على أمرها، إلى امرأة أخرى.. أكثر اتزانا وبدت قاسية.. حازمة. حاسمة أمرها.. وذات تجربة في الحياة، كأنها نسخة من نادية ساقية المشرب بحانة الطاحونة..يمسح الشيظمي عرق جبينه بكم جلبابه، ينظر إلي خوفا من عتابي، أنتظر ردة فعله..في اضطراب ينهض مرارا ثم يجلس.. يلح عليه البول مرارا.. يتجه نحو باب الشقة.. تجره بقوة زبيدة.. يتحرك في شقة كطائر في قفص من الفزع.. تطوقه بقبلة حارة على شفتيه.. يصدها.. يختلط خجله وذعره.. يعود إلى مكانه.. زبيدة تنظر في شبه غضب والكأس تتأرجح بيدها:

- ماذا تنظر.. سيدنا "قدر"؟ والله إن لم تشرب لرفعت صوتي وفضحتك.. اشرب.. اشرب..

تجرب معه التهديد عمليا، تتجه نحو الشرفة.. مولولة ويداها تلطمان صدرها:

- يا عباد الله انقذوني..! وا عباد الله..!

يهرع إليها، يجرها بقوة، في خوف باكيا:

- أرجوك.. أتوسل إليك.. أصمتي.. سأنفذ ما تطلبين..

تتظاهر بالامتناع، وهي تولول وتنضم إليها زينة، فيختلط صراخ المرأتين في مكر، يكبو على ركبتيه، يقبل قدم هذه، وتلك وهو يتوسل:

- ها.. "العار" وشفاعة رسول الله..

يقبل مهرولا.. طائعا.. على القدح الزجاجي.. يتردد لحظة.. ينظر إليهما بعيني مذعورتين..كأنه يتوسل إليها.. يطمع في عفوها.. يرجو أن تعفيه من هذه الكأس.. لكن زبيدة واقفة فوق رأسه كقاطع رؤوس.. تضرب على المائدة بقبضة يدها فتصدر صوتا قويا ينتفض له الشيظمي في فرق.. وتقول وقد

انتفخت الأوداج وقبح الوجه من حنق وتقلصات:

- هل سننتظر حتى الصباح.. لتشرب هذه الكأس اللعينة..؟

يتبدد في صدره الرجاء.. يدرك أنه لا مفر من الكأس.. يغمض عينيه.. يفرغ ما فيها في جوفه، لم ألحظ أنه وجد صعوبة في الأمر.. فتقول له في سخرية زينة:

- لا أعتقد أنها المرأة الأولى..

يرد عليها وهو يمسح شفتيه بأطراف أصابعه:

- مضى زمن بعيد عن آخر كأس من ماء الحياة..

أنخرط وزبيدة في الضحك، زينة لا يصدر عنها أي رد فعل مما يقع كانت صامتة.. تراقب ما يجري.. واجمة تتطاير من عينيها شرارة الغضب.. تطوقه زبيدة بعناق.. تلثم رقبته ثم شفتيه.. ممتنعا.. يبعدها

بقوة، فتحاول الكرة وهي تضحك ساخرة، يصدها بعنف تكاد تسقط وقد زلت قدمها وهو يردد:

- الله يسترك يا زبيدة.. لا داعي لهذا الأمر.. لا أستطيع.. والله..

تغضب.. تضرب الأرض بقدمها بقوة، وتصيح:

- إيه.. أنت.. وفي لأم الأبناء؟ لا تستطيع الخيانة؟ أم تخاف من الله..

- أخاف من الله.. ولا أستطيع أن..

قبل أن يكمل جملته، تقاطعه زينة.. تصفعه ثم تقول:

- أمثالك.. يا كلب.. لا يخافون الله.. أمثالك.. يا حقير.. أسهل شيء عندهم الخيانة..

ينظر إليها بعينين خائفتين ويقول في ضعف:

- من أنت يا سيدتي..؟

- ستعرف فيما بعد.. من أنا.. ولو فكرت جيدا ستتذكرني.. يا وغد!..

كأس بعد كأس.. يثمل الشيظمي، يزيغ بصره، يضمر تعقله، تروق له الكأس وينشرح صدره بعد خوف وخجل، تدفعه زبيدة إلى الرقص.. تلبسه غصبا فستانا نسائيا.. تضع له شعرا مستعارا مسدلا على جبينه.. يقاوم بشدة ثم يخنع.. تدفعه للرقص رغما عن أنفه.. تشل تفكيره بمزيد من الكؤوس.. تدفعه لشرب قرص مخدر.. لم يعد يجد حرجا في أن يرتدي لباس الراقصات.. فقد كانت تقبله.. تضع نحرها على نحره.. وتلح عليه.. فينفذ طلباتها دون تردد.. قبلة.. كأس..

عناق.. يتبعها كطفل صغير.. يصل قمة الثمالة.. يقول متثاقلا: "لا يعطي الله الحمص إلا لمن لا أضراس له.. آه.. جئت متأخرة بكثير يا زبيدة.. دعوني أمش.."

يا لمكر الكأس..! يا لمكر النساء حين يصرن عود كبريت لغابات النزق الجارف غير الحريص.. الطائش ولهيب الكأس الحارق.. في غفلة العقل والضمير.. بدأ العياء يتسرب إلى الأجساد والعقول، ظللت يقظا منتبها خوفا من سوء تصرف أو شر عاقبة.. كل شيء كان محتملا هذه الليلة..

يعود الهدوء إلى الشقة عندما تشير الساعة إلى الثالثة صباحا.. يثيرني أمر هاتين المرأتين.. لم يشربا كفاية من الويسكي، كانتا تدفعان الشيظمي للشرب دفعا. لينا أحيانا وعنيفا في أكثر الأوقات.. بالقبل.. بالكلمات المغرية.. بالعناق.. بافتعال الثمالة.. بالرقص معه.. بالتهديد والوعيد بالترغيب والتهليل.. يراقبان الهرم الشامخ ينهار.. حجرة.. حجرة.. يخبو الكبرياء ويستظل من لهب الإكراه تحت شجرة النسيان واللامبالاة.. وهما في صبر وتأني ينتظران أن يصير صنم الأنفة غبارا.. أنقاضا.. يستمتعان بالرجولة تخبو..و بالشهامة وعزة النفس تنتحران بسم المكيدة. كانتا تتلذذان برعونته.. بسقوطه المدوي.. بتحوله إلى كائن مطيع في حمأة الشهوة.. بالظل الذي صار الرجل.. باستقالة القيم والفضيلة.. أسئلة كثيرة عادت لتشدني إلى اليقظة.. إلى الحذر.. لأي شيء يخططان؟

جاءني الرد سريعا، اقتربت منه زينة وهو مستلق على الأريكة في شبه غيبوبة خمرية.. وقالت له:

- انهض يا كلب..! لم يحن يعد وقت الراحة..

لم ينزعج من نعتها، ظن الأمر جزءا من جو الليلة وقال والكلمات تتبعثر على لسانه:

- نعم.. أنا كلب يا سيدتي.. لكن دعيني أنم.. رجاء.. "الله يرحم والديك"

جرته بقوة من شعره.. في هذه اللحظة لمست التعب فقط في عينيه..

- ألا تذكرني؟

- لا.. لم يسبق لي أن رأيتك..

- أنسيت.. زوجة الرجل الذي قتلته..؟

ينتفض واقفا.. كأنه صعق.. يهز رأسه بقوة كأنه يريد التخلص من الثمالة، يفرك عينيه بيديه.. ويقول:

- لم أقتل أحدا..

تشده بعنف من ناصية رأسه وبقسوة متعمدة إيلامه.. وتصرخ وشرارات الغضب تتطاير من عينيها حتى تغيرت تقاسيم وجهها.. فاختفت ملامح الوجه المليح وحلت محلها ملامح أنثى في غضب جارف ليس في قلبها إلا مشاعر الانتقام الكاسحة:

- أيها الكلب.. أنسيت جريمتك.. أنسيت ماذا فعلت بمراد.. بأمر من عمي..؟ أنسيت ما فعلت..؟

- لم أفعل شيئا.. ربما اختلطت عليك الأمور.. انظر في وجهي جيدا.. يا كلب..!

- انظر إلى وجهي.. أمازلت لا تذكرني

- آه.. أنت زينة.. وعمك هو الحاج سليمان جبار..

- نعم.. سليمان.. صاحب العمارة.. التي تعمل فيها حارسا.. سليمان الذي استعملك أداة للجريمة.. وتخلص منك.. حين رماك هنا.. في العمارة كالكلب، تسكن في مرأبها.. وتتكفل بتنشيط لياليه الحمراء وعصابته.. لو لم أكن أترصده وأجمع أخباره..؟ أتعلمون.. أن ذاك الضابط المتقاعد في الدرك هو الذي ساعد عمي على سجن أبي وتسبب في موته.. لولاه.. لما استطاع.. بقوة الدركي وجبروته وسلطته.. أن يقهر الناس ويسلب أرزاقهم وأموالهم.. هو لا شيء بلا سلطة تقمع وتقتل وتعذب.. بهذه السلطة عاث فسادا في القرية وبين أهلها.. أما الحاج عبد العزيز.. الرجل النافذ في الرباط.. والذي له علاقات متشعبة وعميقة.. هذا الثلاثي هو سبب شقائي.. وخراب قريتي.. هو سبب الجرح الغائر في كرامة الناس.. هو العلة التي يجب استئصالها.. والغريب أن الحقير عمد إلى تغيير كنيته من "آيت عساف" إلى جبار، كان يرد أن يموه على أصله، كان يريد أن ينتمي إلى عالم الكبار دون أن يثير الانتباه إلى أصله وفصله..

- وما دور ذاك الرجل الذي يبدو كإمام ورع؟

- قلت لك.. هو المسمى الحاج عبد العزيز.. إنه للأسف إمام مزيف.. يظهر ما لا يبطن.. يلبس الجبة.. ويظهر الورع.. ولكنه.. سفاك.. قاتل مثلهما.. يستثمر ثقة الناس في المظاهر للوصول إلى خيراتهم.. لاستنزافهم..

- الشيظمي.. إذن ما هو إلا الحلقة الضعيفة في السلسلة..
- الشيظمي كلب من كلابهم.. الشيظمي مثله مثل آلاف المعدمين.. الذين يستعملونهم في الأفعال المتسخة.. الشيظمي لا حمص له ولا فول.. لكنه.. مستعد لخدمتهم.. من أجل أن يظل قربهم.. من أجل لذة الإحساس أنهم منهم.. وما هو منهم.. ولن يكون منهم.. أبدا..
- للأسف يا زينة.. حتى أهل قريتك.. فرطوا في كرامتهم وأرضهم بقوة الجشع.. والجبن..

تصرخ في وجهي قائلة:

- ليس الوقت وقت كلام.. حان وقت الفعل.. تعال.. ساعدني في تكبيل الكلب.. لابد أن يعترف..

أتردد في البداية، أستحضر صورة حميدو الشيكي، أسقطها عليه، أشعر برغبة في ضربه، أتسلم حبلا من زبيدة، أقيده بكرسي، دون أن يبدي أي مقاومة ودون أدنى شفقة مني، يبدو لي أنه استسلم للأمر الواقع، أسمع نحيبه.. كان يبكي في ألم..

- هل ستعترف.. أيها الحقير؟

رفع رأسه، متوسلا.. طالبا الرحمة.. فصفعته.. نظر إلي نظرة توسل، كأنه يطمع في شفاعتي، كنت عاجزا عن فعل أي شيء.. أو ربما لم أكن أريد فعل أي شيء.. تكفلت زبيدة بحلق شاربيه، وهو يتوسل كمن يخصى على الملأ.. في لمحة بصر تحولت زينة.. المرأة الساحرة.. الرقيقة إلى جلاد قاس لا شفقة ولا رحمة في قلبه.. إلى مارد. جبار خرج

توا من قمقم الغضب.. لا شيء يغتال أنوثة المرأة غير الضغينة الأحقاد.. في هذه اللحظة رأيتها تخسر رأسمالها الأنثوي وهي تلجأ إلى كل الطرق المتاحة لدفع الشيظمي إلى الاعتراف.. وأكثر ما أخشاه ألا يكفي حقدها العارم اعترافه.. ولا يطفئ لهيب غضبها غير قتله.

أطفأت أعقاب السجائر على ذراعيه، أحضرت قضيبا حديديا وهددته بهتك عرضه.. صفعته مرارا وتكرارا.. ركلته.. بصقت في وجهه.. نزعت زبيدة ثيابه حتى الداخلية.. صار عاريا.. يقلب عينيه.. ثم يطرق الجبين.. ويغرق في البكاء كطفل صغير ضاع من أمه في مكان مزدحم، هددته زينة بقنينة بنزين وهي تلوح بالولاعة في الهواء انهار أخيرا وسط الدموع والنحيب بدأ يدون اعترافا شفهيا:

- نعم كنت أشتغل عند عمك..سائقا لصهريج ماء.. كانت أول محطة لي بعد هجرتي من بلدتي.. كنت أدين لعمك سليمان بالشيء الكثير..فقد ساعدني في الحصول على رخصة سياقة الشاحنات.. وفي ليلة من الليالي.. أظن صيف 1986.. أتى بي إلى الدار الكبيرة.. رأيت في عينيه شرارة الغضب.. قال لي إنه حان الوقت لأرد ديني.. ووصف الخطة.. لم أتردد للأسف كنت غرا.. قليل التجربة.. وضعيفا.. وعمك كان قاسيا.. جبارا.. لم يكن لي الخيار.. لو رفضت لقتلني بعدما علمت بنواياه.. قال لي إنني سأقدم خدمة كبيرة للعائلة لن ينساها لي.. وأنه سيحميني خلال أطوار التحقيق.. قال يكفي أن أنتظر في تقاطع طرقي حدده لي.. ثم أعترض طريق السيارة حين أراها قادمة.. نعم أذكر

سيارة "البوجو" الزرقاء.. وفعلا.. كان ما كان.. أنا مجرم.. هل تريدون قتلي..؟ أفعلوا ذلك.. أريحوني.. أريحوني.."

انخرطت زينة في بكاء قوي لحد النحيب، ضمتها زبيدة واندمجا في مشهد حزين من النحيب والنشيج كأنها تخلصت من ثقل جثم على صدرها، تخر ساقطة بجسدها على الأريكة.. تمد يدها إلى قنينة الويسكي، تملأ كأسا.. ثم كأسا.. تطلب منيرا على الهاتف.. أسمعها تقول:

- تعال.. لتأخذ الكلب إلى جحيمه!

لم يفاجأ الشيظمي، برؤية منير، أدرك غرائزيا أنه جزء من الخطة، فقط قال له وهو ينظر إليه في هوان:

- حتى أنت يا منير.. يا طيب..

لم يرد عليه منير، رافقه في صمت.. إلى الخارج.. بعدما أخذت زبيدة صورا للشيظمي عاريا.. منهارا.. كئيبا.. محطما.. مطرق الجبين.. محطم الإرادة.. أكاد ألمس شعوره بالخزي والعار من نظرات عينيه وخطواته المتثاقلة.. أنظر إليهما وهما يخطوان خارج الشقة، وفي عقلي سؤال محير، ماذا تقصد بالجحيم؟"

يسود صمت قاتل الشقة، في غبش الليل، تنسحب زبيدة في هدوء، مكتفية بتقبيل زينة قائلة:

- ارتاحي.. سأراك فيما بعد..

- أهم بتوديعها أيضا.. تعترض سبيلي.. وتقول:

- ستنام هنا..

تسحبني من يدي إلى غرفتها.. عيناها في عيني، ثم الصدر اليانع، يشعل النار على ضفة صدري، شفتاها تشتعلان، تقوضان براءة الموقف.. خطت الخطوة الأولى.. تجتاز العتبة.. تفك عقدة ترددي.. أفتح نوافذ أدغالي مشرعة.. يذهب العقل في عطلة مؤقتة.. أترك لها المبادرة، أصطنع من جديد البراءة.. تضحك.. فتدفعني بروية على السرير، يصغر الكون ليصير زمن الوجود منحصرا على مهد الشهوة.. على الجدار ظلان يتشابكان.. ظلان.. متداخلان.. يختلطان.. يتماسان.. يهتزان.. يتأرجحان.. ثم ينصهران.. ثم يسقطان.. فيختفيان من الجدار..

أكتشف تضاريس الجسد البهي.. أفرغ فيه كل لهبي.. يشتعل.. لا صوت هنا غير صدى الجسد المتحرر من كل سلطة.. نطفئ جمرات الشوق بماء اللذة.. نسترخي.. تقول كأنها في غيمة:

- لا دور لك في هذه القصة.. لا تقلق.. فقط حينما كنت أتجسس عليهم.. ظننتك واحد من جماعتهم.. لأن ضمن العصابة محام..لا أعرف لحد الآن.. برأتك.. زبيدة.. ثم أحببتك..
- لمَ كانت تحاول الإيقاع بي في شراكها؟
- كنت أختبرك.. ونجحت..
- أي اختبار ؟ الوفاء..؟! وأنا أخون زوجتي على فراشك..
- لا بد أن لك سببا قويا.. معي.. لا تسمى خيانة..

فتحت لها بوابة البوح.. تفاصيل دقيقة من حياتي.. هلعي.. توجسي.. مخاوفي.. علاقتي المعطلة مع أمينة.. أمي التي نفاها الخرف في

عالم لا أعرف أين توقف.. على صدري..كانت.. يدي تداعب شعرها المسدول على نحري.. وأنا أخفف عني أوزارا أنهكت ظهري، وأثقالا جثمت على صدري.. آه.. ما أعظم البوح.. أشعر بسكينة.. أشعر بارتياح.. تقول وهي تلاعب أصابع يدي بأصابعها:

- لا عليك.. لا أحد فينا كامل.. لا تحاول أن تكون كاملا، حتى لا تتعذب.. أما أنا فلست صدر خيانة.. أنا صدر دفء وعشق..

تهرب الكلمات مني، تتعثر العبارات عند عتبة البيان، كل لغة تصير بلا معنى وسط ضوضاء الجسد.. اللغة الأصلية.. الأولى، مقاطع أصوات.. آهات.. أنات.. صرخات.. ثم تأتي لحظة السقوط من الحر.. من أعلى نقطة في الوجود.. فأحلق بجناحي فراشة وأحط حيث أشاء في حديقة جسدها العبق.

أدركت ليلتها أن زينة خططت لهذه الليلة لسنوات، غير أنني لم أكن ضمن مخططها، الصدفة فقط جعلتني أكون جزءا من المشهد.. فقد قضت زمنا طويلا وهي تتعقب أثر عمها.. وحين علمت بمكانه، جندت كل من منير وزبيدة التي علمت أنها تعمل في ملهى الوردة.. أقرت لي أنها كانت تنوي قتله شر قتله، أسرت لي في البداية أن منيرا كان عينها في العمارة، يتتبع خطواته، ويعرف عنه الصغيرة والكبيرة، كان مخطط انتقامها.. البدء بالشيظمي.. ليس بقتله فقط بل دفعه إلى الانهيار التام..فكرت في حرمانه من أبنائه.. في دفعهم إلى الإدمان.. في اختطاف زوجته.. فكرت في عدة سيناريوهات.. كانت تريد أن تخلق له جحيما كما فتح لها أبواب العذاب منذ سنوات.. كانت تريده أن يؤدي فاتورة ترملها ولم تفرح بعد بزواجها.. فاتورة موت أبيها

وأمها.. فاتورة فقدانها لأنيس.. وموت أم مراد وما نجم عن ذلك من تفكك أسرته.. فكرت في أقسى المشاهد.. الحرق.. التشويه بحامض الكبريت.. الخصي.. هتك العرض.. لكنه ما إن اعترف.. والتمس قتله..حتى تبددت القسوة.. وعرف حقدها جزرا وجدانيا، وشعرت بسكينة.. قالت قبل أن تغفو:

- عاقبنا ظل الجلاد.. ولم نعاقب بعد الجلاد.. غدا تبدأ الحرب الحقيقية مع أصل السرطان..

18

لم يمض على القصاص الذي خصصته زينة للشيظمي غير أيام قليلة، حتى غاب عن الأنظار، واختفى دون سابق إشعار ولا إخبار.. لا أحد علم بوجهة رحيله.. إلى أن جاءت النبأ الصادم أواخر شهر غشت في أوج الصهد الجاثم على النفوس لتضع حدا للتأويلات ولاصطناع الأخبار الزائفة، فغيابه لم يكن حادثا عابرا، بل فتح شهية القيل والقال.. الإمام صديقه، أسر إلي يوما بثقة عارمة، أن الشيظمي، رحل مع امرأة.. وأقسم بأغلظ الإيمان أن الشيظمي كانت له علاقة سرية مع امرأة ما.. وحين سألته هل رآه قال واليقين سلاحه الغريب إن شعوره وحدسه لا يكذبان.. بائع البقال الدكالي.. الذي تمادى وقال إنه في السجن حتما، ولابد أن الحاج سليمان كشف شيئا خطيرا..وأكد أن لا ثقة في حراس العمارات.. وافقه في الرأي أمام استغرابي "ميلود" قارئ عدادات الكهرباء، الذي قال إنه حتما سرق الحاج.. والحاج لن يغفر له.. إلا السرقة.. مؤكدا على شرف ونبل الحاج سليمان وخيره الذي عم الجميع.. بما فيهم الشيظمي.. الذين قد يكون عض اليد التي مدت له..

تناسلت الأقوال في غيابه تناسل الفطر في الظلال.. فصار لحما طريا للنهش، أخذ كل منه قطعته ونهشها نهشا.. واستغربت أن له خصوما بهذا العدد في صمت، كانوا يجاملونه، حتى ساعي البريد رمى بدلوه في الموضوع وقال إن عيب الشيظمي الكبير هو فمه الذي لا يغلق.. وطول لسانه.. ربما أساء إلى أحد.. من يدري.. قد يكون في

كيس مثقل بالحجارة في أعماق البحر.. أما أنا.. فقد اكتفيت بالسمع والصمت.. مرجحا.. اختفاءه بإحساسه بالعار ليلتها أو بخوفه..

حسم الأمر.. وجاء نعي الشيظمي ليتوقف الكل عن شحذ السكاكين.. فقد حل بالعمارة أكبر أبنائه، ذات مساء رفقة خاله، وتصادف أنني كنت في العمارة، وصل الخبر إلى زينة، اتصلت بي هاتفيا، وطلبت مني أن أستقصي الأخبار.

في المرأب وجدت شابا في العشرينات، تبدو عليه ملامح قروية قاسية، لكنه كان ينتعل حذاء رياضيا ويرتدي قميصا وسروالا، عكس خاله الذي كان على ما يبدو في عقده السادس.. وظل محافظا على لباسه القروي من جلباب خشن ونعل أصفر قديم علاه التراب، واعتمم عمامة بيضاء شاحبة اللون من كثرة الاستعمال، وآثار الثرى الذي أصبح لونه مقاوما للغسيل.

خطوت نحوهما، وهما منهمكان في جمع أثاث كوخ الشيظمي في أكياس.. اقتربت متظاهرا بعدم معرفتهما:

- مساء الخير.. ماذا تفعلان؟

اقترب الشاب مني، رأيت الشيظمي في عينيه، لم يكن ممكنا أن يخطئ حدسي الطريق، فالعينان والحاجبان، والجبهة تمتح أهم ملامحها من وجه الأب.. من بريقه.. من ماء صلبه.. رغم أن الشاب لم يكتسب قامة أبيه الفارعة، ولا عرض منكبيه، لكنه كان منه.. يسبقه حياء، مطرق الجبين، خافض البصر، تخرج الكلمات من فمه، متقطعة.. ظننت السبب في البداية من طبعه القروي الذي يجعله خجولا، لكنه حين استمر في الحديث اكتشفت تأتأته:

- مساء الخير سيدي.. هل أنت صاحب العمارة؟
- لا أنا أحد السكان..

تظاهرت بعدم معرفته:

- وأنت.. قريب للشيظمي؟
- نعم.. ابنه البكر.. المختار.. وهذا خالي ميمون.. جئت لأجمع أغراضه.. وأخبر الحاج سليمان بموته؟

صدمت.. كدت أسقط من هول الخبر.. أسندت جسمي إلى عمود إسمنتي.. وقلت في استغراب:

- موته؟ لا تقل هذا يا بني.. أبوك قوي البنية.. سليم البدن.. خفيف المرض.. أعرفه جيدا.. هل هلك في حادثة.. أم بشيء من هذا القبيل؟

رفع الشاب نظره إلي.. نظر نظرة خاطفة، وغض الطرف مرة ثانية، في حزن جارف بدا يبحث عن الكلمات التي جعلتها وعرة، كمن يقطع الحجر من صخرة صماء، ألمه كان واضحا عكسته تنهيدات عميقة ومتتالية.. توجه بنظره إلى خاله الذي بدا أكثر تحملا، وأشد صلابة، فقال الخال ميمون، وهو يشعل عود ثقاب ليشعل سيجارة مترنحة بين شفتيه:

- ماذا نقول لك سيدي..؟ لم يسبق لنا في البلدة.. أن عشنا أمرا مماثلا.. فكما ترى فابنه المختار حائر ويخجل من ذكر سبب موته.. محمد.. الذي تنعتونه أنتم بالشيظمي، عاد منذ أسابيع إلى البلدة، مكسور الجناحين غريب الأطوار.. شديدة الهم.. ثقيل

الغم.. فاقدا شهية الطعام.. لا يحدث أحد.. قلنا في البداية.. هم عابر وينجلي.. لكنه ظل على حاله لا يكلم أحدا.. فصام عن الكلام والأكل.. رفض أن يراه طبيب، قال فقيه الدوار إن به مسا، أو سحرا.. فلم تنفع معه لا تميمية ولا رقية.. أخذته أختي إلى الشرفاء عند" ركراكة".. بات في القبة.. واغتسل بماء العين.. لكن ظل على حاله.. قضى في "الخلوة" ثلاث ليال مقيدا، على أمل أن يطلق سراحه.. الوالي الصالح ويشفيه من مرضه ويبعد عنه الأرواح الشريرة التي سكنته، فيعود إلى صوابه وحالته العادية.. لكنه ظل على حاله.. أبكم.. أصم.. غائبا عن الوجود.. قال أهل الدوار "دعوا الرجل في بيته حتى يقضي الله أمرا كان مقضيا".. فعلنا كل ما يمكن فعله.. فانشغلنا عنه بأمور الدنيا.. فالحياة عندنا صعبة كما تعلم..

توقف الرجل عن الكلام، وهو يحجب عن عينيه بيده ضوءا كاشفا قويا لسيارة دخلت المرأب، فمنعه هدير المحرك القوي من المواصلة، يترجل منير، منها بعدما ركنها بصعوبة، يتقدم نحونا:

- مساء الخير..
- أرد عليه وأنا أمد يدي مصافحا:
- مساء الخير منير ..هذا ابن الشيظمي.. وهذا صهره.. لقد مات الرجل الطيب..

انطق بكلمة.. الطيب، وينتابني إحساس غريب بالخجل، كأنني صرت خبيرا في الزيف.. يتقدم منير نحو الشاب، يصافحه معزيا:

- عظم الله أجرك.. الصبر..

ثم يميل إلى الخال، ويصافحه أيضا مرددا في خشوع:

- الصبر.. كل نفس ذائقة الموت.. كلنا لها.. لقد كان رجلا طيبا..

خشيت أن يبدي منير رغما عنه.. بعدا من أبعاد أنوثته، لكنه كان ملتزما بالدور التزاما قويا..كلفه جهد كبير وتأن ملحوظ في الكلام، والحركات.. تبادلت معه نظرات عابرة، أعرف أن منيرا لم يكن صادقا.. لكن موقف العزاء يفرض دائما نوعا من الزيف والكذب.. فحتى الأعداء قد يتحسرون ويظهرون الحزن والأسف.. وأحيانا يتصدرون الصفوف الأمامية للجنائز.. أبادر إلى دخول "العشة".. متأففا من العياء:

- لنجلس في الداخل.. ونسمع البقية..

نتفرق على الفضاء الضيق، يخيم علينا الوجوم الذي يعزز وقعه العميق صمت رهيب في المرأب.. وظلمة يبددها ضوء مصباح يتيم.. ضعيف الإنارة متدل من سلك كهربائي.. تنتشر في الأجواء ما علق بالجدران والسقف من روائح مختلطة، لأدخنة عوادم السيارات التي تركن في الداخل.. وبقع زيوت المحركات المنتشرة هنا وهناك.. لم يكن ما يكفي من الأثاث لنجلس عليه.. يجلس الخال القرفصاء مفترشا الأرض بسهولة دون عسر مفاصل، بينما يجلس الشاب على أريكة إلى جانبي، ويتمدد منير على سرير متهالك، تصدر نوابضه القديمة صريرا مزعجا.. ثم يواصل صهر الشيظمي حديثه وقد ملأ الأجواء بدخان تبغه الرخيص الأسود الخانق:

- نعم.. غلبنا الأمر.. وبينما انشغلنا جميعا بحصاد الشعير.. ظل هو البيت منقطعا عن الحياة.. حتى وجدته أختي فجر الخميس الأخير معلقا بحبل.. على شجرة التين.. للأسف لم نعرف سبب انتحاره.. لكن همه كان كبيرا..

يطلبني الابن على انفراد، أتبعه إلى الخارج ثم يقول في صوت خفي":

- سمعت أنك كنت قريبا منه.. كما سمعت أهل البلدة عندنا يقولون إن سبب علته سحر امرأة.. سأقول لك الحقيقة.. وحدك.. الكل يفتري عليه.. أبي لا يمكن أن تكون له علاقات مع النساء.. أبي.. عاد من حادثة مؤلمة بالأطلس المتوسط، فأصيب في حجره.. أبي كان عاجزا جنسيا.. انتهت حياته الجنسية منذ سنوات عديدة.. لم أكن أعرف.. لقد كنت صغيرا.. لكن خالي يعلم.. وهو الذي حدثني في الأمر.. قال إن أبي انتحر لهذا السبب لم يعد يحتمل العجز.. أحس بالعار.. قتله العار..

يعود الشاب إلى "العشة" ويركبني شعور بالندم، الرجل عاجز جنسيا، غير قادر على معاشرة امرأة.. تجثم على صدري الحسرة.. تضيق أنفاسي.. كيف ساهمت في صلب رجل معتقدا أنه عاث فسادا في العمارة؟ بل كيف فكرت للحظة ولو عابرة.. أنه ممكن أن يغوي أمينة..؟ هل أدين عقلي الذي أدانه منذ البداية وحاججني في خبثه؟ لو فعلتها لصرت مجنونا.. وأعلم في أعماقي أنني أشارك في القصاص تضامنا مع زينة.. بل انتقاما لنفسي منه.. من فحولة مؤجلة في، وفحولة ملتهبة فيه، سحبتها عليه من مشهد سحل حميدو الشيكي..

يكاد عقلي ينفجر.. لقد ظلمت الرجل.. لكن عقلي يعود ليرحمني، ليخفف عني وطأة الاعتصار بالندم.. ليحول الحسرة إلى برد وسلام وهو ينتصر للإدانة.. يصدع في قوة "هل نسيت مأساة زينة..؟ زينة التي شردت، ورملت قبل الأوان في ريعان العنفوان.. زينة.. التي صارت ما هي عليه الآن، من جراء مأساة كان هو أحد أطرافها الفاعلين.. زينة التي فقدت زوجين وهي في مقتبل العمر.. زينة التي فقدت الأم والأب والأرض والشجر والتراب والحلم.. زينة التي سلمت ابنها الغالي.. فلذة كبدها تحت قهر الظروف التي صنعها الشيظمي بأمر من أسياده.. لا يا عزيز!.. كان يستحق القصاص.. كان يستحق الموت.. موته عادل.." انتصار عقلي لزينة لا أفهمه، والاصطفاف إلى صفها غريب وعجيب.

ألتحق بهم تحت العشة، وددت لو كشفت لهما عن السحر الذي أفقده عقله، وعن الجني الذي سكن عقله حتى دفعه إلى الانتحار.. لكن .. لا مجال للبوح.. وهناك حقائق لا تقال..

أصافح الشاب، معزيا مرة ثانية وهذه المرة أضمه.. في حزن:

- البركة في رأسك..كلنا لها..

الشيء نفسه يقوم به منير كأنه نسي أنه عزى الشاب، ينهض بصعوبة من السرير، بعدما مددت له يدي لأساعده على الوقوف، ينصرف وهو يهمهم:

- الأعمار بيد الله..

أعود إلى شقتي، أتصل هاتفيا بزينة، أخبرها بانتحار الشيظمي، كنت أنتظر منها أن تقفز فرحا.. لكنها قطعت المكالمة بفظاظة دون ردة فعل واضحة.

شق علي رغم كل شيء موته المخزي الذليل والمحزن بهذا الشكل، وفعلا أحسست أن الوضع كان شديدا.. ثقيلا على نفسه.. فلا شك أنه ساهم في جريمة نكراء.. ولا شك أنها ألمته، وظلت تطارده أينما حل وارتحل، لكن ليلة القصاص أشد وطأة وأعمق جرحا لكبريائه وأنفته، فقد هدت أهم ما يملكه رجل من طينته.. سمعته.. رجولته.. وقع له ما لا يمكن لرجل أن يطيقه، فقد احترامه لنفسه.. عزته.. أنفته.. انهارت صورة الرجل الحكيم الخدوم أمامي.. كان يكفي توظيف أقدم سلاح للمرأة لإسقاطه في الفخ.. الحيلة.. زبيدة تجيد حبك المكائد.. لكنه حتما لم يأت للذة.. قد صدقني القول.. اختار الشيظمي الطريق الأقرب ليرتاح من إحساسه بالخزي.. من صور تلك الليلة.. من تناسل كل الأسئلة والاحتمالات في ذهنه.. حتما كان يضع احتمال دخوله السجن.. بين عدة فرضيات.. كل احتمال سيجره إلى جحيم منتظر.. حتى الصمت.. سيجعله كمحكوم بالإعدام ينتظر عند كل فجر لحظة سحبه إلى منصة الإعدام لهذا اختار الموت.. الرحيل.. الانتحار..

لا أعرف لماذا كان الكل منشرحا لموته في العمارة، سي المهدي طرق بابي وسألني:

- هل فعلا انتحر ذلك الخسيس؟

قلت له:

- أستاذ..! اذكروا أمواتكم بالخير..

قال متأسفا:

- نعم.. لكني لا أطيق خدماته للحاج سليمان النكراء.. يأتي له بالفتيات والنساء.. مرارا رأيت الأمر بأم عيني.. كنت دائما أعاتبه على غيبته.. كم مرة ضبطته ينبش في أعراض الناس.. حتى ابنتي لم تسلم من لسانه.. قال فيها الكثير.. إيه.. على كل حال.. استراح وأراح.. لكن.. لماذا انتحر؟ هل كانت عنده مشكلة؟

بالنفي أجيب:

- حتى أنا لا أعلم السبب.. قيل لي فقط إن هما قويا داهمه لحد اليأس..
- للناس.. أسرار.. مات ومعه سره.. غفر الله لنا وله.. والآن على الحاج سليمان أن يجد من يخدمه تلك الخدمات الخاصة.. نعله الله.. أي حج هذا..؟ عسى أن يعتبر من موت هذا الرجل، ويستحضر القبر والآخرة..

تمر أمامنا زبيدة.. تتخلى عن حركاتها المعهودة وهي تصادف الأستاذ، يبدو أنها تكن له احتراما خاصا:

- مساء الخير.. "واش ف خبراكم" أعلمتما، أن العسكري انتحر.. أقصد الشيظمي..؟ مسكين، يعلم الله ما ألم به..

تقول العبارة الأخيرة وتغمز لي، كأنها تذكرني بليلة الاعتراف.. أدنو منها وأقول متظاهرا بالحزن:

- الله يرحمه..

تنسحب في خفة، تتعقبها عينا "سي المهدي"، حتى تختفي.. يمرر يده على ذقنه ويقول منحنحا:

- كلنا لها.. الدنيا متاع الغرور.. جئنا إليها عراة.. حفاة ونعود إليها عراة.. حفاة.. ليس معنا من متاعها إلا قطعة ثوب.. رخيصة.. الله.. الله.. الحي القيوم الذي لا يموت..

19

في الشقة يعم الصمت ويخيم الملل، كل في جزيرة مغلقة، أمي العليلة، لا تتوقف عن الصلاة إلا للاستغفار أو التردد على دورة المياه حيث يلح عليها البول.. من ضعف مثانتها، وأمينة غارقة في عالم المسلسلات، وفية لكل حلقة لحد الهوس.. أشعر برغبة قوية في شرب بعد الكؤوس.. أتذكر أن صاحب المهام الليلية الصعبة.. رحل إلى حيث لا عودة.. رحل بتذكرة ذهاب فقط.. أتذكر قنينة "سكوتش" قد دسستها بين قمصاني في الدولاب.. تهتدي يداي إليها بسهولة.. وأنخرط في لعبة النسيان، مع الحرص على ألا تكشفني عينا أمي.. ظل أمينة يختلط تحت الضوء الخافت وظلال أخرى.. تتقدم متثاقلة الخطو نحو صالون الشقة، حيث جلست على أريكة أمام التلفاز، أراوغ طيف الشيظمي بقدح تلوى الآخر، لم أتخلص من هاجسه حيا وميتا.. تتسلل صورته إلى رأسي محدثة فوضى، ظننت أن عقلي حسم الأمر في موته، لكن أنا أعرف فعل الكأس الغادر.. فكما تدفن الأسئلة وتؤجلها، تنعشها وتضخمها... نقبت عن اليقين.. فوجدته بعيدا وراء جدار الشك.. بحثت عن شعور حاسم فلم أستطع أن أحدد موقفي اتجاه موته منتحرا.. فطفا السؤال المحرج تلو السؤال القاتل.. المؤلم.. هل أخذ جزاءه؟ هل يستحق الموت؟

تداهمني فكرة سوداء، لقد قتلناه قبل أن يشنق نفسه، الرجل مات تلك الليلة، والذي نفذ في نفسه حكم الإعدام هو ما تبقى من ظل رجل.. هل علي أن أحزن؟ هل علي أن أشعر بالذنب؟ للأسف أنا في منطقة شعورية محايدة.. لست بالحزين لموته ولا بالسعيد؟ لا أشعر

بالذنب ولا أشعر براحة ضمير.. أنا معلق بين عالمين.. عالم الشفقة وعالم القسوة.. ذكرياتي معه لم تشفع له عندي.. لقد كنت خصمه قبل أن أعلم أنه فقد فحولته.. أليس من حق زينة.. ضحيته الجريحة.. أن أكون في صفها..؟ هل ما ارتكبه في حقها يشفع لنا أيضا ما فعلناه له؟ هل نختلف عنه؟ بل هل نختلف عن الجلاد الكبير المحاط بكلابه سليمان جبار؟

ما الذي حطمه يا ترى؟ أهو الشعور بالذنب..؟ أم الشعور بالخزي والعار؟ لو كان ندمه قويا.. جارفا.. لا يطاق على فعلته النكراء ما انتظر كل هذه السنوات ليضع حدا لعذابه.. يبدو أن كبرياءه قتله.. سيف العار أقوى من سنان الشعور بالذنب.. الشعور بالذنب يحتمل لكن الشعور بالعار لا يطاق..

أمينة خرجت من غرفتها أكثر من مرة، تبدو لي مرتبكة على غير عادتها، كأنها تنوي فتح جبهة معي الليلة، لن يطول صمتها.. أشعر بها تصارع شيئا ما.. أشعر بها راغبة في شيء ما.. أيكون سريري؟ مترددة.. تدخل المطبخ.. تحضر قنينة ماء.. تعب الماء عبا.. تنفسها يفضح اضطرابها.. تستجمع قواه.. تنظر إلي برهة.. تطلق زفيرا طويلا.. وتقول وهي تبحث عن الكلمات:

- أريد الحديث معك..

يا رب.. مضى زمن طويل لم أسمعها تطلب طلبا من هذا النوع.. أي حديث هذا ترنو إليه معي؟ هل علمت شيئا عن علاقتي بزينة؟ هل أخبرها الشيظمي بشيء قبل سفره انتقاما مني؟ هل لاحظت تبدل أحوالي وأعراض السعادة في سكناتي وحركاتي؟ فبعض النساء يؤولن

طفح السعادة عند الرجال، بوجود امرأة أخرى؟ لكن.. أعلم أن الأمر ما كان ليهمها.. منذ سنين استقالت من وظيفتها على سرير الزوجية.. وحصرت نفسها في زاوية جد ضيقة.. لم أحاسبها يوما على حق من حقوقي العادية..والحقيقة أن كبريائي منعني من أعطيها انطباعا أن الأمر ساءني..تجاهلتها كما تجاهلتني.. وعوضت برودة سريري، بدف أسرة بنات الليل.. وبالعلاقات العابرة.. كنت فقط أبحث عن توازني..كنت أقوي صمودي أمام تمنعها بعلاقات جنسية عابرة.. كنت أخشى من ضعفي لحظة الكبت.. تخرجني من حيرتي وتقول بإلحاح..:

- قل لمَ تحاول أبدا معرفة سبب رفضي تقاسم السرير معك؟

محافظا على كبريائي..أرد مصطنعا عدم اكتراثي للأمر، مركزا نظري على التلفاز:

- لا يهم.. كدت أنسى أن لي زوجة.. والأمر كان قرارك واختيارك.. لست من النوع الذي يتوسل من أجل لحظة متعة.. السرير تناغم.. رضا.. مشاركة.. وليس أداء من طرف واحد.. رغبة مشتركة.. وليس وظيفة تؤديها المرأة في فراش زوجها.. لهذا تقبلت الأمر..

- أريدك الليلة أن تكون متفهما..

أرمي في جوفي كأسين متتابعين، أهيئ روحي لكل الاحتمالات، أتظاهر بعدم الاكتراث، تقترب مني وتقول في حزن، وأكاد أرى عينيها تغرورقان:

- رجاء.. أريدك أن تسمع هذه الليلة.. ربما لن تكون عندي الشجاعة في الأيام المقبلة..

ماذا تقول هذه المرأة..؟ تحتاج للشجاعة..؟ الشجاعة..؟ يا رب..! بماذا تريد الاعتراف هذه المخلوقة؟ أود لو أصدها.. وأدفعها للتوقف عن البوح.. لكن فضولي وكبريائي.. ألحا على عقلي في معرفة طبيعة هذا البوح، أقول لها وأنا أسرح بنظراتي بعيدا:

- أنا أسمع.. تكلمي..

- لقد فكرت الليالي الطوال.. لأتخذ هذا القرار الصعب.. نفسي لهذا اللحظة، وأنا أمني النفس بسعة صدرك.. وعفوك..

ذبت نار ساخنة في شراييني.. وأحسست بسخونة في أذني.. وأنا أردد في نفسي "أتكون العاهرة على علاقة مع غيري؟.. أتكون خانتني وتريد عفوي؟.. ماذا تظنني..؟ ديوثا بارد الرجولة لا غيرة في ولا شهامة رجل؟ هل "غسلت يديها" على كرامتي لهذه الدرجة؟ لا.. سيدتي.. أنا مغربي قح ومتفتح في كل شيء إلا في هذا الأمر.. متفتح لا متفسخ.. متحرر لا منحل.. صفح ولا عفو.. فقد نشأت في مجتمع لا يتسامح مع خيانة المرأة.. لست مستعدا لا عقليا ولا عاطفيا للعفو عن الخيانة.. خانتني إذن هذه العاهرة.. وتطلب الآن عفوي.. أي عفو أعطيك..؟ تستحقين مصير الشيظمي.. سحلا.. بل رجما بالحجارة.."

كأنها شعرت، بتناسل التأويلات في عقلي الذي لم يعد يحتمل انفجار بركان الشك الحارق.. فتقول في نبرة حزينة، عكست ضعفا ما:

- اسمع عزيز..! رجاء.. أنظر إلي.. لا تتجاهلني.. أنا في حاجة إلى كل تركيزك.. منذ تزوجنا.. كنت أتظاهر بالشعور بالنشوة وأنا بين أحضانك.. العيب ليس فيك.. في أنا.. بحثت عن السبب.. فاكتشفت أنني مصابة ببرود جنسي.. فلم أعد قادرة على لعب دور المرأة الملتهبة في فراشك.. دون استشارتك.. زرت الأطباء وأكدوا لي أن الأمر نفسي لا غير.. والحقيقة أنك كلما ضاجعتني.. إلا وكان الأمر مؤلما لي نفسيا وجسديا.. يتملكني شعور بالذنب .. أحتقر نفسي.. فأغلق كل منافذ المتعة.. فكرت أن أقاسمك شعوري وألمي.. لكني لم أستطع..

ماذا تقول هذه المرأة.. برود جنسي..؟ لقد كانت ملتهبة بين يدي.. نارا.. لهبا.. ما هذا العبث..؟ بقدر ما حيرني عذرها.. أراحني.. وأزاح فوق رقبتي سيف الخيانة الذي كان سيجهز على كرامتي وكبريائي.. سألتها، باهتمام هذه المرة:

- لماذا لذت بالصمت كل هذه السنين..؟

- كنت آمل أن أجد دفء العاطفة فيك، ليجد جسمي توازنه.. لكن الأمر القاسي الذي سبب لي هذا الخوف، والبرود الجنسي، هو أكبر بكثير من أن أكشف سره بسهولة.. هناك حقيقة لم يسبق لي أن صرحت بها لك.. لم أعد قادرة على تحمل الشعور بالذنب.. واحتقار نفسي.. لقد تعرضت للاغتصاب عدة مرات..

تنهار وتنخرط في نوبة بكاء وعويل وهي تلتطم صدرها وتصرخ:

- اغتصبني خالي.. اغتال براءتي.. جرحني جرحا لن يشفى.. أبدا.. يا ويلي..!

تختلط في صدري مشاعر الغضب والشفقة، أدنو منها أجلسها على الأريكة، بعدما كاد أن يغمى عليها، أسقيها كأس ماء.. تستمر في النحيب.. أشد على يدها في حزن وعطف.. أسألها في حنو:

- يا أمينة.. اهدئي.. وقولي لي.. هل لك خال على قيد الحياة..؟
- نعم.. مات قبل الزواج بك بسنوات.. لقد كان وحشا..قضى عمره في السجون.. مددا مختلفة.. منحرفا.. طاغية.. استغلني.. وعبث ببراءتي وعمري لم يتجاوز العاشرة.. ثم فض بكارتي.. وأنا في السادسة عشرة من عمري.. تزوجت أمي بأبي وسكنا مع جدي.. وكان لخالي غرفة على السطوح.. يستغل غياب الجميع أو تواجدي بمفردي على السطح.. لينقض علي كالذئب.. مات في حادثة سير.. ظننت أنني تخلصت من شبحه.. من تسلله الليلي إلى غرفتي.. من انقضاضه علي في جنح الظلام.. لكن هيهات.. ظلت أصابعه تسكن جسدي.. ظل صوته مرعبا في عقلي وقلبي.. ظلت صورته مخيفة.. قاسية تتسلل إلي كلما اقتربت مني.. أو لمستني..كنت أحيانا أراه فيك.. بل أراه في كل الرجال..
- لكني تزوجتك بكرا.. عذراء..

تضع راحة كفها على فمها، في وجل عكستها عيناه بريقا وجحوظا وفي حزن طاغ على نبرة صوتها تردف:

- خدعتك للمرأة الثانية.. رممت عذريتي.. بكارتي.. عند طبيب نساء.. قبل أن تدخل بي..

هل كنت غبيا.. حتى لا أميز بين بكارة مرممة وأخرى حقيقية؟ وما الفرق بينهما؟ لا أدري؟.. في الحقيقة، لقد رأيت بقع الدم وكانت كافية لأفتخر بعذريتها.. لم أشك لحظة في الأمر.. هل أرحمها؟ هل أشفق عليها؟ هل هي ضحية؟

- لمَ لم تخبري أباك.. أمك.. أخاك.. أحدا من العائلة.. الشرطة..؟
- في البداية.. كان الخوف منه يمنعني من البوح لأمي على الأقل.. مع الوقت أصبحت أخاف على أمي وأبي منه.. كان يهددني بقتلهما.. إذا أخبرتهما بشيء.. أما أخي فكما تعلم كان أصغر مني سنا..

تطرق الجبين حزنا وخجلا، تقول في حسرة:

- يا ويلي من نفسي.. لم أعد أصده مع مرور الوقت.. وأصبحت أستسلم بين يديه دون ردة فعل..
- ضحكت علي.. كنت عريس الغفلة..
- هذا هو الجانب المؤلم في حياتي معك.. أما الأشد إيلاما.. فهو أنني أصبحت باردة جنسيا.. كلما اقتربت مني أداري خوفي.. وذعري المرضي.. بالشرود..
- لقد كنت سعيدة في الفراش في البداية.
- سامحني.. كنت أمثل.. كنت أدعي ذلك.. كنت أتظاهر.. في العمق كنت أتألم.. أرتعش خوفا... لي طلب عندك رجاء.. لم أعد قادرة على لعب دور المرأة السعيدة.. الملتهبة في فراشك.. طلقني.. رجاء.. أتوسل إليك..

تنخرط في بكاء شديد، تنتحب.. ثم تجثو على ركبتيها في ضعف لتقبيل قدمي، يؤلمني ضعفها، أحس بقلبي ينفطر، فأسحب قدمي.. وأقف.. صائحا:

- لا.. أمينة.. انهضي.. أتفهمك.. لكن هل ضروري الطلاق..؟ لا تهمني بكارتك التي فضت بالغصب.. كان عليك أن تقولي الحقيقة فقط.. لا أن تقدمي لي عذرية مزيفة..

تغلبني الدموع، انخرط في البكاء بشكل هستيري.. لا أحب ضعف المرأة، أشفق عليها.. أضمها إلى صدري، فتجفل كفرس خائفة.. وتصيح.. وقد اختلطت الكلمات بالنحيب الحاد:

- رجاء.. حررني من عذابي.. واغفر لي.. سامحني.. لقد فعلت المستحيل لأدفعك لاتخاذ هذا القرار.. أهملت بيتك.. تجاهلت أمك في أصعب الظروف.. أردت أن يقسو قلبك.. أن تكرهني.. أن ترمي بي خارج حياتك.. لكن للأسف.. كنت صبورا.. هادئا.. مما زاد في عذابي وشعوري بالألم.. طلقني..

استرجع شريط الأيام، وأجد تفسيرا بينا، واضحا لتجاهلها لي ولأمي، ولغضبها منها.. كانت تدفعني دفعا إلى اتخاذ قرار الانفصال..

- غدا.. نكمل الحديث..

تشدني من تلاليب ملابسي، وتصيح باكية:

- عدني بأن يظل الأمر سرا بيننا.. عدنا بأن تطلقني.. عدني..

تسمع أمي صراخها لشدته.. تغادر غرفتها.. مذعورة تدلف وهي تلهث نحونا:

- ماذا وقع.. عزيز؟ من هاته المرأة؟
- نعم أمي.. لا شيء.. عودي إلى الغرفة رجاء واستريحي..

هم أمي ينضاف إلى هم أمينة.. كيف لك يا قلبي أن تتحمل كل هذا العذاب..؟ وحدها الكأس تساعد العقل على ترميم التصدعات القوية، على تحمل هذا الزلزال الوجداني المدمر، وحدها الكأس تلقح القلب مؤقتا ضد وباء اليأس.. أمي.. مسحت من ذاكرتها أمينة، وأمينة ألفت الوضع.. وأدركت الآن سبب نقمتها المفتعلة منها.. تجرني أمي وتكاد تزل قدمها وهي تصرخ:

- اتركي ابني أيتها العاهرة.. اخرجي.. من البيت.. تعال.. ألم تمل بعد حياتك هذه؟

تغافلها أمينة، تقبل رأسها وهي تبكي مرددة:

- سامحيني.. سامحيني..

ترد أمي بقسوة:

- سأسامحك إن تركت ابني عزيز وشأنه.. هيا اخرجي..

تعود أمينة إلى غرفتها منكسرة.. محبطة.. أرافق أمي إلى غرفتها وأسندها على كتفي.. أجلس إلى جانبها.. تضع يدها على رأسي، تقرأ الفاتحة والمعوذتين.. تتمدد لتنام.. أسمعها تدحرج حبات السبحة تكبر.. تسبح.. تحمد.. توحد.. ثم تغفو.. أطفئ النور، وأخرج في هدوء، يصلني صوت التلفاز من الغرفة الأخرى حيث اعتادت أن تنام أمينة.. شدة الصراع في المسلسل.. التقطتها أذناي.. أصيب السمع..

يصلني حوار بلهجة عربية شامية.. يرن الهاتف.. أقرأ على واجهته.. اسم زينة، أرد بسرعة:

- ألو .. عزيز.. أنا زينة..
- أعرف.. هل من بأس؟
- ما بال صوتك متغير..؟ هل وقع مكروه..؟
- لا.. فقط أشعر بالتعب..

تقهقه، أشعر بنبرة الفرح في صوتها، لسانها غير ملتو، حتما هي في حالة صحو، تقول:

- ألا تريد تغيير الأجواء..؟ علينا الليلة أن نحتفل بموت "الكلب".. وعلى حسابي.. "راني توحشتك"

استرجعت لحظة إخباري لها بموت الشيظمي منتحرا شنقا، وكيف فاجأتني ردة فعلها الباردة، حيث قطعت المكالمة فورا، لا أشك الآن أنها أخذت الوقت الكافي، لتتعامل مع الموقف.. هي سعيدة لموته.. ولا أظنها ستكتفي بذلك، لابد أنها تخطط لعمها خطة جهنمية، ففي قلبها من الحقد ما يكفي لتذبح الجميع لن تكتفي.. حقدها الآن في أوج لهبه.. نار لن تخمد حتى تطال الحاج سليمان والبقية..

- ألو عزيز..هل ما زلت معي..؟
- نعم.. فقط.. غيرت المكان.. حتى لا تسمعني أمينة..

غيرت من لهجتها، وغدت لنبرتها قسوة لا تخلو من حزن وهي تردف:

- وهل يهمك أمرها..؟ المهم.. أنا أنتظرك في سيارة منير في الزقاق خلف العمارة.. لا تتركني أنتظر..

قبل أن أغادر الشقة، أنزع ورقة اليومية المعلقة على باب الشقة.. في مربعات متجاورة توزعت تفاصيل الزمن، ساعات قليلة ويبتلع الزمن رمق غشت الأخير من عام 2001 التي حبلت بأحداث غريبة..في حياتي.. أبحث أسفل الورقة عن "فأل اليوم".. أقرأ في غرابة "في العجلة الندامة وفي التأني السلامة".. تستفز مشاعري بمعناها الذي يكاد يتناغم مع اللحظة، يوشك عقلي أن يعتبرها رسالة من السماء، أفكر في الاعتذار.. لكني لم أستطع ترويض رغبتي الجامحة.

20

على الشريط الساحلي لمنطقة عين الذئاب، ينتصب ملهى "الوردة" على ربوة رملية، دون أن يشكل نشارا جماليا على الشاطئ، أضواء واجهته القوية.. والقزحية، الغامزة.. والمتغيرة الألوان والأشكال تزيد من جماليته وتميزه عن باقي "كباريهات" المنطقة.. غمزات الواجهات المضيئة تأسر القلب.. على البوابة.. ثلاثة حراس ذوو بنيات قوية، يوارون نظراتهم وراء نظرات ذات زجاج معتم، يسوون بقسوة من حين لآخر بدلاتهم الزرقاء في شموخ غريب، ولا ينفكون عن تسوية عقد أربطة العنق.. يقفون منتصبين، لا شيء يغير من قسمات وجههم القاسية، غير استقبال لزبون معروف، حيث يفسحون له المجال للدخول بابتسامة واضحة وترحيب مبالغ فيه، يعكس قيمة الزبون وموقعه الاجتماعي.

توقف منير بالسيارة على الرصيف المجاور للملهى، أسرع أحد الحراس الخطى، نحوه مد إليه المفاتيح، وهو يقول:

- أركنها في الزقاق..
- نعم .. سيدي منير..

تسبقنا زينة نحو الملهى، تتمايل في جسدها البهي، وقد ارتدت فستان أزرق محصورا عند ركبتيها، يلمع كأنه مشحون بطاقة كهربائية، بحذائها ذي الكعب العادي المغري، توقع خطوات مثيرة بطقطقات على الأرض وهي تسير في غنج نحو البوابة، أسير وراءها، يفسح لها المجال بتقدير كبير، في ممر ضيق يؤدي إلى سلم تمت تغطيته ببساط أحمر، السلم يؤدي إلى شبه دهليز تحت أرضي، ننزل معا، يدي في

يدها، ضوضاء موسيقى صاخبة تستقبلنا وسط سحابات من الدخان، في الوسط حلبة رقص سلط عليها أضواء ملونة مترنحة، وقد تدلى من سقفها كرتان بلوريتان تترنحان مرسلة أضواء مختلفة، تعمق الإحساس بالنشوة والغرابة.. فتزيد من تأجج العواطف، وتحرر الأجساد في رقص قوي، لفتيات من مختلف الأعمار، في ألبسة مثيرة، تكشف النهود وتفضح معالم الأجساد أكثر ما تسترها، شباب وكهول بل وشيوخ.. ينخرطون في الرقص.. تبادل الأنخاب، لا ينقطع.. لغط.. وصياح.. أجساد في وطيس الرقص تكاد تلتصق ببعضها بعض.. متحررة بالمفعول السحري للخمرة، والأضواء الغامزة، الساحرة.. والجموح هنا سيد الموقف.. تسحبني زينة إلى طاولة، وتجلسني، وتقول وهي تصيح قرب أذني حتى أسمعها وسط ضجيج موسيقى لا تكاد تميز كلماتها:

- سأعود بعد حين.. لا تتذمر.. خذ الأمور ببساطة..

تشير بيدها إلى النادل، ثم تختفي في غرفة وراء ستارة المرقص.

لا أعرف متى غير منير ملابسه وارتدى فستانا نسائيا مثيرا، وأصطنع صدرا مثيرا أبرز به ثدييه الضامرين أصلا، ووضع شعرا مستعارا، وطلا وجهه بمساحيق الزينة، أحمر الشفاه ساطع على شفتيه، يتقاسم طاولة مع كهل، لعبت به الخمرة، فبدا شبه غائب عن الوعي، مترنحا.. الكل يحيي منير باسمه الأنثوي دون غضاضة، وبعضهم يرفع له الأقداح نخبا، وينادونه دون حرج" في ضجة "منيرة"، يغادر طاولته، يأتي نحوي، ويقول بنبرة أنثوية:

- هذا عالمي الحقيقي.. حيث أكون أنا كما أنا..

يعانقني أشم عبق عطره قوي.. يقهقه.. وهو يقول:

- لا تخف.. أنت عزيز علي مثل أخي..

انسحب الجميع من حلبة الرقص، ثم تجلى وسط الضباب الاصطناعي المنبعث من قنوات ذات فوهات في الزوايا..محور فضي، أسطواني لامع، براق وسط الحلبة، وراقصة بلباس فاحش، مثير.. تبان رقيق بخيوط رفيعة، وحاملة أثداء يكاد الثديان ينفجران منها، وهما يتطلعان في إثارة.. تنحي قبل أن تبدأ وصلتها ..فيعم التصفيق المكان، فتبدأ الفتاة الغضة الرقص على المحور مستفزة الشهوات غير المعلنة والرغبات الدفينة، وسط ضوء يسطع ثم يخفت.. سحابة دخان اصطناعي تلفها، يصير المشهد كالسحر.. يتقدم بعض الزبناء، يمدون أياديهم للمس الجسد الصاخب.. المثير.. تدنو منهم.. تستثيرهم.. تستفز جموحهم، بحركات جنسية.. ثم تلجمهم بانسحاب سلس راقص.. حارس مفتول العضلات يقف سدا منيعا دون وصول الألغام البشرية القابلة للانفجار في أي لحظة إلى الجسد الطري، توزع الراقصة.. قبلات في الهواء.. يلتقطها البعض في نشوة.. تتقاطر الأوراق النقدية على الحلبة، في تنافس غريب بين السكارى،.. تؤدي الفتاة وصلتها.. فاسحة المجال، لفتاة أخرى، شقراء.. مثيرة.. أكاد أجزم أنها غير مغربية.. تؤدي الفتاة الدور نفسه، وسط شطحات الأضواء وإيقاعات موسيقية تساعد الجسد على ممارسة لعبة الغواية..

حين تنتهي وصلات الرقص المحوري، تخرج زينة.. على مسرح صغير.. تؤدي وصلة غنائية، أمازيغية رائعة.. جبلية العمق، أطلسية الإيقاع.. شجية.. يهتز السكارى لمواويلها، يرشونها بالأوراق النقدية،

تسمح لهم بالرقص على المسرح.. يراقصها هذا.. ويمطرها ذاك بجوده.. لكن لا أحد تجاوز حده..

وبعد ساعة من الغناء التحقت بطاولتي.. سترت جسدها، بلحاف فضي يومض تحت الأضواء.. مثير شفاف.. تجلس وهي ترد على الأنخاب، وعلى المديح بالابتسامات..

- لنحتفل بموت الكلب..

تفتح قنينة "ويسكي" وتسكب.. تملأ كأسين، ثم تفاجأ بـ"منير" يجلس على الطاولة:

- نحتفل جميعا.. لستما وحدكما..

تضحك.. تدفع بكأسها ليقرع كأسي، يدس منير كأسه بين كأسينا.. تعبه عبا.. وتقول ولم يزغ البصر بعد:

- هذه مهنتي.. لكن لا تظن أنني عاهرة.. لا أحد يمس شعرة من رأسي.. أنا فنانة..

لذت بالصمت وأنا في ذهول مما رأيت، هذا عالم غريب عني كل الغرابة، فراقصة المحور كانت بلغارية الأصل حسب كلام زينة.. وفي هذا الفضاء.. قنوات متعددة لتبذير الأموال.. لتبديدها.. بلا ألم ولا حسرة.. لم تكن بالقليلة، بل كانت الأوراق النقدية من فئة 200 درهما تؤدى رزما، أو ترمى تحت أقدام الراقصات.. وكانت الفواتير تبلغ بسهولة الملايين، كل شيء هنا مباح، من شم الكوكايين إلى تدخين لفافات الحشيش، وابتلاع أقراص السعادة.. كل شيء له مفتاحه.. المال.. بعض الرجال يقبلون الفتيات في زوايا مظلمة، وآخرون يكتفون

بالمداعبة، والتقبيل والعناق.. كأن الكل مغيب.. لا قانون هنا غير قانون المال والجاه والسلطة.. تنظر إلي زينة وتقول:

- أرأيت أين تصرف الأموال بدون حساب..؟

- ومن أين لهم كل هاته الأموال؟

في سخرية ترد:

- ما يأتي بسهولة دون عرق ولا تعب يصرف بسهولة..

- لم أفهم..

- هنا.. تبذر أموال الرشاوى.. والمخدرات.. وليس عليك أن تنبش كثيرا في الأمر.. دعنا من هذا.. قل ما الذي قتل الشيظمي أهو الخوف أم الذل؟

- أظنهما معا.. ربما خاف أن تبلغي عنه.. ربما خنقه الإحساس بالعار.. ربما هما معا..

- وهل لأمثاله شرف.. وشهامة؟ لم يقتله غير الجبن.. صدقني.. لو لم يكن جبانا.. نذلا ما نفذ جريمته النكراء إرضاء لعمي.. وطمعا في فتات موائده العفنة..

- حتى المجرمون لهم شرف.. بل أحيانا الشرف هو الذي يقوي الانتماء إلى أعتى المافيات..

- المرحلة القادمة.. لابد أن أنفذ الجزء المهم من الخطة.. لن أدع عمي الجبان يرتع في نعيمه دون رقيب ولا حساب.. سأجعله يندم على اليوم الذي ولدته أمه فيه.. أقسم أن أجعله أضحوكة بين الناس..

- وما السبيل إليه وهو محاط بالجاه والسلطة والمال.. وكلابه شرسة من البشر الأنذال؟
- لكل رجل نقطة ضعف.. الجشع والجنس هما مفتاحه.. لننس الأمر الآن.. ولكل شيء أوان..

تشعل سيجارة، تمتص دخانها بنهم، تملأ لي الكأس تلوى الأخرى، يغادر الطاولة منير، يطوف حول الطاولات الأخرى، مبتسما، معانقا.. مقبلا.. ساقيا هذا، ومغيرا للأخر المرمدة، أو ناهرا النادل، داعيا إياه أن ينظف طاولة ما.. تجرني إلى مشرب آخر في عمق الملهى، هنا ألتقي زبيدة وراء المقصف، يظهر صدرها عاريا، مستفزا للشهوات.. مثيرا.. تشرئب بعنقها.. وتقبلني.. وتقول بلكنة جميلة:

- بونسوار..

أكتشف الآن أن زبيدة لعبت دور المنظفة بإتقان، لأني الآن أمام امرأة عصرية.. تتكلم الفرنسية.. وتجيد خلط "الكوكتيل".. تسقيني كأسا.. تفوح بنكهة وتقول وهي مبتسمة:

- لنحتفل ببداية جديدة..

على المشرب.. فتيات رفقة رجال.. الغريب أن أعمارهن أصغر بكثير من مرافقيهن من الرجال.. الكهول والشيوخ أحيانا.. هذا الفضاء الصغير الموجود في عمق الملهى، لا موسيقى صاخبة فيه، فقط عازف حالم يغازل رفوف البيانو.. وهدوء رومانسي جميل.. انخرط مع زبيدة في حديث ثنائي دون أن أشغلها عن أداء مهامها:

- زبيدة.. أنا لا أعرف عنك شيئا.. صورتك القديمة تبددت الآن.. لم تعودي زبيدة الخادمة.. وبالمناسبة.. لم تتقني الدور جيدا.. أتذكر محنتك وأنت تحملين القفف.. خانتك أصابعك غير المعتادة على الأشغال المضنية.. وكدت أن تفضحي نفسك ومنيرا يوم تظاهرت بالغضب منه.. يا داهية..!

تقهقه فتسترعي انتباه الزبناء، ضحكتها العالية، وتقول في مكر:

- ألم أربكك أنت أيضا؟ كدت تسقط في المصيدة تلك الليلة لو الشيظمي الذي أنقذك من إغرائي وماذا تريد أن تعرف؟
- ومن لا يسقط في شباكك يا ماكرة!؟
- ماذا تريد أن تعرف عني يا أمير الماكرين؟

أبتسم أتجرح جرعات من كأسي.. وأنا أرفعها عاليا، نخبا لها وأقول:

- لا أعرف بالضبط.. لكن.. اعذريني.. الأمر لا يعدو كونه فضولا.. لا تعيري الأمر اهتماما..
- أتريد أن تعرف..؟ أسمع إذن.. فلا أحد منا بلا مأساة.. ولا فتاة ملهى أو حانة اختارت هذه الطريق حبا ورضا.. أبدا.. كلهن ضحايا.. صدقني..
- أعرف.. أنهن مكرهات لم يختاروا العمل في هذه الأجواء عن طيب خاطر..

تسكب لنفسها كأس نبيذ، تسند ذقنها بيدها ومرفقها على المشرب يسند رأسها وتقول وهي تنظر:

"أنا "مزابية" الأصل.. كبرت في إحدى قبائل "مزاب"، أرض الرجال والكبرياء، أرض الصالحين والأسياد حصلت على البكالوريا.. والتحقت بالجامعة بالدار البيضاء.. كنت مخطوبة لابن عمي.. لا أعرف كيف سقطت في شراك أحد الأساتذة، كانت تجربة مؤلمة لي، أحببته.. وظننته فارس أحلامي، فتوطدت علاقتي به.. أعطيته ذاتي طواعية.. كان يقول لي إن مسألة زواجنا هي مسألة وقت فقط..

عدت في الصيف إلى بيت الوالد، وانتظرت أن يأتي لخطبتي والزواج مني، عمي بدأ يلح، ولم يكن ممكنا أن أجلب العار لأسرتي.. فلم أعد عذراء.. عدت إلى الدار البيضاء أبحث عنه.. فصدمت عندما عملت أنه تزوج بأستاذة زميلة له وذهبا للعمل في قطر.. لم أجد مخرجا لي من ورطتي سوى العمل في الحانات، جمالي وتكويني جعلاني أحصل على عمل في أحسن الملاهي.. إلى أن التقيت بشارل.."

- من هو شارل..؟
- إنه العجوز الجالس هناك.. على الطاولة في الركن المظلم، حيث تضيء طاولته شمعة..

ألتفت ورائي، ظهر لي عجوز ضخم الجثة، فائض البطن، أشيب زغب الذراعين والحاجبين.. حليق الرأس، يدخن سيجارا ويلهو بدوائر الدخان التي صارت واضحة وسط خفوت الضوء، أمامه قنينة نبيذ في سطل فضي، وكأس كروي بساق رقيقة وقاعدة دائرية:

- وما علاقتك به؟

- أنه هو التي انتشلني من الضياع، رغم أنه لم يتزوجني، لأني أعاشره معاشرة الزوجة لزوجته.. ببساطة أنا خليلته.. أو قل عشيقته..
- هل انقطعت علاقتك بأسرتك..؟
- طبعا.. وماذا تنتظر أن يستقبلوني استقبال المنتصرين.. أقسم والدي ألا أدخل البيت وإن رآني يقتلني ويرمي بجثتي جيفة للكلاب.. وحدها أمي من حين لآخر أراها.. تتذرع بزيارة أحد أخوالي في الدار البيضاء فأراها.. دعنا من هذا.. خذ كوكتيل بالأناناس..

عند الفجر.. نغادر جميعا، يقود السيارة منير، بجانبه زبيدة، وأنا وزينة في المقاعد الخلفية، تضع رأسها على كتفي.. وتغفو.. قارئ الأقراص، يمنحنا هدوءا نفسيا وهو يطلق موسيقى هادئة، يملأ صوت المؤذن فجأة الأجواء، يطفئ منير بحركة عفوية سريعة القارئ.. ينتظر نهاية الآذان.. استغرب لسلوكه وهو يرهف السمع وقد تغيرت ملامح وجهه، كأنه فزع من شيء ما، تنهيداته تختلط وتنهيدات زبيدة التي قالت في أسى:

- الله يعفو عنا..

يرد عليها بنبرة أسى قوية:

- يا رب.. آمين..

على الطريق.. صخب السكارى لا رادع له، مشاجرات وشتائم فاحشة على الملأ.. بنات الليل في صراخ وضجة وتلاسن.. من أجل الزبائن.. مشادات هنا وهناك.. كائنات تفرغ ما في بطنها على

الأرصفة، سيارات نفيسة.. تتسابق في جنون، يطل بعض ركابها من سقوفها المفتوحة، يصرخون.. يغنون.. يلوحون بالقنينات.. يقذفون بها.. فتتشظى على الطريق أو الأرصفة..

ضباب مفاجئ لم أعهده بالدار البيضاء مطلع شتنبر، صعب الرؤية، لف السيارة فجأة لفة مفاجئة.. دون سابق إنذار، يغير منير الأضواء ويجعلها قوية، ليبدد كثافته ثم يشعل سيجارة، بعدما شغل ماسح الزجاج، يتوقف في الطريق فجأة.. يتوارى وراء شجرة، ليتبول.. يتبادر إلى ذهني سؤال سخيف، ترى هل يتبول واقفا أما جالسا؟

مع إقامة صلاة الفجر، نلج شقة 11 يناير، من كثرة التعب يتوزع الجميع على الأرائك المختلفة.. غير أن زينة تسحبني في دلال وتهتك وهي تنظر إلى عيني نظرات ماجنة وتهمس:

- "الحب ديالي أجي معي.." هذه هي غرفتك.. معي..

تسبقني إليها.. أعود من دورة المياه، أجد منامة على السرير، أغير ملابسي، زينة مستلقية في ملابسها دون تغيير وقد غطت في نوم عميق، أنزع حذاءها.. أسوي جسدها على السرير، أضع وسادة تحت رأسها، أندس تحت الغطاء، أطفئ النور.. فإذا بيدها تتلمس طريقها نحوي.. وهي تقول مغمضة العينين:

- أين أنت يا حبيبي؟ فينك يا عمري..؟

لا أرد عليها.. أضمها.. تضع رأسها على صدري.. وتعود للنوم.. وددت ما تبقى من هذه الليلة أن أحكي لها عن مرض أمي، وحديثي مع أمينة.. لكن يبدو أن عياءها كان شديدا.. نفسيا وعصبيا أكثر منه

جسديا.. أيقظني أكثر من مرة هذيانها وهي نائمة، كانت تهدد.. تتوعد.. تبكي.. تتشنج.. ثم تهدأ.. كانت تبكي أحيانا وأخرى تضحك.. تعاملت مع الوضع بهدوء.. وجرني التعب جرا إلى النوم العميق.. لولا طائف طاف بخلدي ثم تسلل إلى روحي فأيقظني لحظة ورجعه يدوي في أعماقي مقلقا..ثم شق طريقه نحو مملكة الهواجس "ماذا لو التقط لي أحد صورا، أو سجل شريطا لي في الملهى؟".. من شدة السكر.. صوت آخر عابث مناصر للمجون والسهر.. جريء ضد الهاجس يصده "وليكن.. فليذهبوا إلى الجحيم"

21

صحوت عند الظهيرة، بصعوبة أغادر الفراش.. يأسرني مشهد زينة وهي ممددة وقد تبعثرت ملابسها، تتقلب في الفراش.. ظننت أنها ستنهض، بيد أنها عادت لتغط في النوم.. أشعر بإرهاق شديد وجسمي يؤلمني.. يصلني ضجيج التلفاز من صالون الشقة.. أجاهد نفسي أدلف خارجا.. أجد زبيدة مستلقية على الأريكة تتابع برنامجا ما بالفرنسية.. أحييها..

- صباح الخير زبيدة..

بكل ود وأدب.. ترد على تحيتي مبتسما في انشراح:

- صباح النور.. هل نمت جيدا
- نعم.. شكرا..

بخفة ورشاقة، تنهض نحو المطبخ.. تحضر الفطور، أمد يدي فقط إلى فنجان القهوة، أشعل السيجارة توا، أعزز بها صحوي، أسألها في تعب ظاهر ومازال التثاؤب يغلبني ويعصر جسدي تكاسلا:

- أين منير؟
- منير.. خرج.. أظنه في مقهى فرنسا..

أشعل سيجارة ثانية.. وأتخذ مكانا في شرفة تطل على زقاق ضيق، أتكئ على الحاجز الإسمنتي المشبك، أكنس الممر بنظري، تيار ريح معتدلة محملة بالرطوبة تلطف اليوم الأول من شتنبر معلنة عن بداية زمن التقلبات.. ينعشني التيار، أشرع له وجهي.. يخف الصداع الذي يلم برأسي صبيحة لكل ليلة أفرط فيها في الشرب.. السماء صافية، إلا

من سحابات خفيفة مبعثرة، كرقع بيضاء في ثوب أزرق.. أسراب النوارس، تحلق بعيدا في الأفق، في طريقها نحو المرفأ.. حمامتان متلازمتان في التحليق كعاشقين ترفرفان قرب الشرفة، رفيف الأجنحة يزيد المشهد بهاء.. تحطان على حافة السقف القرميدي الأخضر لبيت قديم متهالك.. تحلقان من جديد ثم تجثمان قرب بركة ماء صغيرة خلفتها قناة ماء ثر ماؤها لتصدع فيها، فطفقت بحيرة ماء تتشكل، تحط قربهما الطيور والحمائم لترتوي.. عشرات الفتيات يلجن الممر حيث يوجد معمل للملابس، يمررن كظلال باهتة في صمت غريب إلا من همس خافت، في بدلات موحدة اللون.. بيضاء.. يتفرقن على محلات بيع الوجبات السريعة.. متفاديات المتشردين، الذين تبعث مظاهرهم البئيسة، وحالتهم الرثة، المزرية على الشفقة والرحمة وقد اختلطتا بالخوف والرهبة.. بعض المتشردين الذين يقضون الليل على عتبات ومداخل العمارات الخربة ، وبين أنقاضها الباردة المخيفة.. يرتبون أسمالهم.. ثم يتوزعون في الأزقة.. يستجدون الطعام أمام المحلات.. أحدهم يدس ورق الكارتون الذي اتخذه فراشا ولحافا وراء سور متهالك لبيت مهجور، حيث تتراكم الأتربة والحجارة التي تتخلص منها العربات والشاحنات في جنح الظلام.. من وراء ركام حجارة وأتربة ومتلاشيات أطلال بيت قديم خرب، يمرق متشرد آخر.. يغسل وجهه بقنينة ماء استخرجها من متاعه المكون من أغطية مغبرة وسخة، يفرك شعر رأسه بقوة، ويجلس مع الآخرين على عتبة العمارة، ثم ينهمك في شم كحول الصباغة من جوف كيس بلاستيكي.

أحد حراس السيارات.. يبدو أنه من ذوي السوابق، ندب غائر واضح على وجهه، يعلن شراسته، وندوب أخرى دقيقة كثيرة على ساعديه وقد امتزجت بوشوم غريبة، وبثور شوهت وجهه.. تراكمت على جبينه وخديه، زادت من بشاعته.. بقسوة يتجه مهرولا.. غاضبا.. مزبدا ومرغيا.. نحو المتشردين، ويركلهم واحدا تلو الآخر ناهرا في قسوة صارخا في غضب انتفخت له أوداجه "سيروا بحالكم"

أحدهم كث اللحية في فوضى، أشعث، مغبر الشعر، ينتعل حذاءا قديما مختلف الفردتين، ينهض تم يسقط، رغم أنه يبدو شابا في الثلاثينيات، تخر قواه، ينهض من جديد، ويرد على الحارس "دعني أترزق الله، أنت حسود.." رد المتشرد يؤجج غضب الحارس، يلوح بعصاه متجها نحوه، يمنعه أحد المارة، يتراجع الحارس وهو يردد "انظر إليه، رائحة الكحول تنبعث منه، إنه يخيف العاملات.. إنهم يتبولون داخل العمارات ويزعجون الناس"

يستوقفني منظر زبيدة وقد خرجت للتبضع، في جلبابها الأزرق تعبر الطريق نحو الممر تتوقف برهة عند الحارس الليلي، استجابة لقسمه "والله.. لالة زبيدة، لن تدخلي للعمارة حتى تشربي هذا الكأس"، ترمي بالشاي في جوفها بسرعة، وتخطو نحو العمارة، مخلفة وراءها ذهول الحارس من طقطقة كعب حذائها العالي، عيناه تتابعان في شهوة خطوها وتمايل جسدها، يشيعها بنظره لهفة مفضوحة إلى أن تختفي داخل العمارة.

لا أدري كم قضيت من الوقت على الشرفة، حيث استلقيت على كرسي وغلبني النوم، لاستيقظ على صوت زبيدة:

- أستاذ الغذاء جاهز..

قبل أن أجلس للغذاء.. أتصل بالمكتب، لأبلغ صابر عدم قدرتي على الحضور مدعيا المرض، يرن الهاتف طويلا.. يصلني صوته:

- وي، شكون؟
- سلام.. و"فيناك؟".. "غبرتي آ صاحبي".. و"بزاف.." مالك.. هل ألفت "الصعلكة"؟
- سلام.. رجاء تكلف بملفاتي.. أشعر بالعياء..
- يتثاءب أدرك ذلك من تغير إيقاع العبارات، أردف قائلا:
- أوكي، لكن ماذا بك؟
- زكام خفيف..
- زكام.. أم أفرطت في الشرب..؟
- زكام وخمر.. لا يهم.. المهم أنني لا أستطيع المجيء..
- "تهلاى ف راسك".. باي..

يقفل الخط.. ما إن هممت للجلوس حول مائدة الغذاء حتى رن الهاتف من جديد:

- ألو شكون؟
- أنا أمينة..
- أمينة..؟
- أين أنت؟

بح صوتها فجأة، وتقطعت أنفاسها، واختلط كلامها بالبكاء..

- اهدئي.. تكلمي.. ما بك؟
- أمك مريضة جدا.. لا أعرف ما أفعل.. لقد غابت عن الوعي.. احضر حالا.. حالا..

يخفق قلبي خفقان المذعور، وأشعر بدوار كدت أسقط من أثره، أبحث عن الكلمات وقد جف حلقي:

- "أش وقع لها"..؟ تكلمي.. انطقي..

فقط رنين حرارة الهاتف، انقطع الاتصال دون أعرف، مما أربكني وتملكني لاضطراب الذي أضعف ركبتي، أشعل سيجارة خطأ من "فلترها"، وأسحب دخانا ساما كاد يخنقني، أغرق في سعال محرج للأنفاس، أنطلق خارجا كالمجنون، وزبيدة في أثري حتى غادرت العمارة، تردد:

- لا تخف.. سيكون خيرا أن شاء الله.. اللطف يا رب.

لا أجد الزمن في عقلي وقلبي لأرد عليها.. أرمي بنفسي في أول سيارة أجرة، ولا شيء غير صدى هواجسي يملأ تضاريس مدني الداخلية.

22

لم يسبق لي أن عشت مشهد احتضار لشخص ما، أو حضرت مشهد الرمق الأخير للإنسان.. اللحظات الأخيرة له وهو يجود بأنفاسه الأخيرة، الموت بالنسبة لي كان غامضا.. لغزا مركبا.. أتفادى الخوض في تفاصيله وتحديد تجلياته.. ترعبني مشاهد الموت المتعددة على القنوات.. فأهرب منها إلى ما يلهيني عن الأسئلة المرتبطة بلحظة الانتقال من عالم إلى عالم..أو التبدد في الفراغ.. في ظلمة العدم.. لم أشك يوما أننا هنا عابرون لا مقيمون.. لم أشك لحظة في كوننا ننتهي في حفرة عفنة وتنقطع صلتنا بوجود آخر مؤجل.. فضلت دائما عدم التدقيق في الأسئلة الوجودية.. أحيانا كثيرة، المعرفة القلبية الإيمانية تحمل الأمل للقلوب المحطمة وللأرواح المقهورة..

ما العمل والتي تجود بأنفاسها الأخيرة.. الآن وأمامي عيني.. أمي.. حبيبتي.. الشخص الوحيد الذي أنتمي إليه في هذا الوجود..؟ فحتى أبي لا أعرف أين هو.. منذ رحل وأنا ملفوف في خرق الرضع.. كأن الزمن توقف.. والسواد تمدد من الصدر لتصطبغ به الجدران والظلال.. ضوء شمس العصر مازال دافئا وقويا، غير أن عتمة ما تسربت من وجداني.. كادت أن تطفئ كل بصيص نور ورجفة برد، سرت في فرائصي، أمي الآن ممددة على سريرها، يكاد الهواء لا يصل إلى صدرها، خرخرة.. حشرجة.. غرغرة.. كأن روحها علقت في حلقومها، صدرها يعلو بقوه وينخفض، أشعر بنار تحرق أضلعي، أناديها:

- أمي.. أمي...

لا ترد العزيزة.. الغالية.. إنها في المنطقة الفاصلة بين الحياة والموت، وهو هذا الزمن الأشق على نفسي، رغبت لو انتقلت إلى ربها انتقالا يسيرا.. سريعا.. يجنبني هذا الاعتصار ويجنبها اعتصار الاحتضار..هذا السفود الملتهب الذي يخترق صدري، لم تسعفني الدموع، فظلت حبيسة المآقي.. أشعر بها.. مترددة.. متوارية.. في المدامع.. متحجرة.. لكنها تأبى أن تبرد حرقتي.

على السرير جلس الفقيه قرب أمي، يتلو آيات من القرآن، ويهمس في أذنها الشهادة، عل عقلها يلتقطها، فترددها في الخاطر إن ثقل اللسان، وقد كانت من قبل أخف وأيسر على اللسان والجنان، ينقع قطعة قطن في ماء ويبلل به فمها، ثم يقطرها على شفتيها.. آه.. حتى القطرة صارت عصية على العبور نحو الصدر لتخفف ضمة الموت.. يناديها:

- لالة حبيبة.. الشهادة.. قولي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

عاجز أنا.. عاجز عقليا ووجداني وبدنيا عن فعل أي شيء أمام سنن الطبيعة، ونداء السماء للأرواح حزين إلى حد الانهيار بين الانتظار والرجاء المجهض.. وسط إعصار مشاعري المضطربة.. يغمرني القلق الجارف والترح القاتل، وأنا أرى سبابة عاجزة عن الشهادة، وهي التي أحصت دون كلل وضجر آلاف التسبيحات.. وفي هذه اللحظة الفاصلة ليس مطلوب من العقل سوى صمود ووعي لحظة، للاحتفال بالموت لا الخوف منه ببضع كلمات روحية تفصل الحق عن الباطل، تمني الروح بجنة عدن، وتجعل من ضمة الردى أهون وأرحم، والشهادتان

بهيتان على الشفتين.. تخففان وطأة الوجل والسقوط في المجهول بضع كلمات تجعل العسير يسيرا.. اليوم فقط وعييت وفهمت دعاء الناس الذي كان يبدو عاديا "اللهم تبثنا على الشهادة" والحقيقة أن الثبات علي لحظة الاحتضار معجزة لا ينجزها غير قلب مؤمن مؤيد برحمة القهار الجبار.

أنظر في وجه أمي.. أشعر بها.. كأن أمي سمعت نداء الفقيه، وإن شخص البصر.. كأن السمع آخر المودعين ضوضاء الحواس ومتعة الأشياء، تحاول النطق بالشهادة.. رعشة على الشفتين، وسبابة مرفوعة لواء المؤمنة في رحلة العبور نحو السلام الروحي.. هنا.. في هذه اللحظة يعز الإيمان، ويذل النكران.. هنا.. في هذا العبور.. من لا يحتاج إلا سكينة الطفرة الغاشية..؟

وجه أمينة أراه متغيرا ممتقعا..شاحبا..اختلط لديها الخوف والحزن والندم، لا تكف عن شد يدي أمي، وتقبيل جبينها، والدعاء لها، أسمع حشرجة في صدر أمي، ثم غرغرة.. فنفس أخير تجود معه بروحها.. ويظل اللواء مرفوعا.. فيهدأ الجسد.. ويستريح من السكرات.. تصرخ أمينة وهي تلطم خديها وصدرها:

- خالتي حبيبة.. خالتي..

ينهرها الفقيه بقوة وقسوة:

- أصمتي يا امرأة.. لا تعذبيها بالنحيب واللطم.. هذا حرام

إن لم تلطمي اليوم يا أمينة! فمتى يجوز النحيب والندب؟ إن لم أبك وأضعف وأنهار الساعة، فمتى يحق للرجال أن يبكوا ويضعفوا؟ هذا

الجسد الذي انتزعت روحه نزعا.. لأمي.. أمي.. أمي.. وربك يا فقيه! إن كان البكاء على الحبيبة حرام، فهو حلال اليوم.. فابكي يا أمينة.. ابكيها.. فلن يبكيها غيرنا.. اندبي.. مزقي تلابيبك.. تمرغي في الأرض.. لا يمكن للعزيزة الطاهرة أن ترحل وليس في أذنيها نحيب مكلوم أو صارخ مجروح..

يقترب الفقيه من أمي، يغمض عينيها، وينزع طاقم أسنانها، يسوى فكيها مغلقا الفم، مستعينا برباط من ثوب أبيض.. ويقول في خشوع:

- رحمها الله..عظم الله أجركم.. كل نفس ذائقة الموت.. كن ابنا صالحا.. ادع لها.. هذا ما تبقى لها من الدنيا.. دعاؤك بني.. كن قويا.. وتذكر قول الله سبحانه وتعالى "وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون..".

وماذا بقي لي أنا في الدنيا..؟ تبددت ذخيرتي الروحية، وتغلبني الدموع رغما عني.. أجهش بالبكاء، فأتجنب الظهور بمظهر الضعف.. رباه! ألا يليق الضعف بالرجال في مثل هذا الموقف؟ رباه!.. إن كان البكاء والضعف مباحين للرجل، فهذا هو يوم الانهيار والنحيب.. رغما عني اغرورقت عيناي ثم انهمرت العبرات رقراقة تبرد حرقتي، أتجلد فأئد رغبة قوية في النشيج، فهذا موقف لم يسبق لي أن عشته، أمينة تصرخ، ثم تلطم صدرها وتنخرط في العويل، ينهرها الفقيه مرة ثانية نهرا شديدا صائحا في حزم" اصمتي.. لا تلطمي.. ألم أقل لك أن ذاك يعذبها؟".. فتنزوي في غرفتها.. باكية في حرقة بعيدة عن العيون ورقابة الفقيه الشرسة.. أثار استغرابي.. كيف تبكي أمينة أمي بكاء حارقا وهي التي أهملتها لسنين وهي حية بيننا..؟ أهو ألم الحسرة والندم أم حرقة الفراق؟

لم يتأخر صابر عندما أخبرته بمكالمة هاتفية، جاء رفقة لطيفة وأعضاء من النقابة، الذين تكفلوا بالجنازة والإجراءات الإدارية للدفن.

أمام بوابة العمارة نصبت خيمتان للعزاء، واحدة للنساء وأخرى للرجال، أول المعزين من قاطني العمارة كان سي المهدي، الذي خانته عيناه فاغرورقت وكان لموت أمي أثر كبير عليه، حيث بدا لي مكسور الجناحين، منهارا.. أخد مكان مع حفظة القرآن، يردد كواحد منهم سورا قرآنية بصوت جماعي، في جو مهيب، تقشعر له الأبدان وتخشع له القلوب، وحدها أجواء الموت، تلجم الرغبات وترهب كواسر الغابات الداخلية، استغربت لأم الصبي المتكبرة وآخرين يتركون شققهم وكانوا ينفرون من السلام في الردهات، نزلوا لخيمتي العزاء، وعزوني بحرارة وحرقة.. غريب.. أمر أهل هذه العمارة.. لم يجمعنا لا فرح ولا سلام، وجمعنا موت أمي.. وحضر الحاج سليمان ورفيقاه.. عزاني قائلا:

- أصبر كلنا لها.. هل أنت في حاجة إلى المال؟ لا تخجل.. كلنا يهمنا الأمر..
- "كاين كل الخير".. شكرا.. الله يرحم الوالدين..

عجبا! جاء الحاج سليمان معزيا لا كباقي المعزين، من كان دعمهم كلاما منحوتا.. محنطا في دهاليز المجاملات.. لو اكتفى بالكلام لكان أصدق وقعا في قلبي.. هم كذلك.. تلك ثقافة الجبروت.. كل الأقفال مفتاحها المال.. حتى أقفال الصدر والقلوب..

يدلف نحو خيمة الرجال، يفسح "لسي عبد العزيز" المجلس بين قراء القرآن، يشاركهم في القراءة الجماعية.. وحين توقفوا، تصدى للموعظة، يعظ الناس وهم به مشدوهون.. مفتونون.. لفصاحة في

لسان.. وخشوع في خطاب.. وقوة في بيان.. وسلاسة في بلاغة، حد البكاء.. في ثقة الخطيب المفوه تحدث عن الموت، والآخرة.. والعذاب.. والحلال والحرام.. والصبر..

رغم أن موت الحبيبة أمي شغلني، لم يفوت عقلي المناسبة، ليجرني إلى جحيم الأسئلة، كيف لهذا الرجل العالم بالحرام والحلال.. الذي يعظ الناس موعظة تقشعر لها الأبدان.. أن يجمع في حياته بين التناقضات..؟ هو السند والواجهة لـ"سي سليمان جبار".. يؤازره ظالما لا مظلوما.. يقاسمه العبث والغصب.. من أين يستمد كل هذه القدرة على التأقلم مع الظروف.. والأهواء المختلفة..؟ كيف ينام؟

قبل الغروب كانت أمي تحت الثرى في مقبرة الغفران، لحظة خروج موكب الجنازة، حز في قلبي أني أودعها وحيدا بلا أب ولا عم ولا خالة، أحملها إلى مثواها الأخير، بين الأغراب.. لمحت زينة رفقة منير أمام باب العمارة، تقدمت نحوي، وقالت في صوت خافت.. حزين:

- شق على أن أتركك وحدك في هذه المحنة.. الله يرحمها..
- شكرا لحضورك..

تمنيت لو كان بإمكاني أن أرتمي في حضنها وأبكي بلا رادع ولا خجل.. نظرت في عينيها محطما مكسور الجناحين وقلت لها:

- سأكون في أمس الحاجة إليك.. صرت وحيدا الآن..

عانقني منير بحرارة، بصدق جارف وهو يبكي كطفل صغير.. رباه! ما أصدق بكاؤه.. وما أروع روحه.. دمعه حارق.. نشيجه يخرج من شغاف القلب فيعصر مآقيه بصدق وصفاء.. حدسي تؤشر بوصلته

على صدق مشاعر هذا الكائن المتحير.. لم يخب حدسي أبدا حين يتعلق الأمر بالمشاعر، لم أعرف لمَ كنت في حاجة إلى عناق صادق.. دافئ من هذا النوع.. عناق منير اليوم أعظم عزاء لروحي وقلبي..

انسحبا معا وغيمة حزن تخيم على نظراتهما.. أشارت لي زبيدة من نافذة السيارة إشارة الدعم والمساندة قبل أن ينطلق منير في جنون واضح، تنبهت إلى صابر ولطيفة يتجاذبان أطراف الحديث وهما يتعقبان بنظرات استياء السيارة..

انفض كل من كان حولي.. عادت أمينة إلى صمتها.. أغلقت عليها غرفتها، بعدما ودعت أمها التي حضرت مراسيم العزاء والدفن، فطمت نفسها عن التلفاز لقدسية اليوم، احتراما لحدادي، أخذت مقعدا لي على الشرفة، وجلست أجتر الذكريات وقلبي يتقطع عند كل محطة كانت فيها أمي شاهدة.. وحاضرة، تحضرني صورتها وهي تجاهد نفسها من أجل إعداد الطعام لي، كنت أشعر بها تتنفس من خلال هذه المهام البسيطة، كانت أمي تركب قارب الوجود في يم بيتي المتلاطم الأمواج، فيكاد مرارا أن تتكسر أضلاعه على شاطئ صخري اسمه لغط أمينة التي كشفت لي مؤخرا عن تعمدها خلق الشنآن معها، لزرع الحقد في قلبي، واللجوء إلى تطليقها، كانت أمي تهيئ لي فطوري فتجدد علاقتها بالحياة، ترتب الوسائد والأغطية، فتنسج خيط رفيعا يربطها بالأمل بضوء الوجود.. بالزمن.. بالفضاء.. فالعطالة عتمة.. انتحار صامت في دوامة الفراغ..كنت أشعر بها في كل حركة من حركاتها تبحث عن دور لها وسط عالم جديد لم تألف فيه أن تعيش على هامشه، تكابد السكري، الذي يرغمها على التبول كثيرا، أحيانا يغلبها

التبول، فتتهاوى مثانتها قبل الدخول لدورة المياه، وكم تظاهرت أنني لا أعلم، ولم أر شيئا، فتغير ملابسها مرارا، وتصر على غسلها بنفسها، كنت أشعر بمرارتها، أشعر بذاك الكبرياء الذي ينهار على معاول جسد تختل وظائفه، وتنشر الشيخوخة فوضى كبيرة على خرائطه، حينما كنت أراها تهرع إلى غرفتها مرتبكة كان ينفطر قلبي لحد الغيبوبة، وأنا أنظر في عينيها الغارقتين في الهلع والحزن العميق، فأعي أن جسدها خذلها مرة أخرى.. وهي الآن تحت سياط الإحساس بالعار.

أستحضر حادثة، سقوطها في المطبخ، وهي تحاول فتح خزانة الأواني العالية.. أتذكر خجلها من أصابعها المرتجفة التي لم تعد قادرة على أداء بعض الأشغال المنزلية.. خوفا عليها من المواقد.. وتجنبا لإحراجها، بعدما لاحظت عجزها عن قدح زند الولاعة لإشعال نار الفرن المنزلي، اشتريت إبريقا كهربائيا، وغيرت معالم المطبخ، وترتيب الأواني، بحيث يكون كل شيء سهل التناول.. قريبا من يديها، حتى لا تبذل مجهودا أكبر، رغم احتجاج أمينة، التي كانت لا تتوقف عن الترديد أنه على أمي أن تترك هذا الأمر لها وتكتفي بالصلاة والتسبيح، لم أكن أفهم سلوك أمينة وقسوتها حينذاك.. لم أكن أعرف من أين أتت بتلك الرؤية المأساوية في الوجود، ولا كيف حسمت في حياة أمي وحددت ما يجب والمباح والمحظور، واعتبرت أن مشوارها في الحياة توقف.. وأن عليها فقط أن تنتظر ساعة الرحيل.. بالصلاة والعبادة.. بيد أنني الليلة لا ألومها على قسوتها، وأنا أتفهم عمق جراحها.. رغم أنها اختارت طريقة ملتوية لتضع نهاية لزواجنا.. الذي بدا أنه لم يعد له معنى.. وعلي أن أباشر إجراءات الطلاق رحمة بها واحتراما لكرامتي..

أجول أرجاء المطبخ، فتحضرني صورة أمي وإلحاحها وعزيمتها رغم أصابعها المرتجفة وذاكرتها المختلة، إصرارها على القيام بأشياء قد تبدو دون معنى، لكنها كانت تحيا وتتنفس هواء الوجود من خلالها، كالأوامر التي تمطرني بها من حين لآخر، كنت أفهم عتاب أمي الذي يصل لدرجة النهر والقسوة، أمي فقط كانت تريد أن تظل موجودة.. حية..

يمنعني الموقف، والعرف من تناول كأس تمسح كآبتي، أمي الآن رحلت.. دون أن أتمكن من توديعها.. أمي..! آه..! أمي رحلت وأخذت معها سكينة الروح، وتعويذتي ضد اليأس من رحمة الله وعنايته.. من سيصالحني مع السماء بعد اليوم؟ من سيحصن أيامي من الشر بالدعاء بعد اليوم؟

23

لم يطل مقام أمينة في الشقة، انتظرت ربما شفقة بي أو ربما حرجا أو التزاما بالأعراف أربعين ليلة، وبعد أربعينية أمي غادرت في صمت إلى بيت أهلها، فكان الطلاق رسميا بيننا بحر الخريف.

أما أنا فغادرت الشقة التي أصبحت فارغة وموحشة، لا شيء بين أرجائها إلا ظلال قاتمة للذكريات الموجعة، وبقية أنفاس محزنة في الأثاث وثنايا الأغطية تهز كياني هزا عنيفا وتفطر القلب وهي تنعش في خاطري صورا مؤلمة لأمي، تحت إلحاح زينة المستمر التي خشت علي من أثر الوحدة ومشقة العيش وعيشي بلا رفيق ولا مؤنس، فالتحقت بها بشقة بشارع 11 يناير، معها، فعدت شقتها عنوان ومقامي الجديدين ودعت أنفاس الراحلة العزيزة، مرتويا بطيفها الذي ما انفك يرعاني، وآنس به في غربتي ووحدتي.. مدعنا لإلحاح الكل بما فيهم منير الذي عاد إلى شقته بشارع ابن تأسفين، وزبيدة التي صارت تتردد علينا من حين لآخر، إذ كانت تقضي معظم الأيام مع "شارل" في مسكن صيفي في المنطقة الساحلية ببسكورة.

ذات ليلة من شهر أكتوبر، اتصلت بي أم أمينة، مستعطفة أن أحضر إلى بيتها حالا، مؤكدة أن أمينة تم القبض عليها. التحقنا معا بمركز الدرك، فصدمت حينما أطلعت وقرأت مضامين المحضر، الذي أفاد فيه حراس مقبرة الرحمة أنهم ضبطوا امرأة تنبش قبرا في جنح الظلام، ورجح المحققون وقد اعتادوا مثل هذه القضايا أن تكون العملية متعلقة بالسحر والشعوذة، طلبت رؤيتها فاستجيب لي..

صدمني وهالني منظرها المزري والمبكي.. فقد تغيرت كثيرا المرأة الذي تزوجتها.. تغيرت إلى درجة أن معالم وجهها ذبلت وشاخت ملامحها في بضعة شهور.. اختفت الإشراقة والحياة في العينين.. وجيوب عميقة وهالات سوداء كأنها علة تقتات من اللحم والجلد والضوء، صارت مظلمة النظرة، يابسة الشفتين، كأنها تقدمت في السن سريعا.. تعب ظاهر وإنهاك جلي في هزال كأنها لم تذق الطعام منذ شهور، ولم تغف عيناها..تخط بأصبعها على الجدار ما لا يرى ولا تقرؤه غيرها، ثم تنخرط في نوبة ضحك وبكاء وصراخ.. حافية القدمين، تلوح للحارس الذي يسهر على سلامتها خوفا من أن تضر نفسها.. وتقول:

- سأحرقه.. والله سأحرقه.. ولو أخذتموه إلى الجحيم.. سألحق به.. وهناك.. سأحرقه..

تجلس.. وتعود إلى الحديث إلى نفسها بكلام غير واضح، ترتب ملابسها المبعثرة في اضطراب نفسي لا غبار عليه، وتنفض عن شعرها التراب في محاولة يائسة لتسويته وقد طاله طين لزج، وتنخرط بين اللحظة والأخرى في بكاء يختلط بالضحك وتنتقل من حديث إلى آخر.. مع كائنات لا تراه إلا هي. كنت أمامها أحدثها فلا تسمعني بينما تحاورني شخصي في خيالها وفي العالم الذي شط عقلها إليه، دنوت منها وفي حنو والحزن هدني والرحمة تعصر مدامعي ألما وحسرة وصدري فيه غضب من الزمن والأيام والأقدار.. قلت:

- أمينة.. أرجوك.. أنظري إلي.. كلميني.. أنا عزيز.. أعرف أنك ظلمت كفاية.. لكن.. لا عليك.. سينتقم لك الله.. ومن يدري؟ ربما هو الآن في عذاب عند المنتقم الجبار.. فاهدئي..

لم تعرني أدني انتباه أو اهتمام بدوت أني خارج مجال التقاط بصرها وعقلها.. ظهرت لي أنها في عالم آخر غير عالمنا لقد تجاوزت خط التماس بين العقل والجنون.. ألح عليها.. مشفقا.. باكيا.. مربتا على ظهرها:

- أمينة.. أنا عزيز.. أنظري إليَّ..

كأن بصرها بغتة التقطني.. تسرب إلى قلبي بصيص أمل في أن تحدثني، لكن كان رجاء خائبا ومطلبا مجهضا، إذا صرخت في وجهي :

- كلكم كلاب.. كلاب.. عفن.. أنذال..

تغدو فجأة هادئة في شرود، متخشبة.. عيناها جاحظتان مركزة النظرات على وجهي في غياب شبه تام عما يحيط بها، يكاد لا يرفل لها رمش، ثم ترتعش شفتاه، وينتفض جسدها كأن قلبها أنعش بصعقة كهربائية قوية، تتقلص عضلات وجهها، وتميل برأسها في حركات رتيبة وهي تردد "لا.. يا خالي.. أرجوك.. ليس هذه الليلة.. اتركني" ثم تتكوم في الزاوية وتغطي وجهها بيديها كأن أمرا رهيبا أفزعها.. تهدأ.. تضحك.. تبكي.. تدنو حبوا مني في حيطة بخطى حذرة كأنها متربصة بي تحملق في كأنها تستطلع وجهها يذكرها بشيء، حتى حسبتها في لحظة صفاء فارقة، ثم تقول في نبرة صوت تتلون بين الفظة والرقة وقد اختلط فيها الضحك والبكاء:

- أريد أن أحرقه.. خالي.. الكلب.. المجرم.. أريد حرقه.. أين هو؟ أين هو؟ خذوني إليه..

تصرخ في وجهي.. تنتصب واقفة في صلابة وعنف، تنقض على عنقي بسرعة غريبة، تطوقه بيديها بقوة لا أعرف من أين ولا كيف تأتت لهذا الجسد الهزيل الواهن.. أشعر بالاختناق وأعجز عن ردعها، يهرع نحوي الحارس يساعدني في تخليص رقبتي من يديها. ثم يقيدها بالأصداف إلى سرير حديدي وهو يقول متلعثما.. مشفقا من حالها:

- عذرا.. عذرا.. أستاذ.. أكره تصفيد امرأة.. وخصوصا إن كانت مريضة.. لكنها صارت خطرة على نفسها وعلى الغير.. لا خيار لدي.. العفو من عند الله..

لا أجد ردا أواجه به قرار الحارس الذي بدا لي متأثرا بالموقف.. أنصرف أجر ذيول الخيبة والحسرة في حزن شديد.. أتوقف لحظة لالتقاط أنفاسي في ردهة المركز.. أستند الجدار، وأطرق الجبين ويداي تخفيان وجهي، يغلبني الألم فتجيش عيناي دمعا حارقا حزنا وكمدا بكاء ونحيشا، يفيض قلبي حتى تتقطع أنفاسي ويضيف نفسي على امرأة كانت سيدة العقل والصحو..

أدلف منكسرا في خطى المهزوم مكتب الضابط المسؤول وقد كان شابا في مقتبل العمر، لبيب الحديث طيب اللسان، مرح الروح. يصغي لمرافعتي خارج الأعراف القانونية في اهتمام وأسى.. وأنا أقول ومن حين لآخر أمسح دمعي وأتوقف لسقي صدري بمزيد من الهواء لتطريف حنجرة بحت فكحت:

- سيدي.. أطمع في سعة صدرك.. وأن تنسى أنني محام.. أخاطب فيك الآن.. الأخ الأمغر.. والابن.. هذه السيدة التي ضاعت في جنون باد لا غبار عليه، كانت زوجتي، وطلقتها نزولا عند رغبتها

الطلاق.. أتعرف ما السبب..؟ ذاك القبر الذي كانت تحاول نبشه هو لخالها السيء الذكر الذي مات في حادثة سير.. لقد اغتصبها وهي صغيرة، ودأب على فعلته الشنعاء لسنوات.. كان يرغمها على ابتلاع أقراص منع الحمل وممارسة الجنس.. لم تؤثر فيه توسلاها وبكائها.. بل كلما كبرت.. زاد شبقه.. لم يرحمها طفلة صغيرة.. ولا مراهقة يافعة.. كانت تكتم الأمر على العائلة.. فقد كان مجرما طاغيا.. خريج سجون.. يتوعدها ويهددها بقتل الكل إن هي فضحت أمره.. في غرفة على السطوح في بيت عائلة أمها حيث استقر والداها، استمر في اغتيال البراءة، وتدنيس الطفولة، ثم جعل منها عاهرة له ليلا وهو يعود مترنحا تحت تأثير أقراص الهلوسة.. لقد سبق له أن قضى عشر سنوات في جريمة قتل لنديم له.. لم تكن له من لغة غير السكين.. و"الماء القاطع".. إنها تشعر بيده العفنة في كل بقعة من جسدها.. إنها تشم رائحته في كل رجل.. إنها تراه عند كل لمسة.. سيدي.. إنها عاجزة عن الحياة حياة جنسية طبيعية.. تخاف من الرجال.. وتخاف من أي علاقة جنسية.. أرجوك أن تتفهم أمرها.. أن ترحمها.. ها هي النتيجة جنون جارف.. وجحيم حارق..

طرق الضابط جبينه، وطفق يفرك ذقنه متأملا.. يفكر بعمق وبروية، ثم استقام واقفا.. وتقدم نحوي.. ربت على كتفي.. لامست في عينيه مسحة حزن، أصدر زفيرا وهو يقول:

- لن أكون أقل إنسانية منك.. هي في حاجة إلى العلاج.. سأفعل سابقة في حياتي.. رجاء خذها معك.. ولينظر الله إليها بعين الرحمة..

لم يكن هناك شك أنها أصيبت بلوثة في عقلها وجنونها شديد، هذا ما أكده الطبيب، الذي أقر في شهادته أنها غير مسؤولة عن أفعالها، وأنها في حاجة إلى الخضوع للعلاج، لأن لها ميولات انتحارية.

قابلت حراس المقبرة، فأكدوا جميعا في أسى وحسرة أنهم شاهدوها تنبش القبر بأظافرها.. وبقطعة خشب.. بيد أنهم ما إن سمعوا حكايتها، حتى رقت قلوبهم، ورأيت الدموع في عيني رئيسهم الذي استدرك مغيرا روايته، هو ينظر إلى رفاقه في حزم وهم يؤيدون كلامه بهز رؤوسهم، ربما شفقة وقال "في الحقيقة.. كان الظلام شديدا.. سمعنا فقط صوتها وهي تتوعد.. المسكينة" وأنا أهم بمغادرة المقبرة.. التقطت أذناي كلام أحدهم: "ذاك المجرم خالها كان يستحق الحرق حيا"

حينما علمت زينة بالخبر، وقد كتمت عنها سبب طلاق أمينة.. رق قلبها، وجاشت عيناها تأثرا، كأن الحدث المأساوي ألمها ونكأ جراحها التي لا تندمل أبدا وقالت لي:

- هيئ نفسك.. حبيبي عزيز.. لقد وضعت خطة لعمي سليمان..
- ألن تنسي.. الموضوع أبدا..؟ اقلبي الصفحة.. وابدئي حياة جديدة..
- يا ريت.. عزيز.. يا حبيبي.. الأمر أقوى مني.. هو الدافع نفسه الذي دفع أمينة نبش قبر الجبان.. وتحاول حرق جثته.. لن تطيب

نفسي وتقر عيني حتى أراه يتعذب كما عذبني.. ويموت حيا كما مات أبي كمدا وأمي حزنا، سأدمره كما دمر حياتي وخرب حياة الناس فمسخ قريتي.. تلك القرية الساحرة التي حولها إلى أطلال خربة.. وماخور كبير..

- سأخرج لأنفس عن نفسي.. سأذهب لحانة الطاحونة الحمراء..
- إن عدت باكرا.. لا تنتظرني.. سأكون في الملهى.. ربما يأتي معي منير أو زبيدة..
- لا بأس..

أقبلها.. أضع سترتي دون أعقد ربطة العنق.. أهم بالخروج.. تستوقفني، تسوي ربطة عنقي وترشني بعطر عبق وترسم قبلة على شفتي.. أتذكر أمي أيام الجامعة.. وأتذكر أيامي الأولى مع أمينة..

ألم عابر ألم بي على مستوى ظهري، فقررت ألا أجلس على المقاعد العالية قبالة المشرب، اتخذت طاولة في عمق الحانة وانتظرت، أن يضع لي النادل كعادته قنينة جعة.. طال انتظاري، صفقت بيدي فجاء شاب مسرعا وقال في أدب:

- مساء الخير.. سيدي.. نعم..
- أين الساقي العجوز الذي كان يعمل على المشرب؟
- آه..! سي عبد الفتاح.. مات.. رحمه الله..
- وأين نادية؟

يجول بنظره المكان كأنه يبحث عن شيء:

- يا لخفتها!.. لقد كانت هنا.. منذ لحظة.. ربما دخلت دورة المياه..

وضع النادل وقد كان شاب يافعا ممتلئا بالحيوية والنشاط جعة على الطاولة، وصحن زيتون، وآخر فيه قطع الفجل، وهمس في أذني:

- مرحبا.. أن هنا لخدمتك..
- قل كيف مات العجوز؟
- كان منهمكا في الشغل نهاية الأسبوع الماضي، فسقط مغشيا عليه، ظن الجميع في البداية أن الأمر لا يعدو كونه "دوخة" أو أزمة سكر.. لكن حينما أتت سيارة الإسعاف رفضت نقله.. فقد فارق الحياة.. فنقل إلى مصلحة الطب الشرعي بسيارة نقل الأموات.. قالوا إنه مات جراء أزمة قلبية مفاجئة..

انصرف في خفة لتلبية نداء زبون وفي طريقه صادف نادية، همس في أدنها.. التفتت نحوي ابتسمت وخطت نحو الطاولة في تهتك وقد هيجت الصدور بزيها الشفاف، ونحرها المكشوف، وقد تطلع في شهوة وإثارة نهديها، يضاعف قوة سلاح هذا الجسد القاتل للحكمة، طقطقة الكعبين الحاملين لجسد يرقص مشيا رقصة يؤلف موسيقاها الغواية والكأس، دنت بوجهها من وجهي، وانحنت متكئة على الطاولة بمرفقيها وقالت في فجور ونظرات زائغة:

- منذ أخذتك منا تلك الجميلة.. "سمحت فينا.." اشتقنا إليك يا رجل.. أين ضل مركبك وتاه؟ هل غيرت المركب أم المرسى؟ قل يا لئيم..
- لا.. أبدا.. فقط مشاغل الدنيا..

يرتفع ضوضاء وراء المشرب، ترتبك نادية وتعود إلى المشرب، يظهر الحاج بوشعيب مالك الحانة ذو الجبهة العريضة، والجمجمة الكبيرة الفائضة جوانبها، يقرع بشدة ووسفاهة مسير الحانة "ولد الراضي" سبا وشتما بذيئين وهو ينفث في غطرسة في وجهه دخان سيجاره الكوبي، وولد الراضي يواجه الموقف المخزي وهذا السادي بطأطأة الرأس في ذل وهامة، حتى إذا ما تجرأ المسكين وحاول الإجابة عن أسئلته الهاطلة بلا رحمة في استحياء وخوف، صدها صدا عنيفا الحاج بوشعيب بجره من تلابيب قميصه ونهره وخضه.. مشهد يتكرر كثيرا في هذه الحانة التي يجد صاحبها متعة غريبة في تأنيب وتأديب الندل والسقاة والساقيات بالشتم الفاحش البذيء، والركل أحيانا، وقد يتمادى فيلطم هذا ويصفع تلك.. ضحاياه كانوا فقط يصمتون وتبكي النساء منهن في المراحيض بحرقة أمام أنظار الضاوية منظفة دورة المياه القبيحة الوجه والطبع والخلق، فلا تقاسمهن الألم بالعزاء والمواساة، بل تبرع في الشماتة، وتبدع في تبرير غضب صاحب الجبهة العريضة، ملتمسة له الأعذار تلوى الأعذار في أخطاء وهفوات تصطنعها للآخرين، وضحايا صاحب السيجار الكوبي،لا يردون ولا يحتجون.. ولا يدافعون أمام شماتة المرأة القبيحة.. فهم يعلمون أنها عينه وأذنه وقوادته التي تنتقي له من الفتيات اللواتي يرتدن الحانة أجملهن وأكثرهن طراوة والأصغر.. وخصوصا الجديدات منهن في عالم الدعارة، وكانت تأشيرة المرور للعمل في حانة تمنح على سريره الفاحش، أما اللواتي يعافهن فهن مطالبات بدفع الزبون للاستهلاك كثيرا حتى يثمل باحتساء أغلى الخمور، وقد يألف الزبون الحضن فيألف الحانة، وهذا نصر للمومس يقربها أكثر من

صاحب الشأن والقرار، لهذا تعددت العلاقات الطويلة والحميمية هنا، وأبرعهن في اصطياد الزبناء ودفعهم إلى الإفلاس نادية جميلة الجميلات، أما أنا فكلهن يعرفنني، ملقحا كفاية ضد غوايتهن وأدرك الأخطار المحدقة لدوامة اتخاذ خليلة من الحانة..

يهدأ الوضع بانصراف الحاج بوشعيب، وقد تسابق بعض الزبناء لتحيته والسلام عليه في ابتسامات مزيفة وانحناءات خفيفة، وباختفائه عن الأعين في هرولة تسبقه كرشه تتغير المواقف والأحلاف، فيواسي بعض السكارى "ولد الراضي" مستنكرين فظاظة وقسوة الحاج بوشعيب، حتى إذا ما ألح عليهم البول تغير اللسان والمنطق والقضية فيتغير له الحلف، فيلعنون المسير الذي صار في حلفهم المؤقت غير أمين على مال الرجل وهم شهود على ذلك وينتقدون تهاون وتقاعس بعض الندل والساقيات الذين غدوا في منطقهم الجديد جلادين ولصوصا، فيتفهمون ويفهموا غضب الرجل الذي يغدو على مسمع من الضاوية طيبا يخاف الله.. وأمثاله قليلون..

أستحضر برودة دم الساقي عبد الفتاح.. العجوز.. وهدوئه الغريب أمام عاصفة صاحب الجبهة العريضة، كأن الذل صار جزءا من خلاياه والمهانة غدت عنصرا في دمه. أذكر يوم قبل قدم سيده، وقد منعه من العمل بعدما بلغ الستين عاما وصار ثقيلا.. منتهي الصلاحية بعدما أفنى زهرة عمره هنا.. هنا، أستحضر ذاك اليوم في حسرة، ين بكى وانتحب وهو يقول "لن تأخذوني من هذا المكان إلا محملا على نعش.. لن يفرقنا إلا الموت.." فاستجاب الموت لنداء العجوز وجاءه في غفلة منه وهو لاه ..

عادت نادية إلى رفقتي، وهي تتأفف وتأسف دون موقف محدد.. لم أر عز الدين خليل نادية، كدت أسالها، لكن فجأة ظهر لي يلج الحانة وليس على ديدنه.. منكسر الجناحين.. منهارا.. متثاقل الخطو.. مبعثر الثياب، كأن هما كبيرا أنهك كاهله، حارس الحانة لم يقف له عندما رآه كالمعتاد واكتفي بالنظر إليه نظرة اشمئزاز قاسية أثارت استغرابي.

ظننت أن نادية ستغادر طاولتي فور وصوله، فهو الحبيب والعاشق ورجلها الذي لا تنازعها فيه أخرى، بيد أنها ظلت على حالها، وجلس هو على طاولة وحيدا، لم يسرع إليه النادل، حتى صاح في غيظ واضح:

- ألن نشرب الليلة؟ أينك أيها.. ابن العاهرة؟

استجابة النادل كانت ثقيلة.. متلكئة.. فيها شيء من التجاهل المريب والاستفزاز الظاهر ما يوتر أعصاب أي زبون.. رد عليه وهو يضع له قنينة نبيذ رخيص "خذ يا ابن العاهرة.. لا ينطق بذلك إلا عاهر من عهر خرج" لم يعر حميد حارس الحانة الأمر أي اهتمام فقط فاه ببضع كلمات "يا لطيف.. عاد من جديد.." أثار الأمر حفيظتي، فحتى صحنا الفجل والزيتون حرم منهما.. وطفق يملأ الكأس تلو الكأس، ويشعل سجائر رخيصة وهو يحدج نادية بنظرات وقاسية.. غاضبة..غريبة حتى خشيت على نفسي من غيرته.. وأثار انتباهي حذاؤه الملطخ بالوحل، وشعره غير المصفف.. المغبر.. وملابسه المجعدة غير المكوية منذ أيام. طلبت جعة لنادية، واسترقت النظر إلى عز الدين بشكل متقطع حتى لا أثير حفيظته، فبدا لي منقبض الأسارير في حنق

وهو يرمق نادية بنظرات قاسية، وقد جاش صدره غضبا حتما، فهي لم تعره انتباها وتجاهلته تجاهل البعير الأجرب، همست في أذن نادية:

- –ماذا وقع؟ أهذا هو عز الدين..؟ ما باله في هذه الحالة الرثة؟

تقول بعدما غيرت وضع جلوسها، وصار ظهرها في مواجهة طاولته في سخرية:

- نعم.. هو .. دارت به الأيام.. غرقت السفينة..

قلت لها في حيرة:

- كيف وهو الذي كان كمن يغرف المال من بئر لا تجف؟
- الغبي.. لم يحسن التصرف.. كان له محل لبيع الأواني الفضية في سوق درب عمر.. يبيع بالجملة، تورط في شيكات بدون رصيد، وتراكمت عليه الديون، فتم بيع المحل في مزاد علني عقب دعوة قضائية من لدن الدائنين لأداء الديون، وتغطية الحسابات الفارغة يروجون عني ظلما أنه اشترى لي شقة.. وملأ حسابي برصيد كبير من المال، وحصلت منه على حلي كثيرة من الذهب.. وحين أفلس.. تخلصت منه.. هذا كذب وافتراء.. فقد لا أريده أن يكون عالة علي.. أمضى شهرا في السجن.. يأتي إلى هنا.. ويطلب الخمر من الزبناء.. الحاج.. لم يعد يرغب فيه.. وفاتورة ديونه هنا أصبحت طويلة وثقيلة.

أردد في نفسي في حسرة "فعلا.. يا نادية..! غرقت السفينة.. ومن أغرقها غيرك؟" وتحضرني صورة ذاك الجمركي، الذي أفسلته وتخلت عنه.. فوجدوه ذات فجر معلقا بحبل في غابة على الطريق..

بددت الكأس تردد عز الدين وحلت عقدة لسنان.. فصاح بنظرات زائغة موجها الكلام إليَّ:

- أستاذ.. احترس من العاهرات.. "رد بالك .." يأكلونك لحما ويرمونك عظما.. لا ثقة فيهن.. لا دين لهن ولا ملة.. إنهن غربان تنهش اللحم.. إنهن "مسخوطات" لا أمان لهن.. الله ينعل.. أمهم..

لم أشأ الرد عليه ولا التجاوب معه، كلمت النادل أن يسأله عما يريد شربه، فوضع له قنينة نبيذ أخرى، فلوح لي عز الدين بيده قائلا في تثاقل:

- العز للرجال.. حواء لا خير فيها.. و"ماشي" كل الرجال رجال.. ما أكثر المنافقين.. يلعقون مؤخرتك من أجل المال..

كان بالطبع يلمز بكلماته لنادية، التي تجاهلته، وتفادت الرد عليه فنهضت في حنق مهرولة وهي تتأفف في ضجر/ مكتفية بحدجه بنظرات غاضبة، ثم قصدت المشرب تطقطق كعبي حذائها وتهز ردفيها، وهو يقول مستهزئا:

- لا يهم.. دخلنا "الجردة" وعرفنا ما فيها.. ماذا بقي غير العفن..

فجأة.. يرفع عقيرته ببكاء ثم تختلط دموعه بضحكة هستيرية، تشير نادية بعينيها إلى الحارس يتقدم نحوه غاضبا يسكته وهو يهزه هزا قويا من تلابيبه.. يهينه.. ينهره.. مهددا إياه بالطرد.. ثم ينصرف وهو يدمدم:

- المرة القادة والله لن أدعه يدخل..

ينهض نحو دورة المياه تظل الضاوية في مكانها، تضع منديلا على أنفها، كأنها تتجنب نتانة ما.. يخرج.. ترمقه بنظرة احتقار.. وبالأمس كان المرحب به ترحيب الأبطال.. ألم تكن ترش طريقه ببخاخ عطر التفاح، وتفتح له دورة ماء خاصة.. وله عندها علبة مناديل خاصة؟ يسوي كرشه داخل سرواله وهو يردد "لي ما عندو فلوس كلامو مسوس".. "القوادة تبقى غير قوادة.."

الحياة غريبة حقا، ها هو عز الدين الآمر والناهي في الحانة بالأمس القريب، صار كالبعير الأجرب.. الكل يتجنبه، بدءا من خليلته نادية التي ما إن أفلسته حتى أعلنت إفلاس العلاقة معه، فلم يكن يربطها إياه إلا ماله، وكرمه الحاتمي، ووقد كان بينهما عشق ولا عشق روميو وجولييت..وحتى الضاوية التي تسبق دخوله برش بخاخ معطر طيب الرائحة، صارت تضع المحرمة الورقية على أنفها إن مر بجانبها، ولم تعد تفتح له المرحاض الخاص بذوي المال والجاه، والمثير أن حارس الحانة مستعد توا لرميه للخارج وهو الذي كان يستقبله استقبال الأمراء، مبتسما منحنيا، عارضا خدماته، طاردا كل من يزعجه ،لم تعد نكتته تضحك أحدا، وهم الذين ضجوا ضجة بالأمس لنكتته التافهة والسخيفة.. قد كانت نكتة منه ولو سخيفة، يستجيب لها أكثر رواد الحانة ضحكا عاليا.. وثناء على الرجل.. الذي لم تعد تقرع الأنخاب باسمه، وهو الذي كان يعد من أحسن الزبناء وأنبلهم، كانوا يكيلون له المديح وهو يكرمهم بالكؤوس والوجبات، ويجود على الجميع دون حساب.. ما باله اليوم فقد ثروته ففقد أصدقاءه وخليلته واحترامه..؟ للأسف ما يشترى بالمال.. يضيع مع الزمان.

كثر لغطه.. وهذيانه من هم جارف هدام للنفوس ركبه حتى انقض ظهره، لابد أن الندم والحسرة يأكلان قلبه الآن ويقتاتان في نهم من جلده ويحطبان لنارهما من أحراج خيبته.. الكأس حتما ستنبش في القديم وتربطه بالحاضر المر.. ستخرجه قاسيا..أليما.. يرشح بالأنين والآهات.. سيكبر غضبه مع كل كأس يرمي بها في جوفه التي غدت حطبا لنار غضبه وحقده، في عينيه انطفأ بريق الأمل وحلت محله شرارة حمراء تؤشر على ضغينة متمردة وأحقاد تتسع في الصدر وتشعل لهبها في البصر، كل كأس تزيده حنقا وتوترا.. خاصم وعاتب.. وجه لكمات لكائنات لا يراها غيره في لحظة طيش عقلي.. كلم الفراغ حاسب وحاكم.. سب وشتم.. هدد وتوعد.. لكن.. الغضب لم يكتف بالتنفيس الداخلي، فنظر جهة نادية.. وأشار إليها بإصبعه.. واقفا.. مترنحا.. أسقط قنينة النبيذ.. فتذمرت الضاوية وتأففت في ضجر، ولوت شفتيها في شماتة وسخرية، وقست الليلة على الرجل الذي طالما زفته إلى المرحاض الخاص بعلية السكارى زفة العريس بالابتسامة، والعطر والتهليل.. رفع صوته بالصياح "يا عاهرة.. يا نادية.. اسمعوا اسمها الحقيقي.. السعدية.. وهي "عروبية".. تربت بين الروث والبعر.. وكانت تتغوط في الخلاء بين شجر الصبار تمسح مؤخرتها بالحجارة.. "خانزة".. شبعت اليوم بعد جوع.. كم صرفت عليك.. وعلى قوادتك الضاوية.. وأنت يا "فيدور".. يا حميد اللعين..!. كم جئت إلي متوسلا في الأعياد.. أنسيت أنني كنت أرسلك لتحضره؟ كنت مستعدا لعرض زوجتك.. أمك.. يا ابن الكلبة.. والليلة تريد أن تظهر بمظهر الرجولة.. وما أنت غير قواد"

شرارة الغضب الشديد تلمع في عيني حميد.. مع كل كلمة كان عز الدين يطلقها كانت لغما ينفجر فيطال كبرياءه وكبرياء نادية التي كادت أن تندب خديها.. فامتدت يده بلكمة قوية إلى وجهه، فسقط مغشيا عليه.. ولم يكتف بما فعل.. بل ركله في بطنه ركلا وصب جام غضبه حتى نفس غيظه وتنفست معه نادية .. ولولا أن ولد الراضي الذي أمر بوقف السحل.. بنظرة منه.. وبغمزة عين فهم حميد المطلوب منه، فأخرجه محمولا على الأكتاف يعينه على ذلك الشاب النادل الجديد، الذي بدا متذمرا مستاء.. كأنه لم يكن راضيا عما يقع.. ففي نظرته شيء من الشفقة تفضحه، وعضه لشفته السفلى دليل أنه غير راض على فعلة الحارس.. بل على مصير عز الدين.. ولكن العين بصيرة واليد قصيرة.. وحتى يتمكن الحارس من إخفاء الجريمة، وإنكار أنه كان في الحانة.. ثم رميه على الرصيف.. وعاد السكون إلى الحانة.. وعرجت نادية على قنينة ويسكي، تتجرع كؤوسا متتالية بلا ماء ولا ثلج وقد شردت نظراتها وبطل غنجها وتعطل تهتكها وتلاش انشراح الوجه، وضوضاء الجسد.

لذت بصمتي كالعادة.. وقد سحلت مع عز الدين مرتين دون ضرب ولا ركل حين كنت متفرجا سلبيا وحين جاريت توجسي وقلت "الأمر لا يهمني" فلم تكن لي الجرأة لأعبر عن رفضي لهذا العنف الغادر ولا الشجاعة الكافية على الأقل للاستنكار، وعقلي يحذرني من التهور.. مرددا في الأعماق"لكل معركة أتباع.. وأنت هنا لا أتباع لك.. ومن لا أتباع له تصير الحقيقة بين يديه باطلا.. فلا تكن شهيدا في قضية باطلة.. خاسرة منذ البداية.. فليتحمل مسؤولية ما وقع فهو

الذي تسبب لنفسه في كل شيء.. كان يعيش على الوهم فانتهى قربانا على مذبح الغدر والخذلان"

تغيرت معالم هذا العالم، فصار بلا خرائط واضحة.. وجنت بوصلة الإنسانية.. نادية، لأول مرة تطلب مني أن أرسل إليها جعة، أمتثل وهي تعلم أنني لست من النوع الذي يتخذ نديمة في البار، لأني أعرف من المآسي ما يكفي عن رجال خربت بيوتهم، طردوا من أعمالهم، وصاروا متشردين بسبب مومسات الحانات.. اللواتي لا عاشق لهن غير القادر على الدفع أكثر.. المومس برميل بنزين والخمر عود كبريت.. من يجمعهما يشعل حرائق في حياته.. لا تنطفئ إلا وهو على عتبة الخراب والتيه.

لم يفاجئني السقوط المدوي لعز الدين، فالنتيجة كانت منتظرة، لأنه صنع عالما من خرق الوهم..صنع حظوة مزيفة بالمال ورشوة الضمائر وشراء الذمم ، ومثل هذه المواقع التي يكون سلم الصعود إليها فساد في القلوب وثقوب في العقول باستمالة الأحلاف برشوة مقنعة أو عطاء يشتري الذمم.. تنهار بنضوب العطاء وتتدهور بفراغ الجيوب، ثم يصير ركامها ثقلا على الضحية إن لك يكن هو نفسه جلادا تحبس أنفاسه بالخيبة والندم المتأخر.. لهذا لم يفاجئني تفرق الناس عنه، وانفراط عقد حلفه، ولم أصب بالدهشة وأنا أرى من كان حبيب الكل صار عدو نفسه لا شفيع له هنا ولا مواس، لهذا صمتوا.. واستأنفوا شربهم كأن الأمر لا يعنيهم، وليتهم اكتفوا بنذالة الصمت، فبعضهم في تملق لحميد وولد الراضي، التمسوا العذر للحارس، وقال أحجهم والبقية تزكي

همهمات وحركات بالأيدي والرؤوس" لقد صبر حميد كثيرا.. وصبرت نادية المسكينة أكثر.. لو لم تضربه لضربه أحدنا"..

هؤلاء هم حواريو الضحايا إلى حين يسقطون السقوط المدوي... المؤلفة قلوبهم خمرا.. و"حين تخر البقرة، يكثر الجزارون"

لم يطل مقام عز الدين طويلا ممددا على الأرض، جره الحارس إلى الجانب الآخر من الطريق، فكان يظهر للمارة كمتشرد غلبه النوم.. من زجاج الحانة، ظهر لي يحاول الوقوف.. يرتب ملابسه، يمسح نزيف أنفه بكمه، وقد تورمت عينه.. ويختفي في شارع محمد الخامس.. كأن شيئا لم يقع.. وأنا جرعاتي غدت سريعة ومتتالية.. علني أطرد صورة عز الدين من عقلي وأحاصر ألمي الطارئ

بعد لحظة، دخل منير الحانة، وطفق يبحث عني، وهو يجول ببصره في أرجائها، أشير إليه بيدي، فيقبل مهرولا ويجلس محاولا التقاط أنفاسه، مرددا وهو يلهث:

- خطرت لي فكرة أن أشرب معك كأسا وأرافقك إلى البيت..

ابتسمت بعدما طلبت له كأس ويسكي، وقلت:

- هل هذه فكرتك..؟

- في الحقيقة.. ظلت زينة تطن علي وتلح.. فجئت لأوفر عليك تعب الطريق وثمن التاكسي

- هل هي في البيت؟

- لا.. تركتها في الكباريه..

يكتشف الفضاء ببصره محاولا تحديد خرائط الحانة، يقصد علبة الموسيقى، يرمي في جوفها قطعا نقدية.. يختار زمرة من الأغاني، فيملأ صوت "الحياني" الأجواء.. شجيا.. نديا.. مستفزا الذكريات المتربصة بالحنين لتجري في الدم نارا.. وحرقة.. والخبايا الغابرة في العقل والوجدان.. بأغنيته الخالدة "راحلة".. انخرط الجميع في ترديد مقاطع منها انخراط المسحور بالجمال، وبعضهم اكتفى بهز الرأس دليلا على التأثر.. وآخرون رفعوا كؤوسهم لمنير استحسانا لذوقه الرفيع.. هم أنفسهم الذين ما رفلت لهم عين لمشهد القصاص الهمجي من عز الدين، تهز مشاعرهم الموسيقى وينغمسون انغماسا في جو كلماتها الحزينة.. ويحار منطق الأشياء في فهم هؤلاء..

دنا مني حميد وهو يتفحص منيرا، واستند على المشرب جواري.. ثم همس في أذني وهو يشير إليه:

- هل .. هو صديقك.. أتعرفه؟

- نعم.. سي منير..

- أظنني أعرفه..

دق قلبي بقوة، خشية أن يعرفه حق المعرفة، فحميد هذا يعرف الكثير عن الحانات والملاهي، ويتبادل الأخبار مع زملائه في الحرفة في مناطق أخرى، أرد عليه مستنكرا:

- لا.. لا تعرفه.. إنه ليس من هنا..

- بلى.. وجهه ليس غريبا عليه..

يشرع في التفكير وهو يتفحصه، ويفرك ذقنه.. فجأة يصيح:

- آه..! تذكرت.. ربما هو مغني شعبي..
- لا.. هو يعمل أعمالا حرة..
- أستاذ فيه شيء غريب.. مثير.. أيكون..؟
- أقاطعه في غضب وأصده بنظرات قاسية:
- ماذا دهاك؟ أأصبحت مخبرا أم محققا.. دع الناس في حالهم..

ينصرف.. لكنه ظل ينظر إلى منير في ريبة وفضول كبير، محاولا إنعاش ذاكرته، يعود منير إلى المشرب، بعدما حجز أغاني متعددة في علبة الموسيقى.. يتفطن إلى نظرات حميد، يخرج لسانه ويقول له في استياء وقسوة"

- ماذا؟ أتريد صورتي..؟

ثم يلتفت إلي ويسألني في غضب:

- ما باله هذا الكلب؟
- يقول إنه رآك في مكان ما.. لكنه لا يتذكر..
- وما لك متوتر.. وليعرف.. عليه أن يبحث أين تبيت أمه وأخته قبل البحث عن الناس.. فليذهب عند أمه.. اشرب.. لا تهتم.. أنا خبير في هذا النوع من الأشخاص.. مكالمة هاتفية من "شارل" لرب عمله وينتهي به الأمر في الشارع..

24

لم يكن صابر زميلي راضيا عن علاقتي بزينة، كنت أشعر به مترددا في فتح الموضوع معي حول هذه العلاقة التي لا يباركها، وكان كلما زارتني زينة بالمكتب إلا وتجاهلها.. أو اكتفى بسلام بارد، أما لطيفة الكاتبة فكانت على مذهبه كظله، كل كلمة ينطقها تصير جزءا من لغتها ومن قناعاها، كانت تحسبه كاملا، لا يتفوه إلا بالكلام الموزون والمنطقي، الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من أمامه، وأنا في قرارة نفسي، كنت أراه مزيفا، متناقضا، يعيش بشخصيتين، ما يفكر فيه ويعتنقه كفكر وقيم الانفتاح والتمرد، لا ينسجم مع اختياراته العملية.. ونظرته للحياة، كان بخيلا، لدرجة الشح، يكتفي بالقليل من الأكل، ليس زهدا في الطعام ولا حمية.. وإنما اقتصادا في المصاريف، بدلته البنية تكاد تفقد لونها من كثرة الاستعمال لكنه يبرر ذلك بمحاربة الرأسمالية وتجلياتها في الملبس والأكل، ورغم ذلك اشترى ضيعة، يمارس فيها تربية المواشي ويكتري من الفلاحين أراضٍ يباشر زراعتها، وينخرط في صفقات لشراء وبيع السيارات المستعملة..

أبدى أكثر من مرة استنكاره للحياة التي أعيشها والتي ينعتها بحياة الغجر، ولطيفة الكاتبة تتقاسم معه الرأي نفسه دون نقاش أو تمحيص، استغل مناسبة اجتماعنا لتسوية بعض الملفات العالقة الملفات فانفرد بي بالمكتب. طلب من لطيفة أن تحضر فنجاني قهوة وألا يزعجنا أحد، قبل أن يدخل في صلب الموضوع تحدث في عدة قضايا وناقشنا المساطر ومنهجية الدفاع.. ثم استجمع قواه وقال بنبرة الناصح الواعظ:

- عزيز..!. أخي.. اسمح لي.. لابد أن ألكلمك في أمر مهم.. كنت مترددا في الحديث معك حوله.. خوفا من مس مشاعرك أو تأويلك الأمر بأنني أتدخل في شؤونك الخاصة، لكن الزمالة والأخوة تفرضان علي أن أعطي رأيي حتى لا أتحمل مسؤولية الصمت السلبي.. حياتك الآن في مهب الريح.. أصبحت فوضى.. تعيش مع مغنية كباري بلا أفق واضح.. لا تنقطع عن شرب الخمر.. هالتان سوداوان تتسعان يوما عن يوم تحت جفنيك، وصحتك تتدهور.. من كثرة السهر.. إلى أين سيؤدي هذا..؟ عليك أن تفكر في الأمر.. وتعيد ترتيب أوراقك.. هل تعتقد أنك ممكن أن ترمي بتاريخ زينة وحياتها إلى الوراء لو فكرت بالزواج منها؟ أبدا سيظل ماضيها يقض مضجعك.. يؤلمك.. لن تنسى.. لن تستطيع أن تعيش في هدوء وراحة بال وأنت تعرف ماضيها.. مهنتها.. حياتها..

ألوذ بالصمت برهة، وأتفحص هذا الرجل الذي بوأ نفسه منبرا لا يستحقه، ففي حياته ما يكفي من العبث والخيبات والتراجعات.. هذا العلماني المزيف، اليساري الذي جمع بين تربية المواشي والزراعة والسمسرة في السيارات المستعلمة والذي أكاد أحتقره، يخاطبني اللحظة في جبة الناصح، وهو بالأمس القريب كان أشد حرصا على قيم اليسار.. ألم يرفض ما يسميه "تبضيع" المرأة..؟ ألم يكن شرسا في الدفاع عن نساء أكثر عهرا من زينة، أين تلاشت لازمته "هن ضحايا التهميش والظلم والاستبداد؟" أرد عليه بنبرة قاسية:

- هل المشكل في مهنة زينة أم في حياتي؟

- مهنتها جزء من الفوضى التي ألمت بحياتك..
- ألست يساريا حتى النخاع..؟. هل ربط علاقة مع امرأة حتى ولو كان لها ماض خطيئة ؟
- فكريا قد ننخدع.. لكن لا أحد يهرب من سلطة الواقع.. سلطة المجتمع التي ترسم حدود اللعبة..
- أي لعبة.. يا رجل؟.. الحياة كما أعيشها اختيار.. وليست رمية نرد.. وهل المجتمع هو الذي يقود الطليعة أم الطليعة هي التي تقود المجتمع إلى التغيير؟ قل لي رجاء.. من يغير الآخر المثقف أم المجتمع؟
- مع الزمن نتغير.. وننضج.. وسلطة المجتمع أقوى من الفكر.. وما كنا نعتقد لا يصمد دقيقة أمام واقع الحياة اليومية..
- آه.. هذه لغة جديدة.. وخطاب براق.. لم تعد تنطلي على أحد الخطابات المزيفة التي تجيش العواطف لا غير.. أتعني أنه علينا أن ننصاع لسلطة التخلف والقهر والكبت والقمع لنرضي سلطة غاشمة للمجتمع..؟ أي مجتمع؟ هذا الذي تعجنه السلطة على مقاسها.. هذه السلطة التي اعتبرتها دائما خصما..
- الصراع له إشكال ثانوي وأساسي.. والصراع مع السلطة أساسي.. ومعركة تحرير الشعوب تتطلب نفسا طويلا
- في انتظار ذلك.. يتحول المناضل الطليعي إلى سمسار وأقطاعي ورجل قانون و.. ويتزوج فتاة من البادية لم يمسسها إنس ولا جان.. يا أخي.. حرام عليك.. كفى من ترويج الوهم..

ينتفض في غضب خفيف، ينتصب واقفا، يشعل سيجارة.. يذرع المكتب ذهابا وإيابا، ثم يقول في نرفزة:

- وما العيب في أن يجتهد المناضل في أسباب الكسب وتنوعها مادامت حلالا..

- ماذا؟ لم أكن أعرف أنك تهتم بالحرام والحلال..

- أقصد مشروعة.. بلا فساد ولا رشاوى..

- تكذب على نفسك.. وتكابر.. في داخلك صوت الإيمان تقمعه بالغطرسة والاستعلاء.. وسأقول لك شيئا.. أن تكون يساريا لا يعني أن تكون بالضرورة ملحدا.. كنت في المعتقل.. ومعي يساريون من الصف الأول.. بعضهم يصلي.. ولا يجد حرجا بين رفاقه.. بل منهم من كان حافظا للقرآن.. عارفا بشرع الله..

- مضطربا .. يقول والكلمات عصية على التعبير:

- لست أنا موضوع هذا اللقاء.. بل أنت..

- أتستطيع أن تنكر أنك كنت نذلا بتخليك عن أسماء؟ الفتاة المناضلة التي كانت لك الرفيقة والحبيبة.. والخليلة.. يا أخي لقد كتبت فيها شعرا.. وتقاسمت معك حياتك منذ الجامعة.. وحين فكرت في الزواج اخترت أخرى.. بحجة واهية.. أنها لا تليق أن تكون زوجة.. يا أسفي عليك..

ينتفض في غضب جارف يركبه الاستكبار كما عهدته، أشعر به ضائعا.. تائها.. تنهشه من الداخل الحيرة، يقول في تلعثم:

- الزواج.. زواج.. وله سياقات خاصة.. لو تزوجت أسماء.. لعشت جحيم الماضي..
- ماذا تقصد؟
- أسماء كانت تقاسمني الكأس.. وكل أصدقائي كانوا يعلمون بذلك.. بل كانت تصاحبني إلى الحانات.. وفي جلساتي الخمرية في البيت كانت تحتسي الخمرة معنا..
- ألم تكن تقول.. إن المرأة حرة في حياتها.. وكأس خمرة أو سيجارة لا ينقصان من قيمتها.. وأن عليها أن تفرض نفسها على المجتمع وتكسر القيود.. نحو المساواة..؟
- نعم.. لكن حينما يتعلق الأمر بالزواج.. تطرح قضايا أخرى..

أضحك، ثم أقول هازئا:

- الرجل العربي المتخلف.. مازالت تسكنه العذرية.. والمرأة التي لا ماضٍ لها.. والتي لم يمسسها جن ولا إنس.. الغريب أن يصدر الأمر منك.. أشفق عليك.. أسماء ضحية ملة مزيفة صنعتها أنت وتأتي الآن لتفتي في حياتي وقد أفتيت طويلا في الحانات وفي الفضاءات العمومية، حول العلاقات الحرة والمتفتحة.. يا أخي.. اصمت.. واخجل من نفسك.. كانت أسماء رفيقة دربك.. اعتقلت فلم تنقطع عن زيارتك.. منحتك جسدها طواعية.. ظنا منها أن ماركس يؤطر علاقتكما.. ظنا منها أنك لا تعتبرها رخيصة.. واليوم أيها اليساري.. تأتي لتفتي في الأخلاق والقيم.. وتعد ارتباطي بزينة مغنية الملاهي الليلية فوضى.. أقول لك.. أنت الذي تعيش فوضى

من نوع خاص.. احترمت في البداية قرارك بالتخلي عن أسماء.. ظننت أن الأمر لا علاقة له بالقيم.. لكن للأسف.. تعيد النظر في كل مرجعياتك وتنسفها لحظة تقرر الزواج.. وتتزوج من فتاة من البادية.. هذه هي الفوضى. .ارحم نفسك..

- اسمع الموضوع أكبر بكثير مني.. أنا لست معزولا عن المجتمع..
- أما أنا.. الذي كنت تعيره بالإيمان.. وتنتقد تناقضاتي بين عقيدتي وسلوكي.. فأقول لك.. الخطيئة واردة.. لكني منسجم مع ذاتي فرجاء.. دعني.. أعش حياتي كما أرى.. فلست يساريا ولا حتى ليبراليا.. أنا فقط أعشق امرأة.. لا يعنيني تاريخها ولا أصلها ولا فصلها.. وفاؤها يكفيني.. أما العذرية فترمم في عيادات الأطباء.. وذاكرة المجتمع ضعيفة.. ولا يهمني أي سلطة أخرى.. غير سلطة قلبي.. لست في فوضى.. ما دمت منسجما مع نفسي.. أنت الذي دشنت حياتك بفوضى.. أنا على الأقل أستطيع النوم مرتاحا..

ينسحب مطرق الجبين، كأني أصبته في مقتل، تلج لطيفة المكتب، أحدجها بنظرة قاسية، هذه المرأة المسترجلة، التي لا تلبس غير سترات بسراويل، قصيرة القامة، نحيفة، تنتعل دائما أحذية مستوية النعل، قصة شعرها قصيرة جدا.. ذكورية.. تجد صعوبة في التخلص من الشعر الذي ينبت على ذقنها، حتى اخضر أصبح مليئا بالبثور.. رغم كثرة المراهم والكريمات، حتما هي على مذهبه.. أعلم أنها كانت تتنصت إلى حواري مع صابر من وراء الباب، تبتسم وهي القليلة الابتسام، إذ التجهم جزء من شكلها، وتقول في سعادة غريبة:

- أحسنت الرد يا أستاذ ولو بقسوة.. كان في حاجة إلى من يزلزله من الداخل.. وأنا.. فلا والله.. ألمني جدا ما فعله بأسماء.. فقط كنت محرجة من قول ذلك.. أيتركها ويتزوج من فتاة أتت بها أمه من البادية..؟ .. يقول إنه يريد امرأة "خاما" سخرية.. للأسف كأن البادية معزولة عما يقع في العالم..

ماذا وقع؟ أربحت لطيفة في صفي.. وهي التي كانت دائما من الأتباع الأوفياء في عمى لصابر؟ كيف تحولت بهذه السرعة؟ ما الذي غيرها؟ هل كنت مقنعا لهذه الدرجة؟ أنهض، أدنو منها أربت على رأسها قائلا في ارتياح:

- للأسف .. هو لا يعلم أن الفضيلة لا وطن لها..

تنتفض كأنها صعقت وتقول في خفة وبسرعة

- نسيت.. أستاذ.. هناك رجل شيخ.. طاعن في السن ينتظرك منذ مدة.. لكن سأقول كلمتي وأخرج لأدخل الشيخ ربما نفد صبره.. كنت على حق.. زينة تحبك.. وتحبها.. أنت على الأقل واضح.. رغم أنك كثير الشك.. لكنك طيب و"ولد ناس".. لا أغفر له ما فعل مع أسماء.. أكلها لحما ورماه عظما.. ثم بلا حياء يقول.. فعلت معي كذا وكذا.. لم أكن أعرف أنه نذل.. أحزنني ما فعل بها .. والله.. والله..

أشعر بالدموع متحجرة في مآقيها.. يعوق ضيق نفس استمرارها في الحديث، ثم تنهار وتجهش في البكاء وهي تردد:

- "حشومة" عليه.. عار وعيب ما فعل بها..

أستغرب لهذا الموقف الإنساني من لطيفة.. التي عهدتها بلا مشاعر.. باردة العواطف، مسترجلة، فما إن بكت حتى أشرقت الأنوثة في عينيها، وكان ضعفها قوة جمال، حررها من قوقعتها.. أمسح دموعها بمنديل.. أضمها.. أشعر بجسدها يرتعش وهي تنتحب.. أهمس في أذنها:

- شكرا لطيفة.. أنت أعظم مما تظهرين.. رجاء كوني أنت.. لا عيب أن نكون كما نحن.. لا تبحثي عن المثالية.. اخطئي.. غامري.. بادري.. تصالحي مع الأنثى.. دموعك الحارقة كشفت لي جمالك.. ثقي في نفسك.. تخلصي من أن تكوني كاملة.. تحرري.. تحرري..

تنسحب في صمت، مطرقة الجبين، متثاقلة الخطو هذه المرة، خلافا لعادتها في الخفة والهرولة.. تشيعني بنظرة ود وابتسامة قبل أن تغادر مكتبي.. أنظر في عينيها.. أكتشف أنني اليوم أضعفت صف صابر بصدقي.. وحبي.. وإيماني..

تعود بعد لحظة، ومازالت سحابة قاتمة، تخيم على جفنيها وتقول:

- هل أدخل الشيخ
- لا.. انتظري لحظة.. 5 دقائق ثم أدخليه..
- وي.. أستاذ..

أشعل سيجارة. يسرح عقلي فيما قاله صابر، وأنا أتابع ما يحدث في الشارع من النافذة، أتذكر دفاعه المستميت عن المساواة والحرية، أذكر أنه كان لا يجد غضاضة في الدفع بحق المرأة أن تضاجع من

تشاء.. في الحانة.. كان فارس الخطابة لا يشق له غبار، فهو الأستاذ المناضل الذي أدى ضريبة إيمانه بالفكر الماركسي.. اعتقالا.. وتضييقا.. كان يسمي المومسات عاملات جنس، نعم.. يقدمن خدمة للمجتمع لا تقل عن باقي الخدمات.. وعلى الدولة أن تحميهن، وتسوي أوضاعهن، ويستفدن من التقاعد والتأمين الصحي.. كان لآرائه صدى قوي عند المترددات على حانة الطاحونة الحمراء، كان يعاملهن باحترام وتقدير.. يعدهن أول الرائدات في تكسير قيود التسلط والوهم وكانت معه أسماء كالظل، يقرآن الكتب نفسها، يرددان قصائد درويش، ويسمعان أغاني مارسيل خليفة وفيروز، كان حينما تلعب الخمرة برأسه، يرفع لأسماء في الهواء عاليا الأنخاب ويردد "من أجل أغلى امرأة على الأرض.. من أجل أسماء.. ما زال هناك على الأرض ما يستحق الحياة".. فجأة تبددت الأفكار والنظريات، وصارت أسماء امرأة غير صالحة للزواج.. دورها فقط أن تكون خليلة في فراش مناضل لا أكثر.. للأسف تزوج من غيرها دون أن يقوم بطقوس الوداع بشكل حضاري.. مازلت أتذكر رأيه في الزواج.. صداه ظل عالقا بعقلي.. فهو القائل بفخر "إن الزواج استعباد.. ونتيجة للسلطة المهيمنة عبر التاريخ.. الزواج تملك ذكي للمرأة باسم المؤسسة.. الزواج أسطورة ذكورية.." فهل له الحق اليوم أن يأتي في جبة القديس ليفتي في حياتي..؟ أبدا.. لا شرعية لك زميلي.. انهار الصنم..

يدخل الشيخ المكتب في تؤدة، أرى في وجهه وحركاته أثر السنين، أتقدم نحوه، أشد على يده بحرارة وعطف، أساعده على الجلوس مرددا في حنو:

- تفضل عمي.. مرحبا.. أتريد أن تشرب شيئا؟

بصعوبة ينطبق.. كان هرما طاعنا في السن، أضناه الدهر وأنهكته السنون حتى وهن منه العظم والنفس.. يرتدي سترة زرقاء، فوق كنزة ثقيلة من صوف الضأن، وسروالا قصيرا مشمرا عند مقدمة ساقيه اللتين بدتا نحيفتين، يقول في تعب وبصوت خافت مجهد:

- لا شكرا.. ولدي.. جئتك.. يا بني في أمر مهم.. قبل كل شيء.. صل على النبي..
- اللهم صل وسلم على الحبيب محمد..
- سمعت أن حبيبة رحمها الله.. ماتت..
- نعم.. أمي.. يرحمها الله.. الدوام لله..
- بني.. لم يبق بيني وبين الدار الآخرة إلا قدر هذا الشبر أو أقل.. أريدك أن تكون قويا.. فكل أمر بيد الله..

كأن الشيخ يريد أن يبوح لي بسر خطير.. ويهيئني لأمر جلل عكسته عيونه الخائفة، ولغته المرتبكة، تغلبه بحة وهو يقول:

- اسمع، يا ولدي..!.

يتوقف عن الحديث، كأنه يبحث عن الكلمات، تنتابه كحة قوية، أسقيه كأس ماء، يبدو لي متعبا، وينوء صدره بحمل ثقيل، أنظر في عينيه الغارقتين وسط وجه غزته التجاعيد العميقة وكانتا غائرتين.. عميقتين في رأسه من شدة الهزال، حادتي النظر ثم يقول :

- أنا العربي.. خرجت من السجن منذ أسبوع.. وكان لي زميل في الزنزانة اسمه عباس عابر، مات قبل سنتين.. لكنه قبل أن يجود

بروحه أوصاني وصية.. جئت لأنفذها.. طلب مني أن أبحث عنك.. لأمر مهم.. أراد أن يخلص نفسه من غم جاثم.. ويلقى ربه تائبا مؤمنا..

شل تفكيري للحظة.. فالاسم الذي نطقه هذا الهرم المتعب مرا ومرضا على ما يبدو هو اسم أبي.. شعرت بخوف جديد لم أعهده قبل في توجساتي القديمة.. خوف فيه جذر شديد، لم ينشر الرجفة في ساقي، ولا تلك الرعشة التي كانت تسري في صدري، أيكون هذا الرجل الغرب صادقا؟ أكاد أطرده.. وأوشك أن أغلق فمه بيدي، وأطلب منه الخروج، وعدم عرض ما تبقى من الحكاية، بيد أن عقلي يريد أن يعرف من كان هذا الرجل المسمى أبي.. يريد أن يكتشف سبب تخليه عني وعن أمي.. أكن لهذا الغائب.. الهارب أبي منذ زمن حقدا وكراهية.. أعرف هذا الشعور الذي رعته في صدري أمي سنينا حتى صار نارا التهمت كل رغبة لي في أن أراه.. في أن أعانقه.. في أن أبكي على صدره، كما يبكي الأطفال والمراهقون، ثم الكبار. لقد نشأت بلا أب.. بلا أصل حي أراه بين عيني، أستمد منه القوة والسند.، استحضر حكمة أمي وهي تقول "رحل وأخذ معه الأسباب.. وترك في عيون الناس العتاب وفي الصدور نجوى اللئام" لا أملك أي صورة له أو عنه في خيالي.. هل أغلق هذه الدائرة؟ هل أطلب من هذا العجوز أن يأخذ ذكرى صديقه بعيدا عني ويدفنها في غياهب النسيان؟

- توقف.. الله يخليك.. لا أريد أن أعرف شيئا عنه.. عذبنا حيا بالغياب، ويريد تعذيبنا اليوم وهو ميت.. فات الأوان..

- أرجوك يا بني.. عباس مظلوم.. لو علمت الحكاية فقد تغير رأيك فيه..
- أغير رأيي فيه؟ أجننت؟ يظهر بعد أربعين سنة.. ميتا ويطلب الغفران.. لا لن يحظى مني بهذا الصفح.. فليحترق في الجحيم..
- دعني أشرح لك..
- عفوا ليس لي الوقت لسماع اعترافات ميت.. والآن أطلب منك في أدب أن ترحل..
- كيف أرحل؟ أنت مخطئ يا بني في حق رجل تظن أنه أبوك.. الأمر لا يتعلق به.. بل بحياتك..
- كيف؟ عباس عابر ليس أبي؟ ومن يكون؟ هل هو تشابه في الأسماء..؟

ترتجف شفتاه فتختلط معالم أحاسيس متعددة على وجهه، خوف.. ألم.. شفقة.. ارتباك.. تداعت لها يداه بالرعشة واستجابت لها العين بالدمع، والقلب بالبكاء، ثم يردف متلعثما:

- يا ولدي..! هو أبوك..كما تظن.. في الأوراق.. لكنه في الوقت نفسه ليس أباك..

ماذا يعني؟ أبي وفي الوقت نفسه ليس بأبي.. أي جحيم اقتبس منه هذا الغريب لهيبا يلهب به شكوكي، ومخاوفي؟ هل أكون ابن حرام؟ هل تكون أمي خائنة؟ تخور قواي، أشعر بضعف كبير في ساقي، أستلقي على مقعدي، أفك ربطة عنقي، باحثا عن مزيد من الهواء، يرشح جسدي بعرق بارد، أطلب منه منهارا أن يتكلم:

- هات من عندك..
- أمك رحمها الله حبية أصلها من "الرحامنة".. كانت تشتغل مع الشيخ "الكوامنجي" "الزعري" الذي كان يطوف القبائل الدواوير رفقة "رباعة ديال الشيخات" أقصد فرقة.. كلما نزل بقبيلة.. نصب خيمة، فيأتي الشباب والرجال وحتى النساء ليلا للاستمتاع بالأغاني الشعبية، أمك كان لها صوت جميل تغني ببراعة "الحوزي و" العيوط".. علم عباس كما قال لي عن الشيخ الزعري.. العازف على "الكمنجة"، أنها ابنة عائلة كبيرة.. لم يفهموا أنها كانت مسكونة بـ"العيوط".. فهربت مع "الرباعة" حين حطوا يوما بدوار ما بالرحامنة.. لم تكن عاهرة.. كانت شريفة.. أصيلة.. فاضلة.. أقسم عباس بالله أنه لم يعرف أشرف منها.. أنتم في هذا الزمان تخلطون خلطا كبيرا بين الأمور.. كانت تؤدي وصلتها.. أمام إعجاب الكل.. وتنسحب لتنام في الخيمة.. يقول عباس إنه لم ينس اليوم الذي حطت فيه الفرقة بدوارهم.. ببادية" دكالة".. تكفل بهم.. زودهم مجانا بالتبن للبغل الذي كان يجر عربتهم، وأطعمهم ثم سمع صوتها الشجي.. فتعلق قلبه بها.. وهام بها.. أراد الزواج منها فرفض أبوه.. كان قاسيا.. فظا.. ومتسلطا.. طرد "الرباعة" من الدوار وبدد متاعهم.. وهددهم بالسجن.. قيد عباس بالسلاسل فحرمه من الطعام.. قلب أمه رحمها الله كان رقيقا.. رحيما.. تسللت في الليل وفكت وثاقه.. فرحل في جنح الظلام.. ظل يبحث عن الفرقة شهورا من قرية إلى قرية.. إلى أن وجدهم في بادية "عبدة".. فتزوجا.. وظلا مع"الرباعة" عاما أو

أكثر بقليل إلى أن قررا الاستقرار في الدار البيضاء.. اكتريا غرفة على السطوح بدرب الانجليز.. المسكينة كانت تمني النفس بولد أو بنت.. لكن ظهر أنها عاقر.. فتبدل حالها.. وتغير مزاجها.. كانت لها صديقة من ريف "دكالة".. قالت لعباس إنها ستغيب تسعة أشهر وتعود.. أبحر عباس على مركب تجاري لمدة طويلة.. وحين عاد وجد في حجرها طفلا.. زعمت في البداية أنها تبنتك من فتاة غرر بها شاب وحين اكتشف حملها تنكر لها فتخلى عنها ولم تعرف له أثرا.. لكن عباس اكشف الحقيقة مع الوقت.. فحبيبة رحمها الله وبمساعدة امرأة ما وربما مقابل المال.. أخذتك من حضن أمك الحقيقية، وافتريا عليها وأوهما المرأة المسكينة بأنك مت بعد الولادة بساعات.. فاستخرجت حبيبة شهادة الميلاد باسم عباس عابر من المستشفى نفسه.. لكنه رحمه الله.. لم يكن ليقبل هذا الظلم.. ترجاها أن تعيدك إلى أهلك.. لكنها رفضت.. فاضطر إلى الرحيل.. التقيته في سجن" العاذر" بمدينة الجديدة.. تسبب لأحدهم في عاهة.. في شجار.. ثم مات في السجن بسرطان الرئة..

بدأت الأفكار تتلاطم في عقلي كبحر هائج لا تعرف أمواجه هوادة ولا مستقرا، أيكون هذا الرجل مجنونا أو مسلطا علي؟ رباه! ما العمل؟ أفي رمشة عين أصير لقيطا.. بلا أم معروفة ولا أب؟ أ كل هذا العمر.. كان خداعا وكذبا..؟ أجاهد للوقوف.. أشعر بالأرض تدور تحت قدمي، أحاول أن أسند نفسي على الجدار أسقط.. ضباب يلفني.. ثم عتمة.. فسواد كامل..

25

أفتح عيني.. أجد نفسي على السرير بجانبي على طرف الفراش تجلس زينة وهي تشد على يدي والدموع في عينيها، يحملق في منير مبتسما وقد انفرجت أسارير وجهه في فرح طفولي ويقول:

- أخفتنا.. يا صاحبي.. الحمد لله.. أعرف أنك صلب وقوي..

في حنو.. تعانقني زينة وتضمني بقوة وحرارة وتقول وهي تبكي:

- الحمد لله..كم كان خوفي عظيما.. لا تخف.. الطبيب شرح لي الأمر.. ارتفاع في الضغط الدموي نتيجة التوتر.. لا شيء.. يخيف.. لا تنزعج.. اهتم فقط بصحتك.. هذا هو الأساس..

أفتح عيني بصعوبة، أسألها بصوت متعب:

- كيف جئت إلى هنا..؟

تقول وفي صوتها نبرة شفقة:

- بعدما أخذك الأستاذ صابر إلى المستشفى.. اتصلت بي لطيفة.. وعرفت التفاصيل منها..
- والشيخ.. أين هو؟
- رحل.. وسمعت منه كل القصة.. الآن أهتم بصحتك..
- رجاء.. زينة لا تدعيه يرحل حتى نعرف منه كل التفاصيل..
- لقد رحل الرجل.. وأين أجده..؟
- لم أر زبيدة..

– إنها مع شارل في باريس.. سافرت أمس لأمر مستعجل ولكي تهيئ الظروف الملائمة للعملية الجراحية التي سيجريها منير..

أشعر برغبة قوية في النوم، أقاوم من أجل البقاء يقظا صائحا، لكن الرغبة كانت جامحة.. أسترخي.. ثم أغفو.

صباح يوم الغد.. طفقت أعيد تركيب أحداث وفصول حكاية الشيخ ، هذا الحدث عن أصلي وفصلي، قلب حياتي رأسا على عقب، فلم أعد قادرا تحديد مشاعري اتجاه أمي حبيبة، التي دبرت جريمة اختطافي، اختلطت في قلبي مشاعر الحب والغضب من المرأة التي ربتني، والتي توجتها ملكة للحكمة..كيف لامرأة كان حديثها عبرا وأمثالا تعبران من قلب الحكمة أن تكون بهذه القسوة؟ كيف لها وهي المؤمنة العابدة.. المصلية.. الصائمة.. القوامة.. أن تكون بلا قلب ومشاعر فتحرم أما من وليدها بهتانا وكذبا؟ كيف استطاعت أن تستمر في الكذب والخداع جاعلة مني مركز اهتمامها، وشغلها الشاغل، ومصدر وجودها؟ كيف كنت آمالها وحياتها وأنا غريب عنها ؟.. أتشفع لها كل مشاعر الحب والعناية والرحمة التي أحاطتني بها لأغفر لها ما فعلت بأمي الحقيقية.. وما فعلت بي أيضا؟ لا أدري؟.. اللحظة فهمت ذاك الحزن الذي كان يتملكها حين تحدق فيها مليا فتزفر آهات.. ذاك الحزن الغريب والعميق الذي لم أكن أجد له مبررا.. والذي ينتابها وهي تتفرس في من حين لآخر..؟ أكانت تسترجع الماضي في ندم وحسرة..؟

حاولت زينة على طاولة الغذاء أن تخفف وطأة الحدث الجلل على قلبي، وهي تحثني على شكر الله وحمده أنني عرفت الحكاية من الشيخ الهرم، وإلا لدفنت معه الحقيقة في قبره، وزاد منير وهو مبتسما قائلا

"قريبا ستتعرف على والديك.. افرح يا أخي.. ربما لك "كمشة" من الأخوة"..

شردت بذهني واستحضرت صورة أمي حبيبة.. تلمست في خيالي تفاصيل وجهها، واستحضرت رائحة جسدها التي كنت كلما شق علي غيابها واشتقت لنسمة منها، أبحث عنها في ملابسها.. وسريرها.. ووسائدها.

شعرت بالغبن.. بالغدر.. بالخيانة.. بالنفاق.. ماذا لو باحت لي بالسر قبل موتها؟ أكان الأمر سيكون أهون علي لو عرفت القصة من فمها.. وسمعت أعذارها؟ حاولت أن أكرهها.. لكن للأسف، لم أستطع فعل ذلك، فالكراهية ليس لها زر في العقل نضغط عليه فتضرم نارها الحارقة.. الكراهية.. نار تشتعل رغما عنا، فتحرقنا أكثر ما تحرق الآخرين.. في قلبي بذرة غضب أخاف أن تنمو وتصير شجرة يأس لا تطعم روحي غير المرارة.. ماذا ولو علمت بالأمر وهي على قيد الحياة؟ ماذا كانت ستغدو ردة فعلي؟ لا أستطيع الآن الإحساس إلا بالغضب..

تقول زينة مهونة بابتسامة:

- لم يستطع الشيخ أن ينهي الحكاية، وطلب مني أن أحصل على صفحك وعفوك لعباس، فعباس "عابر" كما أكد عجز عن التصدي لحبيبة.. فاضطر إلى الرحيل مكرها، مهاجرا إلى مدينة "آسفي" وهناك وجد عملا كبحار على ظهر مركب صيدي، قال الشيخ أن عباس عابر.. في البداية.. كان ينام في مخزن الشباك وأدوات الصيد إلى أن تصالح مع أبيه الذي زوجه ابنة عمه، فأنجبت له ولدين وثلاث بنات.. كلهم متزوجون.. وله أحفاد

وحفيدات..لكنه تشاجر مع أحدهم.. ففقأ عينه.. ومات في السجن..

- وهل أضاف أي معلومة نهتدي بها إلى والدي؟
- قال.. ابحثوا في قرية "أولاد الصياد"..
- وأين توجد؟
- بريف دكالة.. قرب سيدي بنور..

لم يكن لدي ما يكفي من المعلومات للذهاب في رحلة البحث عن الجذور، فالشيخ العربي لم يبخل على ببعض التفاصيل المهمة، لكنها ظلت غير كافية.. ترك وثيقة عند زينة تتضمن عدة معطيات مهمة، ذكر فيها أن أمي حبيبة أتت بي رضيعا لم يتجاوز شهره الأول ملفوفا في خرقة بيضاء، ربيع عام 1961 ووصف له عباس ذاك العام بعام الحزن.. إذ كانت أجواء الحزن ما زالت مخيمة على البلد لرحيل الملك محمد بن يوسف وأن حبيبة قبل هذا التاريخ اختفت عن الأعين أكثر من تسعة أشهر لتوهم الجيران بالحمل والولادة..

فهل أشد الرحيل إلى قرية " أولاد الصياد ؟

كلما عزمت على السفر لأيام طويلة أقعدني هاجس أو خوف يشلان عزيمتي.. فقد هممت على السفر أكثر من مرة فأرغمني توجسي على التأجيل.. طال التأجيل حتى صار تعطيلا.. وعادت قوية عاصفة نوبات الأرق تداهم ليالي، تهب هبوبا محملا بغبار الزمن الماضي، وبروائح أيامي التي مضت.. تؤرق مضجعي وتعري ضعفي وذعري.. كم التمست عبورا مصطنعا نحو الغفوة بالكأس.. لكن الكأس هذه

المرة لم تكن حليفا كما عاهدتها.. لم تعطل الألم.. لم تبدد الأرق.. ضاعفت الأسئلة الحارقة.. تحالفت مع القدر..فقوت الإحساس عندي بالضياع، وبدل أن تمنحني سلامي النفسي المعهود تمردت فجأة.. ولم تكتف بجرعات اليأس بل نبشت بعيدا في طفولتي وأنعشت صورا كانت باهتة..لأمي حبيبة.. لمشوارها.. لكل اللحظات معها.. وأخذتني بنارها الملتهبة يوما عن يوم.. نحو القلق.. ثم الغضب.. نحو الجحود.. نحو منطقة لا ترحم.. أنشأت فيها محكمة لمحاكمة أمي.. حتى أوشكت أن أنصب لها مشنقة لكني لم أكرهها فقد.. غضبت.. غضبا شديدا.. فتخلى لساني عن نطق الأم وعقلي يستحضر صورتها.. واكتفى باسمها في تعاقد خبيث مع غضبي.. وعظم الغضب، فمزقت كل الصور..كل ملابسها.. فقد صارت رائحتها تنتج أطواقا تضيق يوما عن يوم حول عنقي، وهموما كالحجارة الثقيلة تجثم على صدري فتضيق أنفاسي..ما عادت تلك الرائحة تريح الروح وتبرد الشوق..لم أعد اشتاق إليها..لم أعد أفتقدها.. ودعتها.. غاضبا.. لكن غير حاقد ولا كاره..

اشتد علي التوجس من جديد والريبة مما يحدث.. كانت زينة تنظر إلي في شفقة في البداية.. ثم تحولت نظراتها إلى قاسية تنتقد جبني بلا كلمات.. حتى حبنا أصابه الخلل، فصار باردا بلا وهج ولا اعتصار.. كدت أشك في كل ما يحيط بي، بدءا للأسف من زينة نفسها، فحياتي تتخذ مسارا جديدا وما مضى منها بدأ تبدد ويصير مجرد وهم ، فليس من اليسر على عقلي ونفسي أن أغير كل شيء، الوضع الحالي على زيفه وأعطابه مريح وغير مكلف لي نفسيا، والبحث عن الأصل والجذور على أهميته مكلف وقاس بنتائجه وتحولاته، فلن يتوقف الأمر

عند تصحيح نسب، بل ستنهار حياة كاملة، وتنهض على أنقاضها حياة أخرى، معالم وخرائط جديدة لحاضر ومستقبل لست مستعدا كفاية لهما، على الأقل وضعي الحالي آمن ومضبوط، فأنا لا أحب التغيير، بل لا أطيقه.. بل أخاف منه.. كل تغيير في حياتي كان مكلفا..كان يكفي أن أغير فراشي لأشعر بالحزن والأرق.. فهل علي أن أغامر؟ هل يستحق الأمر أن أتنازل عن المألوف من أجل المجهول؟

تقول زينة مصرة أن تربح المعركة دون يأس أنه علي أن أختار طريق المجهول، وإن كانت ستقلب حياتي رأسا على عقب.. من أين تستمد هذه المرأة كل هذه السكينة وسط العاصفة؟ تقول في استياء وبحكمة إن جبني ووساوسي يربكان المسار العادي للحياة وإني أعيش ألما لم يحدث بعد.. وقد لا يحدث أبدا.. وتلح وتلح.. تطن.. كنحلة نشطة.. تردد بلا كلل أن العيش في الوهم لا ينتج إلا الوهم.. وأن رحلة البحث عن الأصل لابد منها وليست ترفا ولا اختيارا بل هي ضرورية.. لأننا ننتمي إلى مكان ما.. إلى لحظة ما.. ومنهما نستلهم أمل الوجود..

أي وجود يا زينة هذا؟ يكفيني هذا الوجود الذي ألفتته.. يكفيني أنت.. كوني جذوري.. كوني أصلي الجديد.. يا حبيبتي أي وجود..؟ فوجود جديد حتما سيتأسس على الحرقة.. على الهدم.. على القطيعة.. يا زينة..! رجاء لا تكوني قاسية.. ارحمي عقلي ودعيني أنشد السلام في وضعي هذا في سريرك.. بين أحضانك.. في عالمك... فعالمي وإن بدا لك وهما.. آمن.. آمن..

بيد أن زينة عازمة على الحسم بأي ثمن.. يتحول الأمر إلى السجال، ثم الخصام.. فالمقايضة المؤلمة.. وتقول ذات ليلة:

- عزيز.. تخلص من هواجسك.. تخلص من خوفك.. ارحل نحو جذورك..
- زينة..! قد تكون جذورا من شوك وحسك.. قد تكون أرضية من رمال متحركة.. قد تكون جحيما من نار محرقة..
- ولتكن.. ما تكون.. هي خير من الزيف والوهم..
- ستتغير عدة أشياء.. ستتبدد ذكرياتي القديمة وتصير هباء..
- لن تتبدد.. ستصير تجربة رائعة تضيء درب الغد..
- زينة..!. الغد مخيف..
- والحاضر مزيف..
- أ.. لا بد من التغيير..؟. إنه جد مكلف.. جد قاس.. ستموت فيه.. صور.. أحداث.. عواطف.. أفراح.. أحزان.. محطات.. أحلام..
- وسيولد الأمل.. الحقيقة.. بدل الوهم..
- لا.. رجاء.. أنا مكتف بالوهم..
- لم أحسبك جبانا.. خائفا.. من حقيقتك.. حان الوقت.. أن تختار بيني وبين الوهم..
- ماذا تقولين يا حبيبة القلب..؟

- أنا جزء من الواقع.. من الغد.. فاخترنا معا.. الجذور.. وأنا... فنحن متلازمان..
- آه..! رجاء.. خففي قسوتك على العقل الحائر..
- عدني بالرحيل في أقرب وقت.. وعدا ساري المفعول وفي قلبك الأمل.. وبدد حيرتك وخوفك بضوء الحقيقة..
- كلامك حكمة.. من أتيت بها؟
- من قلبي المفجوع الذي احترق أكثر من مرة.. من أرضي التي اغتصبت.. من أسرتي التي تشردت وساحت في الأرض..
- سأرحل.. سأرحل..

حدث الأمر في دجنبر..

كان الجو متقلبا.. رياح قوية تصوت أحيانا محملة بالغبار تأتي من الغرب.. وأحيانا أخرى تهب في شكل زوبعة لا تستطيع حواسنا تحديد جهة هبوبها.. لم تمطر بعد.. تخوف سرى في القلوب وملأ العيون من جفاف محتمل ثم تشكل على الألسنة أدعية مألوفة هنا وهناك، وتوسلا للطف لا تخلو منه مجالس ولا تجمعات.. اشتد القر على الناس.. فطغى الحديث عن قسوته حتى غطى على مواضيع ذات شأن من أحاديث الساعة، ولن تسلم الأجساد من علل مردها إلى الأجواء الباردة غير الممطرة.. تعافيت من زكام ألم بي.. ثم انطلقت نحو قرية أولاد الصياد وبي وهن من سعال ملح.. ألم أضلعي وصدري.. لم تكن الرحلة سهلة على متن سيارة أجرة كبيرة تكدس فيها ستة ركاب عدا السائق.. غير

مكيفة.. مهترئة.. يكاد البرد القارص يهد الأبدان فترتجف له الفرائص لولا تلاصق الأجساد التي أراحها ذلك على مشقته..

الطريق غير معبدة إلى أولاد الصياد ببادية سهل دكالة، لكنها قرية صغيرة على حدود ريف السراغنة القاسي المناخ والأرض.. مسلكية ترابية لا تخلو من منعطفات خطيرة وموحشة، قلما نصادف سيارة أخرى فتتقاطع الأضواء مبددة الوحشة، تبث سكينة غريبة في القلوب.. بعض الجرارات تبدو كوحوش كاسرة تشق العتمة. بأضواء ضعيفة وأصوات هادرة، يأبى السائقون أن يفسحوا الطريق في عناد واستهتار، فيعمد السائق إلى تفاديها بانعطاف مفاجئ وبهلواني، لا يعره من معي بالا، بينما أنا يخفق له قلبي خفقانا شديدا وسريعا، ويتملكني الجزع.

وصلت عند المغيب.. القرية شبه صامتة يلفها الغموض والضجر.. احتضار الشمس وهي تنزف شفقا قرنفليا في موتها اليومي، زاد من غربة المكان وقسوة اللحظة، قرية جد صغيرة كئيبة المعالم والظلال والأفق، تكاد مظاهر الحياة تخلو منها عدا ظلال هنا وهناك تمرق بين الأزقة الضيقة في جلابيبها الثقيلة..

تسري رويدا رويدا العتمة في الأرجاء في النفوس ويبدأ الليل في نسج عباءته القاتمة في كبرياء.. فأعمدة الإنارة الموزعة بدون تنسيق هنا وهناك، وضوؤها الخافت الشاحب الأصفر الذي يشرع الصدر لمشاعر حزينة، أضعف من أن يزاحما الظلام على الوجود.. طرق تعبر القرية يتيمة هذه القرية الغارقة في العزلة، وتتوزع على جنباتها دكاكين مغبرة مغلقة، على عتباتها استلقت ظلال لكائنات بشرية.. في ملابس رثة، وأجساد علتها بقايا التراب والطين.. من حين لآخر تومض أضواء

متفرقة وأحيانا متقاطعة.. ضعيفة لمصابيح يدوية تشق العتمة التي تلف منحدرا يؤدي إلى القرية.. ثم تتلاشى بعيدا.. تربض كلاب هزيلة.. منهكة في أكثر من مكان.. أتفرس في وجوه بعض القرويين الذين استلقوا على الأرض متوسدين أياديهم، أمام بوابة السوق الأسبوعي.. يبدو أنهم عمال زراعيون من منطقة أخرى أو باعة جائلون.. يقضون الليل في انتظار الصباح.. اضطر إلى تجاوز خندق ترابي ملتو غير مستقيم العبور.. شقته حتما أياد مرتجلة تصميمه، بلا حماس وبدون مهارة ولا تخطيط.. خندق تجمعت فيه وترسبت مياه عكرة.. أسن.. تفوح منه رائحة العفونة بقوة.. بصعوبة أعبره وأنا أحط قدمي على حجارة متفرقة، كادت قدمي أن تزل كأني، رائحة الجيف تنبعث من مكان ما.. أنش الناموس والذباب عن وجهي بيدي.. وأنا أتحاشى شم الرائحة الكريهة القوية بكم سترتي.. أزبال منتشرة وأنقاض الهدم متراكمة هنا وهناك.. بيوت إسمنتية تنتصب غير مكتملة على أنقاض بيوت قديمة من تراب وطين ينبعث من نوافذها ضوء يؤشر على وجود الحياة والناس، كلاب ضالة تجوب القرية وتملأ فظاءاتها بالنباح ثم العويل.. تنبش في المطارح والمزابل.. في صراع مع قطط شرسة تموء مواء حادا من الخوف والتأهب للدفاع عن نفسها.. مركز صحي متهالك، من البناء المفكك يجاور مقر القيادة، وبناية متآكلة كتب على واجهتها بخط رذي مدرسة "أولاد الصياد"..

أتخذ مكانا منزويا بالمقهى.. أثير انتباه الزبناء، فيحولون أنظارهم نحوي.. متفرسين، متفحصين علنا بلا تحفظ..أشعر بالتوجس..انتصب واقفا.. أهم بالخروج.. يستأنفون لعب الأوراق و"الداما".. أعود

وأجلس وعيناي عليهم من الريبة.. توزعوا على طاولات متسخة زرقاء اللون داكنة، تعلو وجوههم الغبرة وسمرة من جراء شظف العيش وقسوة الظروف.. يتهامسون، يضجون ضحكا وهم يصوبون نظرات متقطعة نحوي.. تنتابني رعشة من قر وذعر.. أرقب أحدهم يغادر وهو يلتفت إلي بينما شيعه الآخرون بنظرات حتى اختفي في بناية القيادة.. ترى أين ذهب؟ يعود ويأخذ مكانه مع الجماعة، بعد دقائق، يظهر "مخزني" في بدلته النحاسية الرسمية، وقبعته ذات الشريط الأحمر.. يتقدم نحوي.. منتصبا.. في كبرياء.. يقول:

- السلام عليك..

بقدر ما أراحني ظهور المخزني، بقدر ما فاجأني حضوره الغريب.. فما زلت لا ارتاح لأصحاب الزي والبدلات العسكرية..

- عليك السلام..
- اسمح لي.. إن سألتك.
- تفضل..
- لا نعرفك.. ولست ابن القرية.. ولا النواحي.. هل تنوي المبيت في القرية؟
- لا.. لماذا؟
- لأنه.. لا مكان لك للمبيت هنا.. والليل كما تعرف.. يكثر فيه اللصوص وقطاع الطرق..
- لا أنا من الدار البيضاء.. ولا أنوي المبيت..
- هل جئت في حاجة معينة..؟

- لا أعرف مازلت أنتظر مكالمة هاتفية..
- هل يمكنك أن تطلعني على بطاقتك الوطنية..
- لا.. مانع...

يتفحص البطاقة، يردها لي.. ويقول:

- أعانك الله.. "اسمح لي".. لو وجدت مشكلة ما أنا هنا في المداومة الليلية بمقر القيادة..
- شكرا.. الله يرحم والديك..

يخطو بعيدا، يجر ساقيه المثقلتين من ثقل جزمته العسكرية، ينزع قبعته، تظهر صلعته، يرمقني بنظرة سريعة أخيرة.. قبل أن يختفي في مقر القيادة.. أحول نظري إلى القرويين، تتقاطع عيوننا من جديد، أضبطهم متلبسين باستراق السمع في اهتمام كبير، يغضون الأبصار بسرعة، ويعودون إلى ما كانوا فيه، وهم في يتجادلون بصوت عال.. ثم يسكنون.. ثم يتهامسون.. وهذا حالهم.. صخب.. سكون.. همس... ينهض أحدهم من مكانه يقترب مني، يسلم، ثم يقول وهو يسوي "طاقيته":

- سيدي.. سمعت الحديث الذي دار بينك وبين "الشاف".. إن كنت تنوي المبيت.. مرحبا بك عندي..

ابتسم في وجهه، انظر إليه، وقد ارتسمت عليه معالم الطيبة، حين انفرجت أساريره، وكان كهلا..

- الله يخليك.. شكرا.. أنتظر صديقا
- المهم.. أنا هنا.. مرحبا بك.. أيها الغريب.. بيتي بيتك..

بدد الكهل مخاوفي بعرضه الجميل هذا وابتسامته الصادقة، أشعر أنها لم تكن باهتة مزيفة، وقد أدخل إلى قلبي حديثه بالطمأنينة، انسحب الرجل، فسحب معه من صدري توجسي من القرويين.. فجأة يعلو القرية صوت إقامة الصلاة.. ينسحب بعضهم مهرولا ويستمر الآخرون في لعب الأوراق..

يرن هاتفي:

- ألو..!. سي عزيز السلام عليكم.. اتصلت بك.. هاتف لا يرد..
- من؟ سي عبد السلام..؟
- هل أنت في الدار البيضاء..؟ عندي لك معلومات مهمة..
- لا أنا في دكالة.. وبالضبط في قرية "أولاد الصياد"..
- اسمع.. لقد كلفتني بأن أبحث لك في القضية.. ومن باب الزمالة.. تجشمت المشاق حتى أتيتك بمعلومة خطيرة.. بحثت في أرشيف سجلات المركز الصحي.. لأولاد الصياد.. لقد كان العمل صعبا شيئا ما، فالأرشيف غير منظم، وطاله الإهمال وخصوصا ملفات الخمس السنوات الأولى بعد الاستقلال.. وجدت سجلا مغبرا لمواليد 1961، لكن أمرا مريبا أثار انتباهي.. أمر حصل يوم 23 مارس..
- ما هو..؟ رجاء..
- في ذاك اليوم، وفي الساعة نفسها.. 11ليلا.. ولد طفلان.. سجل في الدفاتر مولودان.. ذكران.. أحدهما أشير إليه بعبارة ولد ميتا..
- -هل الوالدان مسجلان..؟

- نعم.. الوليد الذي ولد ميتا،أمه هي "عائشة الزوالي" وأبوه هو "المعاشي القاسمي"، والآخر الحي استخرجت له شهادة الولادة باسم حبيبة بنت القرشي وعباس عابر.. يبدو أن الأمر يتعلق بمولود واحد.. لم يمت.. والذي أثار استغرابي أكثر هو أنني كابن المنطقة لا أعرف حبيبة بنت القرشي ولا زوجها عباس عابر.. الأسرة المحتلمة لك تقطن بدوار "الحرث" على بعد بضعة كيلومترات من القرية..
- شكرا.. الله يخليك.. الله يرحم الوالدين.. ألمهم.. أظن أن الخطة كانت هي إيهام أمي وأبي الحقيقيين بموتي، وتسليمي لحبيبة التي ربتني، مع استخراج شهادة للولادة، كأنها وضعت..
- لا وسيلة للتنقل إلى دوار "الحرث" غير النقل السري.. سل أحدهم لن تضل الطريق..

ها أنا ذا وحدي أسير نحو قدري المحتوم.. على الطريق الممتلئة بالحصى والرمال، تمر أمام عيني الأشجار والحقول، فتشعرني بالغثيان، لا أعرف هل هو الخوف الذي سرى في عروقي أم غثيان الحركة؟ عقلي موزع بين الخوف والحيرة.. نعم.. كم أنا خائف من المنتظر.. من المجهول.. من فتح باب لا أعرف ما وراءه.. هل الجنة أم النار؟ هل الخيبة أم الفرحة؟ الأسئلة المؤلمة تضغط بشدة على قلبي.. وعقلي.. ماذا لو تنكر لي الأبوان؟ ماذا لو كنت وجودا ماديا شاهدا على نزوة عابرة لامرأة في مرحلة ما؟ ماذا لو كان ظهوري المفاجئ في حياة هذه الأسرة سيفجرها من الداخل؟

داهمني شعور قوي بالريبة والحذر، أعدت في عقلي تفاصيل حكاية الشيخ العربي حول أصلي وطريقة اختطافي، فاختار عقلي مرة ثانية المسلك الوعر، وعاد يشكك في الحكاية، ويضع الرجل أمام مدفعية التوجس.. ماذا لو كان كاذبا.. أحمق.. مسلطا علي من جهة ما لينغص علي حياتي؟ كيف صدقته بهذه السرعة؟ كان علي أن أتركه رهينة عندي حتى يكون شاهدا على الماضي والحاضر؟ ككرة ثلج تكبر أسئلتي وهي تتدحرج على سفح مخاوفي، تكبر.. لتصير بحجم لا يطاق.. أشعر بالاختناق، أفتقد زينة في هذه اللحظة.. أفتقد كأسا.. أنظر إلى السائق وأسأله:

- هل اقتربنا؟

- قريبا.. إن شاء الله..

السيارة المتهالكة تمخر بحر الظلام، بأضواء ضعيفة، ورائحة الروث قوية تملأ الأجواء.. لا ينبس بأدنى كلمة.. من حين لآخر ينظر إلي نظرة عابرة.. أشعر برغبته في الكلام.. لكنه مترددا.. أشعر بفضول هذا السائق السري.. حتما.. عدة أسئلة تدور في خلده.. من هذا الرجل القادم من المدينة؟ عند من سينزل في هذه الليلة؟ ولِمَ.. جاء هنا في هذا الليل؟ أفاتحه بالحديث مبادرا علني أبدد وحشة الصمت وأخفف وطأة العتمة:

- هل أنت من دوار الحرث؟

- لا.. أنا أسكن في القرية.. قرية أولاد الصياد..

- هل تعرف سي المعاشي في دوار الحرث؟

يرمقني بنظرة استغراب خاطفة، يخفف السرعة بشكل مفاجئ حتى اهتزت السيارة، وكادت جبهتي أن ترتطم بالزجاج الواقي، ثم يردف:

- لمَ تسأل عنه؟ هل تعرفه؟
- نعم.. هو من العائلة..
- لكن سي العياشي "الفقيه" الرجل الطيب مقطوع من شجرة.. لا أخوة له وليس له أبناء.. ربما أنت من قرابة بعيدة..
- نعم.. صدقت..

أصمت من جديد، وأنا أفكر فيما قاله السائق.. "الرجل لا أخوة له ولا أبناء.. وفقيه.. أي إمام مسجد متواضع ويصلي بالناس "الأوقات".." طافت بعقلي بغتة فكرة العودة.. وتمنيت لو كانت معي زينة وأنا أشعل فتيل الريبة من جديد في عقلي وقلبي..فأشعر كأن سكاكين حادة تقطع أحشائي إربا إربا.. لكنها اختارت ألا تأتي، اختارت أن تتركني أواجه الوضع بشجاعة بعيدا عن كل الأطراف.. نعم.. أعلم أنها لا تريد أن تظهر رفقتي في هذا الظرف بالضبط، قالت وهي تودعني في شجي "لو سألوك من أنا.. هل لك من جواب؟" طبعا.. لا جواب.. خليلة.. رفيقة.. صديقة.. عبارات صادمة في البوادي المغربية..

تتوقف السيارة في الظلمة.. إلا من أنوار بعيدة، لمنازل متفرقة هنا وهناك، يترجل ويقول:

- هذا هو بيت سي المعاشي.. أعانك الله..

لم يمهلني كثيرا من الوقت، وضغط على الدواسة وانطلق بسرعة مثيرا الغبار، ليختفي ويختفي معه ضوء السيارة، فتنتشر الظلمة.

أمام سياج حجري متهالك رص من حجارة قديمة متراصة من دون ترتيب، أقف مستجمعا أنفاسي، مرتبا فوضاي الداخلية أدنو من باب قصديري.. نباح كلب شرس مزق صمت العتمة.. رعشة تدب غريبة في صدري..اختلط القر والجزع.. أطرق الباب طرقا خفيفا ثم قويا وأنا ألتفت في ذعر يمينا ويسارا وخلفي.. كأني أسمع حثيث خطو.. أنتظر لحظة، استعجل أن يفتح الباب.. وأخيرا جاء الفرج.. ضوء شاحب يدنو ببريقه من الباب.. فتدنو معه السكينة من قلبي.. صارت أذناي تلتقط حثيث الخطو من أكثر من جهة..عقلي يرقع الأسباب طردا للذعر.. ثم ينفرج الباب عن فرجة ضيقة، ويسلط الضوء منها.. تطايرت على أزيزه الحاد بعض الدجاجات وقد ملأ ريشها الفضاء، تبدو امرأة عجوز، في يدها قنديل، ترفعه لترى وجهي وتقول في صوت متعب، خافت..:

- من؟ من؟

كأن لساني عقد، وفكري شل، ولغتي تفتت، ظللت للحظة أبحث لها عن جواب، ولا أعرف لما لم أستعد لهذا اللقاء بما يكفي..

- من؟..شكون؟..

استجمعت قواي، وتمنيت لو كان بالإمكان الحصول على جرعة ويسكي حتى أواجه الموقف بشجاعة كافية.. فرددت عليها في تلعثم واضح:

- مساء الخير.. هل سي المعاشي موجود...؟
- لا ولدي هو في المسجد.. لكن من أنت..؟
- أنا ضيف الله.. جئت من الدار البيضاء..

توسع المرأة فرجة الباب ثم تشرعه.. الأزيز يرتفع.. فترتفع معه درجة التشويق في قلبي وقد تمكنت الحيرة من العقل.

- أدخل.. مرحبا بضيف الله.. انتظره حتى يعود.. فالليل قد حل.. والخارج بارد..

تجاوزت السور، فإذا أنا في باحة متربة إلا من حجارة بيضاء كبيرة ناتئة من قلب الأرض.. متفرقة كشاطئ صخري وسطها كرمة عالية ومتشابكة الأغصان.. على يمينها زريبة، ارتفع نهيق حمار منها، ومن كوة ضيقة انساب ضوء خافت لقنديل معلق على عمود في وسطها. زاد الفضاء غرابة لحد الخوف الضوء الخافت والصمت الموحش.. إلا من نعير الصراصير القوي في تناوب غريب مع نقيق الضفادع الآتي حتما من بركة متاخمة، ونباح كلاب شرسة.. يتصاعد حتى يستحيل عويلا مفزعا.. أما هذا الكلب في الباحة فلم يتوقف وألح في النباح كأنه لم يستلطف حضوري.. لوحت له المرأة العجوز بيدها، فهدأ واستلقى قرب الباب..

أدخلتني غرفة مستطيلة الشكل.. غير عالية السقف.. صغيرة الباب، الجدران مطلية بالجير فقط وبخاصرتها خط من صباغة خضراء قاتمة، نافذة يتيمة تكاد تلامس الأرض، صغيرة تطل على الحوش، والأرضية مفروشة في تواضع ملحوظ بحصير ملون الأشكال، ومغطى بأغطية ملونة

منسوجة من خرق الأثواب، وسائد عريضة قرنفلية اللون، يبدو عليها أثر الزمن.. ورائحة التراب تنبعث منها بقوة، جهاز راديو قديم الطراز،على مائدة مستديرة، أشعلت بيدين مرتجفتين سراجا غازيا، فانتفخت فتيلته ثم زفرت فأضاءت بقوة كمصباح كهربائي.. جلست على بطانية ناعمة لكن وثيرة على الحصير منسوج من نبات الدوم واتكأت على مسند وقى ظهري من برودة الحائط، وشرعت أتفحص الوجه النحيف للمرأة، وخطوها الثقيل، وقد تغطت بلحاف أبيض، وشدت رأسها بمشد من ثوب ناعم، بيد أن بياض شعرها بدا منتشرا من خلال شعريات فضية طائشة.. كانت في كل خطوة تئن، ويكاد ظهرها يصير مقوسا، تغيب في المطبخ، الذي ظهر لي أن ناره مازالت موقظة في الفرن الطيني، تصلني رائحة الرغيف الطازج الشهي.. من بعيد أرى أثر الأدخنة السوداء على الجدران والسقف.. وبقية رماد على العتبة.

- مرحبا.. ولدي.. اجلس حتى يأتي الفقيه.. سأعد لك الشاي..
- الله يخليك.. لا أريدك أن أتعبك..
- لا.. ضروري.. أنت ضيف الله.. ومرحبا بضيف الله..

لا تعرفني هذه المرأة الطيبة العجوز، وأدخلتني بيتها، دون أن يتملكها الخوف ولا حتى التردد، كانت فقط توزع ابتسامة جميلة، تجعل وجهها المتجعد يشع ضياء، وحضورها ينشر السكينة والطمأنينة، ها هي تدلف نحو المطبخ، جسدها الواهن، وبنيتها الهزيلة، لم يمنعاها من أن تكون مضيفة نشطة.. مرحبة.. فرحة.. بشوشة.. وأنا الغريب الطارق ليلا الذي لا تعرف عنه شيئا، لم تكن هذه المرأة العطوف في فيض وجداني غامر في حاجة إلى التحقق في هوية الطارق، ولم يتسلل

إلى روعها أدنى شعور بالتوجس ولا الخوف، هكذا فقط.. بعفوية فطرية، وبكرم الروح قبل الزاد، جعلتني جزءا مما تبقى من هذا اليوم.

قالت وهي تضع صحن اللوز، وآخر به زين الزيتون، وأرغفة ما زالت ساخنة، ينبعث منها بخار عبق برائحة طيبة.. للخبز الشهي:

- اسمع.. أنا.. يا ولدي..!. لا أعرفك.. لكني أشعر أنك لست غريبا عني.. قد تكون من العائلة.. ولكن اعذرني.. السن والمرض..
- اعتذر على إزعاجك.. اسمحي لي..
- لا تقل هذا يا بني.. دار سي العياشي كانت دائما زاوية للغريب ولغير الغريب.. اسمع.. الأمس حلمت حلما غريبا.. كأني استيقظت ووجدت في الحوش نخلة فارعة.. وكان الرطب يتساقط منها سردت رؤيتي على عمك العياشي فقال وهو يضحك كعادته إنه خير.. ربما تلدين لي طفلا ذكرا.. عمك يهزل أحيانا.. يعرف أني عجوز.. بلغت سنا لا تحبل فيه النساء.. منذ سنوات.. أخذنا حقنا يا بني.. وكفاية.. عمك المعاشي يقول هذا لإضحاكي.. لكن هل من كان في سني يريد شيئا آخر من الدنيا غير الستر والموت على الإيمان.. اللهم ثبتنا على الشهادة.. ربما لو عاش ذاك الوليد لكان في عمرك "قياس الخير"
- ربما خير.. من يدري.. الأحلام تأتي أحيانا صادقة.. فقط يجب إجادة تفسيرها..

تسكب كأس شاي ساخن، تمده لي، ألمح وشوما على كفيها، تدني مني صحون الزيت والسمن واللوز، وتعود لتمد لي رغيفا ساخنا وهي تلح علي في حنو:

- كل يا بني..!. ربما لم تذق شيئا منذ الغذاء.. كل.. فالقر قارس للأبدان، وللبطون..

أشعر بقشعريرة برد تدب في مفاصلي، أفرك يدي، تفطن لذلك تنهض واقفة بمشقة.. تحرر غطاء من غشائه البلاستيكي، وتغطيني به، أشعر بالغطاء جديدا.. ناعما.. ورائحة الجدة تنبعث منه..

- الله يخليك..

- نحن في الخريف..وقر الليل في البادية صعب لا يطاق..

أسمع وقع خطى وحثيثا وراء السور، الكلب لا ينبح رغم ذلك، طرق على الباب، تفتح المرأة العجوز، يصلني صوتها وهو تقول:

- سي العياشي.. عندنا الليلة ضيف الله..

أسمعها يرد عليها بصوت به بحة، ونيرة تشعرك بوقار صاحبها:

- مرحبا بضيف الله.. هل قدمت له الشاي؟

- ادخل .. فهو في غرفة الضيوف..

أثب واقفا ما إن يتجاوز العتبة، بعفوية وحياء، أقبل يده، أنظر في عينيه الحمراوين، أشعر بالأب قبل أن ينطق، ألست مصابا باحمرار العينيين دون حساسية أو مرض يذكر؟ كث اللحية في تشذيب وعناية عكست وقارا بهيا دون عبوس قاس ولا تجهم فض، يتشح ببرنس

أبيض، ويعتمر عمامة بيضاء، وفي يده سبحة من حبات خشبية، نظر إلي مليا، ثم قال في حنو:

- السلام عليكم، وجهك ليس بغريب عني.. أسبق أن التقينا..؟
- لا سيدي هذه أول مرة.. آتي إلى هنا..
- الأمر غريب.. كأنني أعرفك..

ترد عليه زوجته وهي تهش الذباب عن الصحون، بمنديل:

- هكذا أبناء الحلال.. "أولاد الناس".. تراهم من أول وهلة فتجدهم في قلبك..

تصب له كأس شاي، يرشف منه، وهو يحدجني بنظرات لم تكن عابرة، ثم أشعر به، مرتبكا، كأنه يواجه موج أسئلة جارفة، ثم يقول في حيرة:

- هل أنت متيقن أننا لم نلتق قبل..؟ ألست من العائلة؟
- لم نلتق أبدا سيدي.. أنا على يقين..
- عجبا كأنني أعرفك.. سبحان الله..

تقطع عنا الحوار زوجته.. وتقول في دهشة:

- سبحان الله، فيك شبه من سي المعاشي.. كأنك أخوه..
- أريد أن أطلعكما على سبب مجيئي اليوم.. عندها ستتبدد كل الحيرة..

يرد علي الرجل الذي أظنه أبي:

- ليس الليلة.. تعش.. وارتح.. وغدا نتحدث..

تقلبت في فراش طوال الليل تقلب المحموم، لا عين غفت ولا بال هدأ ولا خاطر همد، الوساوس تعلن زمن قيظها في العقل والصدر.. ألفت فراش زينة ووجودها إلى جانبي، فهي متعة وهدنة للوجدان من الاعتصار، بحثت عن أدنى غفوة، تريحني من وطأة الأسئلة المحيرة والفرضيات الحارقة التي تقض مضجعي، تختلط في خاطري المشاهد والمواقف، لا أكتفي باستعادة تفاصيل اليوم، بل أجنح بأفكاري نحو أحداث ظلت متوارية، موهمة عقلي باندثارها، فإذا هي متأهبة.. منتظرة، فجوة في الروح، لتطفو على السطح قوية الرجع، مزلزلة كل سكينة، إلى عوالم قديمة أبحر دون إرادة مني، تحضرني صورة الشيظمي، الفضاء البدوي هنا، حفز ذاكرتي، وأيقظ ما ظننته تبخر وانتهى، مازال إحساسي بالذب يعصرني عصرا، أكان لابد من الاقتصاص من الرجل؟ كيف قبلت أن أكون جلادا مثل كل الجلادين؟ يستعر الظن والشك في أتون عقلي، يلتهب.. مذوبا جليد التجاهل.. أترجى روحي أن تقبل معاناة زينة، وأسرتها مبررا يطفئ نار الإحساس بالألم.. تمنيت في لحظة ضعف نفسي تحت سياط الشك أن أهرع هاربا، بعيدا عن هذا البيت عائدا إلى حياتي العادية.. أشعر بأن في داخل كل إنسان جلادا قاسيا، متى توفرت الشروط خرج بسوطه، وقسوته.. فحتى المرأة الرحيمة، التي كنت قرة عينيها، والتي أحاطتني بالرعاية.. كانت جلادا من نوع آخر.. جلدت والدي الحقيقيين.. بقسوة دون أدنى شفقة.. فهل يشفع لها حبها لي ورعايتها، في ما اقترفته في حق هذين العجوزين..؟

تلتقط أذني نباح الكلاب.. فأشعر بالوحشة وسط عتمة الغرفة، إلا من كوة صغيرة، ترتج دفتاها بشدة من حين لآخر عند هبوب تيار ريح

عابر، حاولت أن أحكم إغلاقها، كانت الدفتان متراكبتين، غير متسقتين، لم ينفع معهما غير حجر أصم وجدته، فأعانني على تثبيتهما.. كان للضوء الأخضر الغامز من هاتفي مفعول سحري.. يلطف وحدتي وإحساسي وعوري بالقلق والوحشة.. أتفقد الساعة.. الثالثة صباحا، وحدها.. الصراصير هذه الليلية والضفادع بأصواتها الحادة.. اللحوحة.. تقاسم الكلاب عويلها.. الوسادة لا تلائم رقبتي، وحتى الفراش رغم وجود أكثر من بطانية وغطاء تحت ظهري، لا يلائمني، من حين لآخر أضطر لتغيير شكل الوسادة.. ووضعها.. عيناي مفتوحتان في الظلام.. ترافقاني يقظة العقل والوجدان.. لا تغفوان حتى ينهي العقل معركة الحيرة والذهول.. هيهات أن يغفو العقل والعينان هذه الليلة..

لا أعرف كم مر من الوقت، فجأة أسمع حركات في الحوش، خطوا.. كلاما هامسا وخافتا استغفارا.. وتكبيرا.. أدنو من النافذة مرهفا السمع، ومسترقا البصر من شقوقها، يظهر الشيخ وزوجنه، يتوجهان إلى المطبخ، في يد المرأة العجوز قنديل خجول الضوء، يتكلمان بصوت خافت، يبدو أنهما منخرطان في الوضوء، بعد لحظات يرتفع الآذان عاليا، يشق صمت الفجر، يفتح الباب.. لا ينبح الكلب، ويختفي الشيخ في الغبش ثم يعم الصمت.. ليكسره صياح الديكة، زقزقة متنوعة للطيور.. رويدا رويدا.. يعلن النهار عن سلطته، يتراجع الظلام مستسلما لسنة التناوب.. فاسحا الطريق للظلال.. للنور.. ينفذ الضوء بحذر إلى الغرفة، متسللا من الشروخ، وشقوق دفتي

الكوة المتهالكتين.. تتناسل الظلال على الجدران والأفرشة.. وتتراجع ظلال روحي القاتمة..

الساعة الثامنة صباحا، على مائدة الفطور، بدا على الشيخ الاستياء، قال وهو يحتني على الأكل:

- يوم عن يوم.. يقل المصلون.. وخصوصا عند صلاة الفجر..

خفت أن يكون يلمح إلي، فلذت بالصمت، فردت عليه زوجته في شفقة:

- الحياة تغيرت.. والناس رحلوا إلى المدينة.. لم يبق إلا الشيوخ الذين أصابهم الضعف والهوان.. وحتى الشباب تراهم أنهكوا في الأشغال الصعبة.. ولم يستطيعوا الاستيقاظ للفجر..

- صدقت.. كثير من البيوت أصابها الخرب.. ولكن طريق الله متعددة.. فمن لم يسهل له الله الفجر.. سهل الله الخير في باب آخر.. كل يا بني.. كل.. والآن ما الأمر الذي جئت من أجله..

رباه.. الكلمات من جديد تهرب من لساني.. وأشعر، بدوار يلفني لفا، من أين أبدأ؟ وما هي التعابير التي تليق بهذا الموقف..؟

- نعم.. بني...!. أنا أنصت..

استجمعت قواي، وقلت متلعثما:

- أنا ابنك..

- نعم بني كلكم أبنائي..

- لا أنا أقصد من صلبك..

توقف الشيخ عن الأكل، وجحدته الزوجة بنظرة استفهام.. قاسية.. ثم أردفت:

- أنا ابنكما..

حولت المرأة نظرتها من وجه الشيخ، بسرعة واصطبغت بذهول، بعدما كانت بها مسحة استنكار قاسية، وقالت في دهشة:

- يا ريث يا بني.. لكن كيف؟

وجدت صعوبة في شرح، حكاية الاختطاف، لأن أبي وأمي أجهشا بالبكاء، وهما من حين لآخر يحمدان الله، حتى أني رأيت أبي يسجد باكيا، مطيلا، رغم أن ظهره يؤلمه..اختلط صوته بنحيب حاد وهو يعانقني:

- نعم.. عائشة.. صدقت رؤياك.. لقد ولدت من جديد.. هاهي نخلتك..

اختلطت العواطف، وامتزج الفرح بالدموع، ظللنا على هذا الحال حتى أذن الظهر، فوثب أبي واقفا، ودلف ذاهبا إلى المسجد وهو يردد:

- الحمد لله.. الحمد لله..

اكتفيت أنا بوضع رأسي على فخذي أمي، فداهمتني رغبة قوية في النوم.. فغفوت، وشعور سكينة يملأ صدري وأنا أحس بيدها تداعب شعري، وتحمد لله.

26

عاد والدي من المسجد تسبقه نحنحته المعتادة.. أبي يدخل منحنحا، وإذا ما تناهى إلى سمعه صوت ما في الطريق وهو خارج يعلن عن وجوده نحنحة أو سعالا، ويؤمن طريقه غاضا البصر مطرقا الجبين، غير متجسس ولا مسترق النظر ولا السمع.. أينما حل وارحل.. كأنه يستأذن لدخول بيت غير بيته، قال لي وهو يمد لي يده للوقوف رغم ضعف الذي بدا واضحا من لهاثه، وكان الوقت بعد العصر بقليل:

- تعال نتمش قليلا.. أعرفك على الأرض والشجر والهواء والتراب الذي أنت منه.. هذه الأرض مهما تهت.. ستعرفها وتعرفك..

انتفضت أمي في غضب محتشم وهي تؤنبه في أدب:

- دعه.. لم يسترح بعد.. لم أشبع من رؤيته..

يضحك والدي حتى تبدو نواجذه بصوت مشفق ويقول:

- يا عائشة..!. ستشبعين من رؤيته حتى التخمة.. دعيه يتعرف على أصله..

لا تصمد أمي كثيرا أمام إصراره، وتقول في استياء:

- عودا قبل المغرب.. فالبرد قارس جدا في الخارج..

يرد عليها أبي وهو يهز رأسه متأففا، موافقا في ضجر من عنادها.. متمتما ومغمغما:

- نعم.. إن شاء الله..

تشيعنا ، وهي قلقة، غير راض بنظرات حنونة.. ألتفت إليها قبل تجاوزي سور البيت، ألوح لها بيدي مبتسما علني أبدد مخاوفها وأصيح:

- سنعود .. يا أمي.. لا تقلقي..
- انتبه لأبيك.. فهو أحيانا ينسى وهم العظام.. وفعل الدهر..
- يرمقها أبي بنظرة عتاب، ويقول:
- اصمتي.. يا لحمقكن يا صحيبات يوسف..

دوار "الحرث" عبارة عن تجمعين سكنيين، متفرقين فرعين من جد واحد.. فرع عبارة عن تجمع سكني عند مدخله، تؤدي إليه مباشرة الطريق الرملية المليئة بالحصى والحجارة، وتتوزع على جنباته بيوت من حجر وطين.. مسيجة بالحجر المنضد بطريقة عشوائية، كل دار يحيط بها سور قصير، يكاد يظهر ما وراءه وبعض الدور يكتفي أصحابها بسياج من القصب أو نبات الصبار، خلفها تعيش الأسر وتخزن حبوبها في حفر تسميها "المطمورة" وتربي ماشيتها في حظائر عشوائية من الحجارة.. تتعايش فيها الأبقار والأغنام والطيور، لا يخلو بيت من كلب شرس، قلما يربطونه.. يربط التجمع الأول بالتجمع الثاني طريق ضيقة غير واطئة يحفها نبات الصبار الشوكي.. بينما تفرقت دور أخرى منعزلة وسط الأراضي الجرداء العطشانة.. لا أثر لعمود كهربائي، يستسقي القرويون هنا من آبار متفرقة، ماؤها مشاع بين الناس لكن أبي قال أنها في نقصان مستمر، وبدأت ماؤها ينضب وأكثرها غار ماؤها وانحسر، لا أثار للحرث ولا للبذر، الكل ينتظر ما ستجود به السماء من غيث في الأيام الحاسمة المقبلة.. من بعيد انتصب في اختلاف وتفرد صارخ بيت كبير على ربوة.. لا تجاوره غير أطلال قلعة قديمة.. كالقصر يطل على الدوار في بذخ ورفاهية معمار وهندسة ومواد بناء.. بطوابق متعددة وشرفات من الزليج البلدي والمرمر والرخام المصقول.. على ربوة

شامخا.. له هو من هذا الفرع ولا من ذاك، مبني بطريقة عمرانية حديثة، يحيط به سور عال من حجر صقيل ومنحوت ببراعة، تحفه أشجار الأرز وشجيرات للزينة متنوعة، وأحوض لأغراس توزعت فيها متسقة في تناغم وجمال وأزهار مختلفة الألوان ورود متعددة الأشكال ونباتات جميلة، البوابة الكبيرة من خشب صقيل مغطى بإطار حديدي فضي اللون لامع، تؤدي عبر ممر منضدود بالحجارة الرقيقة الملساء إلي باب البناية التبغي الزيتي اللون،تحفه أشجار مثمرة.. وأعمدة مشبكة لمصابيح بأغطية زجاجية كروية، حبل كهربائي يمر من عمود خلف هذا البت الكبير نحو مرافقه، سألت أبي:

- لمن هذا البيت الكبير؟
- سبحان المعطي المغني.. هذا لولد قدور..
- ومن يكون ولد قدور هذا؟
- ابن الشيخ قدور.. شيخ أيام الاستعمار.. سبحان الذي يضع سره حيث شاء..

يتكئ أبي على جدع شجرة سامقة، ثم يجلس تحت أغصانها ويتلمسها في فرح وبشاشة ثم يشم أوراقها وأنا مستغرب من ذلك ويقول:

- أنظر إلى هذه الشجرة.. إنها قوية.. سنديانة.. تذكرني بأيام البلوط.. أيام الجود والرخاء.. هنا يا ولدي امتدت غابة البلوط منذ زمن لا نحصيه.. ولا يحصيه آباؤنا.. ثم تحولت مع الوقت إلى

خلاء ولم يتبق غير هذه الشجرة.. حل غرباء ذات يوم من حيث لا ندري.. قطعوا الأشجار.. واختفوا..

- من كان يملكها..؟

يتنهد أبي، يهش بيده ذبابة عنيدة، يسرح بنظره في الأفق ويقول:

- إيه.. يا أيام.. كم تغيرت.. يا بني.. الغابة كانت للجميع.. مثلها مثل الماء والنار والكلأ.. حتى تغيرت الأحوال مع الأهواء.. فتملك الناس على غير عادة الماء والنار والشجر..

- والدي.. هل ولد قدور فلاح ..أم ماذا؟

يبتسم والدي ابتسامة جملية.. هادئة.. انفرجت لها أساريره، يستغفر الله في سكينة بهية.. ثم يقول:

- هو ابن قدور الشيخ الذي قتله الفدائيون.. دخلوا عليه ليلا.. وأفرغوا فيه مسدساتهم.. قالوا بوشعيب الدكالي من نفذ فيه حكم الإعدام.. كان قدور عميلا للاستعمار.. جلد الفدائيين.. وتسبب في اعتقال وإعدام الكثيرين منهم..

- وابنه هذا.. يظهر أنه غني..

- طبعا غني.. والغني هو الله.. بعد مقتل الشيخ قدور.. اختفت أسرته.. ثم عاد ابنه ذات يوم في عز الجفاف.. وبقدرة قادر أصبح يملك أجود الأراضي هنا.. سمعت أنه كان في الخارج..

- هل غناه من إرث؟

- سبحان الوارث الذي لا مذل ولا معز غيره.. كل ما أعرف.. أنه أنفق أموالا كثيرا للعودة.. والناس كانت في عوز وفقر مدقعين.. والجفاف هدهم واستنزف مدخراتهم فباعوا الأرض.. أنظر هناك.. أسرح ببصري حيث أشار.. أرى إسطبلات.. ومخازن..
- انظر.. كثرة أملاكه.. صار يطعم الجميع، تحكم في الأرزاق والمصائر..هو الآن من أكبر الفلاحين.. يتاجر حتى في الأسمدة والبذور.. يقرض الناس المال.. لا يستطيعون الحياة بدونه، يمنحهم "الزريعة" يتحكم في البذور المنتقاة.. والأدوية الزراعية.. ويحرث لهم بجراراته.. ويحصدها بحصاداته. إلى حين.. ثم يأخذ نصيبه على الأرض قبل أن تحمل المحاصيل في الأكياس.. ربما تتساءل.. أين هي أرضي..؟ تعال.. أريك..

يدلف أبي وهو يتأوه، يكاد يتقوس ظهره من وعرة المنحدر الحاد، يؤمن طريقه بعصا طويلة، اتخذها أيضا عكازا، نصل وسط أرض واسعة..ممتدة على بضعة هكتارات..

- هذه أرضي.. بل أرض الله وأنا مستخلف فيها..
- هل بعتها..؟
- لا.. هل أنا مجنون..؟ أبوك يجوع ولا يبيع أرضه..
- لكنها شبه قاحلة.. لا زرع فيها ولا حتى هشيم..

في حسرة.. تصعد من أعماقه تنهيدة، يقول:

- أنا ضعيف يا بني.. ولا أقوى على الزراعة.. ولا أجد الماء الكافي لها..

- وهذه الأراضي الشاسعة التي لا يحدها البصر.. وراء الربوة.. لمن هي؟
- هذا حديث آخر يطول ويقصر ولن ينتهي.. ولد قدور وضع يده عليها.. كانت مراع لنا، مشاعا لا تقبل القسمة، فيها الكلأ والماء حتى حازها بوثيقة لا أعلم لها أصلا..زعم أن ورثة رجل نصراني اسمه «لويس".. باعوها له.. وهي في الأصل أرض "الجموع".. أي مراعي مشتركة بين القبيلة..
- وهل لويس هذا كان هنا في زمن ما.. ويملك الأرض؟
- يا ولدي.. وهل للغريب أرض في أرضنا..؟
- ألم يجابه أحد ولد قدور؟
- تجابه من؟ يا أحمق..! البحر.. الطوفان، كيف تقاوم من في يده.. السلطة.. والمال والجاه؟ نمني أنفسنا بالدار الآخرة.. أما هذه الدار فقد أخذوها منا.. وماهي إلا متاع الغرور.. دعهم يرتعوا في نعيمهم إلى حين.. ويتقلبوا في خيراتها إلى أن يأتي وعد ربك.. وما ربك بظلام للعباد.. وقد تكون حكمته أن ترى وعده بأم عينيك في الدنيا قبل الآخرة..

يتوقف عن الحديث يجاهد في الرؤية بمشقة الشيخ الذي ضعف بصره، وخف سمعه وهو ينظر بعيدا تعلو وجهه ابتسامة عريضة.. أشعر به في خفة فرح.. تتكاثف على وجهه التجاعيد وتتكتل في الأسارير المفرجة، ثم يقول:

- ها هو عمك إبراهيم قادما...

يتوقف فلاح كهل يقبل رأس أبي ثم يخوض معه في الحديث:

- السلام عليكم..سمعت أنك يا عمي.. استرجعت ابنك..

يرد أبي وقد تملكته خفة غريبة على وهن وضعف بدنيين في زهو:

- وعليكم السلام.. نعم.. الحمد لله.. ها هو أمامك بلحمه وشحمه..

يصافحني الرجل بعناق حار وصادق تجلى من أسارير المنفرجة وبسمة عفوية عكست صدق شعور بالفرحة:

- مرحبا بك بين أهلك.. يا بني.. أنت ابن رجل نضعه فوق رؤوسنا.. فافخر به.. على الأقل هو الوحيد الذي لم ينفع معه إغراء ولا ترهيب ولم يتملكه طمع فحافظ على أرضه.

ثم يحول نظره إلى أبي ويقول مازحا:

- متى الوليمة..؟
- وقت ما شئتم.. مرحبا بك..
- بالعكس.. نحن الذين علينا أن نحتفل بقدومه..
- قل لي.. أين أنت ذاهب..؟
- أسقي الزيتون.. قبل أن ينحسر الماء في البئر كليا..
- بساتين ولد قدور خضراء، وشجره لا ينقطع عنه الماء.. كيف لآباره لا تنضب والمطر لم يهطل منذ أبريل..؟
- يا عمي..!. الرجل مد قنوات إلى النهر.. يجلب الماء بمضخات قوية تعمل بلا توقف.. ليلا ونهارا..

- وآبار الناس؟
- لم يعد فيها إلا ما يكفي الشرب.. وبدأ ماؤها ينحسر.. اللهم الطف بنا وأغثنا.
- آمين.. اذهب أعانك الله..

ينصرف الرجل، يلتفت إلي أبي ويقول:

- هذا "سي" إبراهيم ولد الناجي رحمه الله..
- ومن هو سي الناجي؟
- مجاهد.. فدائي.. أعدم أيام الحماية.. ولم يستفد أبناؤه من شيء.. إبراهيم ابنه مع الأسف باع الأرض واحتفظ فقط بأشجار الزيتون.. أتعلم يا بني.. أن الذين باعوا أرضهم لم يبيعوها مباشرة لولد قدور؟
- لم أفهم؟ أليس هو المالك؟
- طبعا.. لكنه احتال عليهم..
- كيف يا والدي؟
- إيه.. لو علموا أن ولد قدور هو المشتري ما باعوا شبرا من أرضهم ولو جاعوا..
- أأخفى هويته؟
- هو محتال بطبعه كأبيه.. شرب المكر والخديعة منه، ولابد أن الجشع يجري في دمه. فقد ورثه من أبيه.. الماكر كان يرسل غيره.. فيأتيهم كل مرة شخص مختلف ويعرض سعرا عاليا للأرض جد مغر.. حتى قال الناس.. "هؤلاء الذين يشترون أرضنا بهذا الثمن

حمقى" للأسف لم يدركوا أن لا ثمن للأرض.. فولد قدور كان مستعدا لأداء الغالي والنفيس مقابل جذر يشده إلى هنا.. ظن الناس أن الأراضي توزعت على عدة أشخاص.. حتى ظهر ولد قدور.. وبنى داره فوق الربوة.. على أطلال "قلعة" أبيه الشيخ، وبدأ يستغل الأراضي.. فعلم الناس أنه المالك الجديد الذي خرج من العدم.. وأنه أكترى أناسا قاموا مقامه حتى يضع يده على كل الأراضي.. كان يمنع الناس من العبور إلى أراضيهم عبر أراضيه الكثيرة المتفرقة ويقطع عنهم الماء.. فبارت فلاحتهم فباعوا ونزحوا إلى مدن مختلفة.. وأكثرهم سكنوا في مدن عشوائية..في مدن الصفيح.. ويا ليته قنع بذلك..

- لم أفهم.. ماذا يريد؟
- يحلم بأن يصير واحدا منا.. لكن أرفع منا شأنا ونعود إليه في كل صغيرة وكبيرة..
- أين كان قبل أن يحط هنا..؟
- سمعت أنه ساح في أرض الله سنوات.. عاش في أكثر من بلد.. خارج المغرب..

أشعر برغبة ملحة في الدفء، قشعريرة برد نافذ تسري في جسدي، أفتقد نور مطبخ أمي، أسرح بنظري في الأفق البعيد.. لا أثر للسحاب.. سماء دجنبر صافية على غير عادتها، عدا قطع من السحاب الخفيف العقيم يسافر بلا حياة ولا حبور.. أسراب الطيور العائدة على وكناتها تنشر أصواتا مختلفة من حين لآخر.. يلف المكان صمت الغروب الكئيب.. والدي منشغل بالتسبيح في هدوء لا أثر

على وجهه لهذا التحول من الضياء إلى العتمة، شيء ما يمنحه الدفء عدا جلبابه، فبرد الغروب لا يصده غير دفء الروح والقلب.. في الأفق تشكلت قطع من كبد ينزف في حزن، تتقدم الشمس برقبتها في انقياد نحو مصقلة الظلام.. تختفي وراء الهضاب.. يؤذن المؤذن صلاة المغرب، ينتفض أبي كمن أصيب بصعقة كهربائية، ثم يقول وهو يهرول:

- تأخرت عن الصلاة..

ثم يضيف مبتسما وقد كشف شعوري بالبرد من خلال حركاتي وفركي ليدي:

- ندفأ أنا وأنت إن شاء الله بالصلاة على النبي.. ونصلي معا إن شاء مقلب القلوب في الحرم النبوي.. والآن.. اذهب لأمك المسكينة.. فهي متعطشة لرِؤيتك في الدار.. أعرفها صبرها قليل.. أذهب لعلها تروي تعطشها. بك.. سأعود بعد صلاة العشاء..

لم يحرجني أبي في عرضه.. أن أصلي الصلاة معه وقد علم أنني قضيت في داره ليلة لم أقرب الماء وضوءا ولم أرافقه للمسجد صلاة.. لم يكون لحوحا.. أكان يختبرني؟ يدلف فقط وهو يبتسم نحو المسجد، ثم يلتفت إلي يقول مبتسما:

- يا ولدي.. أسرع إلى الوالدة.. أسرع.. ودفئ جسدك بنار "كانونها".. فدفء الأم لا يضاهيه في الدنيا، غير الرحمة الربانية، ولا دفء لك عند الله قبل دفء الأم..

قالت أمي وهي تنعش نار الفرن الطيني بقطع دقيقة يابسة من الحطب وتنضج خبزا على "منضجة" مقعرة من طين:

- أبوك لا تسعه الدنيا.. فرحته كبيرة.. بعد ولادتك تعرضت لنزيف حاد.. بتروا رحمي.. فأخذوا معه الحياة.. أبوك مثلك كان وحيد أبويه، سبحان الله.. أما أنا.. فلي أخوة يوما ما ستتعرف عليهم.. لأني لست من هنا.. أنا من الشاوية.. أبوك تزوجني حينما كان في البلدة يعلم الصبيان القرآن.. أخوالك يتاجرون في قطعان الغنم.. كسابون كبار.. يرسلون لي من حين لآخر المال.. أبوك لا يقبل ذلك.. ولكني لا أنفذ ما يقول أحيانا.. فمالهم لي حق فيه معلوم.. لم أطلب حقي أبدا في تركة أبي.. ولا أمي.. لكن أخوتي يمنحوني أكثر من حقي..

تضع أمامي رغيفا طازجا، تفوح منه رائحة زكية.. شهية.. تدس فيه قطعة زبدة، وتستمر في قرص بقية عجين وتبسيط القرص.. ثم تقول:

- كل.. سنتعشى حين يعود أبوك من الصلاة..

أمد يدي إلى الرغيف، ساخنا ألتهمه بشهية شرهة قلما تأتيني.. مستشعرا الدفء الذي سرى في جسدي، أقاوم النعاس لحظة، وأنا أصغي لأمي تتحدث عن القبيلة وأشغالها وهمومها، بيد أن الغفوة كانت جارفة، لم تصمد لها عينياي.. ثم أغفو في مطبخ أمي..

27

أنتفض في ذعر.. مستيقظا على صوت أمي الرقيق، وهي ترجني رجا خفيفا.. بلطف وعيناها على وجهي.. تقول بصوت خافت حنون:

– انهض، يا بني..! عاد أبوك ومعه ضيوف.. انهض.. بسم الله عليك.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

أجاهد نفسي لطرد آثار النعاس الذي ما زال يداعب جفني وأمدد يدي من كسل انتاب جسدي الذي شلته الرغبة الطافحة في النعاس..كأني أعوض ليالي الأرق قبل أن احل هنا.. أحملق لحظة في وجه أمي متثائبا، أرى الوجه البشوش مبتسما، وأسمعها تمتم وهي تربت على رأسي بحنو:

– بسم الله عليك.. بسم الله الرحمان الرحيم..

أوزع نظراتي على المكان كطفل صغير ثم إيقاظه من النوم وسط الليل، ولا يدري ما يقع، أجدني مازلت في المطبخ قرب الفرن، وقد غطتني أمي ببطانية دافئة، أدلف صوب "المصرية" في كسل وخمول واضحين وأنا أتمطى، أتجاوز سورها الذي بني من الطوب وألبس طبقة من الطين رقيقة، صبغت بالجير الناصع البياض.. غرفة قلما تفتح إلا في الأيام "الكبيرة" والمناسبات الخاصة، مفروشة بزرابي رغما بساطتها كانت جميلة الألوان والأشكال، على حافة الجدران توزعت وسائد كبيرة مكسوة بثوب بني كوبر النمر، محشوة بالقطن.. يسمون هذه الغرفة أيضا "القبة" رغم أن سقفها غير مقبب، ربما استمدت هذه الاسم من طبيعة دورها، ففيها يلتقي الضيوف، ويتم إكرامهم، فلا

عجب ألا توصف بالقبة، وكانت وراء السياج، من الجانب الغربي للبيت، ولها سور خاص بها بباب حديدي، مبيضة جدرانها، مصبوغة النافذتين بلون أزرق فاتح، يفصل بين بابها وباب سورها، ساحة ضيقة مبلطة بالإسمنت الناعم، توسطتها ليمونة متوسطة الطول، أحيطت بحوض ترابي مربع الشكل، تفوح منه رائحة الحبق العبق..

توزع الضيوف وكانوا بضع عشرات على الحجرة، ووضعت أمام بعضهم عدة إعداد الشاي، ما إن دخلت وسلمت حتى ردوا السلام بشكل جماعي، ثم أفسحوا لي للجلوس قرب أبي.

سقط في يدي، وأنا أرى هذا الجمع الذي أتى بدون دعوة ولا سابق إشعار، حتى خفت أن يحرج أبي وأمي، يبدو أن جماعة منهم رافقت أبي إلى البيت مباشرة من المسجد والباقي أتى زرافات وانتظروا حتى التحقوا بهم. كانوا جميعا، يصافحون أبي ولا يتوقفون عن عناقه وضمه وصياغة تعابير التهنئة المختلفة الكلمات المتحدة المعنى، ويحمدون الله أنني عدت إلى حضنه بعدما كنت في عداد الموتى.. بعد لحظات ارتفعت زغاريد خارج البيت، وصلني صوت أمي وهي تفتح الباب مرحبا، وقد اختلطت أصوات النساء وهن في جلبة وفرح..

أشفقت على أمي، كيف ستلقى هؤلاء الضيوف، وليس في مطبخها إلا خبزا طازجا، ومرقا هيئته من لحم الدجاج..

تناديني أمي وهي تلح:

- يا ولدي..! تعال.. النساء يرغبن في التعرف عليك..

أحملق في الجمع خجلا، ويربكني الحياء، كيف أدخل على النساء؟ كأن أبي التقط ما يدور في عقلي، يحثني على الخروج إليهن وهم يبتسم:

- أخرج يا بني.. فهن من دمك.. وإن تفرعت البطون والأنسال.. أخرج إليهن..

ينخرط الكل في الضحك، وهم يكتشفون ارتباكي، ألج غرفة أخرى عادية، جلست فيها النساء، خجلا لم أستطع تفرسهن، وكن من مختلف الأعمار إن صدق حدسي من نبرة أصواتهن. أجمعن أنني ابن حلال، أشبه أبي، بل أبي نسخة منه، وقالت إحداهن إنها لو صادفتني في مكان ما لتعرفت علي بسهولة وعلمت أن هذا الفرع من هذه الشجرة، وكلن لحبيبة شتما، وتمنين لها الجحيم، ألمني الأمر، فبدا ذلك على وجهي، فقالت أمي معاتبة :

- الله هو المحاسب.. المرأة ماتت.. وهي عند القاضي الكبير.. فلا تقولن فيها سوءا.. ولا يغب عن تفكيركن أنها ربته وأطعمته.. حضنته كأم.. والله أعلم بها.. فلا تكن قاسيات على المرأة.. غفر الله لها.. من جهتي أنا سامحتها..

قبل العودة إلى "القبة" عرجت على المطبخ طلبا للماء، فهالني عدد الصحون الكبيرة و"القصاع" الطينية، المليئة بأشكال الطعام، من كسكس ومرق وأرغفة كثيرة للخبز، لحظتها اكتشفت سبب هدوء أبي وعدم اضطرابي أمي من مباغتة هذا الجمع لهما، لقد حضروا مهنئين، لكنهم مزودين بالطعام والشراب، حتى لا يرهقوا والدي، وكانت هذه

هي عادتهم، وهالني قوالب السكر المركونة في الحوش، كانت عادتهم أن يتهادوا في المناسبات بالسكر لتحلو الأيام، وليطردوا مرارة الدهر..

صوت هدير سيارة، منبعث من خارج السور يقطع عن الجمع حديثهم، ويشتت انتباه الجميع، تسقط أضواؤها الكاشفة وراء الجدران، يرتفع بوق سيارة عاليا .. ارتفع نباح الكلب، أحدهم، عرف الزائر من زعيق البوق ..قال: ..

- هذا ولد.. قدور.. أي ريح أتت به في هذه الليلة؟

تغير وجه الجمع، وتباينت ردود فعلهم بين الاستياء والمجاملة فخيم على بعضهم الوجوم، عدا بعض الأفراد.. استقام أبي واقفا يسنده أحدهم، ثم اتجه نحو الباب الخارجي، صمت الجميع، صوت ولد قدور جهورا وفيه نبرة الغطرسة:

- ما هذا أ "سي المعاشي"؟ تحتفلون وحدكم..ألست منكم؟

يحرجه أبي بكبرياء المؤمن ويقول:

- قل السلام أولا..
- أسمح لي.. السلام عليكم..
- أدخل.. مرحبا بك..

ضوء مصباح يدوي يتأرجح، ثم يضيء لهما الطريق "نحو القبة".. أتلمس مصدر الضوء، يظهر لي ولد قدور في برنسه الأزرق الليلي، يخطو بخطوات متثاقلة في زهو، تكاد قدماه لا تلمسان الأرض، وعلى يمينه شخص آخر، يحمل المصباح اليدوي، لم استطع تمييزه من بعيد، وشعاع المصباح أعماني، ما إن يلج ولد قدور حتى يقف البعض ويلتزم

آخرون الصمت دون أن يبرحوا أماكنهم، الذين انتصبوا واقفين.. هرعوا نحوه مسلمين.. محيين بحرارة في تزلف واضح، بعضهم قبل كتفهم، وآخرون رأسه، والذين ظلوا في أماكنهم في كبرياء غريب ومنهم المختار ولد سي الناجي، رمقهم بنظرة قاسية، فيها الوعيد والغضب، أفسح له المجلس فجلس في قلبه، استوى ومدى رجليه خلافا للباقين الذين جلسوا مقرفصين، ثم أشعل سيجارا، أمام امتعاض أبي الذي قال له في حنق بارز:

- سي ولد قدور.. لا تدخن هنا.. الدخان يخنقنا.. وربما يطرد الملائكة عن جمعنا هذا..

يرمقه ولد قدور بنظرة اصطبغت بلمسة سخرية وتعال، ثم قال وهو يقهقه:

- أولا.. ناديني باسمي.. كم من مرة قلت لكم لا تنادوني باسم ولد قدور؟؟ أنا اسمي.. يعقوب.. يا عباد الله

ثم يضيف متهكما..ساخرا وهو يكنس الفضاء بنظراته، مبتسما ابتسامة باهتة صفراء:

- وأين الملائكة.. يا المعاشي..؟ لا أرى هنا إلا الشياطين.. يوسوسون في صدور الناس.. وينشرون الفتنة..

انخرط البعض في الضحك، حتى سالت دموعهم، بينما هز أبي رأسه مستاء منه، وتبادلت الجماعة التي لم تقف له النظرات، حتى خشيت عليه من بطشهم إذ شرارة الغضب تطايرت من أعينهم، وانقبضت أسارير وجوهم، لولا أن أبي قال:

- العشاء.. يا سادة.. لنغسل أيادينا..

تناوب الرجال على طستي المغسلتين الفضيتين، يصب لهم الماء فتيان من إبريق ماء نحاسي، ويتناوبون على منديلي مسح في صمت، تفرق الجمع على موائد دائرية.. بينما اعتذر يعقوب "ولد قدور" عن الأكل متحججا بحمية يتبعها لأمراضه المزمنة المتعددة.. وجلس بعيدا ينفث دخان سيجاره في الهواء، حتى أثار شهيتي للتدخين..

لم أفوت الفرصة خلال الأكل لاكتشافه، استرقت نظرات متقطعة نحوه، أتفحص وجه هذا الرجل الذي صار بين ليلة وضحاها أكبر مالك للأراضي ولا يخلو بيت هنا مدين له، بدا شاحبا.. عليلا.. في بنيته الهزيل.. كانت بشرته سمراء خلافا للسحنة القمحية السائدة هنا، ووجهه نحيلا بارز العظام، وشفتان زرقاوين وعيناه ضيقتين.. بجيوب زرقاء مرتخية.. اكتفى برشف الشاي بلا سكر.. وهو يتابع الجماعة وهي منشغلة بالأكل، ثم أعلن رغبته في الذهاب فجأة، فمد يده إلى مرافقه الضخم الجثة، الذي تخلى عن الطعام فورا، وساعده على الوقوف. قال وهو ينظر بعيدا في تكبر لا يقوضه غير ضعف جسده الذي يحرمه من الوقوف منتصب القامة:

- على كل حال.. مبروك عودة الابن سي العياشي.. رغم أنني مستاء منكم.. تولمون لبعضكم بعض.. دون إخباري.. المهم.. الأيام بيننا.. فأنا أعرف أعدائي من أول نظرة.

ينظر إلي وهو يتلفظ بالكلام الملغز، ثم يضيف:

- دعنا نرك يا ولدي... بيتي مفتوح لك في أي لحظة...

غادر كما أتى.. مخلفا التوتر والغضب في بعض النفوس، وشرخا بين الحاضرين، تشيعه نظرات حانقة وأخرى متزلفة.. قال ولد الناجي وهو يغسل يديه من الإبريق في غضب:

- هذا الكلب يوما ما سأقتله..

حدجه أبي بنظرة عتاب وقال في استياء:

- ماذا تقول يا ابن الناجي؟ تقتل من؟ ابن قدور؟ أجننت؟ دعه للزمان.. لله..

يعود ولد الناجي إلى مكانه، فاسحا لنفسه المجلس بغضب وخشونة بكلتا يديه، ويقول "مزمجرا":

- أغتصب أراضينا.. واليوم يريد أن يكون جزءا منا.. في الحلم ربما.. والله لا يحب العبد الضعيف..

يرد أدب في استياء:

- ولا يحب الله القصاص بدون بينة.. ولا الحدود بالشبهات.. وفوض ذلك لأولياء الأمر لا للناس..

أحد الذين تزلفوا يعقوب، وقبلوا كتفه، قال خبث:

- كيف اغتصبها يا ولد الناجي..وهو اشتراها بماله منكم..؟

- استغل ضعفنا.. وسنوات الجفاف.. واحتال علينا.. ولم نكن نعلم أنه المشتري حين بعنا له أرضنا.. احتال علينا الخائن ابن الخائن..

يقول أبي وهو يتمضمض من أثر الطعام في فمه:

- صلوا على النبي..

تستجيب له الجماعة بعفوية، فتصلي على النبي، ثم يستأنف حديثه:

- الأرض في قلوبكم.. وإن كانت في يده.. ما يربطنا بها ليس وثيقة أو شهادة.. ما يربطنها بها الدم.. والعقل.. الروح.. العرق الذي سال فيها لأجدادنا ليرويها.. والدماء الذي اختلطت بالتراب لتصونها..وجذورنا عميقة فيها.. لا تيأسوا.. لكن غيروا من أمركم.. فقد ساد بينكم الطمع.. وتحكم فيكم الجشع.. وصرتم أعداء لبعضكم حتى نسيتم أرضكم.. ما كان ليأخذ منكم أرض "الجماعة" لو كنتم على قلب واحد..تشتت كلمتكم.. فتشتت همتكم.. تفرقت بكم الأهواء فسهل افتراسكم.. يا حمقى.. لقد جعت.. وعشت أياما سوداء.. جلدت ولم أبع أرضي.. وما حز أكثر في قلبي إلا أن يتحول الأشراف إلى عبيد له في ضياعه.. ويصير السافل الحقير آمرا واعظا.. ضيعتم أرضكم بفرقتكم.. وعدم صبركم واليوم تريدون أن تضيعوا كرامتكم وتتزلفوا يعقوب..

شعر بعض من الجمع بالإحراج، فتبادلوا النظرات في ذهول، حتى انتفض من بينهم رجل وقال في ضعف:

- يا أخي.. إن كنت تقصد طريقة سلامنا له.. فأنت أعلم بحالنا.. فنحن مجبرون لا مخيرون.. لو قطع عن البذور.. والأسمدة.. والماء.. سنجوع وأبناؤنا.. ومنا من لا عمل له غير مزارعه وضياعه.. فهل نجحد النعمة، ونعض اليد التي مدت إلينا؟

يرد عليه والدي وقد تملكه الغضب وهو ينظر إليه نظرة قسوة:

- أسكت يا "ولد فاطنة".. والله ما أخطؤوا حين نادوك باسم أمك.. ولو أني أعرف أباك الصالح الذي مات كمدا على أرضه.. هذا ما قلت لكم.. لا تستطيعون الصبر على جوع.. والجلد على فقر.. فما تبقى لكم غير كرامتكم لتقايضوها مقابل الخبز..؟ حسبي الله ونعم الوكيل.. أليس هذه من علامات آخر الزمان..؟ عودوا إلى الطريق المستقيم.. ففيه الخير والنعيم..

ينتفض "ولد الناجي"، كأن كلام أبي لم يبرد النار الذي تحرقه من الداخل، ويقول في حنق:

- ما سهل على يعقوب الخسيس هذا غير هذا الإرجاء المستمر.. لو قتلته لأرحتكم منه.. وأنت يا "ولد فاطنة".. تعلم السكوت حين يتكلم الرجال..

تركب"ولد فاطنة" عزة نفس، فينهض غاضبا وهو يغمغم:

- سي العياشي..ما ظننت أني سأهان في بيتك...

ينصرف في خفة وقد ركبه غضب جارف، وهو يتعثر في جلبابه من شدة الاضطراب يناديه أبي:

- تعال.. تعال.. العن الشيطان..

يشيعه "ولد الناجي" بنظرة ساخرة، ويقول:

- دعه يذهب عند سيده..

يعم صمت الحجرة، ثم يكسر صمتها والدي وهو يردد:

- الشيطان وجد طريقا بينكم ليشق صفكم.. آه.. لا حول ولا قوة إلا بالله العي العظيم..

- لم يكن لي رأي بينهم، لا أحد طلب ذلك، حتى وإن كانت لي وجهة نظر.. لا طاقة لي لهذا السجال.. أتابع فقط ما يقع في صمت ودهشة، ويبدو لي ولد الناجي صورة أخرى لزينة لكن معدلة، يغضبه الظلم، تركبه عصبية و"حمية". أشعر لحظة، أن يعقوب ولد قدور وجه آخر لسليمان جبار، امتداد له أو هما معا امتداد لسلطة خفية، غاشية.. كاسحة.. عمياء.. كرهت يعقوب.. كما كرهت"ولد فاطنة".. وأحببت "ولد الناجي".. أما أبي.. فقد صرت أقدسه منذ اللحظة..

يستقيم ولد الناجي واقفا منتصب القامة، في عينيه يبرق الغضب لكنه ممزوج بعزة نفس وإباء.. يطرق الجبين وهو يودع أبي:

- "سمح لي".. مرة أخرى مرحبا بك سي عزيز بين أهلك.. لا تؤاخذني.. فقد جرفني تيار الغضب..

أرد عليه.. بحركة من رأسي:

- لا عليك.. أفهمك...

قبل أن يختفي عن أنظارنا وراء "حلقة" القبة، يرفع رأسه، يوزع النظرات الحانقة على الجمع ويقول وفي عينيه عصف الغضب وقد تحلى لهبا تجاوبت معه جبهته فانكمشت:

- أما الخونة.. "البياعة" فلي معهم شأن آخر.. وليذهبوا إلى سيدهم وليفرغوا له القدر وما فيها.. كالعادة، ويخبروه بكل شيء.. قولوا له.. إني أكرهه.. أكره اليوم الذي جاء فيه إلى هنا..

يهرول في خفة، تكاد قدمه تزل على العتبة.. يختفي خارج السور والكل في ذهول عدا أبي الذي قال:

- ابن الناجي فيه حمية الناجي.. اللهم رده إلى طريقك.. يا رب.. فالدم لا يحل المشاكل.. إن سال.. سالت له دماء غزيرة.. لا نهاية لنزيفها..

غير الجمع بوصلة الحديث.. وتجاهلوا ما حدث قبل وعادوا إلي يفتشون في حياتي تفتشيا دقيقا، في فضول جارف، فأخبرتم بأدق التفاصيل وهم ينصتون في عجب واستغراب وتعاطف من حين لآخر، علني أروي هذا التعطش الغريب عندهم في معرفة حياتي.. من الطفولة إلى العمل.. بيد أنني احتفظت بأسرار قد تربكهم.. لم أتلهم سبب من اعتقالي.. لم أكشف لهم سبب طلاقي، ولا حياتي الحالية مع زينة.. كانت المناسبة أيضا فرصة لأبي ليعرف تفاصيل عن حياتي لم يسألني عنها..

28

أزف موعد العودة.. واشتقت إلى زينة اشتياق الرضيع إلى صدر أمه، و. طالني صداع قوي من جراء هذا الفطام القسري، الانقطاع عن الخمر، مما عكر على صفو الأيام هنا، وأرقني أرقا شديدا، وكنت قد وجدت صعوبة كبيرة في ممارسة شرهي في التدخين، كما استعضت عن فناجين القهوة المقطرة، بقهوة أمي المعطرة الخفيفة، وكلما انتابتني رغبة في التدخين.. أختفي بعيدا عن الأنظار لأدخن. وليلا..فضحت نفسي أكثر من مرة، لكن أبي لاذ بالصمت، إلا أمي التي قالت لي ذات صباح: "لا تخجل من شيء يا ولدي.. نحن نعرف عادات أبناء المدن.. وأبوك يفهمك."

شغل بال أبي غياب ولد الناجي عن المسجد، فرجح أنه مريض حتى جاءت الأخبار تبدد الشك وتعوضه باليقين على لسان أمي التي أخبرتها زوجته أنه سليم معافى في بدنه وعقله.. ويأكل كالحصان وبصحة جيدة، فارتاب أبي في الأمر، ولم يجد لغيابه سببا مقنعا.. فلا يمنع الناس هنا من المسجد إلا المطر الشديد أو المرض المقعد أو السفر البعيد حيث يجوز القصر في الصلاة، وأثارني ما أثاره حين علمت أنه ما تخلف عن صلاة أو قراءة "الحزب" بعد صلاة المغرب، وكان قواما.. صواما. وشاع خبر في الدوار أنه لزم بيته منذ تلك الليلة منعزلا عما سماه الفتنة.. وألزم زوجته وبنتيه بالحجاب..

تلهى الناس في البداية عن خبر ولد الناجي بالسحب التي عادت لتعانق الأرض المشتاقة، فعاد الأمل إلى قلوب الناس، بعدا تلبدت السماء بالمزن الثقيل، وهطلت الأمطار لمدة أيام، وسقت الأرض

والشجر، وسال الماء قويا في الشعاب، وغسل القلوب والدور، وامتلأت الآبار والوديان.. وانتظر الفلاحون الصحو ليقلبوا الأرض قلبا وحرثا قبل أن يبذروا ويزرعوا..

كانت آخر ليلة من سنة 2002، بعد صلاة العشاء، قصدت رفقة والدي بيت ولد الناجي، في التجمع السكني عند مدخل الدوار، كان بيتا بسيطا من الطوب، مسيجا بالقصب والحسك والصبار الشوكي.. من غرفتين ومطبخ، وحظيرة عشوائية من حجارة وجذوع الشجر، وسقف من قصدير قديم مثبت بحجارة ثقيلة على السطح.. أجلسنا في غرفة، مسقفة من خشب الأشجار وقطع الخيزران، على الجدار صورة قديمة للملك محمد الخامس، وأخرى لأبيه الناجي.. باهتة، مستخرجة ومكبرة حتما عن أخرى بالأبيض والأسود.

هالني تغير وجه الرجل بهذه السرعة.. أطلق لحيته.. وعفا عن شاربه، ووجه وجهه من شدة صارت فيه فجأة،و تغيرت فواصل كلامه فغذت استغفارا أو صلاة على النبي، لم تأت بنتاه ولا زوجته للسلام علينا على عادة أهل الدوار الذي لا يحجبون النساء عن الرجال، إذ يعد الكل أسرة واحدة.. صدم أبي وهو يسأل عن البنات والزوجة برد ولد الناجي:

- البنتين وزوجتي.. احتجبن عن غير المحرم..

تبدو على أبي تعابير الصدمة والحرج، فيقول في حسرة:

- أصرنا غرباء يا ولد الناجي..
- الدين.. هو الدين..

ثم أردف ومازالت القسوة طاغية على التقاسيم والكلمات:

- هذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

أصلي وأبي على ألرسول فور ذكر اسمه، نظرة استياء يرمق بها ولد الناجي..يصمت حينا حتى ظننت أنه سينفجر غضبا، لكن يبدو أنه سيطر على حنقه، تعود الأسارير إلى الانفراج، وبسمة مطمئنة تضيء الوجه والقلب، ويقول:

- يا ولدي.. افعل ما تراه في صالح أسرتك.. لكن لا تشد وتقس على نفسك وعليهن.. فما شد أحد على الدين إلا اشتد عليه.. التدرج.. يا ولدي.. التدرج.. ما علينا الآن هذا ولدي جاء ليطمئن عليك والمناسبة يودعك.. فغدا إن شاء الله سيعود إلى الدار البيضاء..

يفرج عن أساريره فيعطل وجومه الغريب لحظة، ثم يقول:

- "الله يخليه".. ويحفظه من شر هذا الزمن "الأعوج".. أوصيك بالصلاة يا عزيز.. وبدينك يا.. فلن نغير شيئا من هذا الظلم الغاشم إلا بالعودة إلى الله.. وبالله سننتصر على الجور والبغي..

بدت على أبي علامات الذهول وهو يكتشف شخصا آخر فقال:

- نعم يا بني.. وبالرحمة والغفران والصفح..

انتفض ولد الناجي وعادت علامات الغضب والوجوم تحفر على الوجه شدة وقسوة وقال:

- يا عمي.. العين بالعين والبادئ أظلم.. والله لا يحب العبد الضعيف.. والبلاد امتلأت بالكفر..

أما أنا فلا أود الانخراط في هذا الحديث، لكن يبدو لي أن ولد الناجي يقوده غضبه وحقده إلى منطقة جد ملتهبة.. فأقول في أدب:

- لن أفتي في الدين.. ولكن الإسلام دين العدل والسلام.. وما جاء نبينا إلا رحمة للناس.. والمغرب بلد الإسلام وقلعته في اعتداله ووسطيته..

ينظر إلي نظرة قاسية، ثم يردف:

- لا أفهم كلامك.. هذا.. اعتدال.. وسطية.. الإسلام هو الإسلام واحد لا غير.. وهؤلاء الذين عاثوا فسادا في الأرض.. ونهبوا الخيرات.. وعطلوا العبادات.. ماذا تسميهم..؟

- أحسبهم مذنبين.. والمؤمن خطاء.. وهم منا ومن دار الإسلام ماداموا لم يفعلوا ما يخرجهم من الملة.. والبلد ليس فيه كفار.. ولا أحد عطل العبادات..

- هل أنت أعمى..؟ أنظر إلى حال البلد.. فسوق.. دعارة.. وسفور.. وتبرج.. وخمرة.. وأكل مال الناس بالباطل، أينما جلت تصدم بالخروج عن الدين..

تثير انتباهي.. كتب متراكمة تبدو من تجليدها أنها دينية، وشرائط تسجيل.. يخلصني والدي من هذا النقاش ويقول:

- ما خلا زمن من ذلك.. ونحن بلد الإسلام.. والأولياء.. فكما نرى الفسق والخمور.. نرى الجوامع تمتلئ يوما عن يوم بالمصلين ويزداد

عددهم بالشباب والتائبين، ويرتفع في مآذننا وصوامعنا الآذان خمس مرات.. ويقرأ القرآن يوميا في المساجد.. وفوق هذا حتى لو كانوا نصارى أو يهودا أو لا يؤمنون بثاثا بأي عقيدة أو دين لا إكراه في الدين.. فأين تعطيل الشعائر والعبادات يا بني؟

- يا عمي..! الإيمان سلوك وعمل وحياة أيضا.. فهل تعد ولد قدور الخائن مؤمنا؟
- ولِمَ لا.. وهو يصلي معنا من حين لآخر.. ويصوم رمضان.. وحج بيت الله..؟ ولسنا أوصياء على نيات وما يختلج في صدور الناس..
- وخيانة أبيه للوطن..
- لا تزر يا ولدي وازرة وزر أخرى.. لا يأخذ الأبناء بذنوب ولا أخطاء آبائهم.. فهل غضب الله من إبراهيم عليه السلام لعنت وكفر أبيه آزر..؟ وقدور وإن خان وطنه وأهله وعشيرته لا تخرجه خيانته من الملة.. مادام لم يجهر بالكفر ولم يأت منه ما يخرجه من رحمة الله.. ومن أدراك أنت بحكمة الله؟ فقد تتأخر التوبة لكنها تأتي قبل الموت فيقبلها الله.. ويصير الكافر من أهل الجنة، وقد ينقلب قلب المؤمن الورع في آخر أيامه.. يبتليه الله ويمتحنه.. فيجحد ويكفر، فيصير من أهل النار.. سبحان مقلب القلوب.. وحده الحكم والقاضي..

أقاطعهما وقد احتد النقاش:

- من له الحق في نعت هذا وذاك بالكافر..؟ لو تركت الأمور فوضى الحبل على الغارب.. لكفر الغريم غريمه.. ولصار التكفير وسيلة

انتقام بيد الناس يصفون بها الأعداء والخصوم.. وهذا يذكرني بزمن مطاردة الساحرات ومحاكم التفتيش..

حملقا معا في، كأنهما لم يفهما قصدي، قال أبي في تواضع:

- لم أفهم..

وسانده ابن الناجي وقال:

- ما علاقة الموضوع بالساحرات..؟

- سأوضح لكما.. الأمر.. محاكم التفتيش .. هي محاكم دينية.. نصبتها الكنسية البابوية.. تكفر وتعذب من تشاء، وعانى من ظلمها المسلمون بعد سقوط الأندلس.. أما الساحرات.. ففي مرحلة ما تكلف القساوسة بأمر من البابا باقتفاء النساء المشكوك في تعاطيهن السحر، فأحرقت عدة نساء ظلما.. بتهمة السحر.. فانتشرت الوشايات المغرضة.. والوقيعة..

صب ولد الناجي، الشاي ومد كاسا لي وقال في استغراب:

- ومن البابا؟

أبتسم، وأنا أعيي مدى سطحية معلومات ابن الناجي، فأغير الحوار قائلا:

- نحن دار إسلام يا إبراهيم..!. ولا يجوز فيها الجهاد..

- الجهاد ضد الظلم.. والفسق.. فرض عين..

- ماذا تقول؟ الجهاد كما تعلمت لا يكون إلا تحت راية سلطان.. وبتحريض من ولي الأمر..

يقاطعنا أبي مستاء من المآل الذي أخذه الحديث:

- هذا كلام لا يدخل العقل.. الناس ترتكب المعاصي.. ولكنها تظل مسلمة.. ولا أحد له الحق في إخراج الناس من الملة.. أمرهم بيد الله، إن شاء غفر وإن شاء انتقم..

- ويعقوب.. هل نتركه يفعل فينا ما شاء حتى يوم القيامة..؟

ارتبك أبي فهز يده في استياء وقال:

- وهل تريد أن تقيم عليه حدا ليس من حدود الله...

- وما حد المغتصب.. الظالم..

- حده ينظر فيه أولياء الأمر لا العامة.. وإلا تحولنا إلى همج..

وأنا منبهر بكلام أبي أستحضر حديثا له، فقد سبق له كما حكى لي ذات ليلة عن مرحلة من حياته وصفها بحماس الشباب، أن خرج مع جماعة للدعوة، في سبيل الله، يرشدون الناس في القرى إلى الطريق المستقيم، ويعلموهم الشعائر والعبادات.. فأدركت أن علمه الديني جيد، فلم يكن من حفاظ القرآن البسطاء الذي لا يعون ما يقرؤون بل تعلم اللغة والفقه في زاوية سيد محمد بن علي.

يضيف أبي وهو ينظر إلى ابن الناجي:

- يا ولدي.. ما الذي غيرك ونزع من قلبك الرحمة..؟ الإسلام دين رحمة..

- يعقوب هذا الذي أخذ كل شيء منا.. الذي لا يستحق الرحمة.. الرحمة لمن يستحقها.. الرحمة بين المؤمنين.. فهل ترحم من غصب أرضك.. وجوع أبناءك؟

يقول أبي وهو يرشف كاس الشاي:

- يا بني.. لا تقس على نفسك.. أحب فيك هذا الورع.. ولكني قلق.. يقلقني غضبك.. فالغضب عماء.. والعماء غشاوة للعقل والقلب.. دعنا من هذا لمَ لم تعد تأتي للمسجد؟
- لا أصلي مع المنافقين.. لا أقصدك أنت.. حاشا.. معاذ الله.. عذرا.. بل هؤلاء الذين يتملقون ولد قدور.. أمثال ولد فاطنة..
- يا بني..! منع النبي أصحابه من قتل المنافق عبد الله بن أبي.. وصلى عليه حين مات.. ونفاقه كان كفرا بينا.. يتظاهر بالإسلام وهو كافر يكيد للمسلمين.. أما ولد فاطنة.. فهو مسلم مؤمن.. يصلي ويصوم.. وطيب.. والله طيب.. ربما ضعفه وحاجته أعمته عن بعض الحقائق لكنه ليس منافقا.. فلا تخرجه بدون حجة من الدين.. فهذا ظلم له وللإسلام..

أضع حدا لهذا النقاش الذي بدأ يحتدم، وقدا بدا لي ولد الناجي متصلبا لا يلين.. مغلقا كل نوافذ الاختلاف، في عناد غريب.. فأقول منتصبا واقفا:

- المهم... إلى اللقاء سي إبراهيم... فكر جيدا..وعد لأهلك... فلا يخرج من الجماعة إلا هالك أو صاحب بدعة وفتنة

يصوب الغاضب نظره نحو أبي ويقول وهو يضرب كفه بكفه من الاستياء والحنق:

- أرأيت ابنك.. يا سي العياشي..؟ ليس أقل تفقها منك.. يريد أن يعلمني ابن المدينة ديني..
- لا.. حاشا.. أنت أفقه مني.. فقط الدين النصيحة..

يرد علي في جفاء واستياء فاجآني كأن علاقتنا أصيبت توا بشرخ عميق:

- إلى اللقاء.. لا تنس دينك.. دينك..

في طريق العودة.. بلل جسدينا رذاذ مطر وتلفح وجهانا بنسائم باردة، يطرق أبي الجبين، يصمت طول الطريق، اسمع لهاثه، وتنفسه السريع ونحن نصعد منحدرا نحو البيت، كأن أمرا ما يشغل باله، قبل أن آوي إلى الفراش، قال لي في حزن:

- يا بني ربما أضعنا ولد الناجي.. ضاع منا ولد الناجي.. أعرف هذه الطريق الذي يريد السير فيها.. والله ما سلكها أحد إلا خسر الدنيا والآخرة، يحسب نفسه يصلح وهو يفسد ولكن لا يعلم..

يعتكف أبي ما تبقى من الليلة في غرفته وقد هاله ما سمع من ولد الناجي وأقلقه.. وكأني به تلك الليلة لم ينم..قام الليل كله، إذ ظللت ألتقط لحظات من عبادته الليلية وقيامه..

في الصباح، يقلني ولد فاطنة بعربته الخشبية التي يجرها حصان عجوز إلى قرية أولاد الصياد نصادف في الطريق، سيارة "بيكوب" محملة بأمتعة، وأثاث منزلي، ألمح قرب السائق، ولد الناجي، بين الأثاث تفرقت بنتاه وزوجته وقد ضربن على أنفسهن خمور سوداء قاتمة.. غطت وجوهن تماما إلا من فتحات لا تكاد تظهر عيونهن.. يحدجني بنظرة قاسية، تؤكد لي أن علاقتنا تصدعت، لا يلوح لي على عادة أهل البادية بيده، رويدا رويدا تختفي السيارة تاركة صدى صوت خطبة قوية دينية.. يتردد في الأرجاء.. يصيح ولد فاطنة:

- من ..؟ هذا ولد الناجي وأسرته.. يهش بعصاه على الحصان، حاثا إياه على الإسراع على أمل أن يلحق بولد الناجي:

- أين يرحل؟ لن أتركه يرحل.. إن كان بسببي سأقبل قدميه.. سأعتذر له.. الدوار بلا ولد الناجي ظلام.. إبراهيم هو ملح الطعام..

يختلط كلامه بالدموع، يبكي، ثم ينتحب وهو ينادي ويلوح بعصاه:

- إبراهيم.. إبراهيم.. لا تذهب.. توقف.. توقف.. أرجوك..كلمني.. أرجوك.. لن أعمل مرة أخرى عند يعقوب.. أنا آسف عد إلى الدوار.. أرجوك..

تخور قواه، ويتباطأ الحصان منهكا وقد كان ضامرا هزيلا.. ثم يتوقف.. ينزل... يشعل سيجارة.. أشعل لنفسي واحدة.. ثم يقول منتحبا:

- فرطنا في أخينا.. إلى أين أخذ البنتين والزوجة..؟ ..

أواسيه وأنا أربت على كتفه وأقول:

- ربما رحلة قصيرة ويعود..

- لا يا ولد العياشي.. هذه رحلة اللاعودة.. لقد أخذ معه الأثاث.. نعم رحلة اللاعودة.. كم أشفق على البنتين من الغربة.. أنا حزين.. حزين..

يضع رأسه بين يديه، ويجلس لحظة، ثم ينهض يمسح دموعه، يسرح بنظره على الطريق، وهو يحملق في الغبار الذي أثارته السيارة، ثم يضرب الأرض بقدمه، وتعوده نوبة البكاء

فيرتمي في حضني ويجهش كطفل صغير، ثم يعود إلى العربة، يهمز الحصان بعصاه، في صمت ووجوم نقطع الطريق إلى أولاد الصياد..

29

تشرق الشمس وتغرب..تستمر في هذه الدورة كلعنة أبدية بلا ضجر ولا كلل، فتغرب معها أعمار وأحداث وذكريات وأحزان وأفراح، وتشرق معها حيوات جديدة، وعوالم أخرى تخرج من العدم.. وبين أنياب آلة دوراها تسحق العمر الذي لا يتجدد.. وأنا على ديدني.. أبيت في حضن زينة ليلا.. وأبدد الضجر والملل في حانة الطاحونة الحمراء..

لم يغير هذا الإيقاع الرتيب غير حدث فظيع هز مشاعري، غيرنا جميعا، وأنعش هواجسي التي كدت أتخلص منها ، زلزال أمن النفوس، ورسخ الإحساس بخطر ما أعمى محدق بنا جميعا دون أن نعرف توقيته ولكنه لعب ورقته الأولى، كادت تجن له زينة وزبيدة، في ربيع عام 2003 اختفى فجأة منير، وكانت زبيدة قد عادت لتأخذه إلى باريس لأجراء العملية، ولم تكن تلك عادته، لم يأت للملهى، ولا أحد من معارفه يعرف عن غيابه شيئا، حتى "شارل" كلف حراسه بالبحث عنه في أكثر من مكان، في المستشفيات ومراكز الشرطة والسجون، لكن لا أثر له.. وبغيابه المشبوه والمخيف في آن واحد غابت الفرحة في أجوائنا، وانقطعت زينة عن العمل في الملهى، وعاشت في حداد تنعيه قبل أن نعرف عنه شيئا، تتوالى الأيام سريعة.. فيزداد في قلب زينة اليأس والخوف.. رحلت إلى مسقط رأسه تستقصي أخباره.. لم يروه أهله منذ رحيله الأول.. فعادت كما رحلت بدون أخبار تخمد نار قلقها، وتعيد لحياتنا إيقاعها الطبيعي..

خيم الحزن على حياتنا.. وتغيرت عاداتنا.. نجلس في صمت.. كل ليلة.. وننتظر..

ذات ليلة رن هاتف زينة.. كنا جميعا في شقة شارع 11يناير، لا تعرف رقم المتصل وبدا لها أنه رقمي رسمي إداري، أجثها على تحويل الهاتف إلى وضعية الصوت العالي، ثم في خوف وأنا وزبيدة أقرب إليها من أنفاسها..

- من؟
- مساء الخير سيدتي..
- مساء الخير.. من معي؟
- الشرطة..

أشعر بتغير ملامح وجهها، خيم عليه الخوف والقلق، فانقبضت أساريرها .. تقول في ضعف وارتباك

- "يا ك لا باس..."؟ سيدي..
- سبق لك سيدتي وأن حررت محضرا اختفاء..

ترد في اضطراب، يكاد الهاتف يسقط من يدها:

- نعم.. هل عرفتم شيئا عنه..؟ أرجوك تكلم..
- رجاء سيدتي التحقي بنا.. بعد ساعة في مشرحة الطب الشرعي بالحي الحسني.. هناك جثة، بالمواصفات التي وصفت في المحضر، والصورة التي معنا لا توضح كثيرا.. نريدك أن تتعرفي عليها..
- تصرخ زينة، وهي تلطم خديها بقوة كفيها، وتهشم الهاتف على الجدار فتتناثر شظاياه في الغرفة:

- لا.. لا يمكن.. لا.. لا يا ربي إلا منيرا.

أحاول تهدئتها لكنها ترتج وتهتز بين يدي، تنضم إليها زبيدة تلطم وتمزق ثيابها، تصيح في حزن جارف هزها هزا مزلزلا حتى حولها شاحبة ممتقعة اللون:

- لا أحد يقول لي إن منيرا ميت.. لا.. لا هذا مستحيل.. منير لا أعداء له.. قريبا سيستعيد حياته.. تذكرة الطائرة معي.. والحجز في المستشفى.. في حقيبتي.. لا.. لا..

ترتمي زينة في حضنها وتصرخ في اضطراب قوي وهي تلطم صدرها:

- لا.. لا يمكن أن يكون هو.. هو طيب.. لا أحد يكرهه.. لم يؤذ أحدا في حياته..

تتنفس في ضيق، يغلبها اللهاث وهي تبحث عن أنفاسها، تعطيها زبيدة كأس ماء، تسترجع أنفاسها، تستلقي على الأريكة وتقول في ضعف:

- مستحيل.. مستحيل أن يكون هو..

في عقلي تتناسل الفرضيات، وأفترض أنه لو كانت الجثة جثته، فربما هلك في حادثة سير.. خصوصا وأن سيارته اختفت هي أيضا.. أحثهما على النهوض مستعجلا:

- لنر.. لنذهب إلى المشرحة..

أصرت زينة وزبيدة على الدخول والتعرف بنفسيهما على الجثة، كان للمستودع رائحة خاصة، غريبة، وزاد من وحشته بكاء بعض

العائلات على بوابته، وتقاطر سيارات نقل الموتى إليه، وجماعات من الناس هنا وهناك كأن الطير على رؤوسهم، خيم عليهم الحزن والأسى عدا الباكيات من النساء اللواتي يرثين موتاهن في شجي وألم، فتح الطبيب الثلاجة، وجر رفا من رفوفها، عرى الوجه، ويا ليثه ما فعل..

سقطت زينة من هول الصدمة فأغمي عليها، وانهارت زبيدة في هستيريا بكاء جارف، ضعت بينهما، محاولا تهدئتهما، فما فلحت.. ساعدني الطبيب، فحقنهما بمهدئ..

بعد آن استردا هدوءهما، لوح لنا الطبيب أن نلتحق به في مكتبه، قال وهو يكتب على ورقة، وينشغل عمدا بمسح نظارتيه، ثم يتفرس فينا، حتى رتب عباراته، وقال:

- أعزيكم.. كلنا لها..

- شكرا.. سيدي..

أشعر به محرجا من أمر ما، يتردد فيه وهو يجول مكتبه، ويمسح نظارتيه أكثر من مرة، عاد جلس وأطلق هواء زفير كأنه يتحرر من ثقل ما وقال:

- اسمحوا لي هناك أمر حساس.. المرحوم.. الأمر عادي عندي.. لا موقف لي ضد المثليين.. لا تفهموني خطأ.. لكن لاحظت أن هذا الرجل ظلم حيا وميتا.

ترمقه زينة بنظرة خاطفة، وقد احمرت عيناها، وتقول:

- كيف يا سيدي..؟

يكاد يجن القلم بين أصابع الطبيب وهو يعذبه بين أصابعه من التوتر، ينقر بأصابعه على المنضدة، ثم يضيف:

- لم يكن رجلا.. أعني ذكرا.. لقد كان له تشوه خلقي.. عضوه التناسلي الذكري هو الأصلي، أما أعضاؤه الأخرى فهي تشوهات.. ولقد أخدت عينات من نسيجه وهرموناته.. هو أنثى.. المسكين.. كان ممكنا تصحيح هذا التشوه في الطفولة لتجنيبه الحرج والانفصام..

ترفع زبيدة بصرها نحوه، في نظرات مبللة بالدموع، يغشاها الشجى، تمسح مخاطها، بمنديلها، وتقول باكية:

- كنا نعلم يا دكتور.. لقد هيأت له كل الأوراق لتصحيح الخلل في فرنسا لكنه للأسف مات قبل إجرائها.. نريد أن نعرف كيف مات..
- الأمر الآن بيد الأمن والتقرير عندهم.. للأسف.. تعذب هذه المرأة كثيرا.. في هذه الجثة..

نلتحق بمقر الشرطة في "الدار الحمراء" يعلمنا الضابط المكلف بالملف بأحداث غريبة، فقد وجدوا الجثة مرمية من أعلى بناية في بلدة عين حرودة، ومعها ورقة، كتب عليها: "بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا مصير الشواذ واللوطيين أعداء الله إخوة الشيطان.. في بلد الإسلام.. الحد قتلا بالرمي من علو شاهق.. وهو عبرة لمن يسعى إلى تمريغ كرامة الإسلام.."

استبعد المحققون عدة فرضيات، وأجمعوا على أنه عمل جنوني فردي معزول لمجنون يظن نفسه مصلحا، ولا يرقى إلى العمل الإرهابي الجماعي.. وأكدوا على أنهم سيصلون إلى هذا الأحمق في أقرب وقت ولن يهرب من العدالة..

في اليوم الموالي، حضر عدد قليل من معارفه، خصوصا من الملهى وأصدقاء بعيدون لا نعرف جلهم.. تمت مباشرة عملية غسله في قاعة خاصة بالمشرحة من لدن شيخ المغسلة.. تأخر الغسل وطال، حتى أصابنا السأم والحزن يعصرنا.. كانت بعض الأسر تنتظر دورها لغسل موتاها.. وسط الحشود ضاعت في وجوم جلي زينة، وانزوت زبيدة بعيدا متكئة على إطار سيارتها، في سواد جلبابها.. كان الانتظار يعتصر أكثر منا أمهات وآباء وأخوات وزوجات وأزواج في مندبات مفتوحة أمام بوابة المشرحة، لا يقل حالهم عن حالنا عن حالنا. ثم ظهر المغسل. لوح لي في ضعف.. دنوت منه.. بدا لي مرتبكا.. قلقا. غارقا في ذهول، قال:

- احملوا الميت بإذن الله إلى مثواه.. لم يبق له من هذه الدنيا غير الدعاء أو صدقة جارية.. فاعتبروا واتعظوا..

دسست في يده ورقة نقدية، فوثب بخفة رغم شيخوخته وردها إلي في أدب قائلا:

- أستغفر الله يا بني.. لا نريد إلا الأجر والثواب من الله.
- جزاك الله خيرا..

أهم بالانصراف يستوقفني ثم يقول بصوت خافت في ارتباك وشفتاه ترتجفان من القلق ويمشط لحيته البيضاء الغزيرة بأصابعه:

- يا بني.. اعذرني تأخرت عليكم.. لكنكم أحرجتموني يا بني.. والله.. كان عليكم أن تعلموني.. حتى نستشير الفقهاء في فتوى غسل الخنثى.. ولم يسبق لي أن غسلت جثة تختلط فيها الذكورة والأنوثة.. فمهما كنت لست إلا مغسلا في المشرحة.. وإمام مسجدهم الصغير.. لولا أنني أخذت الفتوى هاتفيا من العالم سيدي محمد الرباني، فأفتاني بغسلها على الظاهر لا على الغابر، لوقعت في حيص بيص.. الله الستار يا ولدي.. سبحان الله في خلقه.. صلوا عليه صلاة الجنازة في مسجد المقبرة.. جنازة رجل.. أسرع الآن.. فإكرام الميت الإسراع بدفنه.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

ينصرف المغسل في تؤدة وهو يطوي كمي جلبابه مستغفرا دون ملل، ترمقني زينة من بعيد.. تهز رأسها في أسى وحسرة، استنتجت لا محالة ما دار بيني وبين المغسل، ثم تلوح لي بيدها أن أركب سيارة نقل الموتى..

يوارى جثمان منير ولا يمشي في جنازته إلا قلة من الناس.. جاء غريبا للدنيا وغادرها غريبا. لا أحد من عائلته سيندبه ويبكيه ويرثيه ويتلقى عزاءه.. فقط.. نحن.. أنا.. زينة.. وزبيدة.. الذين جمعتنا الأقدار.. فصرنا أسرته.. سنبكيه حتى تقر نار قلوبنا.. ونرثيه حتى نروي شوقنا له.. وسندعو له صادقين بالرحمة والمغفرة.. كان مؤمنا.. ومات في سلام مع نفسه.. رحل دون وداع فأخذ معه أسراره إلى مثواه.. رحل

فتبدد حلمه في أن يكون كباقي الناس.. جسدا متصالحا مع الروح والعقل.. رحل فخلف فينا فراغا قاتلا.. وأسئلة حارقة بلا أجوبة.. من يكرهك يا منير؟

صدم صابر وهو يلقى الخبر الذي أربكه أكثر ما أحزنه، فصابر حينما يتعلق الأمر بالآخرين لا يتوانى عن الاستنجاد بمبادئه التي يعطلها فقط كلما تعلق الأمر بحياته الخاصة، تفهم لحد بعيد وضع منير، لكنه كانت له رؤية أخرى، لم يعد طريقة موته حدثا معزولا، وجريمة كباقي الجرائم، بل كان متشائما، وهو يقول والسيجارة تحترق احتراقا سريعا بين شفتيه ويتساقط رمادها على صدره "يا صديقي.. بموت منير بهذه الطريقة.. والوحشية.. فتح باب الجحيم على البلد ودخلنا في مرحلة أخرى أخطر من أي زمن.. كنا نتصارع ونعرف عدونا وخصمنا.. والآن لن نعرفه.. ولن نعرف من أين يأتي وأين يتشكل.. قد يأتي من بيوتنا.. من جيراننا.. من أي مكان من الصعب تحديده.. أخشى أن نصير في هذا البلد جماعتين.. ناجية وكافرة.. يا زميلي.. أشعر بالخوف من الغد.. على بلدي.."

ثم يضيف وهو ينظر إلى لطيفة الكاتبة، التي تغيرت طريقة لباسها، تحجبت دون أن نشعر بها.. غيرت ملابسها القديمة القاتمة بعباءات طويلة، وصارت قليلة الضحك، تغض البصر، وترفض المصافحة، "أنظر.. لقد وصلوا مبكرا إلى بيوتنا.. من أدراك غدا.. قد يصلون إلى بيوت نومنا.. من كان يصدق أن لطيفة في يوم ما ستضع الحجاب.. والمشكل ليس في الحجاب.. فأمهاتنا كن يضعن النقاب.. ولم يكن هناك مشكل.. المشكل أكبر بكثير مما يبدو.."

فعلا.. تغيرت لطيفة مزاجيا وهنداما، تحجبت ولم يبد لي الأمر في البداية غريبا، لكنها أصبحت منعزلة عنا.. لا تمد يدها للمصافحة.. فمتى تغيرت؟ ومن غيرها؟

سحبني صابر إلى مكتبه، أغلق الباب، ثم قال:

- سأقول لك شيئا.. ظل ثقيلا على صدري.. لقد كنت جبانا في علاقتي مع أسماء.. فعلا.. كل ما قلته صحيح.. جيلنا الذين يفكر مثلي وله المبادئ نفسها، ضائع بين عالمين عالم الأفكار وعالم الواقع.. وأنا ما زلت أتخبط في تناقضاته منذ زمن ولم أخرج منه.. صدقني لست مزيفا ولا منافقا.. ولا مخادعا.. أنا ضائع.. لست أقل ضياعا من الذي قتل منيرا ويظن نفسه نفذ حكم الله..

- لا عليك.. كلنا ضائعون..

- زوجتي.. المسكينة.. من أدراني أنها لم يمسسها إنس ولا جن..؟ من أدراني أن عفتها في بكارتها..؟ اختلطت الأمور.. ما معنى العفة..؟ من أدراني..؟ ربما انتزعت هذه المرأة رغما عنها من حلمها.. وفي قلبها يسكن شخص آخر تحبه، ومازال عقلها يستحضره في فراشنا.. أليست العفة وهما في زمننا هذا..؟ دعني أقل لك.. العلاقات الجنسية تغيرت وتطورت.. وصار بإمكان الفتيات ممارسة الجنس لحد الاشباع مع الحفاظ على عذرية مزيفة.. تؤرخ لعفة وهمية.. يا صديقي.. نحن في زمن صارت العفة صناعة في عيادات الأطباء.. نحن في زمن الزيف بامتياز.. نحن ضائعون..

- ولِمَ تبحث عن العفة كفارس من القرون البائدة..؟

- نعم فكري يرفض هذا الطرح.. ولكن عقلي فيه أعراض تخلف عميق.. حتى أنني لا أتصور أن يكون لزوجتي علاقات سابقة.. أجن في التفكير في الأمر.. يا لتخلفي..
- إن كنت أنت يا صابر اليساري تقل هذا.. فماذا أقول أنا..؟ لا عليك.. لم نعبر بعد.. ما زلنا عالقين في منتصف الطريق.. أو عبرنا خطأ بلا مناعة.. هنا في العقول.. لا في الكلمات..

يطرق الباب، تستأذن لطيفة على غير عادتها وتلج غاضة البصر، وصابر يرمقها بنظرات قاسية، ثم تقول بصوت خافت:

- هل أذهب للمحكمة.. للقيام بالإجراءات..؟

لا يرد عليها، يسود صمت.. يرشف رشفة من فنجانه ينتصب واقفا، يدنو منها، يتعمد دغدغتها بأصابعه وهو يطوف حولها مقوسا كقط في تأهب، تحاول الإفلات من حصاره محرجة، وتصيح:

- حشومة.. حرام.. دعني أرجوك.. دعني..

يتلبد ويمتقع لون وجهها حرجا.. حنق.. فتتكوم منقبضة بمنكبيها كأنها تخشى هولا ما، وهي التي كانت تبادله الأمر حد العراك الساخر.. ضحكا.. قهقهة.. يعود إلى كرسيه.. ثم يقول مصوبا نظره نحوي:

- أرأيت يا عزيز ماذا وقع؟ لطيفة الحمامة الوديعة التي كانت تملأ الدنيا ضحكا.. صارت ترفض مصافحتي.. ونحن مثل الإخوة.. انظر إليها.. كيف صارت محطمة.. خائفة بعدما كانت البسمة لا تفارق شفتيها..

متلعثمة، ترد عليه لكن في قسوة:

- للأسف.. أنت ضال وتريدني أن أضل مثلك.. أنا هداني الله.. وأدعو الله أن يخرجك أنت أيضا من جاهليتك..
- أي جاهلية يا حمقاء؟ هل أئد الفتيات وأغزو القبائل وأسبي النساء؟

تحملق في شبه ارتياب، كأنها مترددة في قول شيء قد يطالني أنا أيضا لهيبه:

- وماذا تسمي الخمر.. والنساء.. والليالي والسهر وهذه السموم التي تدخنها؟
- والله صرت واعظة.. اسألك بالله لمَ ترفضين مصافحتي؟ أتظنين أنك فتنة لي.. يا حمقاء أنظري إلى نفسك..
- المصافحة باليد حرام مع غير محرم..
- بنبرة ساخرة، ينتفض ثم يدنو منها بوجهه مكشرا أنيابه، حتى كادت جبهته أن تلمس جبهتها ويقول:
- طبعا أصبحت "عالمة".. علموك بعض الكلمات.. وأغروك بالآخرة.. فأخذوا منك بهجة الحياة.. وليكن.. قولي لي يا "حذقة" هل لك حلولا للاختلاط في العمل.. في وسائل النقل.. وحين يفرض عليك العمل أن نكون معا.. لا غير.. هل الشيطان في عطلة؟
- الضرورات تبيح المحظورات..

غاضبا في اضطراب يردف:

- لطيفة تعلمت بعض الكلمات وصارت تفتي.. آه..!. يا زمن.. وأي ضرورة لك يا "فقيهة" آخر الزمان.. وأنت لست مضطرة للعمل؟ وهل تظننين أن أحدا ما ممكن أن تثيريه أنت.. أنت.. انظري إلى نفسك في المرأة...

أقاطعه رحمة بها، وقد بدت لي متوترة جرحها كلامه:

- أسكت يا صابر..فلطيفة مهما يكن أختنا...
- أصمت؟ لقد خدروها.. وحولوا حياتها إلى جحيم..أنظر إليها لقد ماتت حية..

لم تتمالك لطيفة دموعها.. تنهار باكية، ترمي في وجهه ملفا، فتتطاير أوراقه في الفضاء، ثم تهرع خارجة وهي تصيح:

- أنت شيطان..شيطان..

تغلق الباب بقوة، على صدى صراخ صابر:

- نعم... هذا هو الحل اهربي يا جبانة...

أقف.. أضع يدي على مكتبه منحنيا.. أنظر في عينيه في غضب وأقول:

- يا أخي دعها وشأنها.. هي حرة.. تسلم.. تصافح.. ما لك أنت..؟ احترم وجهة نظرها.. ألم تكن تدافع عن حرية المرأة؟

يرمي عقب السيجارة دون أن يدري في غضب، يدوس عليه بقدمه، والمرمدة قريبة منه على طاولة القهوة، ويردف وهو يشعل سيجارة أخرى:

- لا أريدهم أن ينتزعوها مني.. لا أريدهم أن يتسللوا إلى حياتنا المهنية ويهدموا كل ما آمنت به.. وناضلت من أجله..

- عمن تتحدث..؟ إنك تعطي الأمر أكثر ما يستحق.. لا يخلو يوم دون أن نكتشف امرأة أو فتاة.. تحجبت.. وأخرى وضعت الخمار.. فأي الخطر في هذا..؟ يا أخي دعك من هذا الكلام.. لقد ساهمت في هذا التحول الذي طالها.. وسهلت الأمر على من تتخيل أنهم غيروها

- الخطر ليس في الحجاب ولا في الخمار.. بل في الأفكار.. سنصبح فريقين ونحن عائلة واحدة.. لكن قل لي كيف تزعم أنني ساهمت في تحولها؟

- ألم تتخل عن أسماء بعد علاقة طويلة وتزوجت فتاة من البادية؟ ألم ترفض الزواج منها بحجة أنها كانت خليلتك وتعاقرك الكؤوس مع أصدقائك.. يا صابر.. لقد سقطت من عيني لطيفة.. منذ ذاك الحدث.. لم تعد نموذجا لها في الحياة.. تناقضاتك أربكتها.. لم تعد مرجعا لها.. صدقني.. أنت ساهمت في الأمر.. إن لم تكن السبب الأقوى لهذا التحول بتناقضاتك وخطابك المزدوج..

يضع رأسه بين يديه، يطرق الجبين، لا ينبس بكلمة واحدة.. أنصرف أيضا في صمت.. وعقلي يردد "من هم الآخرون الذين يتحدثون عنهم.. من هم هؤلاء الذين كسبوا لطيفة في صفهم ..؟"

30

لم تعد لطيفة للعمل.. فارتبكنا.. واختلطت الملفات والمواعيد، لم يكن صابر يكن لها حقدا ولا ضغينة، عرج عليها مرارا في بيت أسرتها، وفي كل مرة يخبر أنها رحلت دون أن يزودوه بجهة سفرها والأسباب.. فقط الرد نفسه..

تم الاستعانة بنجاة لترتيب أعمال المكتب، وهي فتاة في العشرينيات غرة، ممتلئة بالحياة والحماس.

أحضر لي الحمري ذات صباح فنجان قهوة وقال:

– أستاذ.. العجب العجاب وقع في حينا..

أنظر إليه، أحفزه لعرض ما لديه.. وأنا منشغل بتصفح أوراق ملف.. فقد غدا هذا الشاب المروج للأخبار بلذة ومتعة جارفتين قناة مهمة لي للأخبار ومجانية قائلا:

– أي عجب هذا..؟ عم تتحدث..؟ هل من جديد؟

يحثني على النهوض والاقتراب من النافذة، لأنظر خارجها:

– انظر.. يا أستاذ..!. من هناك..

– من؟

– ذاك الشاب الذي يبيع عصير قصب السكر.. أرأيته؟ هناك.. هناك.. حيث العربة أمام مخدع الهاتف..

– نعم.. رأيته.. ما المشكل؟

– أتعرف من هو..؟

- لا.. كيف لي أن أعرفه..
- ربما تظنه فقيها من لباسه..
- يبدو ملتزما..
- هذا عبد اللطيف..
- وليكن .. من عبد اللطيف هذا؟

كمن يبوح بسر خطير، يدنو مني بخفة:

- ولد الأعور الصغير..
- الأعور.. آه.. تذكرت.. ولكن ابنه الأصغر في السجن..
- نعم.. غادره منذ أسبوع.. هذا شرمولة.. يا أستاذ..! خرج من السجن شخصا آخر.. وأصبح كأنه غسل دماغه.. أو.. كأنه في سفر لتعلم الدين..

أتفحص وجه الشاب الذي كان على عتبة العشرينيات، في لباسه الذي يشبه لباس الأفغان، قد أطلق لحية كثة وحلق شاربه، وشمر لباسه الذي كان عبارة عن "فوقية" لم تتجاوز الكعبين ونعلا جلديا.. وجوارب طويلة سترت ساقيه..

- سبحان مغير القلوب.. وليكن.. إذن السجن أصلحه..

أقول العبارة الأخيرة، وأنا أداري موقفي وخوفي العميق الحقيقي دوما من أشخاص تغيروا فجأة وصار هذا لباسهم، وغدوا جماعة متفردة في لباسها وشؤونها..

- يا أستاذ.. من قال إن شرمولة.. أعني عبد اللطيف.. يتحول بهذا الشكل؟

- وما العجب..؟
- أيخرج من بيت هؤلاء المجرمين.. تجار المخدرات.. مثل هذا..؟
- قلت لك الله يهدي من شاء..
- لكنه.. تغير كثيرا.. غدا حلو اللسان.. طيب الخلق.. مسالما.. وواعظا أيضا.. وقد دخل في خصام مع إمام المسجد.. عدة مرات.. الإمام لا يحبه هو وجماعته.. لقد صادفته في الحي.. سلم علي وقال لي "متى يهديك الله يا الحمري"؟.. تخيل.. يعظني شرمولة..
- جماعته..؟ تقصد ماذا ؟!
- رجال بلحى كثيفة.. حلقوا شواربهم.. لبسوا لباس الطالبان.. وانتعل أكثرهم صنادل رياضية.. أقوياء.. تفوح منهم رائحة العنبر.. غير أنهم غير منعزلين عن الناس.. يتاجرون معهم.. أعمالهم بسيطة.. أما زوجاتهم وبناتهم فهن يتحركن كخيام سوداء لا ترى منهم شيئا، حتى الأكف..

ينصرف وهو يضرب كفا بكف مرددا:

- شرمولة..؟ لا أصدق..

أشيعه من النافذة، يتوقف لحظة عند شرمولة الذي يخوض معه في حديث، ووجهه تعلوه ابتسامة بينما ظهر الحمري مضطربا.. يتجرع في جرعات متتابعة كأس عصير قصب السكر مصغيا في اهتمام ودهشة إلى حديث شرمولة، ويختفي في عمق المقهى.

بسط شرمولة حصيرة صغيرة، وشرع في الصلاة على ردهة العمارة، تزامنا مع إقامة صلاة المغرب في المسجد المجاور، أستغرب من عدم التحاقه بالمسجد لأداء الصلاة جماعة وهي أولى، ولا شيء يمنعه.. يدخل صابر مكتبي وهو يقول:

- هل عندك ملف حادثة السير الأخيرة؟ لا أعرف أين وضعته.. للأسف منذ رحلت لطيفة ارتبك العمل...

- صابر.. تعال.. انظر من هناك؟..

أشير إليه أن ينظر جهة شرمولة، من النافذة، يرد وهو يهز رأسه:

- ألم أقل لك أنهم ينتشرون في صمت..؟ ويزيد في أعدادهم الظلم والبطالة والفقر.. سترى.. أن أكثرهم فقراء.. وتعليمهم بسيط.. لكن لا تبخس منهم فلهم قادة وشيوخ وأمراء يرتبطون بهم بالبيعة والطاعة العمياء.. أغلبهم عانوا من شطط أو ظلم طال كرامتهم أو كرامة آبائهم أو أسرهم.. أغلبهم حملهم اليأس والحاجة إلى الأمان إلى حضن هذه الجماعة.. وقد وجدوا بالانتماء قوة النفس وتبدد اليأس.. جماعتهم توفر لهم الكثير عدا الإحساس بالانتماء.. الذي هو في حد ذاته قوة وشعور مريح..

- انظر إنه لا يصلي جماعة.. والمسجد قريب جدا..

- هذا هو المشكل.. فليس المشكل أن يرتدي هذا اللباس.. ولا أن تتحجب النساء وتضع ما شاءت خمارا أو حجابا.. لكن المشكل أنهم يعتبرون أنفسهم هم جماعة الحق.. وإسلامهم هو الحق.. لم يصل في المسجد ربما جماعته كفرت الإمام.. وكفرت من يصلي

معه.. ربما اعتبرت الصلاة باطلة في فتوى ما.. وراء إمام هذا المسجد..

- لا تقل هذا... شرمولة ليس إلا شابا غرا... أين تعلم كل هذا؟
- السجن يا صديقي.. صار مدرسة للتطرف.. السجن صار مشتلا لهم.. يدخل الشاب مجرما فيخرج منه مكفرا.. حاقدا..

ألمح "مخزنيين" ومقدم الحي يتقدمون نحوه، في قسوة وجلف يقول له المقدم:

- سبق وقلت لك أن تبعد عربتك من هنا.. ماذا تنتظر مني يا ولد الأعور..؟

يبتسم في وجهه شرمولة ويرد:

- وأين أذهب هنا ولدت.. وأريد أن أعيش بالحلال..
- حلال.. أم حرام.. لا يهمني أنا الأمر.. القائد أمرني أن أبعد هذه العربة من هنا..

يحاول "المخزنيان" أن يجرا العربة نحو مركز القيادة، يدخلان في شنآن معه، كاد يتحول إلى شجار، تنقلب العربة، تتناثر عيدان القصب، وشظايا زجاج الكؤوس، ويندلق العصير على الأرض، ينظر إليهما في غضب ويصيح وقد انتفخت أوداجه:

- اللهم إن هذا منكر.. أريد أن أعيش بالحلال.. اتركوني وشأني.. أيها الظالمون..

يصفعه أحد رجلي السلطة ويجره من ملابسه بقوة وعنف وهو يردد في غضب:

- أعرف أمثالك.. يا أصحاب اللحى.. لا يليق معكم غير الضرب.. يا ابن الساقطة..

تكفل "المخزني" الآخر بجر العربة، والمقدم يصيح:

- ستأتي الشرطة.. ونرمي بك في السجن.. وسنرى من الظالم يا ولد الأعور..

تشكلت حلقة من الفضوليين، ألم بعضهم ما يقع، ويبدو أنهم تعاطفوا مع شرمولة.. اكتفى الكثيرون بالمشاهدة وهو يتهامسون فيما بينهم، لكنهم انقسموا بين متزلف للسلطة، وبين متعاطف مع شرمولة، الذي ما زال ماضيه وحاضر أسرته يرعب الجميع.. يشيعهم بنظرة عميقة أخيرة، وقد امتلأ صدره حقدا وغضبا ثم يختفي بين أمواج العابرين في الشارع العام..

ينظر إلي صابر ويقول:

- لقد صبوا الزيت على النار.. أغبياء.. إنهم يمهدون ويدللون الطريق نحو التطرف بأفعالهم الطائشة غير المدروسة.. أراك غدا.. سأخرج..

انصرف وهو يهز رأسه.. وفي عينيه حزن وقلق.. أشعر بأن شيئا ما بدأ يتغير في قلب صابر.. "يطبخ" شيء ما على نار هادئة في عقله.. فقد خبت جذوة الفرح من عينيه وأفلت ابتسامته المعهودة وخفتت معها روح الدعابة عنده.. صار كثير الشرود.. تائها .. لم أشأ أن أتدخل في الأمر.. وعولت على الأيام المقبلة لتكشف لي سر هذا القلق والعبوس.

وأنا أهم بالخروج متجها إلى الشقة، تراءى لي شرمولة في زاوية من الحي، كان الضوء خافتا من جراء عطب في بعض الأعمدة، شعرت بدون إرادة بالخوف، ولا أعرف لما استحضرت منيرا في هذه اللحظة، كنت أتقدم في الزقاق في حذر وتوجس وشرمولة ينظر إلي نظرة لم أحدد معناها وقد ستره ظلام خفيف.. تخيلته سينقض علي، فتظاهرت بنسيان شيء وأنا أفتش في محفظتي، وعدت أدراجي إلى المكتب، أشعلت النور، وطفقت أنظر إليه من النافذة، يذرع الزقاق عرضا وطولا..طنت ذبابة أمام وجهي ثم قصدت رموشي، أنش عليها بيدي، فيرفع شرمولة عينيه صوب النافذة، ويلوح لي، ظنا منه إنني لوحت له.. أشعر بالخوف.. مرتابا منه، أتأكد من إغلاق باب المكتب جيدا، أعود أجلس.. تداعب عيني إغفاءة.. أطردها بسيجارة.. أفتش عن قنينة الكونياك بين الملفات، تصل لها يدي، أفرغ منها جرعات في جوفي دون كأس.. أشعر بالدفء.. يتبدد الخوف شيئا فشيئا.. أدلف خارجا.. بلا جزع، يستوقفني شرمولة ويقول:

- السلام عليك أستاذ..

أرد السلام، بيد أنه في جرأة يدنو مني، يتفرس في ويردف:

- متى يعفو عليك الله يا أستاذ..؟ أنت رجل طيب وتستحق كل الخير..

أرد عليه بابتسامة وأضيف:

- أسألك الدعاء لي..

قبل أن أختفي في الزقاق المؤدي إلى شارع مزدحم، يصلني صوت عالٍ من خلفي:

- سي عزيز.. سي عزيز.. ولد العياشي..

استغربت من هذا النداء، فلا أحد يعرف اسم أبي، ولم يسبق لي أن ناداني أحد به، ألتفت، أجد نفسي وجها لوجه أمام ولد الناجي وقد طالت لحيته، تكاد تلامس نحره، وتغيرت ملابسه وصارت أقرب إلى لباس شرمولة، يسلم علي بحرارة ثم يقول مستنكرا في وجوم:

- أعوذ بالله.. أتشرب الخمر؟
- لا.. فقط هذا شراب دواء له عبق خمري.. وأنت ماذا تفعل هنا..؟
- جئت عند أخي.. عبد اللطيف..
- وهل لك أخ هنا؟
- أخي في الإسلام.. يا أستاذ..
- أه.. تقصد شرمولة..
- نعم.. سمعت أن عربته احتجزت فجئت كي أسلمه مساعدة الإخوان.. جزاهم الله.
- أي مساعدة..؟
- نحن البائعين في السوق.. ندعم بعضنا البعض في الأزمات.
- وأنت ماذا تبيع؟
- أبيع النقانق.. و"قضبان" اللحم المشوي.. ومثلهما..
- هل لك محل؟

- لا عندي عربة..
- وأين تسكن الآن..؟
- اشتريت "زريبة" في كريان أهل الغلام..
- تقصد براكة..
- نعم.. المهم.. أن يعيش الإنسان بالحلال..

هممت أن أدعوه لزيارة الشقة، فتراجعت وأنا أستحضر صورة زينة وزبيدة، وحالة الأدراج، نظر إلي نظرة عميقة، ثم قال:

- سأراك فيما بعد.. سأزورك في المكتب.. نسيت أن أسألك عن حال أبيك.. هل شفي..؟
- وهل هو مريض؟
- نعم.. جاءتني الأخبار من الدوار.. زره.. صلة الرحم لن أوصيك بها يا متعلم..

انضم إليه شرمولة في الزقاق.. ثم انخرطا في حديث خافت وهما ينظران حواليهما، بعد لحظات توقفت سيارة، استقلاها ثم انطلقت بعيدا.

في الغد عدت والدي المريض بدوار الحرث، كان طريح الفراش.. متعبا.. لكن ما به من داء جسدي واضح، قالت أمي إن الطبيب نصحه فقط بالراحة.. لم يعد قادرا على الصلاة بالناس بالمسجد هذا ما حسبت في البداية، لكنه قال لي ذات ليلة في كمد:

- عن أي مسجد تتحدث يا ولدي..؟ المسجد مكان كباقي الأماكن بدون مصلين..

استغربت وقلت له:

- وهل بلغ بأهل دوار الحرث الأمر لحد أن ينقطعوا عن الصلاة؟

- لا يا بني.. لقد مالت قلوبهم إلى مسجد آخر.. فيه شاب له صوت ندي.. يأسر القلوب بحسن تلاوته.. ولكن ليس هذا هو الذي حز في قلبي.. الذي ألمني هو هذا التغير في الدوار وقرية أولاد الصياد.. يظنون أن الدين هو إطلاق اللحى.. وتلك الملابس الغريبة.. الكل أصبح يريد أن ينهى عن المنكر والأمر بالمعروف.. حتى اختلطت على الناس الأمور.. وبعض الشباب اعتزل الناس في مساجد خاصة.. يا ولدي الأمة تتفرق.. الأمة في خطر.

وقالت أمي وهي تعجن العجين:

- وبعض نساء الدوار التحفن العباءات الطويلة، بل منهن من غطت نفسها تماما..

يرد عليها أبي في ألم وهو يئن:

- يا عائشة.. لا ضرر في ذلك.. لكن الضرر أن يعتبروا من يخالفهم في اللباس والحياة خارجا عن الملة.. الأمة الإسلامية لم تخل مجتمعاتها من هذا اللباس منذ القدم.. لكنه لم يؤثر على الحياة وظل الناس في لحمة وانسجام..

كما تغيرت بعض الوجوه والقلوب بالدار البيضاء، وصلت الرياح نفسها إلى البادية، فها هو دوار الحرث غير مسجده وإمامه، وتغيرت أشكال اللباس عند الرجال والنساء.. شيء ما يحصل في هذا البلد في

غفلة منا.. أهي رحمة من الله.. أم أن أبواب الجحيم تسعر باسم الدين؟

عاد يعقوب والدي وكان متعبا وعليلا كأنه على عتبة الموت، وخاض معه في الحديث.. ما ثارا لحال أبي:

- أرأيت.. يا سي العياشي..؟ فرغ مسجدك.. والدوار تقلصت خيامه.. وبدأ الناس ينزحون بعيدا..

يسوي والدي جلسته في ألم على الفراش، تسبقه يدا أمي فتضع له الوسادة بين ظهره والجدار ويقول في إنهاك:

- يا يعقوب هذه سنة الحياة.

يرد عليه يعقوب متذمرا:

- ما جئت للدوار كي أعيش وحدي.. ما فائدة الجاه والمال إن كنت منعزلا عن الناس.. أنا لم أشتر كل الأراضي من أجل الغنى فقط.. كنت أبحث لي عن أرض أنتمي إليها.. عن أناس يعترفون بي.. والآن.. لم تعد هناك من فائدة..

- تلك سنة الله في أرضه.. يهب الملك لمن يشاء..

- حتى ولد فاطنة.. رحل.. الكل يرحل إلى المدينة.. لن أجد غدا من يعمل في الحقول.. أنظر إلى زيتون ولد الناجي.. احترق.. لم يسقه أحد منذ رحل..

لأول مرة تعشى يعقوب من مائدة أبي ومن الطعام الذي أعدته أمي وهو يقول:

- لي.. ليها.. ليها.. كم سنعيش؟

هدأ البيت إلا من قراءة خافتة للقرآن تنبعث من حجرة أبي، ومرت ساعات حثيثة تقلب المواجع وتنبش في الذكريات، تلمست طريقي في الظلام نحو الخارج لأدخن سيجارة، أفطن إلى غمامات دخان كثيف متصاعد من الربوة حيث البيت الكبير ليعقوب.. بعد لحظة، ارتفعت ألسنة النار وارتفع معها الصراخ والصياح في الدوار:

- بيت ولد قدور يحترق.. بيت ولد قدور يحترق..

كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحا، هرع في فزع وجلبة شقت صمت الليل البهيم .. فهرعت معهم في خوف وهلع، كان الحريق قويا وشديدا وألسنة اللهب الحارق الطائشة العالية تلتهم في شهية جزءا كبيرا من واجهة البيت وعلا لهبها بدخانه الأسود الخانق حتى حال دون اقتراب الحشود العاجزة من بوابة البيت الكبير الممتد الأطراف.. فطالت المخازن والإسطبلات والحظائر والدكاكين المجاورة حيث يروج يعقوب سلعته وبذوره وأدويته البيطرية، لم يستطع الرجال الدخول، وحتى مصادر المياه كانت بعيدة، والبئر الوحيدة القريبة لولد قدور قد أحكم إغلاقها وأحاطها بها بابا صلبا من الفولاذ ولا يتدفق الماء منها إلا بمضخة أزرارها في غرفة داخلية موصدة بشدة، فقط.. ظلوا واقفين في عجز يعصر قلوبهم تلحف وجوههم سياط الحر التي تحملها الرياح، من بين الناس شق صوت أبي الصفوف وهو يصرخ متعبا:

- أتتفرجون على الرجل يموت..؟ كسروا الأبواب وادخلوا.. أسرعوا..

كبا أبي وسقط.. حتى جرح مرفقه.. أسندته للوقوف.. وقلت له:

- يا أبي مستحيل الدخول.. النار التهمت الأبواب.. وباقي الأبواب موصده بإحكام ولا تفتح إلا بالشفرات..

وانتظر الناس هنا.. منهم العاجز الخائف.. ومنهم المتردد الجبان.. ومنهم من رأى في النار المشتعلة يد الله التي تنتقم للمظلومين من العتاة والظالمين..

أطفأ رجال المطافئ النار التي أتت على كل شيء في هذا البيت الكبير وملحقاته وباقي الأجنحة فيه وتوابعه من البنيان.. وعند الفجر لم يرتفع الآذان عاليا في سماء الدوار كالعادة.. فقد رحل المؤذن كما رحل الآخرون.. كانت حصيلة هذا الحريق الجحيم مفجعة ومؤلمة.. احترق يعقوب وزوجته وخادمته وحارسه القوي حتى تفحمت جثثهم.. ولم ينج غير كلبه النادر النوع الذي بدا بين أطلال البيت القديم في أعلى الربوة يعوي كذئب مفترس..

أصبح الناس على غم وهم.. ووقفوا على الدمار الكبير الذي خلفه الحريق، فتوزعوا بين متألم ناطق في غم وشامت في صمت ناقم في جبن، وفيما هم منهمكون في محاولة فهم ما جرى، ارتفع الصياح وعلت الجلبة جهة المسجد، فركض الرجال والنساء الأطفال وتباطأ الشيوخ لكنهم لحقوا بالجموع، والكل يخال والأيادي على القلوب أن المسجد طاله حريق وإن لم يروا دخانا ولا لهبا، لكن ما شاهدوه لم يستوعبه في البداية إلا قلة منهم.. فانتشرت الهمهمات والتمتمات والأصوات المكبوتة بالأمس تحررت بيد الحريق فتعالت:

- ما هذا؟ كنا مرتاحين في أمن وأمان في بلدتنا قبل أن يأتي يعقوب.. ما عهدنا هذا عند الأولين ولا الآخرين..

وصوت آخر أجش لكنه قويا ومفحما بنبرته العميقة، من بين الحشود يرتفع:

- ما لنا وأفعال يعقوب..؟ فليتركوا مسجدنا بعيدا عن الأحقاد والانتقام..

وصوت مستدرك آخر على الصوت الأجش القوي في حسرة ظاهرة:

- وهل بقي لنا مسجد؟ لم يرتفع الآذان هذا الفجر.. والمؤذن رحل.. وسي العياشي مريض، وأنتم صرتم تصلون في جامع أولاد الصياد.. معجبين بالصوت الجميل للشاب الإمام.. عجبا.. منكم.. كأن الصلاة طربا ومتعة للأذن لا القلب..

يسود الصمت.. ويهيمن الخوف والترقب والقلق على القلوب والعيون.. ظهر أبي أخيرا في حثيث وخطو وئيد وضعف بين يدنو من باب المسجد، ألمح في عينيه الحزن الطاغي وبرق بريق خوف لم ألمسه في نظراته أبدا، قال وهو يوشك أن يخر وقد وهنت ساقاه:

- اسندني يا عزيز.. أشعر بالدوار.. الأرض تدور حولي..

أسنده، ثم أساعده على الجلوس،تثب أمي نحوه في ذعر:

- مالك سي العياشي..؟. بسم الله عليك.. قلت لك لا تخرج.. مازلت ضعيفا..

يضع أبي رأسه بين يديه، ثم تبرق الدموع في زاويتي عينيه متحجرة كالزجاج وإن لم تصل درجة الانهمار:

- ضعنا.. يا عائشة.. ضعنا.. والله ضعنا يا ناس..

لم تدر أمي ماذا وقع، تدنو مني وتقول لي متسائلة:

- هل أحرقوا المسجد؟

- لا يا أمي.. ولكنهم تركوا رسالة..

تنظر إلي في اضطراب، وتقول:

- أين الرسالة؟ هل عند أبيك؟

أشير لها نحو المسجد، ثم أقرأ لها ما كتب على الواجهة بخط كبير وبلون أسود" كما أحرقنا الخائن ابن الخائن وبطانة السوء.. سنرمي باقي الخونة في الجحيم.. الله أكبر"

بعدما استوعبت أمي أن الأمر تهديد، وأن يعقوب وأسرته احترقوا بأياد خفية وأن الاحتراق جريمة مدبرة، وأن من فعلوا ذلك يكنون ليعقوب الضغينة وحده.. بل هددوا آخرين.. تقول وهي تهدئ أبي:

- الأمر لا يعينك سي العياشي.. أنت لست خائنا.. قم .. قم.. وسم الله.. وصل على الحبيب، لنعد إلى البيت..

ولأول مرة، أرى الغضب في عيني أمي.. لا الخوف.. فتنهرني وهي تصيح:

- ماذا تنتظر.. اسند أباك.. لنعد إلى البيت..

يتكئ أبي على كتفي، وهو يقول بصوت متعب خافت:

- لست خائفا على نفسي.. أنا خائف عليكم.. عليكم.. والله.. عليكم من هذا الحقد الذي قد يحرق الأخضر واليابس.. من الآتي..

أما أهل الدوار. فقد أدانوا ولد الناجي بلا محاكمة، وأجمعوا جمع القضاة على أنه هو الفاعل لا محالة.. لكنهم سكتوا والتزموا الصمت.. وكتموا الأمر.. ولا أعرف هل خوفا أم تضامنا..

التحقيق الأمني صوب بوصلته نحو ولد الناجي.. فالسلطة ليست في حاجة إلى أن تسمع ما في عقول هؤلاء الناس وهي بينهم في سر دوما، تتشكل وجوها متعددة ولا أحد يدري.

حزن الوالد حزنا شديدا حتى أقعده الحزن ونكسه استرجع قواه، فقمع فيه شهية الطعام والشراب وعجز ضعفا عن أداء الصلاة التي غدا يؤديها قعودا.. لم تمر حادثة إحراق يعقوب مر السحاب في الصيف، بل أثرت فيه حتى أبكته بكاء شديدا، فرغم قسوة وظلم ولد قدور لم يكن يتصور أن الانتقام منه قد يكون بشعا وهمجيا بهذا الشكل، كما حزن على فراق ولد الناجي، الذي صار مطاردا وانقطعت أخباره وأخبار أسرته كنت أظن أبي يبرئ ولد الناجي الذي أكد دائما على طيبوبته رغم حدة طبعه وحمية نفسه، لكنه أسر لي ولأمي بعدما جلس بمشقة على فراشه، بخبر صادم، قال في قلق وأنفاسه في تعب تسمع لها حشرجة في الصدر كأنه يتنفس من خرم إبرة:

- يا عزيز.. من الآن لن أناديك إلا بعبد العزيز.. تبركا بخامس الخلفاء الراشدين.. الخليفة العادل.. حفيد عمر بن الخطاب من جهة أمه.. ومن جهة أخرى فالعزيز هو الله ولن تكون مهما ارتفعت وسموت إلا عبدا من عباده.. فأنت عبد العزيز.. أما ولد الناجي.. فقد فطر قلبي برحليه، وكان يؤنس وحدتي في المسجد الذي فرغ.. وكنت أجد فيه وفي أخلاقه رجل المشورة الصادق.. وما خفت منه وقع.. نعم.. فعلت فيه تلك الصفعة فعلها القوي..

- عن أي صفعة تتحدث يا أبي؟

- قبل رحيله بيوم.. كان وابنتاه وزوجته بالسوق الأسبوعي.. ولا أعرف ما الذي وقع بالضبط في السوق، جعل رجال الدرك يغضبون منه.. فعنفوه ومرغوا كرامته في التراب سبا وشتما، ولم يكتفوا بذلك بل صفدوه وجالوا به بين أرجاء السوق كلص متلبس، وحينما انتفض غاضبا صفعه أحدهم بقوة على الملأ.. خبرت ذلك من عائلة زوجته، فقد أكد صهره، أنه بكى الليل كله، وأقسم على الانتقام.. حتما تلك الصفعة غيرته إلى الأبد.. فلم يعد له مكان هنا وبين الناس وقد شاهد الكل كبرياءه ينهار على دوي الصفعة السافحة لعزة نفسه وكرامته..

31

صدق حدس أبي فقد غيرت تلك الصفعة على الوجه ولد الناجي روحه وكيانه ومصيره وقدره، وجاء بالخبر اليقين الحمري ذات زوال من أيام شهر أبريل.. وهو بمكتبي كالعادة في خفة يقول:

- عندي لك خبر طري.. أستاذ..
- ماذا هل عاد شرمولة إلى الحي..؟
- في الحلم.. شرمولة.. في أفغانستان.. التحق بطالبان..
- يا أحمق من أين أتيت بهذا الخبر..؟
- مقدم الحي.. قال إن الشرطة استنطقت أباه الأعور.. ولم يفدهم بشيء.. ثم أخبروه بعد أيام أنه التحق بأفغانستان.. وصديقه "مول الصوصيط"

أيكون هو إبراهيم ولد الناجي؟ من صديقه الذي يبيع النقانق غير إبراهيم ولد الناجي، وقد رأيته معه تلك الليلة ..

- أتعرف اسم بائع الصوصيط؟
- إبراهيم.. صاحب عربة شواء النقانق.. الذي كان أمام سينما الأمل.. الدكالي.. ابن المقاوم ولد الناجي..

صدقت يا أبي.. تلك الصفعة خلخلت كيانه فأختار مصيرا آخر..

تغير ولد الناجي وشرمولة ولطيفة، وتغيرت العقول والأفكار في أماكن أخرى، وجاءت الأخبار بشارة وبردا وسلاما على زينة، أخبار أبردت غضبها، ونفست حقدها، فوجدت السلام الروحي الذي كانت تنشده.. تمرد أهل بلدة آيت عساف على سليمان جبار وأعوانه..

أرادت زينة أن تكون جزءا من التمرد.. فاعلة فيه لا متفرجة، فطوينا الطريق طيا بالسيارة إلى هناك..

هذه هي قرية آيت عساف، قرية غارقة في اليأس والفقر والبطالة، تتوزع فيها بين الدروب دور معروفة للدعارة، وتجار للخمور.. لا يخجل القوادون من الرجال في اعتراض طريقه لاستدراجك إلى بيت دعارة مقدما لك الأسعار والمواصفات، كل مخادع الهاتف العمومية، بها يافطات كتب عليها "لا نظر رقم الاتصال" علمت فيما بعد أن فتيات الجنس اللواتي يأتين إلى هنا، يوهمن عوائلهم أنهم في منطقة أخرى ويمتهنون أعمالا شريفة، ومن شأن ظهور رقم المنطقة المعروفة باقتصاد الجنس أن يفضحهم.

ظهر جيل جديد من الشباب لم يحسب له حساب، فجيشوا الصدور والقلوب، وحشدوا الناس لمعركة ضد الفساد، وأقسموا ألا يعودوا إلى بيوتهم حتى يسقط سليمان جبار..فبدأت معركتهم سلمية، وحولهم قلة من الناس في البداية، نظموا وقفات أمام دار الجماعة، فتم فضها بالقوة، وحوكم منهم الكثيرون، لكن من ظل خارج الأسوار حشد الناس.. فالتحق الشباب والشيوخ والرجال والنساء والأطفال فشلت الحياة الاقتصادية بالمنطقة، وتعطلت الدراسة، وتوقف الناس عن العمل، وعجت الساحات بالمتظاهرين.. وفتح حلقات النقاش والتوعية.. في مسيرة حاشدة انخرطت فيها بدون وعي فاستحضرت أحداث يونيو 1981 وعذابي القديم، وقررت اليوم وأد هاجسي، وطي صفحة الألم القديم، وساعدني في ذلك موج الحشود، سكينة القلب وسط الجموع، تبدد التردد بمشهد المرأة والعجزة والشيوخ والأطفال

يشمون في المسرات مشرعي الصدور.. كم كنت جبانا.. لن أسمح لهاجسي بعد اليوم أن يحولني مجرد تابع.. كائن بلا موقف ولا فكر ولا رأي..

تحركوا كالبحر الهائج نحو دار الجماعة، فغسلت بعرقهم وماء حماسهم ما علق في صدري من وجع المعتقل.. وما بقي في عقلي من خوف العواقب وسوء المآل.. حاصروا سليمان في مكتبه وأنا وزينة بينهم.. أنظر في عيون رجال الأمن المدججين بالهراوات والدروع والخوذات بلا خوف وريبة.. إن كانوا يريدون كسر العظام.. فهذا جسدي قربانا للحرية.. للكرامة.. تبدد في قلبي في فرح هاجسي.. خوفي.. يا رب! أبي يقول لا نموت إلا مرة واحدة.. فلن أخشى من الموت بعد الآن..؟

لا صوت يعلو غير الصوت المرعب الذي رددته الحشود المتدفقة كالبحر الهائج الذي دوي مزلزلا ومخيفا "لا.. للفساد.. يسقط جبار.. لا للعار.. لا للظلم.."

ولم تنتظر زينة نهاية الأحداث.. فالتحقت مناضلة شرسة بركب التغيير.. قائدة مفوهة بين الحشود، ولمَ لا وقضيتها قديمة.. جديدة.. أسمعها من سطح مقهى مطل على الساحة حيث الحشد تدفق وتدفق وتراقص كالموج العاتي.. تعري الفساد.. تفضح الظلم في مهده وتعدده.. تكشف ببراعة متعددة فتشخص سرطان الشبكة.. واحدا.. واحدا.. وباتت مع من بات في العراء.. والعجب أن سليمان فقد أهم وأشرس أتباعه المومسات اللواتي كن يحسمن معارك نصرة له بالعنف والضرب المبرح والفضائح.. أقنعتهن زينة ولا حجة لها عليها غير

مأساتها وحياتها.. فاقتنعن وبشرتهن بغد أفضل كريم بلا استعباد.. وفي حمية اللحظة شعرن أنهن جزء من هذا الطوفان، جزء من هذا الزمن الفارق.. صوت واحد.. مطلب واحد.. "نريد تحرير البلدة من الطغيان.." فصرن ضمن الحلم.. يتنفسن هواء الحرية والعزة والكرامة..

قاوم سليمان جبار، فخرج صديقه الإمام عبد العزيز.. يفتي بين الحشود ويحذر من الفتنة، لكن الجماهير الغاضبة لفظته كعملة مزيفة..

طوقت تشكيلات الأمن الحشود، ووقعت مواجهات دموية.. وإصابات بين الطرفين، وليسوا غير إخوة في الوطن والهم والمحن.. لم يثبط عزيمة الجموع المتحمسة رشق بالقنابل المسيلة للدموع ولا الهراوات التي قضمت الظهور.. بل استمرت المسيرات والاعتصامات.. فلان موقف السلطة، فسحبت القوات وخففت التواجد الأمني، وأعلنت إقالة سليمان جبارمن مسؤولياته النيابية، ومن منصب رئيس الجماعة.. لكن سقف المطالب علا بعلو الآمال والطموح، تخلي السلطة عن سليمان أقل ما يمكن فعله.. القرية المظلومة في كرامتها وأرضها، تريد المحاسبة واسترجاع الحقوق.. أغلقت دور الدعارة

تم إلغاء عقود استغلال المناجم.. طردت شركة المياه المعدنية وعادت العيون للناس.. وفتحت ملفات الفساد.. وبدأت المحاكمات.. فعاد الهدوء وتنفس الناس في الصباح الموالي هواء الحرية والكرامة.

زج بسليمان في السجن.. وكشفت ملفاته الإجرامية.. والدعارة والقمار.. والاغتناء غير المشروع.. هو الآن يقبع في السجن.. وقد صودرت أملاكه.. أما "الساروت" الضابط المتقاعد فقد اختفى فجأة، وقيل هرب للخارج..

وحده ما زال يتردد على البلدة، الحاج عبد السلام، يخطب في الناس ويفتي، ولا أعرف كيف تسلل إلى العهد الجديد ووجد له موطئ قدم في المرحلة.. لم تعد أبدا زينة.. قررت مصيرا آخر بعدما شفيت من ألامها.. وعادت للأرض تزرعها والأشجار تسقيها، وكل صباح تزور قبر والديها، وتقرأ الفاتحة على روحيهما..

أغلقت دور الدعارة، وتشددت السلطة في المراقبة، ولم تعد المومسات يجدن الحرية المعهودة في استقطاب الزبناء الباحثين عن الجنس، وثم تشديد الرقابة على تجارة الخمور.. فركد اقتصاد البلدة، اشتكى الجزارون والخضارون وأرباب النقل العمومي ومالكو المقاهي والفنادق الرخيصة من الأزمة، فقد قل الرواج ولم تعد البلدة مقصد الباحثين عن الجنس من كل صوب وحدب الذين ينشطون التجارة والبيع والشراء والحركة، وبلغ بالناس اليأس حتى حنوا لعهد سليمان جبار.. لكن الجيل الجديد من الشباب ظل مقنعا يردد ويفحم "من أجل الكرامة نجوع.. ومن أجل الحرية والكبرياء لا يهم أن نعيش أزمة عابرة، علينا أن ننخرط من الآن في بناء اقتصاد حقيقي.. منتج لا أساسه الريع والعطاء والدعارة والفساد.."

ورغم ذلك مازال من يحن لعهد سليمان جبار، وما زال من يذكر عهده في حنين وحسرة..

تغيرت علاقتي بزميلي صابر.. يبدو أن حواري معه يوم أراد أن يفتي في الفضيلة مسه في مقتل، أشعر به محرجا، لم يعد عفويا في حديثه، وسكت عن محاضراته سكوت الخائب والخائف، في حانة الطاحونة الحمراء، لم يعد فارس الخطابة وحوله الفتيات والساقيات

منبهرات مشدوهات. كان يقاسمني أحيانا بعض الكؤوس ويغرق في تفكير عميق.. شيء ما في طريقه إلى التحول في داخله..

ازداد عزلة ووجوما بعدما وصله خبر انتحار اسماء.. نعم انتحرت أسماء بعدما فقدت الحلم والعالم الذي حلمت به.. هزه الأمر حتى كاد يقتله..انقطع عن العمل.. ورحل.. فقط خرج ولم يعد.. وجاءت الأخبار من زاوية "البودشيشيين" بقرية "مداغ".. لم يجد صابر من طريقة للهروب من الألم والخيبة والندم السافح للسكينة سوى التصوف.. لزم الزاوية.. مؤمنا يغسل جسده وروحه.. وأنا في المكتب أتابع أخباره وقد غدا مريدا.. مطيعا.. هادئا.. ذاكرا في عشق وجداني محبا لأهل الله..

عاد ذات يوم، لم يتغير فيه شيء في مظهره، ظل حليقا في بدلته العصرية، لكنه منشرح الصدر، باشا..كأنه غسل روحه بفيض نور.. فلزم المسجد.. لا تفوته صلاة.. ولا أدري أي قوة هذه ساعدته على غسل صدره من الندم العميق.. ومن الإحساس بالذنب.. داس على السجائر كما قضى على الرغبة في الكأس بكأس يسميها كأس النور الرباني التي تسكر.. ويقول في انشراح "خمرة التصوف.. من ذاقها لن يشرب خمرة غيرها..". والحقيقة أني لم أكن أفهمه لكن زال احتقاري وغضبي منه وقد ظل على طبعه مرحا دون تشدد محبا للكل خدوما.. وتخلص من الشح.. وفارق إلى الأبد شهوة المال والطمع.. فاكتفي بعمله دون غيره من الأشغال..

وزارتنا فجأة لطيفة.. لم تسلم كالعادة.. فقال لي صابر أمامها:

- الأخت لطيفة لها الفضل بعد الله في توبتي..

قلت في استغراب:

- كيف.. وهي كانت مختفية عن العيون..

يبتسم ويقول:

- لم تختف.. بل فقط.. لم تعد ترغب في رؤيتي.. إلا أن زارتني في البيت.. فوجدتني على شفة الانتحار أو الموت كمدا.. فأخذتني إلى الشيخ.. إلى الزاوية..

تنظر إلي نظرة فيها عزاء ورحمة:

- وأنت.. ألن تنظم إلى رجال الله.. وتنتهي من العبث؟

- تمهلي علي.. لكل زمنه..

تبتسم، وهي منصرفة مرددة دون أن تلتفت وصابر يشيعها في حبور وسكينة عكستهما تقاسيم وجهه الذي صفا صفوا جميلا "لكل زمنه.. طبعا.. لكل زمنه.. ولكل زمن رجاله.. ونساؤه"

نبذة عن المؤلف....

الأديب خالد أخازي مغربي الجنسية، متعدد الأجناس اهتماما وكتابة، ولد بمدينة الدار البيضاء.. وأمضى ردحا من طفولته وشبابه بمدينة المحمدية التي يعود لها الفضل في تكوينه وتفتق موهبته وصقلها.. كاتب وشاعر ومسرحي وناقد جمالي.. له عدة نصوص مسرحية مازالت تعرض في عدة مسارح وقاعات فنية.. أهم إنجازاته المسرحية والتي عرفت طريقها إلى الخشبة:

- الحصلة.. باشتراك مع محمد النادودي.
- تراجيديا نيروس.
- الجنازة الأخيرة باشتراك مع الكاتب التيجاني حسي.
- دالية الهم.

وله عدة نصوص سردية نشرت في الصحف.

- ساقية المشرب
- جنون في اتجاهين
- الخطأ القديم

اشتغل بالصحافة مهنيا في عدة منابر وصحف وطنية، فكان رئيس التحرير لأسبوعية الرقيب، ونائب رئيس التحرير لأسبوعية الأنباء، وصحفيا مهنيا بأسبوعية الاشتراكي الموحد.. كما مارس

الصحافة الإلكترونية مهنيا بكل من موقع إيناس والموقع الإخباري تلكس بريس.

يعمل حاليا إلى جانب مهمته التربوية على رأس مدارس الفجر، صحفيا متعاونا بجريدة كواليس الإلكترونية.

متزوج وأب لأربعة أطفال، خريج كلية الآداب أبي شعيب الدكالي بالجديدة، حاصل على دبلوم أساتذة التعليم الابتدائي.